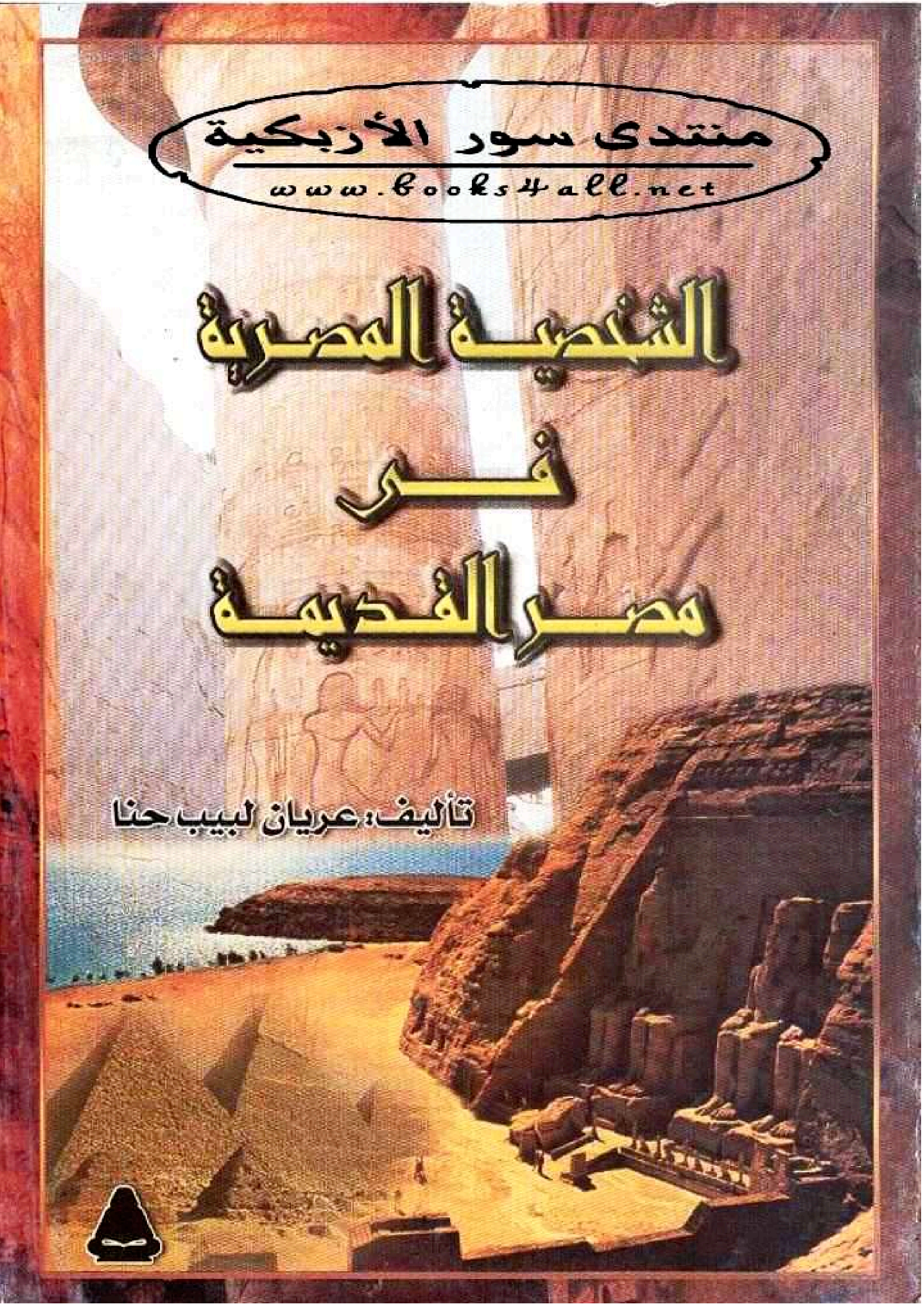

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net
الشخصية المصرية
في
مصر القديمة
تأليف: عريان لبيب حنا



الشخصية المصرية
في مصر القديمة

تأليف: عريان لبيب حنا



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٣

الاخـــراج الفنى :

عـمر حمـــاد عــلى

الاهـــداء

الى من وهب نفسه للعطاء ٠٠ الى الذى حول البذور الميتة ، والتربة المتعطشة للماء الى زرع أخضر ، وتربة غنية خصبة يرويها بانتظام ويرعاها ولا يتوانى عن تنقيتها من الشوائب ٠٠ الى الذى عشق أرض مصر ذات التربة الطينية الغنية والتى أمدت ولازالت تمد الناس بالغذاء ٠٠ الى الذى تحمل ضيم المحتلين الغاصبين على مر عصور الاحتلال ٠٠ وعانى وتحمل من أجل المحافظة على الأرض الطيبة ٠٠ حافظ عليها من أجلنا نحن أحفاد الفراعنة العظام ٠٠ الى الذى أدرك بحكمته التى اكتسبها من معرفته بحقائق الحياة وهى أن اللصوص الذين ربضـوا على أنفاس أصـحاب البلاد ، لابد وأنهم راحلون ان آجلا أو عاجلا ٠٠ الى الذى عمل ولايزال يعمـل مثل النحلة التى لا تمل ولا تكل والتى تقـدم ثمرة كدها للجميع ألا وهو العسل الترياق ، وترقص فرحة عندما تجد الرحيق لتقوم بتحويله الى غذاء وشراب حلو ٠

الى الرجل العظيم ـ الفلاح ـ الذى حافظ لنا على أرضـــنا لكى نستظل بها ٠٠ والذى حافظ على أخلاق القرية التى هى نبراسا نهتدى به دائما وأبدا ٠٠ الى الذى يملأ وجدانه « التدين » الراسخ والثابت ٠٠ الى محب الخير ومحب الرباط المقدس الذى يؤكد معنى الأسرة المنحابة التى تعطى الدفء العاطفى للأبناء ٠٠ الى الذى يفتح فمه بالشكر لله عز وجل ٠٠ منذ أن يفتح عينيه فى الصباح والى أن يأوى الى فراشه ٠٠ الى هذا العملاق الذى يحمل على ظهره تراث الأجـداد ٠٠ والى كل من يسلك نفس سلوك الفلاح العظيم فى زيادة ثروة البلاد وفى تقديم الخير للجميع .. أقدم هذا الكتاب .

المقـــدمة

ان البحث عن الشخصية المصرية فى التاريخ والآثار القديمة لا يعنى دراسة التسلسل التاريخى للأحداث فى مصر القديمة بل يعنى الاهتمام بدراسة الانسان المصرى فى المحيط الاجتماعى المحيط به بما فيه من فكر وثقافة وظروف اقتصادية وسياسية ، وعلاقات بين الأفراد سواء داخل الأسرة الصغيرة أو الكبيرة ، وفى نطاق العمل ونطاق التعامل مع الآخرين مثل الجيران والادارة والموظفين وغير ذلك · وسينصب اهتمـــامى على الأحداث اليومية والحيـــاة الاجتماعية بقدر ما نستشف ذلك من حياة الأقدمين التى صوروها على جدران مقابرهم وما تركوه من كتابات على أوراق البردى تخص تعاملاتهم وكتاباتهم الأدبية والدينية · فان الحياة اليومية ـ والاجتماعية والاقتصادية والدينية والســـياسية ـ لها أثرها المباشر على المصرى القديم وسنستخلص من دراسة حياته **السمات القومية** المشـــتركة ·

ورغم وجود صعوبات كبيرة فى دراسة عصر ما قبل الكتابة فان ما تركه الأقدمون من آثار وأوانى ومخلفات فى الحضارات الأولى أى حضارات « ديرتاسا والبدارى ونقادة » و « مرمدة بنى سلامه » فى الدلتا و « المعادى » و « جرزه » و « طرة » يرشدنا الى بعض العقائد والمفاهيم · فمثلا وجود الأوانى التى تحتوى على الطعام والشراب فضلا عن الأدوات والأسلحة البدائية التى كانت توجد مع الموتى فى مقابرهم ووجودها المكثف تقدم دليلا واضحا على الاعتقاد بضرورتها للموتى ، وذلك يدل على أن اعتقادا باستمرار الحياة بعد الموت قد هيمن على هذه الثقافات · وتتبعنا لبقايا الحقب المتتالية سيعرفنا كيف انصهرت العوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعقائدية فى بوتقة واحدة وجعلت المصرى يتعاون مع جيرانه المحيطين به لكى يخضعوا النهر العاتى ويستفيدوا من مائة بشق الترع والقنوات ويأمنـوا خطره ببناء الجسور ويزرعوا الوادى ثم يتوسعوا فى زراعة مساحات أخرى لتغطى احتياجاتهم من الغذاء ·

وعملية التنظيم والتعاون هما تطبيق لمعنى الادارة لشئونهم ، وليس هذا فقط فى مجال الزراعة ـ انتاج الطعام بدلا من التجول والبحث عنه ـ

بل قامت الصناعات المساعدة وتلا ذلك التجارة وتبادل السلع وتبادل الخدمات . وقبل هذا كله ، كان هنـــاك فترة الدفاع عن النفس ضد الحيوانات البرية وضد الأخطار الأخرى وضد الأعداء من بنى البشر . اذن كانت هناك الحاجة للدفاع عن النفس بصنع الأسلحة وبالتعاون ، وذلك من أجل المحافظة على الحياة . وكانت الحاجة الى ضمان المأكل والمشرب والمسكن هى التى دفعت الانسان الى التعاون مع من حوله فى نطاق الأسرة الصغيرة أو الأسرة الكبيرة أو الكفر أو القرية أو المدينة . ثم كانت الحاجات النفسية التى دفعت الانسان الأول لعمل علاقات مع الآخرين فلكى يشبع الحاجات النفسية فلابد أن يحب ويكتسب حب الآخرين ثم يسعى الى احترام الآخرين وكسب احترامهم ثم يتلو ذلك الحاجة الى معرفة الكون الذى يعيش فيه والحاجة الى معرفة القوى الطبيعية واستكشاف المجهول وهذا يعنى التفكير فى الميتافيزيقيا وكان هنـــاك السؤالين الملحين . وهما « من أين أتينا » ؟ والى أين نذهب بعد الموت ؟

هناك حقيقة الموت ويرتبط بهذه الحقيقة السؤال الفلســـفى أو الدينى : هل هناك حياة أخرى ؟ أم تنتهى الحياة مع توقف القلب وفقدان الوعى ؟ اننى أتخيل أجدادنا عندما تعرضوا لهذه المواقف ، فقطعا أعملوا الفكر وخرجوا بأساطيرهم فى محاولة منهم لتفسير أشياء يحسونها ولكنها لا تخضع للمقاييس المادية وقد لا تخضع للمنطق أيضا .

لماذا ندرس تاريخنا ؟

ان لسان حالنا ـ نحن المصريون المعاصرون ـ يقول بأننا نملك أن نفكر فى مستقبلنا ونقيم حاضرنا . لأننا نعيش حاضرنا ونتجه نحو المستقبل الذى نأمل أن يكون مشرقا ، ولكن الماضى جزء من كياننا وهو الامتداد الطبيعى للجذور القديمة التى استمرت منبته عبر العصور وحتى وقتنا الحاضر . ولكننا لا نملك تغييره ، وما نملكه هو محاولة تفسيره ودراسته وأخذ العبر والحكمة منه ، بل ونسترشد به . وقد تتغير وجهه نظرنا نحو موقف قديم ، ولكن ما تم قد تم . المهـم هو أن ننير لأولادنا الطريق للمستقبل ، **ونعلمهم تاريخهم** بكل ما فيه من حلو ومر .. ولكن المحصلة العامة هو أن الصفحات المشرقة تملأ تاريخنا الطويل منذ بناة الأهرام ومؤسسوا الادارة وواضعى القوانين التى تحدد الطريق للتعامل بين الناس ، وعرفوا معنى الحقوق والواجبات وأن العدالة هى نور الهداية فى أى مجتمع متحضر . وقد أورثنا أجدادنا الحكمة التى يعترف بها المؤرخون والدارسون لتاريخنا .

واذا كان « حافظ ابراهيم » يعتز بمصريته وعبر عن هذا الاعتزاز بقصيدته :

« وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد وحدى

وبناة الأهرام فى سالف الدهر كفونى الكلام عند التحدى »

فان الأجانب أشادوا بأعمال أجدادنا · « فهيرودوت » قال فى القرن الخامس قبل الميلاد : « ولكنى سأستهل حديثى عن مصر مسهبا لأنها تشتمل على روائع أكثر من سائر العالم · وترينا آثار تفوق الوصف بالنسبة لسائر البلاد » (١) ·

وقال « ديدور الصقلى » فى القرن الأول قبل الميلاد : « فكثير من العادات التى نشأت فى مصر لم تنل تأييد أهل البلاد فحسب ، بل حظيت باعجاب اليونانيين الشديد · ولهذا كان أعظم من امتازوا بالتفوق الذهنى شديدو الحرص على زيارة مصر ليتعلموا قوانينها ونظمها التى رأوها جديرة بالدرس ·· وقد اقتبس « ليكرجى » و « أفلاطون » و « صولون » كثيرا من السنن المصرية فى شرائعهم » (١) ·

وقال « أميانوس ماركيلينوس » فى القرن الرابع الميلادى : « وقد استعان « صولون » أيضا بآراء كهنة مصر فاستن القوانين وفق شريعة الحق وبذلك هيأ للقانون الرومانى أيضا أعظم دعائمه » (١) ·· أليس هذا فخرا لنا بأن أجدادنا كانوا أساتذة العالم فى علم القانون ، وقد أخذ الآخرون عنا ؟

ونجد الأستاذ « زكى عبد المتعال » أستاذ تاريخ النظم يختار فقرة مما كتبه أحد الحكماء ابان الثورة الاجتماعية التى قامت فى مصر عقب الدولة القديمة : « دار العدالة قد خربت ·· وسلبت وثائق الملكية · ومجموعات القوانين طرحت بالميدان العمومى لتطأها الأقدام » (٢) واستنتج منها بأنها دليل على وجود مجموعات القوانين والمدونات منذ عهد الدولة القديمة · كما يؤكد د· « ناصر الأنصارى » نفس المعنى بتساؤله : « دولة تسجل مقياس نهرها وفيضانه بهذه الدقة ، ودولة تجرى تعداداً عاماً دقيقاً كل عام ·· ودولة تحصى ثروتها العقارية والمنقولة مع بيان أصحابها وبيان حركة الملكية بنظام متناهى فى الدقة ، ودولة بمثل هذه النظم ، آلا تكون نظمها القانونية مدونة ؟ [واستنتج] فلابد اذاً أن تكون النظم القانونية مدونة ولم يعثروا عليها بعد ، أو أنها قد اختفت مع ما أختفى من آثار كثيرة تحت أى ظروف » (٣) ·

لقد زالت شعوب كثيرة من بقاع كثيرة فى العالم ولكن مصر ظلت هى مصر ـ نبراس الحضارة · وظل المصريون هم وارثو الحكمة التى تركها لهم أجدادهم · وعند تنـاول موضـوع العقيدة فسنتأكد مما ذكره الدكتور « ناصر الأنصارى » عندما قال : « كان المصريون يؤمنون بوجود **اله واحد أزلى أبدى** ، هو الذى أوجد جميع الكائنات » (٤) و « كان المصرى القديم يؤمن أن الاله الواحد ، الذى يؤمن به ، له قدرات عديدة فتعددت أسماؤه لكثرة صفاته » هذا بالاضافة الى اعتقاده فى البعث أى الحياة الثانية بعد الموت ، وبأنه سيقدم حسابا عن أفعاله يوم المحاكمة ـ يوم الحساب · ففى كل مناظر المحاكمة نجد الميزان ويوضع القلب الذى يمثل الضمير فى كفة وعلى الجانب الآخر ريشة النعام (والريشة رمز العدالة) أو الهة الحق والصدق والعدالة « ماعت » · واذا ثبت تساوى الكفتين فان اله الحكمة والكتابة « تحوت » يسجل هذا ويتم تقديم المتوفى الى « أوزيريس » ـ القاضى يوم الحسـاب ـ وعندئذ يكتب للمتوفى الخلود · والحقيقة الهامة بالنسبة للمصرى هى **التدين** · ويعتبر التدين هو أهم مقوم من مقومات الشخصية المصرية ، فهو سـمة مشتركة سواء قديما أو حديثا ·

ودارس التاريخ والعادات والتقاليد لابد وأن يصل الى أن المصرى يتميز بالاحترام العظيم للحياة الانسانية وبالتقدير الكبير للشيخوخة ، وهو يحب العمل ، ويميل للأعمال الطيبة الخيرة ، ولطاعة الوالدة ولاحترام المرأة عموما ·· وأن الشعب المصرى القديم كان شعبا يميل الى البهجة ، ويتميز بالضحكة السهلة ، والابتسامة ، وخفة الروح ، وسرعة نسيان الأحزان والمضايقات اليوميـة » (٥) وينطبق هذا الكلام علينـا ـ نحن المصريين المعاصرين ـ بل اننـا نستطيع أن نضيف بأن المصرى متدينـا بوجدانه الصادق ، وصبور ومثابر وهذا ما تعلمه من الزراعة التى هى الحرفة الأولى للمصرى القديم · ولدى معظم المصريين حب العطاء والتعاون وحب الناس وحب الوطن وأرض الوطن ونيلها · لم ينكر المصرى أبدا فضل الأرض السوداء التى أمدته وتمده بالغذاء والتى أعطت وتعطى المحاصيل الوفيرة والمتعددة وهذا يعنى الأمن الغذائى ولا يمكن أن ينكر فضل النيل العظيم الذى روى ظمأه وروى أرضه ·

الانسان والطبيعة والخالق

انتى لا أبالغ اذا قلت بانه منذ أخذ المصرى القديم يتأمل الطبيعة التى حوله ويرى الشمس تشرق ثم تغرب ثم تعاود الشروق والغروب ، ومنذ أدرك ارتباط حياته بالنيل والأرض ، ومنذ قاده خياله الى أعماق

الكون ـ بل وفيما وراء الكون ـ وتخيل ما يمكن أن يكون هناك فى السماء مع النجوم والقمر ، ومنذ تخيل دورة الشمس عندما تغيب والى أن تسطع ثانية وتعطيه النور والدفء والأمان ٠٠٠ ومنذ لاحظ استمرارية هذه الصورة حوله مما يعطيه الاحساس بوحدة الكون ٠ فكل شيء أمامه له دورة منتظمة : الشمس فى تتالى مستمر من شروق وغروب ، وفصول السنة فى تتالى مستمر والحركة الظاهرية للشمس تجعله يدرك أن تغير الفصول مرتبط بحركة الشمس مع الأرض ـ على أساس أن الأرض فى اعتقاده هى الثابته ـ فقطعا لاحظ وضع الشمس بين الشرق والغرب فى فترتى الاعتداليين ـ مع اختلاف هذا فى الشتاء وفى الصيف [تعامد الشمس مع قدس الأقداس فى معبد أبى سـنبل مرتين فى العـام فى ٢٢ نوفمبر و٢٢ فبراير ـ دليل قوة ملاحظته وادراكه هذا] ، والشهر القمرى يتغير فيه حجم القمر من هلال الى بدر الى محاق الى اختفاء طبقا للدورة التى يمر بها أيضا ٠ والفيضان كان يأتى بانتظام بعد شهرين من ظهور « النجم الشعرى » ٠ ومنذ لجأ للأساطير والرموز ليشكل أفكاره عن الكون وعن الحياة ، ومحاولاته لفهم وتفسـير ما يراه ، تكونت له المقومات الثابتة فى الشـخصية المصرية ألا وهى : الايمان بالخالق الواحد ـ التدين الايمان بالبعث وحياة ما بعد الموت ـ ارتباطه بالنيل والأرض أى حب الوطن ـ التفاؤل ـ احساسه بحب ورعاية الخالق له ـ التسامح وحب الناس ٠ والفكاهة ٠

والآن فلنتابع كل مقوم من تلك المقومات بالدراسـة التفصيلية لكى نصل للنتائج التى تؤيد هذه المقدمة العامة التى استخلصتها من دراسة الديانة المصرية والمجتمع المصرى والفكر المصرى والفلسفة المصرية والتاريخ المصرى ٠٠ ان ملاحظة الدفنات مثلا فى « وضع القرفصاء على الجانب الأيسر والرأس الى الشمال يقودنا الى الاعتقاد بأن القدامى يرون الموت ضربا من السبات والراحة » (٦) ٠ ومع وجود تمايز فى أشكال الفخار والأدوات الأخرى ٠٠٠ فى حضارات « ديرتاسا والبدارى ونقاده » فى الجنوب و « ومرمدة بنى سلامة والمعادى » فى الشمال ، فاننا نلاحظ وجود حضارة مادية متجانسة أو مشتركة (٧) ، « والأوانى التى تحتوى على الطعام والشراب فضلا عن الأدوات والأسلحة والحلى البدائية التى كانت توجد مع الموتى فى مقابرهم ووجودها المكثف تقدم دليلا واضحا على الاعتقاد بضرورتها للموتى ٠ وذلك يدل أن اعتقادا باستمرار الحياة بعد الموت قد هيمن على هذه الثقافات (٨) ٠

بهذا نستطيع تتبع ما نكتشفه ونحاول ايجاد الصلة بينهم ، ونحاول استخلاص ما نستطيع ـ بقدر الامكان ـ خصوصا مع عدم وجود نصوص

مكتوبة لدى المصريين فى ذاك الوقت . ودراسة الديانة المصرية القديمة تحتاج الى دراسة شاملة للآلهة المحلية والأساطير المختلفة والتعـــاويذ و « متون الأهرام » و « متون التوابيت » و « كتاب الموتى » و « كتاب الطريقين » وكتاب « امى دوات » (ما هو موجود فى العالم الآخر) وكتاب « البوابات » وكتاب « الكهوف « ومختلف النصوص الدينية على مر العصور حتى تتضح الصورة للباحث والقارىء . وكما ذكر « ياروسلاف تشرنى » فى كتابه « الديانة المصرية القديمة » : « فانه من المحال رسم صورة لديانة منسقة ومنطقية فى كل تفاصيلها وصلاحيتها العامة للاقليم المصرى بأسره ، لأن مثل هذه العقيدة الموحدة والمتناسقة لم تتواجد قط ، لكنها النتاج العام للعديد من مختلف التيارات اللاهوتية والسياسية . ولم تكن هناك ثمة سلطة مفردة ومسيطرة بشكل كاف طوال التاريخ المصرى القديم لكى تختصر كل العقائد المحلية وتوحدها فى اطار لاهوتى أو فكرى شامل يفرض على كل المصريين (٩) .

ورغم كثرة الآلهة المحلية ورغم غموض بعض الشعائر والطقوس ورغم التجسيد المادى لبعض المعبودات ، « ورغم وجود الأعداد الكبيرة من المعبودات التى ظهرت أولا مرتبطة برموز حيوانية أو نباتية أو بأشياء مادية غير حيـــة » (١٠) فان دارسى الديانة المصرية القديمـــة أمثـال « أدولف أرمان » و « رندل كلارك » و « ياروسلاف تشرنى » وغيرهم لم يسيئوا فهم قدماء المصريين ويوافقوا « ياروسلاف تشرنى » فى انصافه للمصريين عندما قال : « فان من غير الانصاف للمصريين أن نحكم نزولا على وجود الأعداد الكبيرة من المعبودات التى ظهرت أولا مرتبطة برموز حيوانية أو نباتية أو بأشياء مادية غير حية ــ بأنهم قد اعتبروا هذه الحيوانات أو الأشياء آلهة فى حد ذاتها . والحق ان مثل هذا الحكم المخطىء عليهم قد تبنته شعوب أخرى فى العالم القديم ، وهم اليونانيون على وجه التحديد ، الذين سخروا منهم ، وكذلك اضطهدهم المسيحيون فى العصور اللاحقة . بناء على ذلك ، ومن الجلى أنه لا يوجد عقل حتى ولو كان بدائيا يمكن أن يعتقد أن الأشياء المادية أو الحيوانات أو حتى البشر ــ هم أكثر من مجرد مظهر مرئى ، أو مستقر لقوى مقدسة مجردة . والمصريون مثلهم فى ذلك مثل غيرهم من البشر التمسوا ــ عموما ــ الاتصال بالقوى فوق الطبيعية وارتأوا أن أفضل السبل الى ذلك هو اختيار اطار أو محور محدد ومرئى يمكن أن تتجمع فيه الصفات والنعوت التى تعبر عن هذه القوى » (١١) .

ان ملاحظة قدماء المصريين للشمس وما تركوه من آثار مثل المعابد التى تركوها تبين بالدليل القاطع أنهم كانوا متقدمين فى دراستهم للفلك

ودراستهم لموقع الشمس في الكون فى مواعيد معينة فهم الذين وضعوا تقويمهم الشمسى والذى أخذه عنهم « يوليوس قيصر » عام ٤٤ ق٠م ٠ عندما حضر الى مصر ، والذى يسمى الآن « بالتقويم اليوليانى » نسبه الى يوليوس قيصر ٠ وقد قام بدراسة المعابد المصرية علماء فلكيون وهذا هو استنتاجهم ، الذى يبرهن عن معـــرفة المصريين القـــدماء بالكون وبالشمس منواقع دراستهم لهذه المعابد :

« اذا رجعنا عبر التاريخ للبحث عن أول نافذة فتحها الانســـان ليطل منها على الكون لانتهى بنا المطاف الى قدماء المصريين والبابليين ٠٠

فاذا شئنا أن نتوخى الدقة فى حديثنا لذكرنا أن أول نافذة فتحت منذ بدء الخليقة كانت حينما استهوى منظر السماء الانسان البدائى فوقف يتطلع الى جمال الشروق وما يعقبه من نور ودفء ، ثم بدأ يتساءل عن المكان الذى تختفى فيه الشـــمس من وقت غروبهـــا حتى لحظة شروقها ، (١٢) ٠

هذا بالطبع ما يختص بملاحظة الشمس أثناء النهار أى منذ الشروق حتى الغروب وقد « تصـــور المصريون الشمس فى الصـــباح طفلا اسمه « خبر » وفى الظهـــيرة رجلا اسمه « رع » وفى الغروب كهـــلا اسمه « أتوم » » (١٣) ٠٠ أما رحلة الشمس من الغرب الى الشرق فقد تناولها المصرى القديم فى كتاب « امى دوات » أى ما هو موجود فى العـــالم الآخر ــ وقد تناولته بالتفصيل فى الفصل الثالث ــ الأساطير ــ لأنه يخص البعث والحياة الآخـــرة ٠ وهذه الرحلة شغلت فكر المصرى القديم لأنه يريد أن يصل الى تفسير لسر اختفائهـــا وأين ستكون طول هذه الفترة أى فترة الليل والتى تخيل أن الشمس تقوم برحلة فى العـــالم السفلى لأنه لا يراه مثلما يرى الشمس أثناء رحلتها بالنهار ٠ ويجب أن نضع فى الاعتبار قصور الامكانيات للانسان فى ذاك الوقت فلم تكن لديهم الأجهزة العلمية التى كانت فى أيدى علماء العصـــور الوسطى مثل « المنظار » « والاسطرلاب » ولا الأجهزة الالكترونية والأقمار الصناعية الحالية التى تســـاعد العلماء وتفتح أمامهم المجال أكثر ٠ ان برامج ارسال الأقمار الصناعية غير الكثير من النظريات وجعل العلم والتكنولوجيا يتناول المشاكل التى شغلت الانسان الأول والانسان البدائى والذى كان يعتمد على عينيه المجردتين ويحاول تفسير ما يرى بصياغتها فى صورة أساطير ٠ وكما يقول الدكتور « امام ابراهيم أحمد » فى كتابه « نافذة على الكون » :

« وكانت نظرة الانسان الى الشمس يشـــوبها الخوف والعجب والاجلال ، فلم يكن يملك من المنـــاظير والأجهزة ما يمكنـــه من معرفة

الحقيقة عن الكون والشمس • فقدماء المصريين كانوا يعتقدون أن الأرض منبسطة وتقع « مصر » فى وسطها ، وعند الأركان الأربعة للأرض المنبسطة توجد أربعة جبال شاهقة ترتكز عليها قبة السماء المصنوعة من الحديد ويتخلل هذه القبة ثقوب تظهر فائدتها عندما يحل الظلام ، اذ تسرع الآلهة الصغيرة بتدلية المصابيح خلالها ، فاذا اقترب الفجر سحبتها الى أعلى ثم يبدأ الاله الأعظم — « رع » — اله الشمس فى رحلته اليومية » (١٤) •

وحتى علماء الفلك فى الفترة البطلمية أمثال « بطليموس » فكانوا يعتقدوا فى انبساط الأرض وثباتها وأن الشمس هى التى تتحرك واستمر هذا الاعتقاد حتى « صححه كوبرنيكس » فى القرن الخامس عشر ، عندما عرض نظريته بأن الشمس ثابتة وأنها مركز الكون وأن الأرض الكروية تدور حول الشمس فى رحلتها السنوية • وتخيل المصرى القديم بوجود جبال شاهقة ترتكز عليها قبة السماء الزرقاء وتخيل أيضا وجود ثقوب تتدلى منها المصابيح — وهى النجوم — أثناء الليل أما عندما تشرق الشمس ثانية وتختفى النجوم فكان يفسره بأنه تم سحب تلك المصابيح • ولا يفوتنا ملاحظة الوصف « لرع » بأنه « الاله الأعظم » • فالمصريون القدماء كانوا يعتقدون فى وجود « الاله الأعظم » وكانوا يطلقون عليه « نتر — عا » ، وان اختلفت تسميته حسب رجال لاهوت كل مدرسة دينية فكان الاله الأعظم بالنسبة لكهنة « منف » هو « بتاح » وكان « رع » أو « أتوم » بالنسبة لكهنة « أون » (هليوبوليس) — وكان تاسوع هليوبوليس يتكون من « أتوم » الذى خلق نفسه من ذاته ثم خلق « شو وتفنوت » وتزوج المعبودان وأنجبا « جب » رب الأرض و « نوت » ربة السماء وتزوجا أيضا وأنجبوا اربعة هم « أوزيريس وست ونفتيس » (١٥) • وفى « الأشمونيين » بالقرب من « ملوي » فكان هناك الثامون « كوك كاوكت — الظلام المخيم ، آمون آمونت — اللارؤية ، نون نونت — العمق ، حوح حوحت — اللانهاية » (١٦) ثم « آمون رع » بالنسبة لكهنة طيبة (الأقصر) فى الدولة الحديثة • وسوف يتم شرح هذا تفصيليا فى الفصل الثانى عند تناول « العقيدة الدينية » والتى تثبت من دراستها الدقيقة ، وجود عقيدة **التوحيد جنبا الى جنب مع تعدد الآلهة المحلية التى خلقها الخالق الأعظم** •

واستمر الدكتور « امام ابراهيم أحمد » فى التحدث عن تقديس المصريين للشمس والقمر والنجوم الذى نجم عنها « علم الفلك » • و « علم التنجيم » فقال : « ولم تكن الشمس وحدها محل التقديس والعبادة فى فجر التاريخ ، بل شاركها فى ذلك القمر والنجوم • ولعل ذلك من الأسباب التى أدت الى انتشار التنجيم بين الناس ، فما التنجيم

الا تقديس للأجرام السماوية واعتقاد بمقدرتها على التحكم فى حياة الانسان وشئونه • فوجود الشمس فى برج معين أو ظهور أحد الكواكب عند مولد شخص يحدد مصيره طوال حياته ، فنجد فيها أياما سعيدة وأخرى لا يجوز فيها عقد الصفقات أو السفر الخ •• وفى الحقيقة يمكننا تقسيم تطور « علم الفلك » الى عدة مراحل بدأت بمرحلة العبادة ثم تفرع منها طريقان : أحدهما للاستفادة من رصد الأجرام السماوية فى فائدة الانسان وهى علم الفلك الحقيقى بينما اتجه الطريق الآخر نحو التنجيم » (١٧) •

وعند عرض الديانة المصرية القديمة سنجد أن بزوغ الضوء لأول مرة وولادة الشمس اليومية من الالهة « نوت » ـ الهة السماء ـ • وكان هناك اعتقاد راسخ بتدخل الأجرام السماوية فى حياة الانسان من حيث يوم ولادته وحظه فى الحياة بل وتحديد مصيره • وكانوا يعتقدون فى وجود أيام نحس وأيام سعد • ولا زال الكثيرون ممن يعيشون فى القرن العشرين يتابعون فى الجرائد والمجلات « حظك اليوم » رغم تكليف موظفين بكتابتها !! بل أننا نجد الدجالين يكسبون من ادعاء معرفتهم بما تخبئه النجوم للناس بل هناك تعبيرات متداولة دارجة مثل « هذا نجمه خفيف » !! وغير ذلك من الخزعبلات • أما الفائدة العلمية فتكمن فى دراسة « علم الفلك » • وفى الفقرات التالية نجد اهتمام المتخصصين بدراسة المعابد المصرية ـ دراسة تظهر مدى تقدم أجدادنا فى مجال الفلك : « وبحث العلاقة بين معابد القدماء وبين عبادة الشمس والنجوم موضوع شيق ، تناوله بشىء من التفصيل العالم الانجليزى « نورمان لوكيار » وخص بالذكر معابد وآثار قدماء المصريين ، وقد وجد أن بعض المعابد يشير جدرانها الى الجهات الأصلية الأربعة أى الى اتجاه شروق الشمس وغروبها فى الاعتدالين الربيعى والخريفى ، بينما تشير جدران معابد أخرى الى شروق الشمس وغروبها عند المنقلبين الصيفى والشتوى • وهذا الاتجاه الأخير ليس بثابت بل يتغير تبعا لخط العرض » (١٨) •

ان هناك سائحين يحضرون لمصر لمشاهدة تعامد الشمس مع قدس الأقداس فى أبى سمبل وهما ٢٢ نوفمبر و ٢٢ فبراير • وهذا يبين أن تقويم قدماء المصريين كان على أساس دراستهم لموقع الشمس فى الفصول الأربعة • ولا يزال الفلاح المصرى يحفظ التواريخ القبطية التى هى التقويم المصرى القديم ويتبعها فى تحديد مواعيد زراعة نباتات معينة ومواعيد الرى وهذه الشهور هى (توت ـ بابه ـ هاتور ـ كيهك ـ طوبة ـ أمشير ـ برمهات ـ برموده ـ بشنس ـ بؤونة ـ أبيب ـ مسرى ـ نسىء) وتبدأ السنة القبطية حاليا يوم ١١ سبتمبر لارتباطها « بعصر

الشهداء » فى حين تختلف بالنسبة لقدماء المصريين بالنسبة لبدايتها فقد كانت فى يوليو موعد الفيضان · ولو أضفنا رقم « ٢٨٤ » الى التقويم القبطى نجد نفس العام الميلادى اليوليانى المعروف « بالجريجورى » · ذلك لأن المصريين بدأوا تقويمهم القومى أى القبطى لأن كلمة « قبطى » تعنى « مصرى » وذلك بربط التقويم القبطى بتولى « دقلدينوس » الحكم عام ٢٨٤ م ويعرف عصره « بعصر الشهداء » اشارة الى الشهداء الذين يقدر عددهم بأكثر من ٢٤٠ ألف شهيد ، فقد رفض الشهداء المصريون أن يعبدوا دقلدينوس فاضطهدهم هذا الطاغيـــة لأنهـم أعلنـوا بأنهم لا يعبدون بشر بل يعبدون الاله الحى الذى لا يموت ·

وكان لارتباط المنقلب الصيفى بالفيضان الفضل فى عمل التقويم المصرى كما قال الدكتور « امام ابراهيم أحمد » : « ولعل المصادفة وحدها التى جمعت بين وقت المنقلب الصيفى وبدء فيضان النيل · وهكذا بدأ قدماء المصريين تطبيق « علم الفلك » لفائدة الانسان ، بعمل التقاويم وتحديد موعد الفيضان · أما من الناحية الدينية ، فقد وضع الكهنة فى بعض المحاريب المظلمة تمثالا للاله « رع » موليا ظهره للفتحة التى يدخل منها الضوء ، فتسقط عليها الأشعة مرة كل عام لبضعة ثوان ثم تختفى ، فيخيل للرائى أن « رع » ظهر بنفسه فجأة ثم اختفى » (١٩) وبذلك كان لملاحظتهم الفضـــل فى عمل أول تقويم شمس فى العـالم · وهذا يبين بوضوح أن عبقرية المصرى القديم كانت تظهر فى الاستفادة العلمية من ملاحظاتهم ودراســـاتهم ومتابعتهم لما يدور حولهم · ونبـغ المصريون فى العلم وتطبيقه ونبغوا فى الطب والصيدلة · وعرفوا الدورة الدموية وفى التشريح تعلموا أجزاء الجسد وداخله واستفادوا منه فى التحنبط · ونبغوا فى الكيمياء فى حفظهم للبذور من التسويس وفى المحافظة على الجسد من التعفن عند تحنيطه ، فقد تخلصوا من الكائنات الحية باضافة المواد الحافظة مثل العسل النحل والتوابل والبترول (كان بئر البترول فى بالوظة بالقرب من بور فؤاد) · ونبغوا فى الفلك والزراعة وتنظيم الرى ·

ويستمر الدكتور « امام ابراهيم أحمد » فى الاشارة الى تقدم قدماء المصريين فى الفلك واستخدام المرآة فى المعابد لانارتها وبمساهمـــة نهر النيل فى تقدم الفلك فيقول :

« هناك ما يشير الى أن قدماء المصريين رسموا خرائط لنجوم السماء على جدران معابدهم · فمن « معبد دندرة » انتزع علماء الآثار الفرنسيين قطعة حملوها معهم الى متحف باريس ، وعلى هذه القطعة خريطة لمنطقة

البروج التى تقطعها الشمس خلال عام . ومن الغرائب التى يذكرها « لوكيار » عن قدماء المصريين أنهم ـ فى بعض معابدهم ـ استخدموا مرآة « أو سطحا عاكسا » فى الخارج يحركونه طوال النهار فيعكس ضوء الشمس لينير المعبد بأكمله » (٢٠) . وقد ساهم نهر النيـــل فى تقدم علم الفلك عند قدماء المصريين ، فقد صادف وصول الفيضان الى هليوبوليس وممفس وقت المنقلب الصيفى .. فاذا رصدنا نقطة شروق الشمس على الأفق نجدها تتغير من يوم الى آخر ، فتكون فى اتجــاه الشرق تماما عند الاعتدالين ، بينما تكون أقرب ما يكون الى الشـــمال فى المنقلب الصيفى والى الجنوب فى المنقلب الشتوى » (٢١) .

ودراسة قدماء المصريين لتغير نقطة شروق الشمس فى الاعتدالين وفى المنقلب الصيفى وفى المنقلب الشتوى جعلتهم يشيدون معابدهم فى بعض المواقع لكى تكون محاورها الرئيسية فى اتجاه نقطــة الشروق هذه ، فقد « لاحظ قدماء المصريين تغير نقط الشروق ، فأقاموا بعض معابدهم بحيث تكون محاورهــا الرئيسية فى اتجاه شروق المنقلب الصيفى ، ولعل الفكرة الأولى من هذا العمل الاحتفال بالفيضان بحيث يصل ضوء الشمس الى المحراب ينيره وقت الفيضان ، ولو انحرف المحور الرئيسى للمعبد عن هذا الاتجاه لحدث أحد أمرين : ١ ـ لا تشرق الشمس عند الاتجاه الجديد فى أى يـوم من أيــام السـنة وبذلك لا تضىء المحراب على الاطلاق ٢ ـ تشرق الشمس مرتين فى هذا الاتجــاه ، مرة وهى فى طريقهــا الى المنقلب الصيفى وأخرى وهى عائدة منه ، وبذلك تضىء المحراب مرتين كل عام . ولكن وصول الفيضان قرب المنقلب الصيفى ، وبناء المعابد فى هذا الاتجاه أدى الى وصول أشعة الشمس الى المحراب مرة واحدة فقط كل عام ، وبالتالى اذا قيست الفترة بين مرتين متتاليتين أمكن استنتاج طول السنة » (٢٢) .

وأعتقد أن عرض موجز للعصور التاريخية القديمة قد يفيد القارىء فى أخذ فكرة عامة عن سنوات كل فترة سواء أكانت أسرات ملكية أو فترة دولة معينة مثل « الدولة القديمة » مثلا حتى يستطيع القارىء متابعة الأحداث مع الحقب التاريخية . ثم أتناول بعد ذلك الاشارة الى مصادر التاريخ المصرى القديم .

موجـــز

عن تقويم المصريين ـ نقلا عن دليل المتحف المصرى بالقاهرة

عصر ما قبل التاريخ	عصر البدارى عصر ما قبل الاسرات	قبل ٣٢٠٠ قبل الميلاد تقريبا
العصر العتيق	الأسرتان ١ ، ٢	الأسرة ١ : حوالى ٣٢٠٠ قبل الميلاد
الدولة القديمة	عصر الأهرامات الأسرات ٣ ـ ٦	الأسرة ٣ : « ٢٧٨٠ « « الأسرة ٤ : « ٢٧٢٠ « « الأسرة ٦ : « ٢٤٢٠ « «
عصر الفترة الأولى	الأسرات ٧ ـ ١٠	حوالى ٢١٤٠ قبل الميلاد
الدولة الوسطى	الأسرات ١١ ـ ١٣	حوالى ٢١٤٠ ـ ١٧٨٥ قبل الميلاد
عصر الفترة الثانية أو عصر الهكسوس	الأسرات ١٤ ـ ١٧	حوالى ١٧٨٥ ـ ١٥٨٠ قبل الميلاد
الدولة الحديثة	عصر الامبراطورية : الأسرات ١٨ ـ ٢٠ العصر التانيس والبوسطى الأسرات ٢١ ـ ٢٣	الأسرة ١٨ : حوالى ١٥٨٠ قبل الميلاد الأسرة ١٩ : حوالى ١٣٤٠ قبل الميلاد الأسرة ٢١ : « ١٠٨٤ « «
العصر المتاخر	العصران الأثيوبى والصاوى: الأسرات ٢٤ ـ ٢٦ العصران الفارسى والامنيدى : الأسرات ٢٧ ـ ٣٠	الأسرة ٢٦ حوالى ٥٩٦ قبل الميلاد الفتح الفارسى « ٥٢٥ « « الأسرة ٣٠ « ٣٧٨ « «
العصر الاغريقى	عصر البطالمة	غزو الاسكندر لمصر ٣٣٢ ق٠م٠ بطليموس الأول ٣٠٥ ق٠م
العصر الرومانى	العصر البيزنطى أو القبطى	الغزو الرومانى ٣٠ قبل الميلاد الفتح العربى ٦٤٠ بعد الميلاد

مصادر التاريخ المصرى القديم (٢٣)

« هناك ثلاث مصادر رئيسية لدراسة تاريخ مصر الفرعونية » :

أولا : الآثار المصرية على وجه العموم ، أو بمعنى آخر كل ما خلفه لنا المصريون فى مختلف العصور من آثار سواء أكانت مكتوبة أو غير مكتوبة ، أى كل ما أبقاه لنا الزمن من بقايا معابد ومقابر ونصب وتماثيل ومسلات وتوابيت وبردى وشقافات وكل ما استعمل فى الحياة اليومية ، الا أنه من الملاحظ أن أغلب هذه البقايا الأثرية يغلب عليها أحد الطابعين الدينى أو الجنازى أو الاثنين معا ، حيث اعتقد المصرى بأن الحياة الثانية ما هى الا صورة للحياة اليومية العادية ٠ هذا الاعتقاد أدى الى تزويد قبره بمناظر من الحياة اليومية ٠

ثانيا : ما ورد فى المصادر الأجنبية المعاصرة لبعض فترات التاريخ الفرعونى (٢٣) ٠

ثالثا : « ما كتبه الرحالة القدماء من اغريق ورومان أمثال « هيكاتيوس الملطى » و « هيرودوت » و « ديودور الصقلى » و « استرابون » و « بلوتارخ » ٠ وهذه المصادر لا يمكن الأخذ بكل ما فيها من معلومات الا بحذر شديد ٠ ولعل السبب فى ذلك أنها كتبت من وجهة النظر الاغريقية أو الرومانية ٠ هذا من ناحية ٠ ومن ناحية أخرى كانت أغلب زيارتهم لمصر فى أوقات ضعفها ٠

ومن أهم المصادر الآثار المصرية التى تم العثور عليها حتى الآن ٠٠ ويطلق عليها اصطلاحا اسم جداول أو مصادر الملوك نذكر منها .

أولا : ما ينتمى للدولة القديمة : (٢٤) ٠

« **حجر بالرمو** (من الأسرة الأولى وحتى نهاية الأسرة الخامسة أو بداية الأسرة السادسة » ٠

ثانيا : ما ينتمى الى الدولة الحديثة :

١ ـ **قائمة الكرنك** (نقشت فى عهد الملك تحتمس الثالث (١٥٠٤ ـ ١٤٥٠ ق٠م ٠) وتبدأ بالملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة ثم أسماء ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة ثم مجموعة من أسماء ملوك الأسرات ١٣ ، ١٤ ، ١٧ » (٢٥) ٠

٢ - « **قائمة أبيدوس** : موجودة الآن على احدى جدران معبد الملك سيتى الأول (١٣١٨ - ١٣٠٤ ق٠م٠) ٠ فى أبيدوس ٠ وهى ترجع الى الأسرة التاسعة عشر وتحتوى على ٧٦ ملكا يبدأوا باسم الملك مينا من ملوك الأسرة الأولى ٠

٣ - **قائمة سقارة** : موجودة الآن بالمتحف المصرى ٠ بدأت باسم سادس ملوك الأسرة الأولى لتنتهى باسم الملك رمسيس الثانى ٠ وكانت تحوى ٥٧ اسما لملوك مصر » (٢٦) ٠

٤ - **بردية تورين** : وقد كتبت على ورق البردى ٠ تبدأ بأسماء الآلهة وأسماء ملوك الأسرة الأولى حتى الهكسوس »

« **ثالثا** : ما ينتمى للعصر المتأخر :

نصوص الأنساب ٠ وهذه تصل حتى عصر الأسرة التاسعة عشر ٠

رابعا : ما ينتمى للعصر البطلمى :

تاريخ مانيتون : هو كاهن من مدينة سمنود . عاصر الملك بطليموس الثانى (فيلادلفوس من ٢٨٣ - ٢٤٥ ق٠م) ٠ قسم التاريخ الى ثلاثين أسرة تبدأ من الملك مينا وتنتهى بالاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ ق٠م وللأسف فقد كتاب مانيتون ولكن وصل الينا مقتطفات منه ، عن طريق المؤرخ اليهودى « جوسيفوس » (٧٠ م) وبعض الكتاب المسيحيين أمثال « يوليوس الأفريقى » (القرن الثالث الميلادى) « يوسيبيوس » (القرن الرابع الميلادى ، وسينكلوس » (القرن التاسع الميلادى) ٠

والى جانب القوائم السابقة يجب ذكر ما سجله الملوك من أعمال وحروب على جدران المعابد وعلى اللوحات والتماثيل والمسلات ٠ كذلك يجب الاهتمام بلوحات الحدود التى كانت تقام عند حدود مصر لتحديدها وكلها تمجد وتوضح أعمال الملك فى فترة حكمه ٠ كذلك يجب الاهتمام بما سجله كبار الموظفين فى مقابرهم من أعمال هامة كلفوا بها سواء أكانت بعثات أو الاشراف على منشآت أو ما شابه ذلك » (٢٧) ٠

وقد زار الكتاب المؤرخون مصر ما بين القرن الخامس قبل الميلاد والثانى بعد الميلاد أى على مدى سبعة قرون ومنهم .

١ - **هيكاتية الملطى** (مليوتس وهو من غرب آسيا) وقد زار مصر فى القرن السادس قبل الميلاد وكتب عنها ما أمده به الكهنة من معلومات ٠

٢ ـ **هيردوت** (أبو التاريخ) زار مصر ما بين عامى ٤٤٨ـ ٤٤٥ ق٠م ٠ أيام خضوعها للحكم الفارسى ٠ وكتب عن مصر فى الجزء الثانى من كتابه الذى أطلق عليه « التاريخ » ولم يكن دقيقا فى معلوماته ٠

٣ ـ **هيكاتية الأبدرى** (من بلدة أبدرا) وهو يونانى ٠ زار مصر أيام البطالة وفقد معظم كتابه ٠ وقد كتب باسهاب عن الأساطير المصرية والعقائد ولكنه كان متعصبا ومتحيزا لوطنه ٠

٤ ـ **ديدور الصقلى** : زار مصر عام ٥٩ ق٠م ٠ والجزء الأول من كتابه (تاريخ العالم) (٢٨) عن مصر ٠ وقد تحدث عن العقائد والآلهة المصرية ٠ يمتاز بأنه دقيق فى نزعته عن البحث عن الحقيقة » ٠

٥ ـ « **بلوتارخ** : زار مصر عام ١٢٠ م : اهتم بالعقائد الدينية ونقل أسطورة ايزيس وأوزيريس ٠ من أصدق المؤرخين وأكثرهم أمانة فى النقل ٠

وان كان هؤلاء المؤرخون أعطونا معلومات كثيرة ونحتاج لها لكى نعرف عن التاريخ القديم ، لكن يجب أن ننظر بحذر وشك لما كتبه البعض (مثل هيردوت) وذلك للأسباب التالية :

١ ـ زاروا مصر أيام ضعفها واضمحلالها ولا يمكن الحكم على بلد أيام ضعفها وانحلالها ٠

٢ ـ اقامتهم كانت فى مدن الوجه البحرى فلم يتبينوا وجه الحياة المصرية الصادقة ٠ فلكى تعرف مصر جيدا اذهب الى الصعيد ٠

٣ ـ اعتمادهم على صغار الكهنة ، فالمعلومات محرفه ٠

٤ ـ سوء فهمهم لعدم معرفتهم باللغة المصرية القديمة ٠ لذلك اعتمدوا على السمع فى النقل من الحضارة القديمة ٠

٥ ـ المصريون أنفسهم تحدثوا عن عصور قديمة جدا بالنسبة لهم فاختلط عليهم الأمر فى الكثير من الأحيان ٠

٦ ـ التعصب الأجنبى ضد المصريين فقد كانوا ينقلون العادات المصرية باستخفاف واستهزاء لأنها تختلف عن عاداتهم ٠

٧ – محاولتهم التقليل من الشعوب الأخرى ·

٨ – عدم اهتمامهم فى البحث عن الحقائق واستغراقهم فى الأكاذيب ، وخلق جو أسطورى عن الحضارة المصرية » ·

« وهناك من كتبوا عن جغرافية مصر أمثال « أرستوسين » و « استرابون » وهما يونانيين · وهذا أفاد كثيرا لأننا عرفنا عن طبيعة مصر فى ذلك الوقت · وعرفنا منهم أنه كان هناك سبعة أفرع للنيل وهى التى كونت الدلتا وانحصرت فيما بعد بين فرعى دمياط ورشيد (فى عصور متأخرة عن عصرهم) » (٢٩) ·

« ومعرفتنا اليوم جعلتنا نرى الأمور أوضح ممن كتبوا فى الماضى· فبعد معرفتنا اللغة المصرية القديمة بعد أن بدأ شمبيليون اماطة اللثام عنها عند فك رموز « حجر رشيد » [وجد « بوشار » حجر رشيد فى أقلعة قايتباى برشيد وكان مدونا عليه نفس النص فى ثلاث لغات الهيروغليفية والديموطيقية والاغريقية · والنص كان مكتوب عن مؤتمر عمله الكهنة فى عهد بطليموس الخامس · وعندما قارن شمبليون بين الكتابات الثلاثة وكان يعرف اللغة الاغريقية لاحظ أسماء مكتوبة داخل مستطيلات (خراطيش) « فأدرك أنها أسماء ملوك· ومن هنا كانت بداية فك لغز اللغة لأنه قارن الحروف سويا مثال ذلك حرف « ب » الحرف الأول من « بطليموس » والحرف الخامس من كليوباترا وبذلك استخرج المقابل لهذا الحرف فى الاسم الهيروغليفى وهكذا· واليوم أصبحت اللغة المصرية القديمة معروفة تماما · وبذلك أصبحت التراجم تتم مباشرة عن طريق النص المصرى القديم] ·

« أما وقد عرفنا اللغة المصرية القديمة فاننا نجد أمامنا الآثار كمصدر رئيسى لمعرفتنا التاريخ والعادات والعقائد المصرية القديمة · فلدينا الآثار الثابتة مثل المعابد والأهرامات والمقابر والمسلات ، والآثار المنقولة مثل التماثيل واللوحات والتوابيت والبردى وكافة ما استعمله المصريون فى حياتهم المصرية · كما أن هناك « **كراسات التلاميذ** » وقد ساعدت على فهم الكثير من الأحداث التاريخية فهناك كراسة تعليمية اسمها الآن « لوحة كارنافون » وذكر فيها معارك التحرير ضد الهكسوس ·

ما نوعية النقوش والنصوص التى نجدها فى المعابد والمقابر واللوحات والمسلات والتماثيل والبردى ؟ ·

غطت النقوش والنصوص أخبار الملوك والحروف والمعاهدات والأخبار الهامة والأحداث الكبرى وسير النبدء والعظماء وصورا من حياة الفلاح المصرى والعامل المصرى وكافة النواحى اليومية (يلاحظ أن الحياة المصرية كانت تذكر فى مقابر النبلاء وحكام الأقاليم أكثر . ففى مقابر بنى حسن نجد تفاصيل الحياة المصرية) أما البردى فعليه الكثير عن الادارة والقضاء والعمارة والأدب والعلوم والحساب والفلك والهندسة والطب .

أما القصص والأساطير نستخلص منها التاريخ بوجه خاص ونستطيع أن نستخلص منها الحقائق التاريخية والدلائل السياسية . فنستخلص من أسطورة « ايزيس وأوزيريس » معانى **الوفاء** بالنسبة للمرأة المصرية. ومعنى **البعث** كما نعرف الصراع بين الخير والشر وانتصار الخير فى النهاية حيث انتصر « حورس » على عمه الشرير « ست » الذى كان قد اغتال أبيه أوزيريس بخدعة دنيئة . وقصة الفلاح الفصيح تتصل بالحياة الاجتماعية فى مصر فى عصر ما قبل الدولة الوسطى. وقصة « سنوهى » تلقى أضواء على أحوال البلاد السياسية والاجتماعية وفيها حنين المصرى لوطنه ورغبته فى أن يدفن فى أرض الوطن (٣٠) حيث يتم تحنيطه على الطريقة المصرية . و « قصة سنوهى » حدثت فى مطلع الأسرة الثانية عشرة أيام الملك امنمحات الأول وكان سنوهى مع الأمير « سنوسرت » (وبهذا نعرف بخبر عسكرى ونعرف أن الأمير بنفسه يقود الجيش) وجاء رسول يخبر الأمير باغتيال والده الملك « امنمحات الأول » . ومن القصة نعرف السر بأن سنوسرت الأول هو أول من عمل **نظام الملك وولى العهد** . وذلك نتيجة لاغتيال امنمحات الأول . ومن قصة البحار الغريق نعرف وجود الصلات التجارية بين بونت (بلاد الصومال) ومصر وأن مصر كانت تستورد البخور ــ وهو أهم شىء فى المعابد ــ من بونت . ومن قصة التمساح المسحور نعرف أن الخيانة الزوجية كان عقابها الموت ومن « متون الأهرام » فى الدولة القديمة ومن « نصوص التوابيت » فى الدولة الوسطى ومن « كتاب الموتى » فى الدولة الحديثة نعرف الكثير عن العقيدة المصرية بخصوص الحياة الآخرة ويوم الحساب ومحيمة العدل ونعرف عن الآلهة الحارسة للموتى ... الخ (٣١) .

الحقبات الرئيسية فى التاريخ المصرى القديم

« بلغت مصر فى **الدولة القديمة** التى انهارت بالثورة الشعبية فى ختام الأسرة السادسة ، قمة النظام والعلوم والفنون ، وكانت فى ذروة

نظامها الادارى والاجتماعى بحكم السلطة المركزية المطلقة التى تجمعت فى أيدى الملوك ، والآلهة ، وبلغت الذروة فى شتى فروع المعرفة العلمية من هندسة وفلك وطب ومساحة ، وكذلك ذروة القدرة الفنيــة حيث بلغت مهارة النحات والصانع فى الدولة القديمة شأنا لم تبلغه فى العصور التالية ، ولدينا مثلا تمثال « خفرع » وتمثال « الكاتب المتربع الموجـود حاليا فى متحف « اللوفر الفرنسى » وتمثال « شيخ البلد » بالمتحف المصرى وأدوات حتب حرسى أم خوفو كقطع نادرة من التحف الفنيـــة لا مثيل لها فى العصور التالية بما فيها عصر « توت عنخ آمون » ذاته ، حدث ذلك ومصر قابعة داخل حدودها فى استغناء شبه تام عن العالم الخارجى ، لا ترفع سلاحا فى وجه أحد الا أن يكون مقرعة التأديب للطامعين المغيرين على حدودها » (٣٢) ٠

لقد انعكس الاستقرار السياسى فى الدولة القديمة ــ حيث كان الملك الاله هو ممثــل النظام فى الدولة ولأن ملوك هذه الدولة كانوا أقوياء ــ انعكاسا مباشرا على المجتمع ٠ ونتج عن هذا الاستقرار الاجتماعى التقدم فى كافة المجالات الفنية والانتاجية والعلمية ٠ لقد ترجم المهندس تقدمه العلمى فى بناء الأهرامات الضخمة حتى أن هذا العصر كان يطلق عليه « عصر بناة الأهرامات » وترجم النحات تقدمه الفنى فى صورة تماثيل غاية فى الدقة والروعة الفنية ، وترجم علماء الفلك تقدمهم فى تحديد الاتجاهات الأربعة والتى أنشأوا اتجاهات الأهرامات طبقا لهــا مع ملاحظة أن جميع مداخل الأهرامات تتجه نحو الشمال [حيث النجم القطبى] هذا من ناحية الدقة العلمية أما المعنى الدينى لوجود المداخل تتجه نحو الشمال فهو أن الملك كان يريد أن يعيش فى الحياة الآخرة مع النجوم الخالدة ٠ والتقدم فى علم المساحة ظهر تأثيره واضحا فى تحديد الحقول حتى بعد أن يغمرها مياه الفيضان وتضيع الحدود بينها فيعود المساحون لتحديدهــا بعد انحسار الماء ٠ والتقدم فى الطب ظهر فى مرافقة الأطباء للعاملين فى بناء الأهرامات وكانوا يضعون الجبائر حول العظام التى تتعرض للكسر ٠ كما ان ذروة التقدم الادارى ظهر فى تنظيم عمل وحياة مائة ألف شخص يقومون فى كافة أنشطة بناء الهرم من عمال نقل وعمال كسر الأحجار وعمال صقلها وعمال بناء يضعونها متراصة ملتصقة وتعتمد على تفريغ الهواء مما يعنى شدة التصاقها (دون استخدام للأسمنت الذى لم تعرفه مصر قبل الرومان) ٠ وظهرت « متون الأهرام » التى تخص سعادة الملك فى الحياة الآخرة ٠

« وفى عهد الدولة الوسطى بلغت مصر قمة الرخاء والســـلام والاستقرار ، وتميزت الحضــارة المصرية فى هذه المرحلة بظهور الفرد

أو **الانسان العادى البسيط** بعد أن لم يكن له شان من قبل • فاكتسب الناس البسطاء حق الخلود بعد أن كان وقفا على الفراعنة والنبلاء ومن يسمح له الفرعون بهذا الحق ، وفى هذا العهد أيضا ظهرت البشائر الأولى لأفكار العدالة الاجتماعية والديمقراطية ، وبدأ المصريون يحولون أنظارهم من السماء الى الأرض ، فأخذوا يقيمون المشروعات الهندسية الجبارة ذات الغرض النفعى الاقتصـادى البحت كالدور والخزانات والترع والمصارف ، وازدهر فى هذا العصر الأدب ليقابل ازدهار العلم فى العصر السـابق » (٣٣) •

رغم الاستقرار السياسى أثناء الدولة القديمة والذى كان النتيجة الطبيعية لوجود لنفام فى حكم **الملك الاله** الأوتوقراطى الا أن زيادة سلطة الاقطاع وزيادة سلطة حكام الأقاليم نتيجة لاعتلاء العرش ملوكا لم يكونوا فى قوة ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة فملوك الأسرتين الخامسة والسادسة كانوا أبناء الكهنة ويظهر هذا جليا فى وجود « متون الأهرام » فى أهرامات الأسرتين الخامسة والسادسة وقد مهـد لاعتلائهم العرش النبوءة الواردة فى قصة الساحر ددى [موجودة فى الفصل الخامس] الذى فيها نبوءة أولاد الكهنة الثلاث الذين سيعتلون عرش مصر • ونتج عن تسلط الاقطاع على الشعب ونتج عن ضيق الشعب من حرمانهم من الخلود ـ طبقا لمتون الأهرام ـ والذى كان وقفا على الملك وعلى بعض من حاشيته ، أن ثار الشعب أكبر ثورة اجتماعية دينية فى تاريخ البلاد فكان العصر التالى عقب الأسرة السادسة هو « عصر الاضمحلال » الأول حيث عانت البلاد من الفوضى ولكن أتت الثورة ثمارها الاجتماعية والدينية فقد تقلص نفوذ الاقطاع وظهرت الديانة الشعبية (ديانة أوزير) أكثر قوة ، وضمن الشعب لنفسـه **حقه فى الخلود** • وظهرت متون التوابيت مختلفة عن « متون الأهرام » وتجلت العدالة الاجتماعية نتيجة نجاح ثورة الشعب ، ولم يعد الشعب بلا كيان مستقل بل ظهر الفرد ونضج الفكر وتمثل هذا فى الأدب القصصى الاجتماعى مثل « سنوهى » و « قصة الفلاح الفصيح » بل ان أدب الشك ظهر نتيجة الهزة الاجتماعيـة والدينيـة [بمعنى اهتزاز صورة الملك الذى كان يعبر عنه « بالملك الاله » فى الدولة القديمـة الذى يصعد على سلم أو دخان البخور أو أشـعة الشمس الى السماء] كما ظهر « **أدب الحكمة** » بصـورة كبيرة • فالاهتمام بالفرد يعنى نصحه وتوجيهه الى السلوك الاجتماعى السوى •

العقيـــدة

اننا نفهم العقيدة المصرية القديمة من الرموز ومن التجسيد للآلهة والتى هى فى الواقع تجسيدا للأفكار العقائدية · وقد أخذت العقيدة ثلاثة أشكال : (١) شكل ملموس فى صورة تماثيل ورسوم وجعارين (٢) شكل مجرد فى صورة متون سحرية وتعاويذ وطلاسم (٣) شكل تخيلى فى صـــورة أساطير وقصص وطقوس · وقد ظهرت الممارسات العقائدية فى صورة الطقوس والشعائر اليومية وفى سلوكهم العام فى الحياة اليومية ، وظهرت فى احساسهم بالقوة الخالقة التى أوجدتهم على ظهر الأرض ووالتى تعينهم فى حياتهم اليومية والتى تعطف على البشر كما توضحها الصلوات والأساطير والقصص الشعبية والأغانى الدينية والتوسلات لهم لتعينهم فى حياتهم وفى ضيقاتهم وفى أمانيهم· والخضوع لهذه القوة نابع من حب وليس من خوف وفزع بدليل نصوص الصلوات والتوسلات والتضرعات الصلاة فى خشوع أحيانا نجد صور تصوف ومناجاة للذات العلية ·

والملموس المادى يتعلق بالحياة التى يحياها الناس والتى تؤثر تأثيرا مباشرا على مصادر الرزق والحماية المباشرة من الأعداء والأشرار والقوى الخفية التى قد تعاكس البشر · من هنا أتت أهمية التمائم التى تحمى من السحر ومن الحسد ومن العين الشريرة · وكلما زادت مخاوف الانسان من الأشياء الغامضة والتى يعتقد عامة الشعب بوجودها كلما زادت أشكال وصور التمائم وكلما جاراهم بعض الكهنة المغرضين وكثرت الخزعبلات وامخرافات · والمتون السحرية هى ضرب من طلب الحماية من القوى الخفية وقطعا كانت فى صـــورة مجـردة لاستحالة تحولها الى صورة ملموسة يمكن ادراكها والتيقن منها · وفى فصل العقيدة الذى يتناول العقيدة بصـــورة تفصيلية ستتضح انتشار التخيلات واختلافها بسبب اختلاف الناس الذين يتخيلوو هذه الأشياء · وتظهر التناقضات والخلط والاختلافات لأن الأساطير لم تكن كتاب منزل بل محاولات بشرية للتفسير واستيضاح الحقيقة · والاختلافات نتيجة اختلاف البشر واختلاف تصوراتهم وخيالهم ولكن يجب ملاحظة أن خلف هذه المتناقضات هناك حقائق شبه ثابتة مثل : (١) **مغيب الشمس** هى حقيقة ثابتة ولكن أين تذهب الشمس ؟ هذا هو السر الذى لا يعرفون اجابته ويحاولون تفسيره بالأساطير (٢) **الموت :** حقيقة ثابتة والمعروف أنه النهاية الحتمية لنا على ظهر الأرض عندما يتوقف القلب عن العمل وتنعدم الحواس من الجسم المسجى على الأرض ويبقى الســؤال الأزلى اا أين المصير ؟ ما هو مصير الموتى ؟ ولا يستطيع لعلم حتى اليوم أن يجيب على هذا السؤال فهو

ليس من مجال التجريب أو الفرض والاستنتاج ولا الملاحظة والاستدلال (مثل علم الفلك مثلا) ولا هو قابل للاستفسار فالجثة فاقدة الوعى ستوارى التراب ٠

٣ ــ وجودنا على الأرض حقيقة ثابتة ولكن من أين أتينا ؟ والاجابة المادية الملموسة بأن الطفل ولد بعد فترة حمل فى بطن أمه مدة تسعة أشـــهر وأتى نتيجة العلاقة الزوجية بين الأب والأم لا تجيب على هذا السؤال الفلسفى ٠ اذن الفلسفة هى التى لديها الاجابة ، ولكن المنطق لا يستطيع الاجابة رغم أنه جزء من الفلسفة ٠ اذن ليس أمامنا وأمامهم الا الخيال الذى يستند على ملاحظات ومؤشرات ومدلولات لما نلمسه فى الحياة ٠ وأقصد بالخيال هنا الخيال الذى لا يؤدى بنا الى الخرافات التى لا تستند على تصـــور علمى ٠ فالخيال مثلا يمكن أن يســـتند الى تفسيرات ترتبط بخبرات ملموسة لنا ، وحتى لا أستطرد فى تخيل غامض أقول مثلا ، لابد أن المصرى القديم قام بعملية قياس لمـــا يحدث له فى النوم والأحلام فهو ينام ولكنه يستيقظ ولكن فى فترة النوم تحدث الأحلام (سواء قام بتفسيرها أم لا) اذن هناك استيقاظ بعد النوم ، فما يمنع أن يقوم الميت بعد ذلك وينعم بحياة أخرى ــ وهذا التفسير يرضيه (ويرضى كل البشر تقريبا ، وأقول تقريبا لا تجنب مناقشة هؤلاء الذين ينكرون البعث) ٠

هناك الأساطير (وهى علوم عخر ما قبل العلوم كما أطلق عليها أحد الباحثون التى حاولت القيام بتفسير رحلة الشمس (من الغرب للشرق) حتى تعاود الشروق مرة أخرى ٠ وتناولت مصير الموتى وتناولت الخلق ــ هذا السر الغامض على البشر فى كافة العصور والخلق أيضا يخضع للتخيل (وليس للأوهام) فلابد من وجود قوة عظمى خالقة أوجدتنا على ظهر الأرض ٠ وفى قصص الخلق نجد أن أساطير الخلق استمدت صورتها من صورة لجة الماء (مثل الفيضان) ثم تظهر الحياة على الأرض (عندما تنحسر المياه وتظهر اليابسة) ٠ وهذا تناولتـــه فى الفصـــل الثالث ٠ وأرجو ألا يسخر بعض المتفلسفين من محاولات هؤلاء الناس الذين كتبوا أساطيرهم من حوالى خمسة آلاف عام قبل عخور الاكتشافات والاختراعات والأقمار الصناعية والأجهزة العلمية والرصيد العلمى الهائل الذى ورثناه من العلماء والفلاسفة والمفكرين طوال العصور التى ظهرت فيها الكتابة والعلوم والتدين واطلاق العنان للفكر ٠

« الانسان الذى يفكر » هو الذى حاول أن يعطى الاجابات لأجدادنا بخصوص القضايا الفلسفية الغامضة ٠ ونحن ندين للمفكرين عبر عصور

التاريخ بما أمدنا به من شروح وتفسيرات وعندما أطلق لنفسى عنان التفكير فى هذه الأسرار الغامضة (مثل الخليقة ومصير الانسان بعد الموت) تطل على بعض كلمات قالها بعض المتأملين • من هذه قصة كان يحكيها لنا مدرس فى مدارس الأحد وهو أن أحد الرهبان كان يريد أن يصل الى أغوار الذات العلية (الالهية) وانغمس فى الفكر ونام وحلم حلما بسيطا أراحه بعد ذلك • ففى الحلم وجد طفلا يمسك بكوز صغير ويحاول أن يملأ هذه الحفرة بكل ما فى المحيط من ماء فنهره الراهب وقال له « ماذا تفعل يا غبى ؟ هل تريد أن تضع كل هذا المحيط فى هذه الحفرة الصغيرة ؟ » فنظر اليه الطفل وقال له « وأنت تريد أن تنقل « غير المحدود » فى هذا الحيز « المحدود » ؟ فاستيقظ الراهب وشكر الله أنه وجد الاجابة من الطفل الذى ظهر له فى الحلم » •

أما عن تخيل أجدادنا للحياة بعد الموت فقد تناولته فى الفصل الثانى فى العقيدة وفى الفصل الثالث فى الأساطير • وحتى الأحاسيس التى مرت بخاطر الانسان فى صورة شعر أو نثر أو قصص فقد تناولتها فى الفصل الخامس • فالفكر ينعكس فى صورة أدبية وقد يتخللها المشاعر الوجدانية فوضعت بعض القصائد الشعرية ضمن العقيدة لاشتراكهما فى الوجدان وعرضت مشاعر انسان يائس سأم الحياة و « أغنية الضارب على العود » وهى تعبر عن الشك فى الحياة الأخرى ، وفى هذه القصيدة نجد الشاعر عبر عما قاله « شكسبير » فى مسرحية « هاملت » فى قصيدة « أكائن أنا أم غير كائن ؟ هذا هو لب الموضوع ، فالشاعر المصرى القديم قال « ولم يأت أحد من هناك [يعنى الحياة الآخرة] ليحدثنا عن حالهم ويخبرنا به لتطمئن قلوبنا (؟) قبل أن نذهب نحن كذلك الى المكان الذى ذهبوا اليه » (٣٤) •

أما الأعمال الأدبية والتى استخلصت منها (ومن العقيدة والأساطير) سمات الشخصية المصرية القديمة فقد تناولتها فى الفصل الخامس • وفى الفصل الرابع قمت بتناول النظام والفوضى والادارة والقوانين والتشريع المصرى القديم الذى حدد الحقوق والوجبات وصلات الناس ببعضهم فى المجتمع كما تناولت القضاء الذى كان يفصل فى المنازعات • والعدالة هى من أهم سمات الشخصية القومية فحتى فى الطقوس الدينية نجد الكاهن الذى يقوم بالخدمة ليومية فى المعبد يرفع تمثال الالهة « ماعت » الهة الحق والصدق والعدالة فى نهاية الطقس اليومى تأكيدا لمبدأ العدالة فى المجتمع المصرى القديم •

نلاحظ وجود « **سمة التسامح كسمة قومية** » فى موقف المصريين القدماء تجاه العقيدة والآلهة المحلية المختلفة • فقد كان قبول كل منطقة أو ولاية بآلهتها المحلية ووضعهم جميعا فى بوتقة واحدة ـ بوتقة الاتحاد ـ الذى جعل هذا الكم الهائل من المعتقدات والآلهة المحلية المختلفة تكون جزء من نسيج العقيدة • ولم توفق محاولات رجال اللاهوت فى مراكز العبادات المختلفة فى عمل شكل ثابت مع كل محاولات دمج الآلهة لدرجة أن صفات كثيرة كانت تسبغ على آلهة مختلفة وتسبغ على اله السلطة الحاكمة مثل بتاح فى منف وآمون فى طيبة • والمثال الواضح لذلك نأخذه من طيبة عاصمة الامبراطورية أثناء الدولة الحديثة :

« وقد كان ما يحكى عن اله الشمس من أساطير ينسب كذلك الى آمون ، قد قام بمحاكمة «حوريس وست » فى الصالة الكبرى بصفته رئيس التاسوع الأكبر • ويعتبر « آمون رع » ـ اله الشمس ـ خالق كل شيء هو الذى فعل كل ذلك • هو الوحيد صاحب الأيدى الكثيرة ـ هو أب الآلهة الذى صنع الناس وخلق الحيوانات وفرق بين الناس حسب أنواعهم • أخرج الناس من عينيه والآلهة من فيه • ولكن « آمون رع » هو أيضا عضد وعائل كل الكائنات الحية ـ وتمجد الأنشودة خاصة هذه الناحية من طبيعته ـ هو يسهر فى الليل حين ينام الناس أجمعون• وكالراعى الصالح يبحث عن الأفضل لقطيعه • وهو ينبت الحشائش لقطعانه وشجر الفاكهة للناس • وهو يخلق ما تعيش منه الأسماك فى النهر والطيور فى السماء • وهو يعطى نسمة الحياة لمن لم يخرج بعد من البيضة ويطعم ابن لدودة • وهو يخلق ما يعيش منه البعوض والدود والبراغيث • وهو يضع ما يلزم للجرذان فى جحورها ويطعم الطيور على كل الأشجار • النيل الطيب المحبوب يأتى حبا فيه ـ وحينما يأتى يحيا النـاس » (٣٥) •

فالمعروف طبقا لقصة « ايزيس وأوزيريس » فى الدولة القديمة بأن « ست » هو الذى دبر مؤامرة ضد أخيه « أوزيريس » واغتاله وقامت الزوجة المخلصة « ايزيس » بالبحث عن جسد أوزيريس الذى مزقه أخوه « ست » الى أربعـة عشر قطعة • ونجحت ايزيس ـ عن طريق سحرها ـ من اعادة الحياة الى أوزيريس أى بعثه ، وأنجبت منه ابنهما حورس ورعته ايزيس (وبذلك اكتسبت صـفتين : الزوجـة المخلصـة والأم الرؤوم) حتى أصبح شابا قادرا على الانتقام لأبيه ـ تماما كما نرى فى صعيد مصر كيف أن تعد الأرملة ابنها لكى يأخذ ثأر أبيه ـ وانتقم حورس لمقتل أبيـه وأصبح أوزيريس هو القاضى يوم المحاكمة وايزيس ونفتيس (أختها) راعيتين للموتى • أما الاله الأعظم ـ نترعا ـ فهو

« رع » أو « أتوم » الاله الخالق طبقا للتاسوع الهليوبولى [رع - شو وتفنوت - جب ونوت - أوزيريس وايزيس ونفتيس وست] . أما عندما زاد نفوذ الاله « آمون » والذى كان عضوا فى ثامون الأشمونين [آمون وآمونت - نون ونونت - كوك وكوكت - حوح وحوحت] ثم أصبح اله طيبة . ومع تعاظم مكانة طيبة بعد أن قامت أسرة سقنن رع وكامس وأحمس بتحرير البلاد . وكانت من طيبة . وبعد أن أصبحت طيبة عاصمة الدولة الحديثة وبالتالى عاصمة الامبراطورية زاد شأن آمون جدا وقام رجال لاهوت طيبة باضافة اسم « الاله رع » اليه وأصبح اسمه « آمون رع » واكتسب كل صفات « رع » وأهمها أنه أصبح أحد الآلهة الخالقة عندما اكتسب صفة « نتر - عا » أى الاله الأعظم . كما أنه أصبح « قلب مستجيب محب عندما يدعى » (٣٥) « هو منجى الخائف من اعتداءات السفيه ويسمع دعاء ذلك الذى فى كرب وضيق . ولهذا فان كل واحد يحبه .

فضل النيل على مصر

هناك أشياء لا يلحظها الانسان العادى مثل عدم وجود ملاريا فى وادى النيل فى مصر ولكن علماء جغرافيين مثل « لودفيج » مؤلف كتاب « النيل » أماط اللثام عن السر وراء ذلك فهو يقول : **والبرسيم** هو الذى يحفظ وادى النيل والدلتا من البرداء (الملاريا) على الرغم من البرك ذوات المياه الراكدة ، والحظر فى الماء الطاهر ، **والغرين** هو الذى يحرس مصر ، فلما عدل فى « البنغال » عن الرى بماء الغرين الى ماء المطر ظهرت البرداء (الملاريا) » (٣٦) ان النيل بطميه حول مصر الى حقول خضراء تغذى عليها سكان الوادى ، بل وكان هذا الخير الوفير سببا فى طمع الطامعين الذين انتهزوا فترات الضعف والفوضى واحتلوا البلاد . وكان القدماء يعرفون قدر النيل ولا يلوثون ماءه . فحتى فى « نصوص البراءة » أو ما يطلق عليها « النصوص الانكارية » التى يتلوها المتوفى يوم المحاكمة أمام أوزيريس كان يقول المتوفى « أنا لم أدنس ماء النيل » !! ومما يلفت النظر هو ما نجده على أحد جدران طيبة وهو ابتهال أحد الكهنة الى النيل فانه يقول : « السلام عليك أيها النيل الذى يخرج من الأرض لغذى مصر ، والذى يخرج من الظلمات الى النور « ليشاد بوروده » ، أنت تسقى الحقول ، وقد خلقك « رع » لتطعم القطاع ، أنت تروى حتى الصحراء البعيدة من كل ماء .. واذا ما كان النيل **مكسالا** سد الأنوف وهزل الناس وزالت القرابين وماتت الملايين ، واذا ما ارتفع النيل كانت الأرض فى سرور .. وكانت المعد فى حبور ، وضحكت الظهور وابتسمت الثغور ... أنت الذى يجعل الضفاف خضرا ، أنت الذى يقوت الناس بفضل قطاعه . أنت الذى يقوت القطاع بفضل المرعى ، أيها النيل أنت تخضر ! أيها النيل ، أنت تخضر » (٣٧) .

هكذا يعترف المصرى القديم بفضل النيل عليه وعلى الوادى . فمياهه تعنى الحياة للانسان وللحيوان وللنبات . لذلك قدسه المصرى القديم وأطلق عليه الاله « حابى » وكان يحتفل بفيضانه احتفالا كبيرا ولازلنا نحن أحفاد القدماء العظماء نحتفل بعيد وفاء النيل . لقد كانت الضرائب فى الماضى تفرض طبقا لمنسوب مياه الفيضان وكان هذا يعنى منتهى العدالة فانخفاض الفيضان يعنى ضرائب أقل أو حتى عفوا من الضرائب عندما ينخفض جدا . واننا نجد نص يشتمل على « عمود سنى المجاعة السبع » (٣٨) وهى كتابة من أقدم كتابات مصر ، ويحتمل أن هذه الكتابة أقدم من الأهرام ، ويئن أحد الفراعنة على هذا العمود بما يأتى « لم يرتفع النيل منذ سبع سنين ، ويعوزنا الحب ، وقد جفت الحقول » (٣٨) وهذا الفرعون يعرف جيدا أن هذا يعنى المجاعة لشعبه

والعجيب أن وجود سبع سنوات من القحط تكرر ذكرها عبر العصور ٠ وعلى سبيل المثال الحلم الذى فسره « يوسف الصديق » للفرعون الذى أزعجه السبع بقرات النحاف التى ابتلعت السبع بقرات السمان ٠ وقام يوسف بتخزين الطعام لمواجهة السبع سنوات العجاف ٠

ويعترف « اخناتون » صاحب الثورة الدينية الكبيرة على كهنة « آمون » فى طيبة فى الدولة الحديثة بفضل النيل على الحياة فى مصر فبعد أن كتب فى نشيده مخاطبا « آتون » : « أنت ترتقى جميلا الى أفق السماء ، يا « آتون » ، يا من هو مطلع على أسرار الحياة ، وأنت حينما تستدير فى الأفق تملأ الأرض من جمالك، وأنت تبلو منيرا فوق الأرض٠ فتغشاها بأنوارك كما تغش كل شيء خلقته » (٣٩) فانه أكد على دور النيل العظيم فى اطعام الناس ، فقال فى نشيده أيضا : « وأنت خلقت **النيل** فى العالم الأدنى فأتيت به الى حيث تود **اطعام** الناس يارب الجميع، وقد وضعت النيل فى السماء ، أيضا ، لكى ينزل نحوهم فيلطم الجبال **بأمواجه كبحر ويسقى حقولهم بما فيه الكفاية** ، وفى السماء نيل واحد للبلاد الجبلية ولجميع الحيوانات التى تذهب الى سفوحها ،**وقد وهبت نيل العالم الأدنى لمصر** » (٤٠) ٠

لقد كان للنيل الفضل فى تشكيل الشخصية المصرية ، بل شكل خلق الشعب المصرى ٠٠٠ فقد استقر المصرى القديم فى وادى النيل بعد أن تغلب على جنوحه وقت الفيضان وأمننه الاستفادة من مائه بعد ان شق القنوات وبنى الجسور التى تحميه من غمر الأرض بالماء الغزير وأصبح النيل مصدر الخير الذى يروى الأرض وقام الفلاح العظيم بزراعة الأرض بانتظام ٠٠ وبذلك فرض النيل على سكان الوادى البيئة الزراعية بكل ما تتركه هذه البيئة على السكان : فلابد من العمل الجاد المنظم ولابد من **التعاون** بين السكان حتى يقوموا بتنظيف الأرض ، وعمل قنوات بل ورفع المياه الى الأماكن المرتفعة ، وعمل أحواض [رى الحياض] ، ودراسة المحاصيل ومعرفة وقت بذرها ووقت حصادها، وتحديد المساحات المنزرعة [تعلم علم المساحة] وطالما أنه ينتظر الحبوب حتى تنبت وتصبح نباتا أخضر بعد أن كانت حبه ميته وحتى يحين حصادها فمعنى هذا أنه اكتسب **الصبر** والمتابعة ، بل تعلم **الادارة** فى صورتها البسيطة بمعنى أنه ينظم ما يحتاجه لقوته اليومى وبتبادل السلع والمحاصيل مع من حوله أى المتاجرة وتبادل المنافع ٠

« وقد حكم النيل على المصريين بأن يكونوا من الحاسبين ، وقد وجه المصريون ذكاءهم الى حل ما فرضه النيل عليهم من عمل حلا

عمليا » (٤١) • والحياة الريفية والبيئة الزراعية لها تأثيرها المباشر على خلق الناس وعلى مزاجهم وعلى هدوئهم وقناعتهم ، وعلى روحهم العملية فى الاستفادة من الخير الدائم المستمر الذى يمدهم به النيل العظيم • فالماء يعنى الحياة ، ويعنى الرى ، ويعنى الاستقرار من أجل الزراعة ، ويعنى تشكيل صورة المجتمع المترابط غير المتنقل أى تكوين **الأسرة** ــ نواة المجتمع الأولى • فيتعاون الرجل والمرأة سويا فى العمل اليومى من أجل صياغة لقمةالعيش ويتعاونون فى انجاب الأطفال الذين هم امتداد لحياتهم ، ويتعاونون من أجل صيانة الرباط المقدس الذى يكفل لهم حاجاتهم النفسية والاجتماعية بعد أن أحسوا بالأمان المادى المتمثل فى محاصيل الحقل الوفيرة •

والنيل صاحب الفضل أيضا فى تعلمهم التقويم • والمصريون كانوا أول من استعمل التقويم ، ونقل عنهم الرومان ذلك بعد أن أخذه « يوليوس قيصر » عام ٤٤ ق•م • من مصر ، عندما حضر اليها وقابل « كليوباترة السابعة » ــ آخر حكام البطالمة ــ ونقل عن المصريين هذا التقويم المصرى والذى سمى فى « روما » « بالتقويم اليونانى » ــ نسبه الى يوليوس قيصر الذى أحضره من مصر • « وقد كانوا يقسمون السنة الى ثلاثة أقسام : الفيضان والبذر والحصاد ، وذلك مع علمهم منذ أقدم الأزمان كون السنة مؤلفة من ٣٦٥ يوم وربع يوم [ست ساعات] ، وذلك مع جعلهم السنة اثنى عشر شهرا وجعلهم الشهر الواحد ثلاثين يوما مضيفين الى هذه الشهور خمسة أيام ، وهكذا كان يؤخر ست ساعات فى كل سنة ، فاذا ما مضى خمسمائة سنة قلب نظام الفصول قلبا تاما ، ثم وجب فى نهاية سنة ١٤٦٠ وضع سنة ١٤٦١ كسنة كبيسة ردا للسنين الى محلها (٤٢) •

« ووقع ذلك للمرة الأولى فى سنة ٢٧٧٦ قبل الميلاد ، أى فى عهد أحد الفراعنة زوزيرى (زوسر) الذى بنى الهرم ذا الدرجات ، ووقع ذلك للمرة الثانية فى عهد خلف « لاخناتون » فى سنة ١٣٤٦ قبل الميلاد ، وأما المرة الثالثة ففى سنة ١٤٤ بعد الميلاد •••• وأما المرة الرابعة فقد كانت فى عصر « المماليك » •• فهذه هى أدوار أمة اكتشفت التقويم منذ ستة آلاف سنة ، وهى تثير فى الذهن رؤيا قصر عجيب يسمع تحته **صوت نهر حافل** بالأسرار » (٤٣) [يلاحظ تحديد « خوفو » بدلا من زوسر فى كتاب أسرار الهرم الأكبر] •

واذا كان المصرى القديم هو الذى جعل من ارتباطه بالأرض والنيل والشمس منظومة خالدة لا تزال مستمرة حتى اليوم ، فاننى أرى أن

استخدام كلمة « الفلاح العظيم » لوصف هذه المنظومة التى جعلت من الحضارة المصرية القديمة أقدم حضارة فى العالم ، والتى لا يزال امتدادها — المدنى — مستمرا حتى الآن • واستخدامى لكلمة الفلاح العظيم بمعنى شامل هو وصف لواقع حادث قام ويقوم به الانسان المصرى بالمحافظة على هذا الارتباط الخالد : ارتباط الانسان بالأرض التى يعيش عليها ويزرعها وارتباطه بالنيل مصدر الماء أى الحياة وارتباطه بالشمس التى ساعدت على نمو النبات بالاضافة الى نشرها الضوء والحرارة • ويكمل هذه المنظومة الزراعية منظومة اجتماعية تتمثل فى الآسرة والمجتمع ومنظومة دينية خلقية روحية ترتبط بالخالق — جل جلاله — الذى أوجد الانسان والطبيعة ومنحه العقل والقدرات التى حولت المنظومة الزراعية الى منظومة حضارية أخلاقية (نسبة الى الأخلاق التى تعلمها الانسان المصرى من التعامل مع أقرانه) •

لقد كان العنصر البشرى هو الذى تأمل ما حوله من كون منظم ومن نظام فلكى دقيق فاستخلص معانى خالدة فالاستمرارية موجودة فى هذا التناغم الفلكى من نهار يتبعه ليل وليل يتبعه نهار ومن فصول متتالية فى حلقات متصلة مستمرة بل ونفس النيل بفيضانه يأتى منتظما مع المنقلب الصيفى متزامنا مع ظهور « النجم الشعرى » فوصل الى فكرة البعث والخلود • واستنتج أن هذا الكون المنظم لابد وأن يكون لديه خالق أعظم — نترعا — ألم يقل « نيوتن » العالم العظيم بأن الكون كالآلة العظيمة ، ووجود هذه الآلة تعنى وجود صانع لهذه الآلة ؟ وهذا ما أدركه المصرى القديم ••• أدرك وجود هذا الصانع العظيم الذى صنع هذه الآلة الدقيقة وهذا الخالق الذى خلقه وخلق الحيوانات والنبات وكل شىء فى هذا الكون العظيم • وقاده تأمله الى فكرة الحياة الآخرة — حياة ما بعد الموت • لقد كانت الصورة التى رآها فى النيل أيام الفيضان اى وجود ماء كثير ثم ينحسر وتظهر الأرض هى نفس الصورة التى تخيلها للخليقة • فلجة الماء هى التى يظهر منها « خبر » الذى خلق نفسه من ذاته ثم قام بخلق الآلهة الأخرى والانسان والحيوان وكل شىء • [فى فصل الأساطير صورة واضحة لنظرية الخلق عند المصرى القديم] •

« وقد سهل النيل جميع الأعمال الذهنية والجماعية ، وقد حال النيل دون اقامة مبان حيث يكون الحجر ، ونجد المعابد منتشرة فى كل مكان من وادى النيل خلا هنالك ، وتضاف هذه الظاهرة السيئة الى ظاهرة أخرى تجعل تلك المعابد أدنى قيمة من آثار الأغارقة ، فبينما يبدو حجر « الكرنك » الكلس غير جميل الا اذا كانت تحت أشعة القمر ترى « البارتنون » يعرض رخامه لشعاع الخليج فيؤدى مر القرون الى زيادة

زنجاره (صدأ النحاس) الأصفر والوردى ، ويترك النيل خلفه ، وعلى أثر دخوله « مصر » ، على أثر دخوله أسوان • تلك الأحجار الرائعة ، ذلك الجرانيت النوبى الذى يحاكى الذهب ، ويقلل السهل ، من ناحية أخرى ، تأثير ما يقام عليه من قصور ومعابد مادمنا قد تعودنا وضع الرب والملك على التلال فوقنا • وتتجلى حيوية المصرى وتعطشه الى الخلود فى المسلات المنفصلة عن الصخور الابتدائية والتى يلوح أن نموذجها مقتبس من الطبيعة » (٤٤) •

ويشـــير الكاتب الألمانى « اميل لودفيج » الى فضـــل النيل على العبرانيين الذين أتوا لمصر كأسرة واحدة والذين قام نبى الله موسى بقيادتهم الى خارج مصر ـ بعد أربعمائة عام ـ وقد قام المؤلف بتفسير معنى كلمة موسى بأنها تعنى ـ ابن النيل ـ « وتجىء كلمة (مو) بمعنى الابن وكلمة (شه) بمعنى الحوض أو النيل » (٤٥) وأرض النيل التى استضافت بنى اسرائيل وأنقذتها من الجفاف الذى كانوا يعانون منه فى أرض فلسطين فى ذاك الوقت جذبت اليها القائد العربى عمرو بن العاص بعد ذلك بنحو ألفين عاما تقريبا • فها هو يصف الأرض التى تغنى بها أبناءها القدماء والذين جعلوا من النيل والشمس الالهان اللذان أوجدا مصر • « فالاله الشمس هو الذى أبدع النيل ، كقول اخناتون : « أنت الذى خلق النيل فى أعماق الأرض ، وأنت الذى قاده حول الأرض لاطعام الناس حيث تشاء » (٤٦) فها هو وصف « عمرو بن العاص » لأرض الكنانة مصر :

« اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر تربـــة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر » وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ميمون الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان ، يدر حلابه ، ويكثر عجاجه ، وتعظم أمواجه ، فتفيض على الجانبين ، فلا يمكن التخلص من القرى بعضها الى بعض الا فى صغار المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن المخايل ، أو ورق الأصائل ، فاذا تكامل فى زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ فى جريته وطما فى درته ، فعند ذلك تخرج مله محقورة يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بهـــا الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب ، لقيهم ما سعوا من كدهم ، فناله عنهم أناس بغير جدهم فاذا أشرق الزرع وأشرف سقاه الندى ، وغذاه من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء فاذا هى عنبرة سوداء ، فاذا هى زمردة خضراء ، فاذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك الله الخالق لما يشاء » (٤٧) •

وكان « ينال النيل فى العهد الرومانى أعظم تبجيل فى تاريخه ، وتحظر رومه على جميع الشيوخ والفرسان أن يطأوا أرض مصر ، ويبلغ هذا البلد من عظم الاغراء ما كان يجب معه أن يحرم دخوله على كبـار موظفى الامبراطورية ، وكان العامل فى ذلك الحظر الفريد فى بابه هو أن الرومانى يشعر بأنه سيد العالم اذا ما بدا سيد ذلك النبر الكبير ، وفى ذلك الحين يعقد « ديودرس » أكاليل الثناء على المصريين فيقول انهم أكثر شعوب العالم عرفانا بالجميل » (٤٨) ٠

هكذا نرى الأجانب يعرفون قدر مصر من ناحية خصوبة أرضها والنهر المبارك الذى يجرى فيها وجعلها جنة يطمع الجميع فيها ، وهو ما جعل البلاد تتعرض لأكبر حقبة من الاحتلال الأجنبى ٠ فكانت الخيرات الوفيرة نعمة لأهل البـــلاد ، وفى نفس الوقت نقمة بأن جذبت حاملى السلاح الذين أتقنوا استخدامه فى سبيل سلب خيرات المنتجين الذين كدوا وعملوا وأخرجوا الثمار من أرض مصر السوداء التى جعلها خصبة بما كان يأتى به النيل من غرين وماء وفير على مدار السنة ٠

« وقد حكم النيل على المصريين بأن يكونوا من الحاسبين ، وقد وجـه المصريون ذكائهـم الى حل ما فرضـــه النيل عليهم من عمل حلا عمليا » (٤٩) كان النيل هو مصدر الخير لما يقدمه للأرض من تربة خصبة تتجدد خصوبتها كل عام مع قدوم الغرين الذى يحمله مياه الفيضـــان الجارف الذى ينحت من جبال الحبشه الرواسب البركانية الخصبة والتى تكتسب منها تربة مصر الخصوبة المتجددة ٠ وكان للنيل الفضل فى استقرار المصريين فى واديه لكى يرووا الزرع بالميـاه طوال فترة نموه حتى يصبح محصولا يقتاتون منه ٠ ونتيجة هذا الاستقرار تكون المجتمع المصرى بدءا من الأسرة التى يشارك كل أبنائها فى العمل سويا للزرع والرى والجمع فيصبح الحصاد هو مصدر الأمن الزراعى لهم ٠ وتكونت النجوع ثم القرى ثم المدن ٠ وطالما تجمع الناس سويا قاموا بتوزيع دور كل واحد منهم فى المجتمع الكبير ٠ وظهرت الحرف والتجارة والتعامل والتبادل والتعاون أى ظهر المجتمع بصورة أشمل ٠ والنيل أيضـــا علمهم التعاون سويا حتى يكبحوا شططه وقت الفيضان ويبنون السدود اتقاء لخطر غمر الحقول بدرجة تغرقها وتكون خطر على حياتهم ، وقاموا بالتعاون فى شق الترع والقنوات لكى تستفيد الأرض التى تبعد عن مجراه من مياهــه الوفيرة ٠ وتعلموا من النيـــل أشياء عديدة : تعلموا المســاحة حتى يســتطيعوا تحديد حدود الحقول بعد انحسار الفيضـــان وتعلموا الحساب بل وتعلموا حساب التقويم ومعرفة موعد بذر الأرض والرى وجمع المحاصيل ٠ والفلاح الحديث لا يزال يحفظ الشهور القبطية

وهى الشهور المصرية القديمة ولا يزال يربط مواعيد زراعة المحاصيل المختلفة طبقا لما تعلمه من التقويم المصرى القديم • وكأمثلة على ربط الشهور القبطية بالظواهر الطبيعية وبالمحاصيل نجد الفلاح يردد جمل مثل هذه : « (أمشير) « أبو الزعابيب الكتير » ــ (هاتور) « أبو الدهب المنثور » ــ (كياك) « اللى صباحك مساك » [أى اليوم قصير » ــ (طوبة) « اللى تخلى العجوزه كركوبة » [اشارة الى شدة البرد] ــ » (٥٠) •

كما تعلم الناس ركوب الماء والتنقل فى طول الوادى من استخدامه للنيل كوسيلة للمواصلات أيضا • ولسهولة الانتقال عن طريق النيل ظهرت الثقافة المشتركة فى كل أنحاء الوادى لأنه سهل التحرك وسهل الاتصال وتمكنت الحكومات من السيطرة على الحكم فى كل أنحاء البلاد والسيطرة على التجارة والسيطرة على المجتمع بأسره • فالنيل يعنى الارتباط والترابط بين كل أنحاء الوادى وما يعنى هذا الارتباط من تحديد دور كل فرد فى المجتمع الكبير سواء أكان زارعا أو صانعا أو تاجرا أو كاتبا أو مهندسا • والتعامل بين الأفراد أصبح سهلا بعد التحرك بين ربوع الوادى والانتقال يسهل انتشار اللغة والثقافة ، فأصبح النيل هو العامل المباشر لكل ضروب النشاط وانتشار اللغة الواحدة والثقافة الواحدة

من وحى الكتب المقدسة

خلق الله سبحانه وتعالى آدم تحيط به الجنة بخيراتها ثم خلق سبحانه وتعالى حواء من ضلع آدم حتى تؤنس وحدته وحتى يتناسلوا ويتكاثروا ويملأوا الأرض الفسيحة بأولادهم وبناتهم (بعد طردهم من الجنة عندما صدقوا عدو الخير ــ الشيطان ــ وأكلوا من شجرة المعرفة وعصوا كلام الخالق) وحكم على آدم أن يكسب عيشه بعرق جبينه وحكم على حواء أن تحمل وتلد بالأوجاع ••• وآدم الذى سمع صوت الله وعرف الحكم عليه الصادر بعد طرده من الجنة ولابد وأنه علم أولاده هذا ولذلك ظهرت ضمن الثقافة الجمعية لبنى الانسان وجود هذه القوة العظمى ، وحتى ان اختلف التعبير عنها فى صورة (التوحيد) أو حتى فى التعددية هناك خيط يقود الفكر الانسانى الى خالق الانسان ــ الخالق الأعظم ــ وهذا سنلمسه عند التمعن فى الديانة المصرية القديمة رغم بعض الاختلافات فى البيئات المحلية والاختلاف أيضا فى المسميات • وان لم يكن وجدان الانسان وروحه تقودانه الى هذا الاحساس الداخلى الغامض لدى الانسان لما نشأت أى عقيدة دينية ، وان لم تتسم الناحية

العقلانية بالبحث وبمحاولة ايجاد التفسير ـ مثلما نلمس فى الأساطير المتنوعة ـ لظل الانســـان بعيـــدا عن الوجـدان الدينى وعن الفهم للروحانيات ٠

واذا تأملنا الحياة التى عاشها بنى الانسان (بنى آدم) سنلاحظ أن الانسان كان ولا يزال يكد ويكافح فى الطبيعة ويكسب عيشه بعرق جبينه ، ولا تزال حواء تضع أولادها وهى متوجعة ٠ وهذا قدرهم ولابد من القيام بدورهم فى الحيـاة لكى يحيوا على أرض المتاعب ولابد من الصلوات التى وجدناها مكتوبة على جدران المقابر فى مصر القديمة تعبر عن طلبهم العون من القوة العظمى التى كانـوا يدركون وجودها ادراكا تاما ٠ بل كان احساسهم بعدو الخير الذى يهوى مداعبة الانســان مداعبة سخيفة هو الذى جعلهم يلجأون الى التمائم والتعاويذ لدرء الخطر عنهم ، وسنجد أنهم لجأوا ـ حسب ما تخيلوا ـ الى السحر ليساعدهم على محاربة الوسواس الخناس الذى لا يرونه ولكنهم يحسون ما يفعله بهم (وسأتناول هذه النقطة عند مناقشة الأساطير فى الفصل الثالث) ٠ وفكرة الشيطان الغامضة ـ رغم عدم ذكر كيفية خلقه فى الديانة المصرية القديمة ـ استمرت تراوده فى فكره فأوجده فى أساطيره على أنه الثعبان « أبوفيس » الذى كان يهاجم مركبة الشمس (مركبة « رع » الاله الخالق عند المصريين القدماء) ، ولم ينجح « أبوفيس » أبدا ولكنه لم يتوقف عن عمله العدوانى فقصـــة الصراع الأبدى الأزلى بين الخير والشر هو جزء ثابت فى العقيدة الدينية ومحاولة التفسير لما يدور فى الكون وفى حياة الانسان موجود فى الأساطير ٠ وكلما قرأت عن دور الشر المتمثل فى « أبوفيس » وفى « ست » الذى اغتال أخيه أوزيريس بمؤامرة دنيئة أجد صوت داخلى يقول لى : لا يستطيع الشيطان أن يحيا فى سعادة بدون ملاحقة الانسان فى كل مكان ٠٠ فاذا كان قد استطاع طرده من الجنة ، فهل يصعب عليه أن يجعله يتعذب على أرض المتاعب والآلام ؟ لماذا لا يسمم أفكاره لكى يقتل بعضهم البعض ؟ لماذا لا يثير الأحقاد والكبرياء والغرور لكى يتطاحنوا فيما بينهم ؟

من نسل « آدم » الذى استمر بعد الفيضان كأبناء نوح الثلاث : « سام » و « حام » و « ويافث » تكون شعب مصر القديمة من خليط سامى وحامى ويكاد يجمع علماء الانثروبولوجيا على ذلك « واذا تأملنا صورة « صلايه نعرمر ـ مينا » يتبين أن نعرمر القادم من جنوب الوادى « حامى » طبقا لملامح الوجه ، ونجده ممسكا بأحد سكان الشمال ذو الوجه المستدير مما يبين بأنه من نوع « سامى » ٠ وهذا ما أجمع عليه معظم العلماء ، وان اختلفوا فى كيفية مجىء كل جنس ٠ فالأرجح أن « الجنس

الحامى » قادم من « أفريقيا » ، واختلط معه « الجنس السامى » القادم اما من « الجزيرة العربية » أو من « سوريا » وتسللوا الى « الدلتا » . وقطعا حدث اختلاط مستمر حتى تكونت « مملكة الشمال » و « مملكة الجنوب » . وسواء أكان « مينا » هو أول من وحد القطرين أم سبقه غيره ، فالمهم هو أن المجتمع المصرى القديم تكون على ضفاف النيل مما يعنى بأن الظروف الاجتماعية والطبيعية كانت لها أثرها الواضح فى تشكيل المجتمع الزراعى بصفة أساسية وفى ظروف مناخية مناسبة ، ويقوم النيل بالدور الكبير فى تشكيل هذا المجتمع » (٥١) .

لقد نجح تعاون الناس فى كبح جماح النيل وقت الفيضان العالى ببناء الأسوار ، وشقوا القنوات والترع للاستفادة من مائه ، وعملوا خزانا فى بحيرة قارون ليحتفظوا بالمياه العذبة (كانت بحيرة قارون فى الماضى مياه عذبة) . ولقد نجحوا فى الاستقرار وفى تأمين معيشتهم وتحولوا من مجتمع جمع الثمار والترحال والتنقل وصيد الحيوانات البرية الى مجتمع انتاج الثمار (أى بزراعة الأرض وزرع النباتات) . وبعد أن اطمأنوا الى الأمن الغذائى قاموا بدراسة الكون ودراسة السماء بشمسها وقمرها ونجومها وتأملوا شروق الشمس وغروبها وتأثروا بكل هذه المؤثرات الطبيعية والتى أثرت على مجتمعهم الذى ظهر فيه أول تعاون فى كبح مياه الفيضان ثم حماية أنفسهم من الحيوانات المتوحشة . واكتسب المصرى القديم صفات دائمة والتى أصبحت من سماته القومية : ألا وهى **التعاون والحب والسلوكيات الحسنة** التى تجعله مقبولا من الآخرين وهنا كانت بداية **الأخلاقيات** والتى نشير اليها حتى الآن بكلمة « أخلاق القرية » . وهذا التعاون وهذا الحب والسلوك الأخلاقى انعكس على أول خلية فى المجتمع ـ **الأسرة** .

الرباط المقدس

ارتبط المصرى القديم بفطرته بهذه الخلية الأولى فى المجتمع وقدس هذه الرابطة ، وسنلاحظ عند دراستنا للمجتمع الانسانى بأن الرباط الأفقى المتمثل فى الرابطة الأسرية ضمن المجتمع المدنى هو الرباط المستمر الذى لم ينقطع منذ بداية المجتمع المصرى وحتى الآن وهذه تعتبر سمة من السمات القومية . الأسرة هى حماية واستقرار له والأسرة هى مسئولية الرجل الذى يقوم بحمايتها ومسئولية المرأة المتعاونة التى تدعم هذا الرباط ومن هذا التعاون ينشأ الدفء العاطفى الذى يعطى الصحة النفسية للأطفال لما يحسونه من عطف وحب ورعاية .. الأسرة

هى نبع الحب والحنان اللذان لا ينضبان ٠٠ الأسرة هى المحيط البشرى المباشر للطفولة السعيدة حتى يترعرعوا فى جو الدفء العاطفى والرعاية الأبوية ورعاية الأم بعطائها وخدمتها ٠ ان المصرى كان يهتم ويسعى الى تكوين الرباط المقدس (وحتى اليوم يهتم المصرى عموما بهذا الرباط المقدس) ويعتبر حب الأسرة هو أقوى المقومات فى الشخصية القومية المصرية ٠

وحيث أن التاريخ الصادق هو حياة الشعب فان الفصل الأول يتناول دراسة الحياة اليومية وهو ما يعنى دراسة نظام الأسرة والنظام الاجتماعى وهو الذى يجرنا الى دراسة النظام الاقتصادى والعقيدة الدينية ٠ ثم نتطرق الى دراسة نظام الحكم لما له من أثر على المجتمع ٠ ودراسة الظروف المحيطة سواء سياسية أو اقتصادية أو بيئية أو اجتماعية ستكون بقدر تأثيرها على الناس وليست دراسة أعمال وانجازات الملوك أو الحكام المحليين ٠ ورغم تداخل المؤثرات مع المجتمع فى صورته العامة أو صورته الخاصة أى الأسرية ، الا أن البحث فى الفصل الأول سيركز على الأسرة الصغيرة لما لها من أثر على تكوين الشخصية القومية التى اكتسبت معانى الحب والدفء العاطفى والاحساس بالأمن والأمان ٠ كما أن وجود أسرة متماسكة فى مجتمع متماسك يعنى وجود معايير خلقية تحدد سلوك الناس تجاه بعضهم ٠ وهذا الانتماء الأسرى يعنى أيضا الانتماء للمجتمع والانتماء للوطن والارتباط بالأخلاق السامية النبيلة ٠ وكل هذه تأتى ضمن مقومات الشخصية المصرية ٠

ولقد أعطى المجتمع المصرى القديم المرأة المصرية حقها حتى تقوم بدورها الهام كدعامة الكيان الأسرى ولكى ينطبق عليها وضعها ضمن المجتمع الانسانى السليم « فان المجتمع الانسانى لا يستقيم الا اذا قام على أسس انسانية سليمة ٠ والأسس الانسانية السليمة لا تكتمل للمجتمع الا اذا أخذت المرأة مكانها الطبيعى فيه » (٥٢) واذا نظرنا الى الصور المرسومة على جدران مقابر النبلاء فى مختلف العصور نجد المرأة تشارك الرجل فى كافة الأنشطة وتحس بأنها تحظى بالاحترام وتتمتع بالحب والتقدير ونلاحظ فى هذه الصور كيف أنها « ساهمت فى جهد المجتمع كله على أساس الحرية والانسانية والمساواة التى لا يقوم مجتمع بغيرها ، فلم تعرف الحضارات البشرية مجتمعا سليما ثابت الأركان قام على الحجر على النساء أو امتهانهن أو ابعادهن عن ميدان العمل والكفاح ، ولم تعرف مجتمعا سليما لا تتمتع المرأة فيه بالسيادة التى تمكنها من القيام بواجبها الطبيعى كأم وسيدة بيت أو كمكافحة فى سبيل العيش » (٥٣) لقد كانت المرأة المصرية القديمة ـ كما تظهر فى الصور

حاملة للقرابين ، راعية لأطفالها ، مشـاركة للرجل فى عمله ٠ وتحظى على التقدير والاحترام لأنها شريك عامل وفعال فى المجتمع ٠ وكانت المرأة تصور كالهة وكزوجة نشيطة عاملة سافرة الوجه وتتزين وتعمل وتؤدى دورها الكامل داخل وخارج البيت ٠

ويقول الدكتور « حسين مؤنس » عن الحضارة المصرية : « والحضارة المصرية القديمة من الطراز الذى أعطى المرأة حقهـا ، واعترف بها ، ومنحها حقها كاملا فى البيت وفى ميدان العمل والحياة ٠ بل ان عينيك لا تقع على رسم مصرى قديم الا وجدت المرأة فيه الى جانب الرجل ورأيتها رافعة الرأس تسير معه وتعمل معه وتحتمل فى الحيـاة نصيبها الذى يقابل ما تتمتع به من حقوق ، وأنت تجد المرأة فى مناكب الحياة المصرية كلها ٠ وأنت تجد فى مصر القديمة عددا من الأرباب فى صورة نساء ٠ ونجد ملكات عظيمات يضاهين الملوك عظمة وسلطانا ، وتجد عصورهن مشرقة مما يدل على احترام رعاياهن لهن ، وانتظـامهن فى طاعتهن ، وأنت تجـد الأدب المصرى القـديم يضـع المرأة فى وضـع التـكريم والاعتزاز » (٥٤) ويتناول الدكتور مؤنس مكانة المرأة المصرية حتى بعد دخول العرب مصر فيقول : « كانت المرأة فى مصر القديمة ، كانت سيدة بيت ، وأم أولاد ، وعاملة حقل ومشاركة بنصيبها الكامل فى الحيـاة ٠ ومن أغرب الظواهر أن مصر القديمة **لم تعرف البغاء أو تجارة النسـاء ولا أسواق الرقيق** ٠ وعندما فتح العرب مصر لم يتخذوا من المصريات جوارى قط ٠ وظاهرة دخول الشعوب فى ولاء العرب الفاتحين عرفتها كل بلاد الاسلام الا مصر ٠ فليس هناك موال مصريون ٠ **والبيت المصرى حافظ على وحدته واحترامه وسلامته طوال عصور المحن والمظالم ٠٠٠** ولا زال المجتمع المصرى من اسلم المجتمعات واوفرها فضيلة ، فيما يتعلق بخلق النساء وحسن تصرفهم وصيانتهن لأنفسهن » (٥٥) ٠

الآلهـة والشـعب

يقول مستر « ارمان » عن صلة الآلهة بالشعب : « فالآلهة لم تكن آلهة الشعب بل كانت آلهة الملك ابنها ٠ فهو الذى يشيد لها المعابد ويحضر لها القرابين ، وهو صاحب الحق فى رؤيتها ، واذا قام الكهـان بهذه الأعمال فانما يقومون بها كممثلين له ٠ واذا ما أسبغت الآلة على مصر طيباتها فلا يحدث ذلك من أجل الشعب بل حبا فى ابنهم » (٥٦) ٠

ويقول دكتور « محمود سـلام زناتى » : « الآلهة تهتم بالشعب فطبقا « لأسطورة أوزيريس وايزيس » أنه « بمجرد أن صار أوزيريس ملكا على العالم انتزع المصريين من حياة الشظف والتوحش التى كانوا يعيشونها · وعرفهم ثمار الأرض ، وسن لهم القوانين ، وعلمهم احترام الآلهة ، ثم جلس خلال الأرض جميعها لينشر المدنية » (٥٧) ·

وعاد مستر « ارمان » يتحدث عن الفلاحين وعلى دهشته عن حديث المصريين عن « **اله عام** » فيقول : « الفلاحـين وهم السـواد الأعظم من أفراد الشعب لابد أن كانت لهم آلهتهم التى تحميهم وترعاهم ، ولكنهم لم يتركوا لنا وراءهم عمارات مشيدة أو آثار حجرية · ولكن الحال تغير فى الدولة الحديثة وبدأنا نلاحظ تغلغل أفراد هذه الطبقات فى الحياة الدينية · « ومما يبعث على الدهشة أن المصريين كثيرا ما تحدثوا علاوة على آلهتم المعينة عن « **اله عام** » (٥٨) ·

وما نعرفه عن الآلهة استقيناه من النصوص المكتوبة مثل « متون الأهرامات » وغيرها من المتون ومن كتب الحكمـة ومن أقوال الحكماء ولكن الواضـح أن هناك شبه اجماع على الخالق الأعظم وان اختلفت المسميات : « بتاح » أم « رع » أم « خنوم » أم « آمون رع » · وهناك الكثير من الآلهة المحليين · ومعظم الآلهة طيبيون يرعون الانسـان ويساعدونه فى ضيقاته · وحتى الآلهة الشريرة مثل « ست » و « سوبك » فان هناك من عبدوهم اتقاء لشرهم (مثلما نجد فى معبد كوم أمبو · فنصف المعبد لسوبك ولكن معه محاولة تحسين صورته بجعل حتحور زوجتـه ، والنصف الآخر لحور ـ ور أى حورس الأكبر الاله الطيب) أو كانوا يلجأون الى التعاويذ والسحر لمحاولة السيطرة على المخلوقات الشيطانية حتى يحمون أنفسهم منها · وحيث أن هناك قوى الشر فكان لابد من اللجوء الى قوة تعينهم ضد هذه القوى المعادية · لم يكن المصرى القديم متمردا على ما فى الحياة وما فى الكون ، فلم نجد فى أدبهم شخصية مثل « برومثيوس » الذى سرق من الآلهة قوة « النار » وأعطاها للبشر لكى يستخدموها فى حياتهم ويستخدموها فى الانارة ·· كان المصرى القديم انسانا مسالما طيبا ومطيعا ·

الفصل الأول

أثر المجتمع
فى تشكيل الشخصية القومية

ان دراستنا للحضارة العظيمة التى خلفها لنا أجدادنا توضح لنا معدن هذا الشعب الأصيل . فالحضارة المتميزة كانت لها المقومات المادية والعلمية والفكرية والدينية والاجتماعية والتى أوضحتها فى المقدمة . وتكاتفت هذه المقومات لتظهر الصورة المشرقة لأبناء وادى النيل من النوبة وحتى البحر الأبيض المتوسط . ودراستنا للحياة اليومية والسلوك والمعتقدات والفكر ووجدان الشعب النابض وآماله وآلامه وكفاحه ومثابرته وثورته على الظلم من أجل تحقيق العدالة الاجتماعية ستصل بنا الى تحديد السمات المشتركة التى كونت الشخصية القومية وهذه السمات العديدة التى سنستخلصها من دراستنا هى التى تميز الشخصية المصرية . والعوامل التى ساعدت مصر فى تكوين أول حضارة هى وجود العناصر الثلاث اللازمة لتكوين الدولة ـ طبقا لمعايير رجل القانون الدكتور « ناصر الأنصارى » فهو يقول : « مصر ـ كما يكاد يجزم العلماء ـ هى أقدم دولة كائنة فى العالم المعاصر ، والمقصود هنا « الدولة » بمفهومها القانونى ، أى بعناصرها الثلاث : أرض وشعب وحكومة ... فعلى مدى أكثر من خمسة آلاف عام ، وجدت مصر بحدودها الجغرافية المعروفة الآن واستمرت ، وعاش على هذه الأرض شعبها وكانت لها حكومتها دون انقطاع فى أى من حقب تاريخها » (٥٩) .

وتذكر كل كتب التاريخ أن مصر توحدت على يد مينا (نعرمر) حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م . (وبعضها اختلف قليلا فى تحديد التاريخ التقريبى لهذا الاتحاد) ، اذن استمرت مصر تحت سيطرة قوة حاكمة حوالى خمسة آلاف عام سواء أكانت هذه القوة الحاكمة ـ الحكومة ـ وطنية أو محتل أجنبى . وجغرافية للمكان هى هى كما كانت من قبل فيحدها البحر الأبيض المتوسط من الشمال والبحر الأحمر من الشرق ، ويمر وادى النيل الأخضر الخصيب بين صحراوين : الصحراء الشرقية والصحراء الغربية واللتين شكلتا درعا طبيعيا حماها من الغزاة الأجانب

فترات طويلة فى التاريخ المصرى القديم ، كما أن الجنادل فى الجنوب كانت تشكل عائقا لأى قادم من الجنوب (والوحيد الذى قدم من الجنوب هو « بعنخى » مؤسس الأسرة الخامسة والعشرين فى النصف الثانى من القرن الثامن قبل الميلاد وأتى بعده ثلاث ملوك حكموا مصر أيضا من « نباتا » فى السودان) ولم يأت الغزاة من الصحراء الشرقية الا فى القرن السابع عشر قبل الميلاد – وهم الهكسوس . ثم غزو آخر من الشرق فى القرن السابع قبل الميلاد (٦٦٧ ق.م) ثم غزو عنيف على يد « قمبيز » الفارس عام ٥٢٥ ق.م . وبعدها « الاسكندر الأكبر » عام ٣٣٢ ق.م . (وان كان المصريون فى ذاك الوقت قد اعتبروا الاسكندر محررا لهم من الفرس الذين كانوا قد عادوا لغزو البلاد قبل مجىء الاسكندر عام ٣٤١ ق.م .) لذلك رحب المصريون بقدوم الاسكندر ومنحه الكهنة لقب « ابن آمون » ، وآمون هو اله « طيبة » (أى الأقصر) عاصمة البلاد فى ذاك الوقت . ثم أصبحت مصر جزء من الامبراطورية الرومانيـة منذ هزيمة أنطونيو وكليوباترا عام ٣٠ ق.م . على يد « اكتافيوس » الذى دخل الاسكندرية منتصرا (وكانت الاسكندرية هى عاصمة البلاد فى ذاك الوقت) ، ثم أصبحت مصر جزءا من الامبراطورية البيزنطية عند انقسام الامبراطورية الرومانية عام ٢٩٥ ق.م الى شرقيـة وغربيـة (كانت « القسطنطينية » التى شيدها قسطنطين مكان « بيزنطة » هى عاصمة الامبراطورية الشرقيـة – واستمرت « روما » عاصمة الامبراطورية الغربيـة) وبعد هزيمة البيزنطيين على يد « عمرو بن العاص » فى « بابليون » ثم فى « الاسكندرية » عام ٦٤١ م أصبحت مصر جزءا من الامبراطورية العربيـة (أثناء الخلفاء الراشدين ثم الأمويين ثم العباسيين) واستقلت مصر فترات الدولة الاخشيدية والطولونية ثم أعيدت للحكم العباسى ثم استقلت على يد الفاطميين . ثم أتى الأيوبيون ثم المماليك منذ عام ١٢٥٠ م تلاهم العثمانيون ١٥١٧ واستقلت مصر فترة « على بك الكبير » التى انتهت بخيانة محمد أبو الذهب وتلاه « مراد بك » و « ابراهيم بك » ثم أتى « نابليون » عام ١٧٩٨ م وبعد خروج الحملة الفرنسية عام ١٨٠١ م عادت اسميا لحكم العثمانيين فى فترة الصراع بين المماليك والأتراك . وأخيرا أتى « محمد على » وألبسه « الوشاح » الزعيم الوطنى عمر مكرم واستمرت الأسرة العلوية منذ عام ١٨٠٥ وحتى قيام الثورة المجيدة عام ١٩٥٢ وعاد حكم مصر لأولادها بعد حوالى خمسة وعشرين قرنا من الحكم الأجنبى وانتهى الحكم الملكى التركى وجلس على عرش مصر رؤساء الجمهورية محمد نجيب – جمال عبد الناصر – محمد أنور السادات وأخيرا محمد حسنى مبارك . (ولا يفوتنى أن أنوه بالاحتلال الانجليزى عام ١٨٨٢ والذى استمر زهاء سبعين عاما) .

ولأن البحث خاص بالشخصية المصرية فأود أن أذكر تعريف مصطلح الشخصية وعلى وجه الخصوص **الشخصية القومية** • يقول الدكتور فرج عبد القادر طه : « ومن المتفق عليه فى الاصـطلاحات العلميـة للعلوم الانسانية وجود مصطلح شخصية Personality ويقصد به التنظيم الدينامى لسمات وخصائص ودوافع الفرد النفسية والفسيولوجية والجسمية ، ذلك التنظيم الذى يكفل للفرد توافقه وحياته فى المجتمع ، ولكل شخص تنظيمه هذا الذى يميزه عن غيره • وبمعنى آخر فان لكل فرد فى المجتمع شخصيته الفريدة ••• ويمكن بالقياس على تعريف الشخصية هذا أن نقر بوجود ما يعرف **بالشخصية القومية** ، أى **الخصائص والملامح** التى **تميز** شعبا عن غيره أو أمة عن غيرها • ويطلق على الشخصية القومية اصطلاح الطابع القومى National Characters فى المصطلحات العلمية لعلم النفس ، وفى هذا الصدد يعرف انجلش وانجلش الطابع القومى بانه « **الخصائص الشخصية الثابتة نسبيا والأكثر وجودا وانتشارا فى أمة معينـة** » » (٦٠) •

وفى مقدمة « موسوعة حكام مصر » التى قام بتاليفها الدكتور ناصر الأنصارى يشير الدكتور أحمد قدرى ـ رئيس هيئة الآثار سابقا ـ الى معنى الشخصية القومية عند اشارته لمساهمة الأعمال التاريخية فى رفع الوعى التاريخى وبلورة الملامح الثقافية والوجدانية للشخصية القومية بأنها ضرورة لفهم « **الذات الجماعية** » وها هو نصه فى المقدمة : « والحق أن الأعمال التاريخية يحكم عليها فى اطار ما تحققه من تصويب لحقائق التاريخ وما تضيفه أو تعدله أو تنفيه من مفاهيم ورؤى تتعلق بماضى الشعوب ومما يسهم فى رفع الوعى التاريخى والحضارى العام لديهم وبلورة **الملامح الثقافية والوجدانية للشخصية القومية** لانسـان هذه الشعوب كضرورة لا محيص عنها لفهم **الذات الجماعية** وتنقية الحافظة الجماعية لها من تراكمات المفاهيم الخاطئة واطلاق حرية العقل والارادة الانسانية » (٦١) •

نستطيع أن نستخلص من النصين السابقين بأن هناك خصائص وملامح تميز شعبا عن غيره وأن هذه الخصائص الشخصية الثابتة نسبيا والأكثر وجودا وانتشارا فى أمة معينة هى التى نطلق عليها « **الشخصية القومية** وأن هناك ملامح ثقافية ووجدانية لهذه الشخصية القومية وهى ضرورية لفهم الذات الجماعية •• وان اختلف البعض عن الآخـر فى تعريف الشخصية القومية الا أنهم حاولوا تحديد ملامح وعناصر وقيم ترتبط كلها بهذا الشعب أو هذه الأمة • وسوف أتناول بعض ما قيل وكتب عن الشخصية القومية لتطبيقها على الشخصية المصرية فيقول

الأستاذ « السيد ياسين » عن الشخصية القومية هى « السمات النفسية والاجتماعية والحضارية لأمة ما ، التى تتسم بثبات نسبى والتى يمكن عن طريقها التمييز بين هذه الأمة وغيرها من الأمم ، ولقد كان للمعلومات المتعددة التى جمعها الباحثون فى الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن المجتمعات غير الغربية ، أثر كبير فى اعداد الباحثين برؤية أوسع عن مدى الفروق التى توجد بين الشعوب فى وسائل عديدة منها :

- الطريقة التى يدرك بها أفراد كل شعب البيئة الطبيعية والاجتماعية ، المحيطة بهم ، وكذلك وسائل اكتسابهم المعرفة .
- اختلاف أساليب التفكير .
- طريقة اتخاذ القرارات فى المواقف الاجتماعية والقومية المختلفة .
- طرق تحمل المسئولية ، وأنماط السلطة بمستوياتها المتعددة .
- الأنماط المختلفة للتعبير عن النفس ، وطرق اخفاء المشاعر والأحاسيس
- اختلاف القيم والتباين فى النظرة الأخلاقية لضروب السلوك الاجتماعى المختلفة » (٦٢) .

يتفق الأستاذ « السيد ياسين » مع التعريفين السابقين بضرورة ثبات نسبى للسمات النفسية والاجتماعية وبوجود ملامح ثقافية ووجدانية مشتركة وذلك لتأثرهم بالبيئة المحيطة بهم سواء جغرافيا أو تاريخيا أو سياسيا وهو ما يؤثر على أحاسيس وتفكير الناس .. ولكنه أضاف بوجود اختلاف فى وسائل اكتساب المعرفة وفى أساليب التفكير واتخاذ القرارات فى المواقف المختلفة وباستخدامه لكلمة قيم ونظرة اخلاقية بدلا من كلمة خصائص وملامح . أما الدكتور « فؤاد مرسى » فقد حدد ملامح وأبعاد وعناصر الشخصية المصرية قائلا :

« فى تقديرى أن الشخصية المصرية لها عناصر أو مكونات أو مقومات هى ما يلى : جماعة بشرية معينة بالاستناد الى مكان مشترك وتاريخ مشترك ولغة مشتركة ، أصبحت تتميز بثقافة معينة ومزاج نفسى معين ، بعبارة أخرى ، أريد أن أحدد الشخصية المعينة للشعب المصرى فى أمرين محددين . الأول ، مجموعة القيم التى يقبلها المصريون ، ابتدعوها ، أقروها ، فرضوها ، دافعوا عنها ، نموها . وأيضا مجموعة ما يشكل المزاج النفسى لمن نسميهم « المصريين » . اذن الشخصية المصرية أو الشخصية لأى شعب من الشعوب تتحدد بهاتين المجموعتين من المعالم ،

مجموعة القيم ومجموعة ما يشكل المزاج النفسى للشعب ... اذا أمكن التسليم أن تلك هى مقومات الشخصية لشعب معين يستند الى مقومات معينة تنتهى الى ثقافة معينة وحضارة معينة ، من هنا أستطيع أن أقول أن أبعاد الشخصية المصرية أو غيرها من الشخصيات نوعان : أبعاد يمكن اعتبارها من الثوابت وأخرى من المتغيرات .

« الثوابت هى أبعاد المكان والتاريخ ويلحق بهما اللغة » .

« المتغيرات هى المصالح التى تجمع بين أبناء هذا الشعب بالتعريف الواسع » (٦٣) .

وحيث أن موضوع بحثى هو الشخصية المصرية فى ضوء مختارات من الفنون والآداب ، بحيث تكون دراسة تاريخية وأثرية فاننى محدد بفترة معينة ، ومحدد أيضا بأن تكون الدراسة تاريخية وأثرية وهو ما سأتناوله تفصيليا من خلال دراستى للمجتمع بالذات ولكنى أود هنا أن أقدم تعريفا للثقافة قد حدده الدكتور على حسن :

« نحن نعلم أن الثقافة Culture بمفهومها الواسع تتعرض لجميع النواحى التى تلمس حياة الانسان من مادية الى معنوية وروحية وأخلاقية وتربوية وفنية .. ان الثقافة هى مجموع ما لشعب من أفكار وتقاليد ونظم اجتماعية وسياسية ومثل عليا وفلسفة وعلوم وفنون وآداب وصناعات تهدف جميعها الى تحقيق الخير للانسان وزيادة رفاهية الحياة ومتعها (٦٤) بهذا التعريف أجد أن دراسة الشخصية تاريخيا وأثريا تتمشى مع دراستى للمجتمع المصرى القديم لأن « علم الآثار كجزء من علم الانسان يعنى أولا وأخيرا بدراسة ثقافة الانسان القديم » (٦٤) ، كما أن « **التاريخ الصادق هو حياة الشعب** » (٦٥) فمن هذا التاريخ الصادق ستكون الفرصة الجيدة متاحة لى لاستخلص السمات المشتركة التى كونت لنا الشخصية القومية ألا وهى الشخصية المصرية ذات الجذور الممتدة منذ فجر التاريخ والتى جعلتنا مترابطين ومحافظين على كياننا القومى رغم أيام الاحتلال العصيبة زهاء ألفين وخمسمائة عام ويكفينى مبدئيا أن أذكر أقوى ملمحين وهما : « **التدين** » و « **الترابط الأسرى الأخلاقى** » .

ان دراسة المجتمع تعنى دراسة الأوضاع السياسية والظروف الاقتصادية والمعتقدات الدينية والأحوال الاجتماعية . ولكى تكون الصورة واضحة يجب أن ندرس كل حقبة بكل المؤثرات المحيطة بها ، ولا نستطيع دراسة فترة ما قبل الأسرات لعدم وجود أى كتابات فى المقابر تبين أنشطة الناس (وما تمكن الأثريون من استخلاصه عن هذه الفترة هى

وجود أوانى مع الميت وجلوس بعضهم القرفصاء كأنه سيولد وبعضهم يتجه وجهه صوب الغرب واستنتجوا بأنهم لابد يؤمنون بحياة أخرى بعد الموت بدليل وضع الأشياء والأوانى التى سيحتاجها المتوفى فيما بعد ٠ كما أن الأثريين لم يجدوا برديات عليها كتابات تخص هذه الفترة ، اذن فأول حقبة استطاعوا دراستها هى الدولة القديمة حيث وجدوا على جدران المقابر الكثيرة المنتشرة فى الجيزة وسقارة ودهشور ومنه عرفوا الكثير عن الحياة اليومية وعن العقائد والعادات كما أن « متون الأهرام » التى اكتشفت عام ١٨٨٠ وما بعدها فى أهرامات تيتى وأوناس وهى أهرامات ملوك الأسرتين الخامسة والسادسة ومن هذه المتون عرفوا الكثير عن العقيدة والديانة المصرية وكانت عاصمة مصر الأولى ـ منف ـ ومن كتاب الأستاذ محمد صابر (٦٦) نعرف عن الحياة فى منف القديمة التى شيدها مينا واستمرت العاصمة منذ الأسرة الأولى وحتى نهاية الدولة القديمة (الأسرة السادسة) ولكن بقيت لها مكانتها الهامة عبر فترة طويلة فى مصر القديمة وسأقتطف هنا فقرات (٦٦) تساعدنا على التعرف على الحياة اليومية فى تلك الفترة :

« كان من عادة قدماء المصريين اقامة بوابات هائلة للمدن الكبيرة والعواصم ، فكانت بوابة منف تقوم على حراستها هيئة شرف من جنود مصر البواسل ٠ وكانت البوابة تؤدى الى شوارع المدينة التى تموج بالرائح والغادى من أهلها ومعهم دوابهم تحمل لهم خيرات البلاد ، وترى على جنبات الطريق أبناء الحرف وأهل الصناعة ، كل فى محله مكب على عمله بجد ونشاط وكانت معظم مساكن افراد الشعب مبنية من الطين واللبن ومطلية بالجير الأبيض ولا تزيد فى ارتفاعها عن طابق أو طابقين ٠ أما مساكن العظماء والنبلاء فقد كان كل بيت قائما بذاته (فيلا) تحيط به الحدائق ، وبه البرك الصناعية ، تبدو على مظهره علامات النعمة والرفاهية ويقف على بابه الحراس والخدم ٠

« كانت ربة الدار تعلق على مقربة من النافذة بعض شرائح السمك المجفف (وهى من الأطعمة المحببة عند قدماء المصريين) حتى لا تفسد باختزانها وعدم تعريضها للهواء ، وكانت الزوجة تعاون زوجها بالعمل معه فى فناء المنزل فى صناعة أوانى الفخار وجرار القلل والأوعية المختلفة ، وكانت النساء والبنات يقمن بصناعة الغزل والنسيج داخل البيوت ، فيغزلن الكتان والصوف [**نلاحظ التعاون الأسرى** وهى الخلية الأولى فى المجتمع] ، والى جانب هذه الصناعات المنزلية كانت تقوم فى منف صناعات مختلفة كصناعة الطوب النيىء واعداده للبناء ٠ وكانت صناعة المرمر ذات شأن جليل فى منف ٠ ولا يقتنى آنيات هذه الصناعة

الا أهل الثراء والملوك والأمراء لتكون زينة لهم ومتعة فى حياتهم وعادة توضع فى قبورهم بعد مماتهم · كما ازدهرت صناعة الأحجار والرخام والجرانيت والنحاس الذى يستخرج خامته من جبال سيناء ، وصناعة الذهب الذى كان يستخرج من مناجم البحر الأحمر الغنية · كما كانت بلاد النوبة ترسل جزيتها كل عام من الذهب [كلمة نوبة تعنى أرض الذهب فكلمة « نب » معناها ذهب] · وكانت تقوم بمنف عدة صناعات أخرى من حفر المعادن والأخشاب والرسم وصناعة الجلود والنعال » (٧:) ·

وعندما نقرأ تعاليم « خينى بن دوادف » لابنه جيتى الذى زوده بها وهما مسافران الى العاصمة وكانت وقتئذ فى الوجه القبلى ـ أهناسيا المدينة أو طيبة ـ وذلك لكى يلتحق ابنه بالمدرسة التى كان يتعلم فيها أولاد علية القوم فى عاصمة الملك فاننا نعرف بأن أولاد حكام الأقاليم ومن كانوا من طبقتهم كانوا يتلقون تعليمهم فى المدرسة التى أقامها الملك فى العاصمة ، ونعرف من كلام خيتى لابنه الذى كان يبين له مزايا التعليم والمزايا التى يحصل عليها الكاتب من وظيفته بأن المتعلم كان يحظى باحترام الجميع · ومن مقارنة خيتى لوظيفة الكاتب بالنسبة للحرف الأخرى فاننا نعرف عن الحرف فى ذلك الوقت ـ نلاحظ أن خيتى يبالغ ويصور الجاهل بصورة قبيحة لينفر منها ابنه ويقدم على التعليم ولكن المهم لنا فى دراستنا للمجتمع وقتها هو أن نعرف عن مشاق وصعوبات الحرف الموجودة فى فترة الاضمحلال الأولى التالية للدولة القديمة والتى كانت قبل الدولة الوسطى · فيقول خيتى لابنه (٦٨) « لقد رأيت من ضرب ، فعليك أن توجه قلبك لقراءة الكتب ، ولقد شاهدت من أعتق من الأشغال الشاقة · تأمل لا شيء يفوق الكتب : « فمهنة الكاتب أعظم من أى حرفة ·· واذا أخذ (التلميذ) فى سبيل النجاح وهو لم يزل طفلا فان الناس تهنئه ، ويكلف تنفيذ الأوامر ، ولا يعود الى المنزل ليرتدى ثوب العمل (مثل أرباب الحرف الأخرى) ·· » ·· ثم يتناول « خيتى » بالشرح كل مهنة وما فيها من متاعب وحقارة ومن حديثه نعرف أنه كانت هناك الحرف التالية : قاطع الأحجار ـ صانع الأوانى النحاسية ـ الخراط ـ البناء ـ الحلاق ـ صانع الطوب اللبن ـ البستانى ـ الناسج ـ صانع السهام ـ حامل البريد ـ الاسكاف ـ الغسال ـ صائد العصافير ـ صائد السمك ويبين لابنه متاعب كل حرفة قائلا : « اننى لم أرى قاطع احجار كلف برسالة ولا صانعا أرسل فى مهمة ـ فى هذا اشارة بالدور الاجتماعى المميز للكاتب الذى يكلف من قبل المسئولين بتوصيل رسالة ذات أهمية أو القيام بمهمة سياسية أو اجتماعية ـ ولكنى رأيت النحاس يقوم بعمله عند فوهة الأتون وأصابعه كجلد التمساح (أى انها مجعدة وخشنة كجلد التمساح) رائحته أكثر كراهية من البيض والسمك ···

ثم ينتقل الى الخراط فيقول : « وكل صانع [illegible] يشتغل بالمخرطة فان الاعياء يناله أكثر ممن يفلح الأرض ـ وميدانه الخشب وفأسه المخرطة ـ والمقصود المعدن ـ وفى الليل حينما يطلق سراحه يعمل فوق طاقة ساعديه • وفى الليل يشعل النور ـ أى يستمر فى عمله ـ فلا راحة له ـ والبناء يبحث عن عمل له فى كل أنواع الحجارة الصلبة • وعندما ينتهى منه تكون ذراعاه قد تكسرتا ، ويصبح مضنى ، وعندما يجلس أمرؤ كهذا عند الغبش ، فان فخديه وظهره تكون قد حطمت • والحلاق يحلق متأخرا الى الغروب • ويجول من شارع الى شارع ليبحث عمن يحلق له ، وينهك ذراعه لأجل ملء بطنه كالنحلة التى تأكل وهى تكد ـ أى أنه يأكل أثناء عمله ـ • والتاجر يسيح الى الدلتا ليحصل على ثمن سلعته ، ويكد فوق طاقة ساعديه ، والبعوض يقتله لما يحمله من جراثيم) » (٦٩) •

ان نقل هذه الصورة بهذا المنظر البغيض وقطعا الصورة مبالغ فيها حتى ينفر ابنه من هذه الحرف فيهتم بالتعليم لكى يصبح فى وظيفة مرموقة اجتماعيا ومريحة بدنيا ومرغوبة لأصحاب الفكر • فالكاتب فى مصر القديمة لم يكن مجرد ناسخا أو محرر رسائل تملى عليه أو مجرد مدونا للحسابات بل كان من بين طبقة الكتاب المثقفين والكهنة والمهندس والطبيب وكل أصحاب المهن الذهنية •• ولكن ما يهمنا من حديث « خيتى » هو معرفتنا بالحرف المختلفة التى عددها لابنه وأظهر مساوئها ومتاعبها • ويتناول « خيتى » أحقر الحرف وهى صناعة الطوب اللبن فيقول : « وصانع اللبن (ضرب الطوب) الصغير الذى يصنعه من غرين النيل يقضى حياته بين الماشية وهو على أية حال مختص بالكروم والخنازير وملابسه تكون خشنة • وهو يشتغل بقدمه ويدق ••• دعنى أحدثك فضلا عن ذلك عن البناء الذى غالبا مريضا وملابسه قذرة وما يأكله هو خبز أصابعه ، ويغسل نفسه مرة واحدة •• وهو أتعس مما يمكن أن يتحدث عنه الانسان بحق • فهو كقطعة حجر فى غرفة طولها عشرة أذرع فى ستة •• والخبز يقدمه الى بيته وأطفاله يضربون ضربا » (٧٠) •

ثم يضيف الحكيم لابنه البستانى • ويظهر أنه يقصد به زارع الخضر والفاكهة على السواء فيقول : • « أما البستانى فيحضر اثقالا وذراعه ورقبته تتألمان من تحتها • وفى الصباح يروى الكرات وفى المساء الكروم • فحرفته أسوأ من أى حرفة •• وحال الناسج داخل مصنعه اتعس من حال المرأة ، فركبتاه تكونان فى بطنه ، وهو لا يمكنه أن يستنشق الهواء ••• وصانع السهام يكون تعسا عندما يرحل الى الصحراء ، وان ما يغطيه حماره لكثير • هذا فضلا عن ان عمله يستغرق وقتا طويلا • ويعطى كذلك الذين فى الحقول والذين يرشدونه الى الطريق

كثيرا أيضا . وعندما يصل الى بيته فى المساء فان السير يكون قد أنهكه ... وحامل البريد عندما يسافر الى بلد أجنبى يوصى بأملاكه لأولاده خوفا من الأسود والأسيويين ، وهو يعلم ذلك وهو فى مصر ... والاسكافى يحمل أوانيه الى الأبد .. وصحته تكون كصحة الجيفة ، وما يعض عليه هو الجلد ... والغسال يغسل على الورده ، واذ ذاك يكون جارا قريبا للتمساح .. وصائد العصافير تراه فى منتهى التعس عندما يشاهد ما فى السماء ويهمل أعماله .. وحرفة صيد السمك أكثر تعسا من أى حرفة أخرى .. فانه يشكو فيها .. أليس عمله على النهر حيث يختلط بالتماسيح ؟ وان لم يقل له الانسان يوجد تماسيح فان خوفه يعميه » (٧٠) ثم ينتقل الكاتب الحكيم الى اطراء حرفة الكتابة فيقول :

« ان صاحبها هو الذى يصدر الأوامر .. ثم يصفها بأنها أحسن من كل الحرف التى استعرضها أمامه فيقول : « تأمل ! فانه لا توجد حرفة من غير رئيس لها الا صناعة الكاتب فهو رئيس نفسه . فاذا عرف الانسان الكتب فانه يقال عنه بحق : انها مفيدة لك .. وما أقول به فى سياحتى الى الحاضرة . تأمل ! انى أقوم به حبا فيك . ويوم فى المدرسة مفيد لك ، وما تحمله فيه يبقى مثل الجبال » (٧٠م) .

ومن النقوش الموجودة على جدران المقابر فى سقارة يستطيع الزائر أن يرى صور عديدة للحياة اليومية فيرى فلاحا يسير وراء محراث يجره ثوران . وآخر أمام جرن مرتفع وبيده مذراة يذرى بها الحبوب أو يدرسها بأرجل البهائم . وفلاح يعتنى بتربية الماشية أو يرفع المياه من بئر أو من ترعة أو قناة مستخدما الشادوف .. بل هناك مناظر لفلاحين يقومون باتباع طريقة التلقيم الصناعى لكى تسمن البطة أو الأوزة .. وهناك مناظر لحلب اللبن أو صيد السمك . وعلى الحائط الذى لا يزال قائما فى الطريق الصاعد المؤدى الى هرم أوناس بسقارة هناك مناظر لسوق يتم فيه المبادلة والمقايضة ونفهم أن هذه كانت طريقة التعامل التجارى .. وعلى الجانب الآخر منظر النسوة تولولن فى جنازة . أما عن الفلاح فان معظم الكتب التى تتحدث عنه توضح بأنه كان يعمل فى حقله طول يومه مغنيا منشرح الصدر [نلاحظ العمال حتى اليوم يغنون وهم يقومون بخلط الأسمنت وحمله . وهذا الغناء الجماعى يعطينا سمة مميزة للمصريين وهى « **حبه للمرح والسرور** »] ويقوم بزراعة القمح والشعير لعمل الخبز والجعة ، والكتان لعمل الملابس . وفى العديد من الصور على جدران المقاتر نرى الخضر وزهرة اللوتس والعدس والفول والبصل والفواكه وأهمها العنب وعلى جدران مقبرة بتاح حتب بسقارة

على الجدار الأيسر توجد صور لقطف العنب ثم دهسه بالأقدام ثم القيام بعصره من أجل عمل النبيذ • أما الزيوت فقد ذكرت مرارا فى البرديات الطبية لأنها ذات قيمة عظيمة من الوجهة الغذائية والطبية • كما كانت تستعمل كذلك للاضاءة • وهناك مناظر يظهر فيها الكتان والخس والزيتون والخروع والزبيب والبلح والنبق •

أما عن الصناعات الريفية فنجد فلاحة تصنع السلال من نبات البردى لكى تستخدمها فى حفظ الحبوب • كما كان يستخدم البردى أيضا — بجانب صناعة الورق — فى عمل الحبال والحصير • فبجانب مناظر حلب البقر كانت هناك مناظر صناعة الجبن والزبد • ويتم التبادل والمقايضة فى الأسواق ، فكانت تعرض الخضر والحبوب • والثيران والخراف ولا يقتصر السوق على الرجال فحسب بل كانت النساء الفلاحات يحضرن الى السوق بسلالهن وأقفاصهن بما فيها من حبوب وطيور [هذا يظهر مشاركة المرأة فى العمل اليومى مع زوجها وتحملها للمسئولية داخل وخارج بيتها] وبجانب منتجات الحقل فهناك تجار يعرضون الأوانى المرمرية والرخامية التى تستخدم لحفظ العطور والكحل وأدوات التجميل • لقد كانت المرأة تعتنى برشاقتها وزينتها وجمالها •• والداخل فى الحجرات بالدور الثانى بالمتحف المصرى والتى على اليسار أى الجانب الذى تعرض فيه جزء من محتويات مقبرة « مكت رع » التى فيها تماثيل خشبية تمثل الحياة اليومية ، يرى تماثيل متعددة •• وكنت أحيانا أشير للسائحين الأجانب الذين اصطحبتهم معى أثناء عملى كمرشد سياحى وأقول لهم « انظروا لقوام هذه المرأة وعلى رأسها تحمل قرابين وفى يدها أوزة وجسمها رشيق والنضارة واضحة فى عينيها وفى وجهها ولم تنس مظهرها الحسن وزينتها •• ان وجهها غير مغطى مثل أى سيدة فى بلادكم وتضع على رأسها الباروكة • والفنان كان حريصا على اظهار وجهها باللون الأصفر فى حين يظهر وجه جسد الرجل باللون البنى لأنه يخرج فى الشمس أكثر •• والفنان يريد اظهار جمال المرأة ومظهرها الحسن » •

أما عن المعتقدات الدينية فقد أبقيت لها الفصل الثانى بالكامل حتى تتضح الأفكار المختلفة عن الديانة المصرية القديمة بحيث دار لغط كبير حولها ، لذلك سأضع أمام القارىء صورة تفصيلية عن كافة الآراء منها **الايمان بخالق واحد** مع اختلاف الأسماء « بتاح » أو « رع » أو « أتوم » أو « تاتن » أو « خنوم » ومنها الآلهة المختلفة التى كانت مخلوقة أيضا مثل الانسان ومنها الآلهة المحلية والآلهة العامة أى يعبدها كل الناس والدور الذى لعبه اخناتون فى تأكيد معنى الاله الواحد تحت اسم « أتون » وهو تأكيد العقيدة الشمسية لأن « أتون » يرمز له أيضا

بالشمس وتنتهى أشعتها بأيدى بشرية ، كما أن المصريين القدماء كانوا يعتقدون بالبعث وتاليوم الآخر وبيوم الحساب حيث يوضع قلبه فى احدى كفتى الميزان وفى الجانب الآخر « ماعت ــ الهة الحق والصدق والعدالة » أو الريشة ٠ والقلب يمثل « الضمير » فاذا كان القلب أثقل من الريشة فان الشخص يصبح مدانا ٠ وكانوا يؤمنون بالجنة والنار ٠٠ وكل هذا سأتناوله فى الفصل الثانى ٠

أما عن الناحية السياسية والاقتصادية فكان الملك فى الأسرة القديمة مؤله وكان يطلق عليه « الملك الاله » وكانت سلطته مطلقة وطبقا لنصوص الأهرام التى ستناقش أيضا فى الفصل الثالث فكان يصعد الى السماء مباشرة ٠٠ ولكن كانت سطوة ونفوذ حكام الأقاليم تتزايد فأوجد وظيفة الوزير لكى يحد من سلطتهم ٠ وقد ذكر العلامة « سليم حسن » فى الجزء الأول من موسوعته « ان وظيفة الوزير التى أنشأها الفرعون لكبح جماح حكام الأقاليم أصبحت وراثية يتولاها الابن عن الأب مما جعل نفوذ الملك صفرا » (٧١) ثم عاد فى الجزء الثانى يقول : لقد كان أهم مظاهر التجديد فى الحكومة المصرية فى عهد الأسرة الرابعة هو انشاء وظيفة « وزير » وقد كان يشغلها دائما أحد أولاد الملك الذى كان فى الوقت نفسه كاهنا للاله « تحوت » وهو مع الالهة « معات » الهة العدل والالهة « سشات » الهة الادارة ، والآلهة الرسميين الذين كان فى يدهم السلطة الحكومية ٠ وقد كان أهمهم « تحوت » اله القانون ، فكان الوزير كاهنة ، وفى نفس الوقت رئيس الحكومة ٠ والوزراء المعروفون فى عهد الأسرة الرابعة هم « كانفر » و « نفر معات » وهما ابن سنفرو [مؤسس الأسرة الرابعة] وحفيده على التوالى ثم « حميون » ابن « نفر معات » ثم « نى كاو رع » بن خفرع ٠٠ الخ » (٧٢) ٠٠٠٠ « والواقع أن الوزير كان الرئيس الأعلى للادارة المصرية ، وكان لابد له أن يدرس كل الأعمال الهامة فى البلاد يساعده فى عمله رئيس البعوث وهو الذى كان يحمل أوامره ويضع أمامه كل التقارير الخاصة بمصالح المقاطعات ، وكذلك كان يشرف الوزير على السجلات الملكية التى كانت تحفظ فيها الأوراق الهامة كالمراسيم الملكية والعقود والوصايا » (٧٢) ٠ وسأتناول فى فصل « الادارة والعدالة » دور الملك والوزير والقاضى ومن فى يدهم السلطة للحكم واقامة العدالة بين الناس ٠ ولكنى هنا أشير فقط للصراع بين الملك وحكام الأقاليم ــ كما سأشير فيما بعد عن الصراع تين الملك والكهنة ــ وذلك لأن تزايد سلطة حكام الأقاليم وتزايد الاقطاع فى البلاد كان لهما أثر مباشر على الشعب الذى قام بأول ثورة شعبية فى التاريخ ، ووصفها البعض بأنها كانت أقوى من الثورة الفرنسية التى قامت بعدها بحوالى أربعة آلاف عام أو أقل قليلا ٠ وحدثت فى

مصر أول هزة اجتماعية سياسية اقتصادية قام بها الشعب عن بكرة أبيهم فقد زاد الكيل [وهنا نضيف احدى مقدمات الشخصية المصرية وهو المصرى ثائرا فى مواجهة الظلم وليس مستسلما أو خنوعا مثلما يلذ للمؤرخين غير المنصفين فى أن يصفوا شعبنا الحليم ويتناسون بأنه قام بثورات عديدة ضد الظالمين والمحتلين عندما يمسون كيانه الدينى والأسرى] • وقد كان تصوير الحكيم « ايبووا » لهذه الفترة أبلغ تصوير يعطى صورة واضحة عن مدى الفوضى التى وصلت اليها البلاد :

« أن حراس الأبواب يقولون : دعنا نذهب لننهب ، والغسال يرفض أن يحمل حمله ، وصيادو الطيور استعدوا للقتال ، وآخرون من الدلتا حملوا الدروع ، ومن يزاولوا أهدأ الحرف كصانعى الحلوى والجعة ثاروا ، وصار المرء ينظر لابنه كما ينظر لعدوه ، وأصبح الرجل الفاضل فى حزن وأسى لما أصاب البلاد » (٧٣) ان هذا لوصف بليغ لانتشار الفساد والفوضى ، فالسرقة قد تفشت ، والقتل والخراب قد عم حتى أن الفلاحين حملوا دروعهم لحماية أنفسهم بدلا من الفئوس لحرث الأرض وصار الناس فى وضع عدوانى فحتى المرء ينظر لابنه كما ينظر لعدوه !! ورجال الفضيلة حزانى لما يجرى فى البلاد • والقصائد الستة التالية هى مقطوعات أدبية تصور الثورة الاجتماعية « حقا لقد » (١) وها هى القصيدة الأولى التى كتبها هذا الحكيم :

« حقا لقد شحب الوجه ، وقد تنبأ بذلك الأجداد •

حقا لقد امتلأت البلاد بالأحزاب والعصابات وأصبح المرء يذهب ليحرث ومعه درعه •

حقا لقد شحب الوجه ، وحامل القوس أصبح مستعدا ، والأشرار منتشرون فى كل مكان ، ولا يوجد رجل من رجال أمس •

حقا ان من ينهبون انتشروا فى كل مكان •

حقا ان النيل يأتى بالفيضان ، ولكن ما من أحد يحرث لأن كل انسان يقول :

« اننا لا نعرف ماذا حدث فى البلاد » •

حقا لقد غدت النساء عاقرات • ليت الناس يغنون فلا يحدث حمل ولا ولادة ، وليت الاله « خنوم » (*) لا يشكل الناس بسبب ما أصاب البلاد •

حقا ان القلوب قد ثارت ٠ والوباء قد انتشر ، والدم قد سال في كل مكان ٠

« حقا لقد أصبح النهر قبرا لرجال كثيرين دفنوا فيها ٠

حقا ان الأرض تدور كعجلة الفخارى ، واللص أصبح صاحب ثروة ٠

حقا ان النهر قد امتلأ بالدم فأصبح الرجل يعاف الشرب منه ٠

حقا ان البلاد قد اصابها الدمار ، واصبح الوجه القبلى خاويا ٠

حقا ان أولئك الذين كانوا يرفلون فى الثياب غدوا فى أسمال بالية ، وأصبحت نساء الطبقة الراقية يهمن فى البلاد ، وغدت سيدات البيوت يقلن « أما من شيء نأكله » ٠

حقا لقد أصبح العظيم والحقير يقول : « ليتنى أموت » والأطفال الصغار يقولون : « ليتنا لم نولد » ٠

حقا ان الغلال قد انعدمت فى كل مكان ٠ وكذلك الملابس والعطر والزيت ، ولم يبق أى شيء فى المخازن ٠ ان الأسى يملأ قلبى ، ليتنى رفعت صوتى فى ذلك الوقت حتى أنقذ نفسى من الألم الذى يعتصرنى الآن ٠ فالويل لى ، لأن البؤس عم فى هذا الزمان » (٧٤) ٠

نلاحظ من هذه القصيدة أن الثورة الاجتماعية الشعبية كانت تتسم بالعنف وأن الأمن غير مستتب والأشرار منتشرون فى كل مكان لدرجة أن الفلاح يحمل سلاحه بينما هو يعمل فى الحقل وأن الرجال الذين كانوا من ذوى المقامات بالأمس فقد اختفوا لأن الثورة كانت ضد كل رجال الاقطاع الذين تسلطوا على البلاد حتى ضاق الناس بتسلطهم فثار عليهم عامة الناس وانتشر النهب واختل النظام والأمن ٠ وانقلبت أحوال البلاد فالأغنياء أصبحوا فى أسمال تالية والخراب عم البلاد لدرجة أن العظيم والحقير تمنوا الموت وحتى الأطفال تمنوا لو لم يولدوا ٠ ولم يحس الناس بطعم الحياة فى هذه الفوضى التى كانت السبب فى الخراب والدمار وعدم الأمان ٠ ورغم أن النهر الذى يأتى بالخير لأن ماءه يروى الزرع تحول الى مقبرة للكثيرين الذين ألقى بهم فيه ٠٠ وقطعا أصبحت الأرض بلا زراعة لأنه **لا يوجد استقرار** يحفز الناس على العمل وعلى ضمان لقمة العيش وسيدات البيوت أصبحن بلا طعام والأطفال لا حول ولا قوة لهم ٠٠ فكيف يأتى الغذاء والحقول لم تزرع وانعدمت الغلال ٠٠ وأصبحت المخازن خاوية لأن النهب كان فى كل مكان ٠٠ **لقد اختفى النظام**

واختفى تنظيم العمل واختفى رجال القانون لأن الحكومة لا سيطرة لها ونتيجة هذا انتشر الوباء وامتلأ النهر بالدم الذى سال فى كل مكان ٠٠ وأصبح اللصوص أصحاب الثروة ولم يترك للناس الا الأسى والبؤس الذى عم فى كل مكان ٠

القصيدة الثانية :

أما القصيدة الثانية ففيها تصوير لمصائب عدة ، تفوق فى هولها ما سبق وصفه فى القصيدة الأولى ٠

القصيدتان الثالثة والرابعة

[لم يبق منهما الا القليل ، وأهم فقراتهما] ٠

« ان الدلتا تبكى ، ومخازن الملك أصبحت مشاعة للجميع . والقصر لا يحصل على الضرائب المستحقة له من شعير أو قمح أو طير أو سمك . بالرغم مما يستحق له من قماش أبيض وكتان رقيق ونحاس وزيت وحصير وسجاد وما عداها من المستحقات الجيدة » (٧٥) ٠

نلاحظ أن المصائب تزداد هولا وأن الدلتا تبكى من هول الخراب الذى عم فى كل مكان ٠ واستباح الجميع كل ما وجد فى المخازن الملكية ، كما امتنعوا عن دفع الضرائب المستحقة ٠٠ ونعرف هنا أن الضرائب كانت عينية من منتجات الحقل مثل الشعير والقمح أو من الطيور والسمك أو من المنتجات الصناعية مثل القماش الأبيض والكتان والزيت والحصير والسجاد ٠ وفى نفس الوقت نعرف عن نوعية المنتجات فى ذلك الوقت ٠ والمعروف أن مصر القديمة لم تسك العملات الفضية الا فى العصر البطلمى ٠

القصيدة الخامسة :

[تتضمن مقدمتها حديثا عن عبادة الآلهة ، كيف كانت تعبد فيما مضى ، وكيف يجب أن تعبد فى المستقبل ٠ وتبدأ أبياتها بكلمة « تذكر »] ٠

« تذكر ! كيف تنحر الثيران ، ويوضع وكيف يقدم الماء من ابريق فى بكرة الصباح ٠

تذكر ! كيف يحضر الأوز السمين ، ويقدم هو والبط (*) والقرابين المقدسة للآلهة ٠

تذكر ! كيف يخضع النطرون [ليطهر الكاهن فمه] ويجهز العيش الأبيض .

تذكر ! كيف تقام أعمدة الأعلام وتنقش أحجار القربان ويطهر الكاهن العابد ويبيض بيت الله كاللبن . ويعطر الأفق (أى المعبد) ، ويخلد خبز القربان .

تذكر ! كيف تراعى القواعد وتنظم أيام الشهر .

تذكر ! كيف تنحر الثيران ، ويوضع الأوز على النار ويقدم قربانا .

(ويلى ذلك جزء كبير غامض تعتوره بعض الفجوات الكثيرة . وأهم ما هو ظاهر فيه ما يلى عن الحاكم العادل) .

« انه يطفىء لهيب (الحريق الاجتماعى » ويقال عنه أنه راعى كل الناس ، ولا يحمل فى قلبه شرا ، وحينما تكون قطعانه قليلة العدد فانه يصرف يومه فى جمع بعضها الى بعض .

فأين اليوم ؟ هل هو بطريق الصدفة ينام ؟ » (٧٥) .

ثم يستطرد الحكيم الى بيت القصيد ، وهو توجيه انذار الى الملك نفسه فيقول] :

« لديك الحكمة والبصيرة والعدالة ، ولكنك تترك الفساد ينتشر فى البلاد ، والمعارك يستعر أوارها ، الواحد يضرب الآخر ، لقد كذبوا عليك ، فالبلاد تشتعل كالقش الملتهب ، والناس على شفا الهلاك .. وهذه السنوات كلها سنوات حرب أهلية » (٧٦) .

واضح من هذه القصيدة أن هذه الثورة الاجتماعية قد تطورت الى حرب أهلية . ووجود حرب أهلية يعنى أن الملك لا يملك السيطرة على الموقف . والملك كان ممثل السلطة الحاكمة المسيطرة العادلة التى ترعى شئون الناس وسنرى عند التحدث عن الملك وسلطاته وفى توجيهه للوزير بضرورة اتباع العدالة والاستماع لشكاوى الناس واعطاء الفقير والمظلوم حقه بأن « العدل » فعلا كان « أساس الملك » بل كونه « ملك اله » كان يعتبر كونه اله عبء عليه فالاله لابد أن يكون عادلا ولا يرضى بالظلم .. وفى قصة الفلاح الفصيح التى يتقدم فيها الفلاح بشكواه الى الملك مشتكيا أحد الموظفين المنحرفين الذى استولوا على حميره وبضاعته بأن الملك هو ناصر للحق . ومن قصة الفلاح الفصيح سنعرف الكثير

عن أحوال البلاد وعن فساد الموظفين ولكن القائمين على العدل كانوا على مستوى المسئولية وكان الفلاح واثقا بأن يوم الحساب يخافه الجميع لذلك كان يذكره فى شكواه ففى يوم الحساب كان القلب (الممثل للضمير) يوضع على الميزان والخاطىء والمذنب كان طريقهم النار ٠ وهنا نجد الحكيم يوجه اللوم للذين كذبوا على الملك ولم يطلعوه على الحقيقة قبل أن يفلت الزمام وتسـود الفوضى مكان النظام الذى يمثله الملك العادل ٠ بل ان حفظ النظام ضمان للأمن والأمان وهما اللذان افتقدهما الناس فى وجود الثورة التى تحولت الى حرب أهلية وبذا بات الجميع فى رعب وهلع وأصبح اللصوص هم المسيطرون على ثروات البلاد ٠

ونلاحظ أن الحكيم يبدأ حديثه بتذكير الحاكم عن الأوضـــاع السياسية فى الفترة السابقة للثورة ، فكانت تقدم القرابين فى المعابد من ثيران وماء مقدس ٠٠ ونفهـم من هذه القصيدة أن الأوز أيضا كان يقدم كقرابين ٠٠ وفى الفترة السابقة للثورة عندما كان الهدوء سائدا كان الكهنة يؤدون عملهم بالمعابد ٠٠ أما وقد أفلت الزمام من القيادة فان الحكيم ينبه الى عدم وجود العدالة الآن لأن الحاكم لا يتولى مسئوليته تجاه الناس والمجتمع ونظام الدولة ٠٠ فالمعروف بالنسبة للحكيم بأن الحاكم العادل يطفىء لهيب الحريق الاجتماعى ـ الذى تسبب فيه ظلم الاقطاعيين للناس ـ والذى نتج عنه هذه الفوضى الضاربة فى طول البلاد وعرضها ٠ لم يكن الملك مكروها من الناس بل كانوا ينظرون اليه كحاكم عادل ويعتبرونه الراعى لكل الناس ، ومعنى الراعى أنه يخاف عليهم ويحميهم ولا يحمل فى قلبه شرا وبالتالى لا يأتى منه الظلم ٠٠ بل يقوم هو برعايتهم وتجميعهم وحمايتهم مثلما يفعل الراعى مع قطيعه ٠٠ وفى نهاية القصيدة يوجه الحكيم انذارا للملك نفسه ـ المفروض فيه الحكمة والبصيرة والعدالة ولكنه لم يستعمل حكمته ، وبصيرته أو عدالته لكى يمنع الفساد من أن يستشرى ٠ ولكن مع تخاذله اشتدت المعارك مما جعل البلاد تحترق ٠ والناس تهلك ٠٠ فالحرب الأهلية لم ينطفىء لهيبها ٠ وفى القصيدة الســادسة يهفهف أمام الحكيم الأمل فى عودة الأمور لطبيعتها ٠

القصيدة السادسة :

[وفيها وصف للوقت السعيد الذى يدخره المستقبل] ٠

« على أنه من الخير أن تسير السفن متجهة الى الجنوب ٠

على أنه من الخير أن تبنى أيدى الرجال الأهرام وتحفر البرك ٠٠
وتقيم للآلهة مزارع فيها أشجار ٠

على أنه من الخير أن يبدو الفرح فى أفواه الناس ٠

على أنه من الخير أن تكون الأسرة وثيرة ٠ وساندة رؤوس العظماء تحميها التمائم (*) ٠ ويهيىء لكل انســـان سرير خلف بـاب مغلق ، فلا يحتاج الى النوم فى الأعشاب » (٧٧) ٠

بهذا نجد الحكيم ينهى قصائده بنبرة فيها الأمل بحلول الوقت السعيد فى المستقبل ٠ والمصرى عموما يميل للتفاؤل وهى سمة شبه رئيسية فى المجتمع المصرى ٠ وصفة التفاؤل لم تأت من فراغ فالطبيعة حوله تعطيه هذا الاحساس ٠٠ فالنيل سيأتى غدا (فى فيضانه) بالمياه الوفيرة التى تعيد الحياة الى الأرض الجافة وسترتوى الأرض وينمو الزرع ويعم الخير ويعود الاحساس بالأمان مع وجود الأمن الغذائى ٠٠ والظلام الذى يمثل الشر يأتى بعـده النور فيبدد الظلام ٠٠ هذا أعطى احساس للمصرى بأن الخير قادم وسيقضى على الشر ٠٠ وهو يرى هذه الصورة كل يوم ٠٠ والبيئة الزراعية تركت أثرها على الشخصية المصرية فالبيئة الزراعية تعلم الانسان الصبر ٠٠ وتوقع قدوم الخير ـ متمثلا فى المحصول الوفير ـ بعد الكد والعناء والانتظار ٠ ووجود الصبر مؤشر لمعنى الأمل وتوقع الخير ٠٠ والمثل العام الذى يردده الجميع سواء كان فلاحا أو عاملا أو جاهلا أو حتى متعلما وهو ـ الصبر طيب ـ هو نوع من الأمل أى التفاؤل ٠ لقد كانت الطبيعة سخية معه ٠٠ أعطته وتعطيه باستمرار ٠٠ ووجدانه داخله يؤكد له أن الخالق ـ الراعى الصالح ـ يرعاه ويستمع لتضرعاته فى صلواته ويهتم به وكلنـا حتى اليوم نردد هذا المعنى فى جملة صغيرة « اتكل على الله » وأمثلة شبيهة « ارم همومك على الله » و « اذا نسيت الأم رضيعها فلن ينساه الله » ٠٠ فاذا كانت القوة الخالقة عـادلة وحانيـة وترعى وتحب الناس ٠٠ فما الخـوف اذن ٠٠ و « التدين » وهو أهم سمة للمصرى تعطيه القوة الكامنة التى تعطيه الاشراقة وتوقع الخير ولا ننسى كلمة « ربنا يعدلها » وجمل شبيهة « الله يمهل ولا يهمل » ٠ والانسان المصرى ـ قديما وحديثا ـ يرتبط ارتباطا تاما بالأرض والنيل والله سبحانه وتعالى ٠ فهو أول من آمن بالبعث والبعث يعنى الصلة الوثيقة جدا بالخالق لأنه خلقنا وسنقف أمامه يوم الحســـاب وأعمالنـا هى التى ستحدد الطريق اما للجنة أو الجحيم (سأتناول هذا بالتفصيل فى الفصل القادم الخاص بالعقيدة الدينية) ٠

ونلاحظ تفاؤل الحكيم فى تكراره لعبارة « على أنه من الخير » فيقول على أنه من الخير أن تعود أيام السلم وتعود معها التجارة ، ويعود الناس للتجهيز للحياة الآخرة ـ ببناء الأهرام ـ وحفر الترع وزراعة

الأشجار ‥ بذلك يعود الفرح الى الناس ‥ وتحس الأسرة بالأمان . وينام الناس فى بيوتهم بدلا من الأحراش . فالاستقرار الأسرى هو هدف الانسان المصرى ــ قديما وحديثا ــ بل ان الاستقرار الأسرى يؤكد له الترابط الأسرى الذى هو سمة ظاهرة يتميز بها المصرى . وهذا الترابط الأسرى كان ولا يزال هو الدرع الذى حافظ على تماسك المجتمع المصرى حتى فى الظروف الحالكة واستمرت الأسرة تقوم بدورها البناء فى تنشئة الأجيال التالية وتعطيهم الحنان والحب والتعاون والترابط والدفء العاطفى . لقد كره الناس الأوقات المضطربة لأنهم لم يستطيعوا أن يزرعوا أو يفلحوا الأرض وبالتالى لم يستطيعوا الحصول على الطعام . لقد كانت الهزة الاجتماعية شديدة فتأثر بها المجتمع بأكمله ‥ فالأغنياء أصبحوا فى ملابس بالية ومحرومين من ثرواتهم ‥ والفقير لم يضمن قوت يومه مع اختلال الأمن ووجود النهب والسلب لأن اللصوص حلوا محل السلطة الحاكمة التى كانت تمنحهم النظام والأمان . لقد عانى الناس من انقلاب الأحوال ‥ عانوا من الفاقه والبؤس بل تعرضت حياتهم للخطر ‥ وهذا غير مستحب لدى الناس فتمنوا أن تنفض هذه الغمة وتعود الأوضاع الى ما كانت عليه قبل الثورة حتى تنتهى الأوضاع المضطربة به ويسود السلام والهدوء لكى ينعم الناس بالعيش فى أمان ويأمنون على حياتهم ولقمة عيشهم .

لم تكن الثورة الاجتماعية كلها شر ــ رغم البؤس الذى عاناه الناس بسبب الاضطرابات والنهب والسلب ــ فلقد تركت آثارا طيبة وغيرت مفاهيم كثيرة وأعطت الفقير حقه فى الحياة الدنيوية بعد القضاء على الاقطاع بل وحقه فى الخلود الذى كان قاصرا على الملك وعلى حاشيته الذين كان يعطيهم هذا الحق وازدهرت الديانة الشعبية (ديانة «أوزير») فى مواجهة الديانة الرسمية (ديانة « رع ») وهذه النقطة سيتم عرضها ودراستها عند الحديث عن العقيدة لأنها خاصة بالعقيدة والمعتقدات السائدة فى الفترات المختلفة . ولكنى أشير هنا بدون تفاصيل بأن « متون الأهرام » كانت تعبر عن الملك الاله وأنه يذهب مباشرة للسماء فله الخلود ويمكنه أن يمنح الخلود لحاشيته ، أما عامة العامة فكانت لهم الأرض ‥ أما فى متون التوابيت (الدولة الوسطى) فظهر أثر الثورة واضحا بأن الخلود أصبح للجميع لأن « أوزير » يهبه لكل الناس الذين يقفون أمامه يوم الحساب ــ وحيث الميزان ــ هذا بالاضافة الى ازدهار الأدب عقب هذه الهزة الاجتماعية وانتشر أدب الحكمة والأدب التعليمى . ومن هذه الكتابات نرى كتبا كثيرة تتحدث عن « حكمة المصريين كما أن هذه الثورة الاجتماعية التى قام بها الشعب أثبتت أن

الشعب لم يكن خاملا خنوعا لا رأى له ولا كلمة له ·· لقد قضى على الاقطاع وأخذ حقه الدينى فى الخلود ·

ويصف الدكتور سيد توفيق هذه الثورة الاجتماعية كالآتى :

« لقد سقطت مصر فى هوة عميقة من الاضمحلال بعد موت الملك بيبى ، فانهار صرح الملكية ، وتدهورت سلطة البلاد المركزية ، وبالتالى ازداد نفوذ حكام الأقاليم ، وبدأ الشعب يفكر فى الثورة ليتحرر من قيوده ، فكانت الثورة على قدسية الملوك وقدسية الآلهة ، وانتشر الخوف وساد البؤس وعم الاضطراب فى جميع أنحاء البلاد وازدهر الأدب التهذيبى فى ظل هذه الثورة ، ويصف لنا الحكيم المصرى « أيبو ــ ور » الذى يحتمل أنه عاش فى أواخر عهد الملك بيبى الثانى ، أو أحد خلفائه الضعاف ، يصف البلاد وصفا مؤثرا على الرغم مما فيه من قسوة ، فيعدد صور البؤس ، ويؤنب الملك الحاكم على استهتاره وضعفه بقوله :

أن أصدقائك قد كذبوا عليك

البلاد تعمل والناس على شفا الهلاك

هذه السنوات سنوات حرب وبلاء » (٧٨) ·

لقد أثرت هذه الثورة فيما وصف **بالديمقراطية الدينية أى الاهتمام بالفرد** ويظهر هذا بوضوح عندما عملت مقارنة بين « نصوص الأهرامات » و « نصوص التوابيت » والتى شرحها « ياروسلاف تشرنى » ــ مؤلف كتاب الديانة المصرية القديمة ــ فقد قال : « وجدت « نصوص الأهرامات » لأول مرة على جدران ممرات حجرة دفن الملك « أوناس » من « الأسرة الخامسة وظلت حتى آخر « الأسرة السادسة » · وكان المقصود بهذه النصوص هو ضمان سعادة الملك المتوفى وسلامته فى العالم الآخر ··· وظهرت (نصوص التوابيت » فى أواخر الأسرة السادسة وانتشرت على جدران التوابيت انتشارا كبيرا أثناء عصر الانتقال الأول ·· وفى حين أن نصوص الأهرامات كانت خاصة بالملوك ، فان نصوص التوابيت كانت تشمل أيضا أفراد الشعب ، وذلك نتيجة **للديمقراطية الدينية** التى حصل عليها · وهى فى مجموعها تتألف من فصول لحماية المتوفى فى العالم الآخر حيث أصبح كل متوفى يتخذ لنفسه لقب « أوزيريس » (٧٩) ·

وتناول الكثيرون هذه الثورة الاجتماعية بالتحليل لأنها ذات دلالة عظيمة بأن الشعب لم يكن مستسلما ومستكينا مثلما يحاول الأعداء أن يظهر الشعب المصرى بأنه لا يثور ولا يطالب بحقوقه وأنه فاقد الارادة ·

ولعل تعليق الدكتور « رؤوف عباس » فى الفصل التاسع من كتاب « حكمة المصريين » هو لسان حال كل منصف للشعب المصرى فهو يقول :

« وقراءة تاريخ مصر منذ أقدم العصور تزودنا بالأدلة الناصعة على انتفاض الشعب المصرى عندما يتبدد أمله فى الخلاص من واقعه الأليم ، وعندما يفتقد أسباب العيش ، وعدم قبوله الضيم ، وتنكيله بالمستبدين والظالمين على الصعيد السياسى والاجتماعى ٠ ولعل أحداث الثورة الاجتماعية التى شهدتها مصر أيام الأسرة السادسة فى عهد الدولة القديمة (عام ٢٢٨٠ قبل الميلاد) خير دليل على **عدم استكانة المصريين للظلم** ، وانفجار غضبهم ، فانقلبت البلاد الى عصابات ، ولم يعد الناس يحرثون حقولهم ، وأضرب الناس عن دفع الضرائب ، وهجموا على مخازن الحكومة ونهبوها ، وأعتدوا على مقابر الملوك الآلهة فنهبوا ما فيها . وبعثروا أشلاءهم ، وصب الشعب انتقامه على الأغنياء ، فنهبوا القصور وأحرقوها ، حتى رجال الأمن أصبحوا فى مقدمة الناهبين ٠٠ وهكذا **ثار الفلاح الصابر المطيع عندما بلغ الظلم مداه** ، وبلغ التناقص الاجتماعى حد الأزمة ، فلم يفرق بين معبد لاله ، أو ديوان للحكومة ، أو مخزن للدولة ، أو حتى مدفن لفرعون مقدس » (٨٠) ٠

ويتناول الدكتور « محمود سلام زناتى » هذه الثورة متخذا وصف « أيبو ــ ور » للأحداث الدامية كما يضيف ما استقاه من بردية كتبت فى عهد الملك أمنحتب الأول ولكنها صيغت فى صورة نبوءة فيقول :

« لم يخل التاريخ الفرعونى من ثورات اجتماعية ٠ فعندما تضعف السلطة المركزية فتعجز عن مباشرة رقابة فعالة على موظفيها ، وتتخاذل عن تطبيق العدل بين الناس ، فيجنح الأغنياء الى استغلال الفقراء ، ويبطش الأقوياء بالضعفاء ، ويستبد ذوو السلطة بمن لا حول لهم ، فينتشر الظلم ويعم الفساد ، **تتجمع بذور السخط** وتغلى مراجل الغضب ثم يحدث الانفجار فى صــورة ثورة عارمة لا تبقى ولا تذر ٠ وقد حفظ لنا التاريخ ذكرى ثورة اجتماعية عنيفة جرت حوادثها فى أواخر عصر الدولة القديمة وانتقلت الينا أصداء هذه الثورة عن طريق بعض الآثار الأدبية ٠ فقد وصف « ايبو ــ ور » تلك الأحداث الدامية التى عاصرها وما أدت اليه من انقلاب فى الأوضاع الاجتماعية بقوله : « انظر لقد أصبحت النبيلات يعملن بأيديهن ويعمل النبلاء فى حوانيت الحرف ، وأصبح كل من كان ينام على حصير مالكا لسرير ٠ انظر ! ان من كان يرفل فى الحلل أصبح يرتدى الأسمال ، ومن لم ينسج شيئا لنفسه أصبح الآن مالكا لأغلى ملابس الكتان ٠ انظر ! ان النبيلات أصــبحن

يتضورون جوعا • انظر انه لم يعد هناك وجود للدواوين ، وصار الناس أشبه بقطيع لا راعى له » (١) •

نلاحظ فى النص السابق بأن الأغنياء أصبحوا يعملون مثل الفقراء ، كما أصبح المحرومون مالكين للأسرة بعد أن كانوا يناموا على الحصير — كما نلاحظ تشبيه الناس بلا ادارة حكومية كالقطيع بلا راعى • لأن الناس كانوا معتادين على النظام • واستطرد الدكتور « زناتى » :

« وهناك بردية كتبت فى عهد الملك « أمنحتب الأول » أول ملوك الأسرة الثانيــة عشر ، وتنسبها مؤلفها الى عهد الملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة ، صيغ كلامها فى صورة نبوءة أدلى بها أحد الكهان للملك سنفرو تما ستتعرض له مصر فيما يقبل من الأيام ، جاء فيها :

« سأريك البلاد وقد أصبحت راسا على عقب وحدث فيها ما لم يحدث من قبل • سيمسك الناس بأسلحة القتال ، وتعيش البــلاد فى فزع • سيصنع الناس سهاما من النحاس ، وسيسعى الناس للحصــول على الخبز باراقة الدماء • سأريك (حالة البلاد) وقد أصبح الابن ضد أبيه ، وصار الأخ عدوا (لأخيه) وصار الرجل يقتل أباه • لقد انتهى كل شيء جميل !! وصار الناس يفعلون ما لم يفعلوه من قبل • انهم يأخذون أملاك الرجل ويعطونها للغريب • وسأريك المــالك وقد أصبح فى عوز وحاجة ، والغريب وقد أثرى وشبع •

« سأريك البلاد وقد أصبحت راســا على عقب وحدث فيها ما لم له صاحب سلطة ويملك السلاح ، وصار الناس يقومون احترامهم لمن كان لا يقدم له احترامه • سأريك البلاد وقد اصبح فى القمة من كان فى الدرك الأسفل » (٨١) •

ان وصف هذه الثورة الاجتماعيــة بهذه الصــورة تظهر أن تدين الناس وحبهم للنظام وميلهم للمسالمة لم تمنعهم من الانفجار والتعبير عن ضيقهم وحنقهم ولم تذهب ثورتهم هباء فقد « تمخضت هذه الثورة عن **الاعلاء من شأن الفرد واعتزازه بنفسه** فأصبح المصريون يؤمنون **بالمساواة الاجتماعية** ولم يعد تقدم الفرد فى حياته الاجتماعية رهنا برضاء الملك أو بنسبه ، أو ثرائه بل بجده واســتقامته » (٨٢) أما العــلامة المصرى « سليم حسن » فقد رأى فى هذه الثورة مؤشر خطير **لاهتزاز ثقة الناس** — نتيجة هذا الانقلاب الاجتماعى فى الاله • • فالمعروف أن **التدين** هو السمة الأولى فى الشخصية القومية المصرية •• بل ان التدين هو الذى يرتبط

به المصرى تربه ‎٠٠‎ والدين لعب ولا يزال الدور الخطير فى التركيبة المصرية وقد أدرك البطالمة هذه الحقيقة فقامت سياستهم على تقريب رجال الدين منهم لأنهم هم الذين يسيطرون على عامة الناس لما للتدين من أثر عميق فى نفوسهم ‎٠‎ والمتتبع لتاريخ البطالمة يجد أنهم بنوا معابد فخمة فى ادفو وفيلة وكوم أمبو وأسنا وفى مناطق **أخرى وكانوا يحترمون مشاعر المصريين الدينية** حتى يستطيعون جذبهم اليهم وبذلك تفادوا ثوراتهم بقدر الامكان ‎٠‎ وها هو النص الذى كتبه العلامة المصرى والمؤرخ العظيم ‎٠‎

« كان موقف الحكومة المصرية فى حالة يرثى لها [نتيجة اغارة الأجانب من البدو من جهة والحروب الداخلية من جهة أخرى] حتى أن الشعب انتهز هذه الفرصة وقام بثورة اجتماعية طاحنة امتد أمدها أكثر من قرنين من الزمان كانت البلاد ترزح خلالها تحت عبء ثقيل من الفوضى والخراب اذ كان سلطان فرعون قد زال وأملاكه قد اختفت والحقوق المدنية والدينية قد تولاها كل من كان فى قدرته أن يبسط يده عليها ‎٠٠‎ كان من جراء امتداد هذه الفوضى أن ساد البلاد الخوف وانتشر القحط **وعم الانحلال الخلقى** وعدم المبالاة بالتقاليد الدينية والمعتقدات الموروثة ‎٠‎ وليست لدينا وثائق تاريخية تنير لنا الطريق خلال هذا العصر المظلم ‎٠٠‎ الا معلومات ضئيلة جدا ‎٠٠‎ وتعتبر « تحذيرات نبى » قطعة أدبية تصف لنا **أول انقلاب اجتماعى** فى آخر عهد الدولة القديمة ‎٠٠‎ وقد وصف الحكيم « أبور » البؤس العام الذى حل بالبلاد من سرقة وقتل وتخريب وقحط ، وتشريد الموظفين وتفكك الادارة ، والقضاء على التجارة الخارجية وغزو الأجانب البلاد ، وتولية الغوغاء مراكز الطبقات العليا ‎٠٠٠‎ فقد الناس الثقة فى النفس ‎٠٠‎ واصبح المعوزون يمتلكون أشياء جميلة بينما نجد الأشراف فى حزن لا يشاطرون أهليهم أفراحهم ، ثم ان القلوب صارت ثائرة ، والوباء انبث فى كل الأرض والدم أريق فى كل مكان ‎٠٠٠‎ » (٨٣) وكان أثر الثورة عميقا فى نواحى الحياة لدرجة أنه قيل بأن الضحك لم يعد يسمع وأن الناس كرهوا الحياة ‎٠٠٠‎ حتى أغانى العازفين تحولت الى أناشيد حزن وظهر أثر خطير على التدين وهو اهم مقوم للشخصية المصرية قديما وحديثا ‎٠٠‎ **واصبح الرجل الأحمق يشك فى وجود (الاله)** فيقول : **« اذا عرفت أين يوجد الاله قدمت له قربانا » !!** (٨٤) ‎٠‎

ويصف العلامة « سليم حسن » هذه الفترة بقوله :

« أصبحت الماشية والقطعان تندب بسبب حالة البلاد ، والرجل يقتل أخاه من أمه ، والطرق شائكة ، فاللصوص يكمنون فى الحشائش

حتى يأتي المسافر فى ظلام الليل ليسلبوا منه حمله ويسرقوا ما معه ثم يضربوه بالعصى حتى يقطع نفسه ثم يذبح ظلما » (٨٤) ٠

لقد ثار الشعب على الظلم ثورة عارمه وقد أدت شدتها الى انتشار الفوضى رغم أن الناس لا تكره النظام والقانون ورغم أنهم يحبون الاستقرار الاجتماعى والاقتصادى والسياسى ورغم أن وجدانهم متشبع بالتدين والحب والتعاون والخوف من الميزان (يوم الحساب) أى تقديم أعمالهم أمام قاعة العدالة العليا والتى بمقتضاها يتقرر مصيرهم فى الحياة الآخرة ٠٠ رغم ذلك ٠٠ فقد ثاروا على الظلم ثاروا على الاقطاع ٠٠ ثاروا على حرمانهم من السماء التى كانت وقفا على الملك طبقا لما كتب فى « نصوص الأهرام » ٠ لقد « نهض عامة الشعب عن بكرة أبيهم وقاموا بثورة اجتماعية دينية ، وطالبوا بالتمتع بالآخرة السماوية ، فأصبحت حقا مشاعا لكل الشعب على السواء ٠٠ وبعبارة أخرى أخذت المبادىء الديمقراطية الدينية تنتشر بين الأهلين وتخاصة حرية التمتع بالجنة السماوية » (٨٥) ٠

لقد أظهرت الثورة احدى مقومات الشخصية القومية وهو أن الانسان المصرى **لا يستكين للظلم** بل يطالب بحقه ولا يستسلم بل يظل يطالب ويطالب حتى يتحقق مطلبه ٠٠ وها هنا نراه يناضل فى كافة المجالات الاجتماعية والدينية [وهناك قصة الفلاح الفصيح الذى يستمر يقدم شكاوى حتى وصلت الى تسع شكاوى وأخذ حقه من المغتصب] انه صبور ٠٠ ولكن للصبر حدود ٠ لقد فاض الكيل فأنفجر فى ثورة عاتية بدأت بثورة اجتماعية ضد الاقطاع وانتصر عليه وقضى على الظلم ، ولكن قد أفلت العيار لأن هذه الحقبة اتسمت بالعنف الذى كان لازما للثورة المتفجرة التى تألو الى التغيير ٠ لقد جاوز الاقطاعيون المدى واستولوا على خيرات البلاد وكان هذا يعنى حرمان الشعب الكادح من ثمار عرقه وتعبه ٠ كان الفلاح يزرع بجد ويكد فى الحقل ، فى حين كان يقوم الاقطاعى بدور الطفيليات التى تمتص الغذاء بعد أن يتم اعداده ٠

وان كان اللصوص قد أساءوا الى هذه الثورة الشعبية فحولوها الى فوضى والمصريون عموما لا يحبون وجود خلل فى المجتمع ، الا أن الهدف الرئيسى من الثورة فقد تحقق عندما سادت **« العدالة الاجتماعية »** ، وعندما تحقق لعامة الشعب **الديمقراطية الدينية** التى أعطتهم الحق فى التمتع بالجنة السماوية ٠ وعندما نقارن « نصوص الأهرام » « بنصوص التوابيت » وبكتاب « الطريقين » (*) تظهر جليا المكاسب التى حققها عامة الناس تثورتهم الاجتماعية الدينية ٠ ففى « نصوص الأهرام » ارفع نفسك أيها الملك « بيبى » السامى بين النجوم التى لا تغنى (وهى النجوم

التوابت) انك لم تغني أبداً (٨٦) ٠٠ وأســـمى موضوع ، فى متون الأهرام » كان الحياة « أى حياة الملك الأبدية » (٨٦) أى أن الغاية المهمة من « متون الأهرام » كانت فى الأصل ضمان سعادة الملك فى الحياة الأخروية ٠ واذا تأملنا كل ما كتب فى « متون الأهرام » ـ رغم أنها تميز الملوك ومن يختارونهم من المقربين منهم ، فانها فى الواقع تعتبر ثورة قام بها الانسان ضد الموت ٠٠ ثورة ضد الظلمة والسكون العظيمين ٠٠ وهذه الثورة ضد الفناء وضد الحرمان من الحياة الآخرة كانت موجودة داخل وجدان الشعب بأكمله ٠ فالكل لديه الايمان والدليل على ايمانهم بالبعث هو وجود الأشياء التى كانت توضع مع المتوفى منذ عصـــور ما قبل التاريخ ٠ فان لم يكن يؤمن بالبعث ، فلماذا وضعوا هذه الأشياء فى المقـــابر ؟

لقد حقق عامة الناس حقهم فى الخلود أسوة بملوكهم ،وظهر هذا مليا فى انتصار ديانتهم الشعبية (عقيدة « أوزير ») « ومتون التوابيت » وكتاب « الطريقين » هما الشاهد على ذلك حيث أخذت « عقيدة أوزير » مكان الصدارة ٠ لقد كان كفاح الشعب موجودا حتى فى متون الأهرام ولكن تحقق النصر التام بعد الثورة الاجتماعية وأصبح جليا فى نصوص التوابيت ٠ ويقول « برستيد » ان التطور المستمر الذى نتعرف منه فى ذلك البحث سير الكفاح بين المذهب الشمسى الذى كان متبعا فى معابد الحكومة وبين المعتقدات الشعبية لديانة « أوزير » ، كما يتضح من « متون الأهرام » ، يعد من أهم ما بقى لنا من أخبار العالم القديم ، فقد حفظ لنا حقا أقدم مثال للصراع الروحى والعقلى بين ديانة الحكومة وديانة الشـــعب » (٨٧) ٠

وتشير بعض الكتب الى أن « أوزير » قد حشر نفسه فى الطائفة الشمسية باحتلاله مكان « حور الأفق » وهذا دليل على الصراع من أجل انتصار لعقيدة الشعب ٠ وهذا دليل **وجود ثورة دفينة داخل الشعب** حتى فى المسائل العقائدية ٠ ويعلق « برستيد » على هذا الصراع بأنه « قد أدى الى صبغ العقائد الجنائزية الشمسية والسماوية بصبغة « أوزيريه » فان الحياة الآخرة مع ذلك بقيت سماوية ، لذلك كان من الواضح أن اله الشمس عندما كان يأخذ « أوزير » الى جواره فان معنى ذلك أن مكان اله الشمس فى تلك العقائد الجنائزية المركبة كانت لاتزال هى المكانة الأولى ، وحينئذ تبقى الحقيقة القائلة بأن العقائد السماوية عن الحياة الآخرة هى السائدة فى « متون الأهرام » كلها ، أما عالم « أوزير » السفلى الذى ظهر فيما بعد وكذلك سياحة الشمس فيه ، فانهما كانا ولايزالان يعدان فى مركز ثانوى بصفة قاطعة فى تلك العقائد الجنائزية الملكية ٠

اما عامة الناس فكان اله الشمس فيما بعد فى نظرهم ينزل الى العالم السفلى ليضىء على قوم « أوزير » فى مملكة الأموات » (٨٨) ٠

يتضح من النص السابق أن وجود الديانة الرسمية المتمثلة فى عبادة « رع » وما يرتبط بها من اعطاء الملك مكانة خاصة كابن الشمس (صارع) وبصعوده الى السـماء ، لم يكن يلقى قبولا وارتياحا من عامة الشعب ، وكانت لهم نظرتهم فى عبادة « رع » تختلف عما كان يؤمن به الملوك الذين خصوا أنفسهم بامتيازات تتعلق بالحياة الآخرة فى السماء ، فعندما تحققت لهم الديمقراطية الدينية ، كانوا يرون أن الشمس تنزل الى العالم السفلى لتضىء على قوم « أوزير » فى مملكة الأموات ٠

لقد تركت الثورة الاجتماعية الدينية أثرا عميقا فى نفوس الناس ، ونستطيع أن نلمسه فى الأب فى تلك الفترة ٠ لقد أعترى الانسان الشك فى العقيدة الدينية وفى الحياة الآخرة نتيجة الفوضى التى سادت ونتيجة الحياة الصعبة التى عاشها الناس فى عصر اهتزت فيه القيم والعقائد ٠ لقد فقد الناس الاحسـاس بالأمان بعد أن اختفى النظام وسيطرة الملك والحـكومة على دفة الأمور فى البـلاد ، وضربت الفوضى أطنابها فى كل انحاء البلاد ٠ وقد عبر العلامة « سليم حسن » عن مشاعر اليأس فى مقدمته التى سبقت القصيدة الشـعرية والتى أعطاها عنوان « **شجار بين انسان سئم الحياة وبين روحه** » (٨٩) فقد قال :

« لقد كان من نتائج تدهور البلاد وتمزيق أوصالها فى العهد الاقطاعى أن عمت الفوضى ، وساءت الأخلاق ٠ وفسدت العقائد الدينية الى درجة يقصر عنها الوصف ، حتى ان الجم الغفير من الناس وخاصة المتعلمين منهم قد اعتنقوا مذهب **التشكك** ، فألقوا بتعاليم آبائهم ظهريا ، وراوا الحياة مسرحا لاشباع الشهوات النفسية ودارا لترك حسن الأحدوثة بعد الموت ، وقد أعقب هذه الأفكار عند بعض الناس حالة من سوء الظن لا يرجى معها خير ، وساءت الأخلاق ووقع الناس فى الاثم الى الأذقان ، ولم يهتموا بحسن الأحدوثة التى كانوا من قبل شديدى الاحتفال بها ، كما نشاهد ذلك فى أغنية « **الضارب على العود** » ٠

« وهذا الموقف الغريب الغامض الذى نشاهده فى حالة مصر قد مثل لنا فى ورقة هامة محفوظة الآن فى « متحف برلين » ، وهى الوثيقة التى سميتها « شجار بين انسان سئم الحياة وبين روحه » ٠٠ وقد كان الاعتقاد عند المصريين أن الروح كائن حى مستقل عن جسد الانسان ويمكنه أن ينضم اليه عند الموت ويمكنه كذلك أن يقف بجانبه موقف اخلاص ٠٠

وموضوع هذه المحاورة العام هو **التشاؤم المخيم** » الذى نتج من الحالة السالفة الذكر واليأس الذى أفضى الى الموت ، والموت هو المخلص الوحيد من حياة عابثة شقية ، ولا يحفز المصرى القديم الى اختيار مثل هذا الموضوع فى عهود التاريخ الأولى الا اذا كانت الحالة قد وصلت الى حد الحرج والألم • فهذا الموضوع يدل على الحالة العقلية والتجارب الباطنة التى جربتها شخصية معذبة كانت تتألم مما حاق بهم من **الظلم وسوء الطالع** ، وبذلك يعد هذا الموضوع أقدم قطعة أدبية لبابها **تجربة روحية** وشعور شخصى نحو الحياة فى تلك العصور البائدة ، وهى فى نظرنا تعد أقدم كتاب يمثل لنا صورة من قصة نبى الله « أيوب » المبتلى عليه السلام • وقد كتب هذا المقال طبعا قبل أن تظهر قصته بنحو ألف وخمسمائة سنة ••

« والمتشائم الذى نحن بصدده (لأننا لم نعرف له اسما) كان رجلا لطيف الروح ، ولكنه قد دهمه الحظ العاثر ولازمه المرض فابتعد عنه أصدقائه حتى اخوته الذين فرض عليهم مواساته فى مرضه ، ولم يجد فى دنياه خلا وفيا •• وفى وسط هذه الغمرة التى طوته بين لججها سرق جيرانه متاعه ونسوا ما عمله معهم من صالح بالأمس •

« وبالرغم من أنه عرف بالحكمة فقد حيل بينه وبين الدفاع عن حقه وقد حكم عليه ظلما ، فلوث أسمه وهو الجدير بالاحترام ، وتدت سيرته خبيثة الرائحة تزكم الأنوف ، وان كانت فى حقيقتها نقية طاهرة •

« وفى ذلك الوقت العصيب عندما كان يسبح فى ظلمات اليأس بدت عليه بارقة من الراحة فى الانتحار ، فنراه على حافة القبر وروحه تفر فزعة من الظلمة وتأبى عليه أن تطاوعه فى فعلته تلك • ثم ندرك من محاورة طويلة أن ذلك المنكود الطالع كان يتكلم مع نفسه ، ويناجى شخصا من روحه كأنه يتحدث مع ذات أخرى • وقد كانت أول الأسباب التى جعلت روحه تعصيه وتمتنع عن متابعته الى الحياة الآخرة خوفها ألا تجد طعاما فى القبر بعد الموت •

« وقد يظهر ذلك غريبا جدا لأول وهلة من رجل يشك كثيرا فى مثل تلك المعدات التى كانت تعمل للمتوفى عند تشيعه الى آخرته • ولكن غرابتنا تزول اذا أدركنا أن هذا التعليل الذى التمسته الروح ليس الا حيلة أدبية أراد الكاتب أن يتخذ منها فرصة للتنديد بتلك المعدات الجنائزية التى كان يهتم بها كل مسرى فى دنياه • والظاهر أن روحه نفسها قد اقترحت عليه الانتحار حرقا ، ولكنها فرت بنفسها من تلك

النهاية الفظيعة ٠ ولما يكن من بين الأحياء صديق أو قريب حميم لتلك النفس يقف بجانب نعش صاحبها ويحتفل بجنازته أخذ يستحلف روحه أن تقوم له تكل ذلك ، ولكن الروح أبت عليه الانتحار بأى شكل كان ٠ ثم أخذت تصف له فظائع القبر : « ثم فتحت روحى فمها وأجابت عما قلته : اذا تذكرت الدفن فانه حزن ، وذكراه تثير الدمع وتنعم القلب أسى ، فهو ينتزع الرجل من بيته ويلقى به على الجبل (أى الجبانة) ولن تخرج قط ثانية لترى الشمس ٠ على أن هؤلاء الذين بنوا بالجرانيت الأحمر الجميل وصاروا مثل الآلهة ترى هناك موائد قربانهم خاوية كموائد أولئك المتعبين الذين يموتون فوق الجسر من غير خلف لهم ، فيبتلع الفيضان ناحية من أجسادهم وتلفحهم حرارة الشمس أيضا ، ويلتهمهم سمك شاطىء النهر ويعبث بهم ٠ أصغ الى ، وأنه لجدير بالناس أن يصغوا ٠ تمتع بيوم السرور وأنس الهموم » ٠

« كان ذلك جواب الروح عندما تمثل أمامها منظر الموت المألوف ٠ وقد أكد ذلك قول المتشائم : « من كان فى هرمه ومن وقف أحد الأحياء بجوار سرير موته كان سعيدا ، وقد سعى أن تقوم روحه بدفنه وبتقديم القرابين له وتقف عند القبر يوم الدفن لتجهز السرير فى الجبانة » ٠

« ولكن كان مثله مثل ضارب العود فى أنشودته (وهذه الأنشودة مكتوبة تعد هذه الوثيقة) اذ تذكرت روحه قبور العظماء التى خربت ، وموائد قربانهم التى خوت وصارت مثل موائد العبيد التعساء الذين ماتوا كالذباب فى وسط الأعمال العامة على جسور الرى ، وقد صارت أجسامهم عرضة للحر اللافح والسمك الملتهم فى انتظار الدفن ، فلم يكن هناك الا حل واحد للتخلص من كل ذلك وهو : « أن يعيش الانسان ناسيا حزنه منغمسا الى آذانه فى السرور ، ويلاحظ أنه الى هنا لم تختلف هذه المحاورة التى تنحصر كل فلسفتها فى أن يأكل الانسان ويشرب وفى أن يكون مرحا فى يومه لأنه سيموت فى غده ، عما جاء فى أغنية « الضارب على العود » ، ولكنا بعد ذلك نجدها تأخذ فى الخروج والافتراق عن زميلتها بنتيجة خطيرة تمتاز بها عن تلك الأنشودة ، اذ صارت تستدل على أن الحياة فوق أنها لم تكن فرصة للسرور والملاذ الدائمة ، فانها عبء ثقيل أثقل من الموت لا يمكن احتمالها ٠ وقد وضح ذلك فى أربع مقطوعات شعرية خاطب بها ذلك التعس روحه ، وتلك المقطوعات هى التى تؤلف الجزء الثانى من تلك الوثيقة ٠ ولحسن الحظ نجدها مفهومة بدرجة عظيمة أكثر من الجزء الأول منها ٠ والمقطوعة الأولى تصف لنا مقت العالم بغير حق لاسم ذلك التعس ، وتكون كل ثلاثة أبيات منها مقطوعة تبتدىء بالمقطع التالى « ان اسمى ممقوت » ٠ ثم يرى الكاتب بعد ذلك أن يقوى ذلك

المقطع بذكر شيء ممقوت مما يوجد فى حياة الشعب المصرى اليومية ويسمه بسمته المبغضة له وخاصة رائحة السمك النتنة والقاذورات التى كثيرا ما نشاهدها فى حياة سكان وادى النيل · وهاك المقطوعة الأولى ·

مقت اسـمه ظلمـا

« انظر · ان اسمى ممقوت أكثر من رائحـة اللحم النتن فى أيام الصيف عندما تكون السماء حارة · انظر · ان اسمى ممقوت أكثر من مقت صيد السمك فى يوم صيد تكون السماء فيه حارة · انظر · ان اسمى ممقوت أكثر من رائحة الطيور وأكثر من تل الصفصاف المملوء بالأوز · انظر · ان اسمى ممقوت أكثر من رائحة السمك وأكثر من شـواطىء المستنقعات عندما يصاد عليها ·

« انظر · ان اسمى ممقوت أكثر من رائحة التماسيح

وأكثر من الجلوس ···· حيث التماسيح

انظر · ان اسـمى ممقوت

أكثر من زوجة عندما يقال عنها الأكاذيب لزوجها

انظر · ان اسـمى ممقوت

أكثر من حبى شديد قد قيل عنه انه ·· لمن يرهه

انظر · ان اسـمى ممقوت

أكثر من ··· مدينـة

وأكثر من ثائر ولى الأدبار

« ومع أن ترديد ذلك الشعر يدل على أن اسم ذلك الرجل قد صار نتنا فى أنوف أصدقائه الا اننا نجده فى الشعر الثانى يترك ذكر نفسـه ليهتم بأولئك الذين كانوا سببا فى تعاسته ، فنراه يلقى نظرة على مجتمع أهل عصره فلا يجد فيه فاشيا الا الرشوة والخيانة والظلم وعدم الاخلاص حتى بين أسرته هو · وهذا الشعر أيضـا هو شكوى مرة كان يستهل كل مقطوعة منه دائما بجملة استفهامية خرج فيها الاستفهام عن معناه الى التوبيخ أو التحقير ، وهى « لمن أتكلم اليوم ؟ » وربما كان يقصد بذلك : أى صنف من الناس هؤلاء الذين أخاطبهم ؟ وقد كان الجواب الذى يعقب كل استفهام برهانا جديدا لمقاصده · وهاك ما قال فى ذلك :

الشعر الثانى

« لمن أتكلم اليوم ؟ الاخوة شر وأصدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب

لمن أتكلم اليوم ؟ الناس شرهون · وكل انسان يغتال متاع جاره

لمن أتكلم اليوم ، فالرجل المهذب مات والصفيق الوجه يذهب فى كل مكان

لمن أتكلم اليوم ؟ فان من كان ذا وجه طلق أصبح خبيثا وأصبح الخير ممقوتا فى كل مكان ·

لمن أتكلم اليوم ؟ فان الذى يستفز غضب الرجل الطيب بأعماله الشريرة يجعل كل الناس يضحكون حينما تكون خطيئة شنيعة

لمن أتكلم اليوم ؟ الناس يسرقون وكل انسان يغتصب متاع جاره

لمن أتكلم اليوم ؟ فقد أصبح الرجل المريض هو الصاحب الذى يوثق به · أما الأخ الذى يعيش معه فقد صار العدو

لمن أتكلم اليوم ؟ لا يذكر أحد الماضى ولن يفعل أحد الخير لمن يسديه اليه

لمن أتكلم اليوم ؟ الأخوة شر ، والانسان صار يعامل كالعدو رغم صدق ميوله

لمن أتكلم اليوم ؟ اذ لا ترى الوجوه ، وأصبح كل انسان يلقى بوجهه فى الأرض اعراضا عن اخوانه

لمن أتكلم اليوم ؟ والقلوب شرهة والرجل الذى يعتمد عليه القوم لا قلب له

لمن أتكلم اليوم ؟ فالصديق الذى يعتمد عليه أمسى معدوما وأصبح يعامل الانسان كأنه رجل مجهول رغم أنه قد جعل نفسه معروفا

لمن أتكلم اليوم ؟ اذ لا يوجد انسان فى سلام والذى ذهب معه لا وجود له

لمن أتكلم اليوم ؟ فانى مثقل بالشقاء وينقضى خل وفى

لمن أتكلم اليوم ؟ فالخطيئة التى تصيب الأرض لا حد لها »

« لقد تنحت روح ذلك المتألم عن الموت ثم أخذت تقترح عليه أن يعيش عيشة اللهو والملاذ مثل الذى جاء فى أنشودة الضارب على العود . ولما أحس من أعماق قلبه فظاعة الموت وأخذ يفهم عدم فائدة العناد المادى المحصن لدفع غائلة الموت عنه . نكص على عقبيه مدة قصيرة ثم عاد يتأمل فى الحياة . والنظمان اللذان دونهما هنا يصوران لنا ماذا رأى عندما رجع لبحث الحياة . أما ما يلى فهو وثيقة منطقية تدل على أنه ليس هناك أى بصيص من الأمل فى الحياة مع الاقتناع التام بأن الموت هو الخلاص الوحيد من ذلك البؤس الذى صار مغمورا به .

« والنظم الثالث أنشودة قصيرة فى مدح الموت . غير أنها ليست بحثا ساميا فى فوائد الموت مثل التى نطق به « أفلاطون » بعد ألف وخمسمائة سنة من ذلك العهد فى قصة موت « سقراط » ، كما أنه لايمكن قياسه بعقيدة التشاؤم الفلسفية التى جاء ذكرها فى سفر ابتلاء « أيوب » النبى صلوات الله عليه ، ولكنها تعد أقدم صيغة ذكرت عبر بها الانسان الذى عذب ظلما عن الموت وأول صرخة من متألم برىء وصل الينا صداها من عهود ذلك العالم القديم . وهى بحق تعد ذات فائدة فريدة قد لا تخلو من جمال بما احتوته من حرارة نفسية خلابة .

« ومما يلفت النظر أنها لا تحتوى على أية فكرة عن الاله ، بل هى تبحث عن التخلص السار من آلام الماضى التى لا تحتمل دون أن نتطلع الى المستقبل ، وقد كان من خصائص العصر والجو الذى نشأ فيه ذلك النظم ، ظهور ذلك التخلص السار فى شكل صور محسوسة مأخوذة من الحياة اليومية لسكان وادى النيل الأقدمين . وهاك ما قاله فى ذلك : « الموت خلاص سار » ان الموت أمامى اليوم كالمريض الذى يقدم على الشفاء وكالذهاب الى حديقة بعد المرض .

ان الموت أمامى اليوم كرائحة بخور المر وكانسان يقعد تحت الشراع فى يوم شديد الريح

ان الموت أمامى اليوم كرائحة زهرة السوسن وكما يقعد الانسان على شاطىء السكر

ان الموت أمامى اليوم مثل مجرى النهر الصغير ومثل عودة الرجل من سفينة حرتية الى داره

ان الموت أمامى اليوم كسماء صافية ومثل رجل يصطاد طيورا لا يعرفها

ان الموت أمامي اليوم كمثل رجل يتوق لرؤية منزله بعد أن مضى سنين عدة فى الأسر »

« وبالرغم من أن تلك الصور مأخوذة من الحياة الدنيا المتوغلة فى القدم فان معظمها غير مألوف لنا الا أنها تفقد كل تأثيرها فى أنفسنا ، اذ نجد فيها الحياة مشبهة بمرض طويل يشفى بالموت مثلما يدخل الناقة حديقة جميلة ، والموت مثل عبير المر تحمله ريح النيـل العذب ، ومثل المسافر يجلس تحت الشراع الذى تزجيه الريح ، وأوبة المحارب المنهوك القوى الذى كان يسير فى المياه البعيدة ثم يقترب من وطنه أو مثل السرور الذى يحدث فى نفس الأسير العائد من المنفى النائى الى الوطن السعيد . فتلك الصـور لها تأثيرها الكبير فى نفس كل انسـان فى أى عصر وفى أو جـو .

« وموضوع النظم الرابع هو النظرة العاجلة الى المستقبل النهائى الذى لم تتعرض لذكرة الأنشودة السابقة ، وبخاصة كلا من مقاطعة الثلاثة يبتدىء بقوله : « ان الذى هنالك » وهى جملة عادية ، وبخاصة لأنها قد وردت بصيغة الجمع : « ان الذين هنالك » ويقصد بهم الأموات ، وهم الذين رأيناهم مذكورين فى النصيحة الموجهة الى « مريكارع » و « ان الذى هنالك » سيكون نفسه الها « ويوقع عقاب الشر على مرتكبيه » لا على البرىء كما هو الحال فى حياة ذلك التعس الذى نحن الآن بصدده « وان الذى هنالك ينزل فى السفينة السماوية مع اله الشمس وسيرى أن أحسن القربان تقدم لمعاتد الآلهة ولا تصرف (عبثا) فى الرشوة أو يسلبها السارق من الموظفين » .

و « ان الذى هنالك » هو حكيم محترم لا يطرد عندما يشكو الى الموظفين الفاسدين بل يوجه شكايته الى اله الشمس « رع » ويهيىء له تلك الفرصة بوجوده يوميا مع الاله . وقد أعلن ذلك التعس فى بداية شجاره مع روحه أنه مقتنع ببراءته فى عالم الآخرة . ثم هو يعود مرة ثانية الى ذكر ذلك الاقتناع فى النظم الرابع الذى هو خاتمة تلك الوثيقة المهمة . وبذلك تكون مختتمة بحل يوافق الحـلول التى كان أدركهـا نبى الله « أيوب » عليه السلام ، وهو الالتجاء الى العدالة فى الحيـاة والآخرة . ولو أن « أيوب » عليه السلام لم يتخذ من مرضه مبررا لطلب الموت ــ وهو بذلك قد جعل الموت طريقا الى الدخول فى قاعة المحاكمة الالهية ، ولذلك كان سعيه الى بلوغ تلك النهاية سعيا سريعا لا هوادة فيه ، فيقول :

الميزات السامية للقاطنين هنالك (يعنى فى الآخرة)

« ان الذى هنالك سيقبض على المجرم كأنه اله ويوقع عقاب الاجرام على من اقترفه ·

ان الذى هنالك سيقف فى سفينة الشمس ويجعل أحسن القرابين هنالك تقدم للمعابد ·

ان الذى هنالك سيكون رجلا عاقلا غير منبوذ مصليا (لرع) حينما يتكلم ·

« ولما كان هذا التعس يتوق للخلاص السار الذى بهيئه له الموت . وكان يظهر عليه أنه قد استعاد بعض الثقة بما كان سينعم به من الميزات السامية فى عالم الآخرة ، فان روحه تستسلم له فى النهاية فيدخل فى ظلال الموت ويسير فى طريقه ليكون مع أولئك الذين هنالك · على أننا بدورنا نقرب بشىء من الاحساس المرهف هذا الرجل المجهول الاسم الذى بعد أقدم روح بشرية معروفة لنا يذهب الى تلك الحجرات الداخلية فى عالم الآخرة ·

« وقبل أن نختتم كلامنا عن هذه الوثيقة نقول ان بعض ما كتب عنها يرى أن فيها ما يمثل رجلين : أحدهما يرى أن الموت هو الخلاص الوحيد للانسان اذ يعيش بعده فى سلام وأمان · والثانى رجل شهوة يرى أنه من الواجب على الانسان أن ينس كل أحزان الحياة وآلامها · وأن يجعل السرور وحده يسيطر على حياته » (٩٠) ·

وتعليقى على هذه الوثيقة ينحصر فى المعنى الذى يكمن وراء أمثال تلك التأملات · ان المصرى القديم كان يتفاعل مع الأحداث والأحوال المحيطة به ويتأثر بها وجدانيا ويعبر عن مشاعره بصدق واحساس مرهف · وككائن بشرى تعرض للظلم والى جحود الأهل والأصحاب وتعرض لنوائب الزمن من مرض وظروف نفسية مؤلمة ، فانه انجرف فى تيار اليأس والتشاؤم · لقد أظلمت أحوال الدنيا حوله وأصبح يمر بتجربة عقلية ونفسية هزت كل كيانه وأحس بالألم بسبب ما تعرض له من ظلم وسوء طالع · ومثل هذه التجربة الروحية يتعرض لها أى انسان فى كل مكان وزمان ــ وعلم النفس يفسر لنا سبب اقدام الانسان على الانتحار عندما تظلم الدنيا فى وجهه وهو أن الانسان تصيبه حالة الاكتئاب التى هى النتيجة الطبيعية لمرور الانسان فى وقت وظروف عصيبة مثل ظلم الناس وظلم الحياة والذى يصاحبه ظلمات اليأس · اليأس يفقد الأمل ، وفقدان الأمل معناه أن بصيص النور غير كاف

لأن ينير له طريق الحياة • ويفقد الانسان عندئذ الثقة فى كل شىء حتى العقيدة •• بذلك تتغير نظرته للحياة وبالتالى فلسفته فى الحياة • واذا كان الموت هو المصير المحتوم وهناك شك فى الخلود أو هناك شك فى الحياة الآخرة • اذن ليس أمام الانسان الا أن ينعم من الحاضر لذاته مثلما كان « عمر الخيام » يقول فى قصائده • ومع وجود الشك الذى لازم المصرى القديم فى فترة الفوضى السياسية •• فلابد أنه كان هناك بعض النـاس الذين يرددون المقولة « فلنحيا الآن بكل ما نسـتطيع ، فاننا نعرف الحاضر • فلنستمتع بيوم السرور وننس الهموم » • لقد رأينا الرجل التعس يتذبذب بين اتجاهات فكرية متضاربة مثل اغتنام لذات الحاضر أو الاقدام على الموت ليتخلص من تعاسته •• ولأن الرؤية غير واضـحة أمام انسـان فى فترة اهتزاز الثقة وانعدام الوزن مع الاحساس بالمرارة والكراهيـة للحياة وللناس حوله •• لقد كره كل شىء حتى نفسه •• ومع ذلك تعاوده أحاسيس راسخة فى ذهنه بخصوص العدالة السماوية فيراجع نفسه ويرى فى الآخرة ميزات سامية لا ينعم بها أهل الأرض الذين يقترفون الخطايا والجرائم •• وواضح أن يأسه قد تناقص ووجد الأمل يتجدد فى سفينة الشمس وفى تقديم القرابين للمعابد •• وها هو نص :

« أغنية الضارب على العود » (٩١)

آه يأيها القبر لقد أقمت للأفراح (*) •

ولدينـا أغنيـة كاملة تلفت النظر كانت تغنى فى مثـل هذه المناسبات • وهى تصف زوال كل الأشياء الدنيوية لتحث السـامعين على التمتع بأكبر قسـط ممكن مدة حياتهم • والدولة الحديثـة التى حفظتها لنا عرفت أنها مأخوذة من بيت الملك « انتف » (**) أى من قبره وقد كتبت أمام العواد أيضا • وتوجد صورة كاملة بين أغانى الدولة الحديثة :

ان الأمور تسـير سيرا حسنا مع هذا الأمير الطيب ، وان المقدر الجميل قد وقع (***) فتذهب أجسـام وتبقى أخرى منذ عهد الذين سبقونا •

والآلهـة (*) الغـابرون راقدون فى أهرامهم ، وكذلك الأشراف والمعظمون قد دفنوا فى أهرامهم والذين بنوا بيوتا قد أصبحت مساكنهم كأن لم تكن • فماذا جرى لهم ؟

لقد سمعت أحاديث « أمحوتب » (*) و « جردادف » (**) اللذين يتحدث بكلماتهما فى كل مكان فأين مساكنهم (الآن) ؟ جدرانهم دمرت ومساكنهم لا وجود لها كأن لم تكن قط ولم يات أحد من هناك ليحدثنا عن حالهم ويخبرنا عما يحتاجون اليه لتطمئن قلوبنا (؟) قبل أن نذهب نحن كذلك الى المكان الذى ذهبوا اليه ٠

كن فرحا حتى تجعل قلبك ينسى أن القوم سيحتفلون يوما ما بموتك ، فمتع نفسك مادمت حيا ، ضع العطر على رأسك ، والبس الكتان الجميل ، ودلك نفسك بالروائح الذكية المقدسة ٠

وزد كثيرا فى المسرات التى تملكها ، ولا تجعلن قلبك يكتئب ٠ اتبع رغباتك وأفعل الخير لنفسك (؟) ٠ أفعل ما تميل اليه على الأرض ولا تغض قلبك حتى يأتى يوم نعيك ٠ ومع ذلك فان صاحب القلب الساكن (***) لا يسمع عويله ، وان الصياح لا ينجى انسانا من العالم السفلى ٠

[وفى أسفل مكتوب هذا الحداد] :

اقض اليوم فى سعادة ولا تجهدن نفسك ! اصغ ، لا يستطيع أحد أن يأخذ متاعه معه ٠ اصغ ، وليس فى قدرة انسان ولى أن يعود ثانية » ٠

ان هذه الأغنية تعبر عن الشك فى الحياة الآخرة ، وهذا الشك نتج عن فترة الفوضى أثناء الثورة الاجتماعية التى اندلعت عقب الأسرة السادسة والتى كانت موجهة ضد الاقطاع ٠ وهذا الشك يعترى أى انسان فى أى مكان أو فى أى عصر خصوصا لو كان الفرد أو المجتمع يمر بظروف صعبة وتضيق به الأمور ويضيق صدره ولسان حاله يقول من الذى ينقذنى من هذه الأزمة النفسية أو الظروف الصعبة التى تدفع الى اليأس وداخله يعتصره وينادى أين القوة العظيمة التى خلقت هذا العالم وخلقتنى ؟ لماذا تتركنى نهبا لهذا الاحباط الكبير ؟ ان الاستقرار والنظام والأمن والأمان تعطى الانسان احساسا بالاطمئنان والأمل والتمتع بالحياة وبالعلاقات الأسرية الطيبة والعلاقات الطيبة مع الناس ، وتجد الناس تقبل على الحياة والعمل بجد ونشاط ليحققوا النجاح بمعنوية عالية ٠ أما اذا اهتزت الثقة بالنفس وبالنظام فيخامر الناس الشكوك فى كافة المجالات ٠ وهذه القصيدة هى خير مثال لمثل هذه الحالة التى تعترى الانسان عندما يصيبه الاحباط من الناس ومن الحياة ٠

والصــورة عن الحيــاة اليوميــة فى « القرنه » (زمن الدولة الحديثة) استخلصهــا المؤلف « موريس بيربراير » من دراســته التى استقاها من الصــور الموجــودة فى المتاحف البريطانية والأمريكية ٠ ومما قاله « ارتبطت الشرطة بشــئون العمال ٠٠ وكان هناك عمال معينون لخدمة الجماعة ، كانت الادارة المركزية تنتدبهم لخدمة القرية ، وكان عليهم القيام بمهمة توريد أطعمة معينة وتنفيذ مهام محددة لأجل العمال وكانوا يتألفون من قاطعى الأخشاب وحاملى المياه وصيادى السمك والبستانية والغسالين وأحيانا صــانعى الفخار ٠٠ وهناك من يقومون بمهمة طحن الحبوب الموسيمية وكانت فرقة العمــل تضــم الحجارين والنجارين وكبيرى النجارين والنحاتين والرسامين ٠ وقد تألف مجتمع العمال أيضــا من زوجات وأطفال العمال ٠ وكان بعض الأولاد الصغار يمارســون الأعمال الخفيفة المؤقتة مثل توصيل الرسائل ٠٠ ولم يكن المصريون يعرفون العملة بمعناها الحقيقى ، وكان العمال يتقاضون مقابل خدماتهم أجورا على هيئة سلع ٠٠ وتكون الأجر أساسا من تموين شهرى من القمح « البر » الذى كان يطحن لعمل دقيق الخبز ، والشعير من أجل عمل الجعة ، اذ أن الخبز والجعة كانا وجبة الطعــام المصرية ٠٠ كانت هذه المؤن من الكثرة بحيث كانت تكفى احتياجات كل عائلة ٠ وكان بوسع العــامل أن يستبدل بما فاض عن حاجته سلعا أخرى ٠ وكان يتم تزويد الجــوارى بمؤن أقل يرجــح أنهــا كانت بالكاد لاقــامة أودهن » (٩٢) ٠

ان الصورة السابقة عن الحياة اليومية فى « القرية » حيث كان العاملون فى حفر ونقر المقابر وتزينها فى أيام الدولة الحديثة أى مقابر وادى الملوك ووادى الملكات هى صــــورة حية لمجتمع القرية الصناعية الانتاجية والتى تقوم الحكومة بتزويدهــا بالمؤن الاعاشة مقابل أجرهم عن عملهم الرسمى فى تشييد المقابر الملكية ٠ ويمكننا أن نتخيل القرية البسيطة بنفس الصــــورة تقريبا ٠ أما المدن فلابد أن النجار وطبقــة الحرفيين والموظفين والأثرياء سيزيدونهــا رفاهية وثراء ٠ ويســتطرد مستر « موريس بير براير » وصفه للحياة فى القرية فيقول : « كانت السلطات المركزية تزود العمال ، بالاضافة الى الحبوب ، بالســمك والخضروات والمياه والخشب للوقود والفخار للاســتعمال المنزلى ، كما كانت تصلهم وان يكن دون انتظام حصص تموينية من التمر والكعك والجعة المعدة سلفا كما كان هناك نظام لصرف عــلاوات تشجيعية كانت تمنح فى الأعياد أو لأسباب خاصة ٠ وتضمنت المنح الى جانب الكميات الاضافية من المؤن المعتادة ، زيت السمسم ، قوالب من الملح والنطرون والأهم من كل ما سبق ، اللحوم وعادة ما كانت من لحم العجول ٠ كما

صرفت الحكومة أيضا الملابس لكل أعضاء القرية وان لم تكن كافية على الدوام • وكان رؤساء العمال والكتبة يتولون مهمة توزيع كل هذه المؤن التى تتألف منها أجور العمال ـ بين أفراد المجتمع » (٩٣) « وكانت المقابر تعد أملاكا قيمة من العقارات تتوارثها العائلة عن طريق الوصية » (٩٤) بهذا نجد أن الأسر كانت تمتلك بيوتا لها فى القرى أو المدن وتمتلك أيضا مقابر خاصة بها يتوارثونها الأبناء عن الآباء • وكانت المقبرة لها قيمة بالنسبة للمصرى القديم الذى كان يؤمن بالبعث والحياة الآخرة ويؤمن بعودة « الكا » و « البا » ـ القرين والروح الى الجسد فى حياة ما بعد الموت • وكان المصرى يرسم على جدران المقابر صور للأشياء والمأكولات التى سيحتاجها فيما بعد •

ويصف نفس المؤلف القرية كالتالى : « كان يشق القرية الأصلية شارع رئيسى يتجه من الشمال الى الجنوب ، وقد ظهرت بعض الحوارى والأزقة مع النمو المطرد للقرية •• وكانت بيوت القرية تفتح مباشرة على الشارع الرئيسى • ويبدو أن هذه البيوت كانت قد خصصت للسكان الأصليين بواسطة الحكومة ، وفيما بعد اعتبرتها العائلات التى تقيم فيها عقارات مستأجرة بالوراثة • وقد بنيت المنازل الأصلية من الطوب اللبن على أرض بكر دون أساسات •• وتراوح ارتفاع البيوت بين ثلاثة وخمسة أمتار • ويبدو أنها كانت من طابق واحد فحسب • وكانت جميع الأسطح مستوية وتتكون من جذوع الشجر وسعف النخيل وخوصه مع ملء التجاويف بسقف من الفخار تغطيها طبقة من الجص بحيث تراوح سمك السقف بين ١٠ ، ٢٠ سم • وكانت وظيفة السقف الوقاية من أشعة الشمس نهارا • كما كانت للسقف ملاقف هواء تؤدى وظيفة الشرفة للتمتع بنسمات الهواء • وكانت الفتحات فى أماكن معينة من السقف تعمل على اضاءة الغرف أسفلها • وقد صممت كل بيوت القرية على نفس المنوال مع بعض الاختلافات التى تعود الى المكانة الاجتماعية وثروة الملاك • وكانت واجهة المنزل تطلى باللون الأبيض باستثناء الباب الخشبى الذى كان يطلى باللون الأحمر •• ويتكون المنزل عادة من أربع حجرات تفتح الأولى منها على الشارع مباشرة » (٩٥) •

ويصف المستر جيمز فى تمهيده لكتابه « الحياة أيام الفراعنة » حياة الشعب العادى فيقول : « ظل ملوك مصر يحكمون شعبا متماسكا ، غير منقسم ، فى العصر القديم ، لمدة تزيد عن ثلاثة آلاف سنة متصلة • وقد تخللت تلك الفترة أحيان قليلة عمتها الفوضى السياسية وغياب الحكومة المركزية أو الاحتلال الأجنبى » (٩٦) من هذا الوصف نستخلص سمة هامة مشتركة تضاف الى الشخصية القومية ألا وهى صفة

« **التماسك** » سواء أكانت البلاد تتمتع بالحكم الوطني أو تمر بفترات الفوضى السياسية أو الاحتلال . وأعتقد أن هذا التماسك يرجع الى **الترابط الأسرى** . فالأسرة هي الخلية الأساسية في النسيج الاجتماعي . كما أن التماسك يرجع الى **الترابط الأخلاقي** النابع من الدين والتدين وحب الحكمة . ولازلنا نشير الى تعبير « أخلاق القرية » كركيزة اجتماعية دينية خلقية أسرية ترابطية جمعية لأبناء مصر المحروسة .

ولازلنا نسمع استنكار العامة لأي سلوك غير سوى بقولهم : « دى مش أخلاقنا أبدا » « دى مش أخلاق المصريين » ان **الأخلاق** التي نفتخر بها قائمة على العدل والحب والايثار والتعاون والتضحية ومساعدة الآخرين والعطاء والحق والصدق وكل ما يرتبط بالخصال الكريمة السامية والتي تربط الناس بعضهم ببعض والتي تتضمن الثقة المتبادلة ومساعدة الضعيف والمريض والمحتاج وهذه كلها تعطى صورة رائعة للتكامل الاجتماعي . ويذكر المؤلف بأن « الحياة في القرية نفسها كانت تقوم على كواهل النساء طيلة أيام الأسبوع ، بينما كان الرجال يعملون بعيدا في المقابر الملكية ... وكانت المهمة الأساسية لزوجة أي عامل هي رعاية منزله . وعلى النقيض من زوجات العمال العاديين ، كانت الأعباء أقل بفضل ما خصصته الحكومة لهم من الحبوب المطحونة . ومع ذلك كان بوسع ربة المنزل ان شاءت أن تبيع ما كان مخصصا لها ، وكان عليها بطبيعة الحال حينئذ أن تقوم بكافة الأعباء بنفسها ، وخاصة اعداد الخبز الذى يشكل أساس وجبة الطعام بالاضافة الى حياكة الملابس للعائلة ان لم تكفهم الملابس التي تصرفها الحكومة ولذا تعين عليها قضاء بعض من يومها في النسيج والحياكة ... وكان بوسع زوجة تجيد الحياكة أن تصنع ملابس عائلتها بل وربما حصلت أيضا على دخل اضافي طيب لنفسها . كما تعين على الزوجة أيضا رعاية الأطفال الصغار وهو عمل غير هين حيث أن عائلات دير المدينة كانت كبيرة العدد ، وغالبا ما وصل عدد أفراد العائلة الواحدة الى خمسة عشر فردا . ولا شك أن العديد من الأطفال قد ماتوا في طفولتهم بطبيعة الحال . وتبعا لما جرت عليه عادة أغلب المصريين . **كان للعامل زوجة واحدة فقط** ، وان كان بوسعه الزواج مرة أخرى في حالة وفاة زوجته أو طلاقها . ومن غير المحتمل أن أى شخص بالغ باستثناء كبار السن كان يبقى دون زواج لفترة طويلة حيث أن **الزواج كان الوضع الطبيعي المعتاد** في العالم القديم » (٩٧) .

ونلاحظ من الوصف السابق بأن الحكومة تخصص الحبوب للعمال الذين يقومون باعداد المقابر الملكية وهو ما يعتبر أجرهم عن عملهم

الحكومي كما أنها تقوم بصرف الملابس بالاضافة الى الطعام أى أنها ترعاهم من ناحية المأكل والملبس والمسكن أيضا (وقد ذكر ذلك فى وصف سابق » • ونلاحظ أيضا **دور المرأة فى** تحمل أعباء الأسرة من خدمة ورعاية فى أثناء غياب زوجها أثناء عمله فى المقابر • ولم تكن المرأة خاملة بل نشيطة وتعرف الحياكة مثلا وبالطبع اعداد الطعام ورعاية الأطفال •• انها صورة مشرفة وجميلة للمرأة المصرية ولا نقول قديما فقط فان نفس الصورة العظيمة لفلاحة اليوم هى هى نفسها ••• ولقد كان محمود مختار موفقا بأن جعل تمثال نهضة مصر يمثل **المرأة الفلاحة** بجوار أبى الهول •• والذى يعنى فى نظرى ممثلا للتاريخ القديم وحتى الآن •• وفعلا نهضة مصر لابد وأن تقوم على أكتاف المرأة التى لا تبخل بجهدها على أولادها وتشارك الرجل العمل وتحمل المسئولية وتمنح بلادها ـ مصر ـ الذرية الصالحة ـ التى تلقت تربيتها وهى ترضع لبن الحب والعطف والرعاية والاهتمام • ألا يقولون التربويون بأن الغذاء الروحى والنفسى أهم من الغذاء الجسدى ؟ واذا اعتبرنا أن السمة الأولى للشخصية المصرية هى **التدين** فان السمة الثانية والتى لا تقل أهمية عن الأولى هى **الرباط الأسرى** الذى يعطى للأجيال الصاعدة الدفء العاطفى والصحة النفسية والشعور بالاطمئنان والتفاؤل والسكينة والتطلع الى الغد والحب الذى يتضمن التسامح ومحبة الآخرين ومساعدة المحتاجين والعطف على الضعفاء والفقراء • مجتمع المحبة هو النبراس الذى ينير لنا الطريق نحو السعادة والهناء •

« ويمكن التعرف على الدور الهام للزوجة والأم من خلال مكانتها فى المجتمع المصرى فقد **تساوت الزوجة مع زوجها** أمام القانون المصرى وكان لها مطلق الحرية فى التصرف فى ممتلكاتها الخاصة التى حصلت عليها بالميراث سواء قبل الزواج أو بعده ، كما كان لها الحق فى ثلث ممتلكات الزوج وان كان من غير الواضح ما اذا كان الثلث يشمل ممتلكات الزوج الشخصية قبل الزواج أم تلك التى حصل عليها بعد الزواج أم تلك التى حصل عليها بعد الزواج فحسب » (٩٨) ولنقرأ هذه الفقرة من احدى الوصايا وفيها قائمة بأطفالها الذين قالت عنهم : « من ينالوا من نصيب الثلث الذى يخصنى بما ينالون مما يخص أبيهم من الثلثين الآخرين » (٩٩) •

بهذا نستنتج النواحى المالية فى الأسرة فالأم ترث ثلث التركة كما أن لها الأهلية الكاملة فى التعامل والتصرف فى ممتلكاتها الخاصة • وأن الزواج فى أغلب الأحيان قاصر على زوج وزوجة وأولادهم أى صورة الأسرة الصغيرة • والزوج يرعى بيته ويحنو على الزوجة والأطفال •

وتقوم الزوجة بدور هام فى رعاية الأسرة من اعداد للطعام وحياكة الملابس وتنظيف المنزل • والرابطة الأسرية قوية لأن الزواج هو العلاقة الأساسية بين الرجل والمرأة • كما أن المرأة تتساوى مع الرجل فى الحقوق والواجبات • ويمكننا أن نستخلص سمة هامة وهو أن الرباط الأسرى هو الدعامة الأولى فى المجتمع المتماسك الذى يسوده الحب والعدالة والمساواة • وهذا **الرباط الأسرى** هو أحد المقومات الاجتماعية • وهذا الرباط الأسرى هو الذى حافظ على رابطة المجتمع وهو الدرع الاجتماعى القوى والمستمر حتى فى أوقات ضعف الدرع السياسى • وتكمن أهمية الدرع الاجتماعى فى أنه حفظ عادات وتقاليد الناس بما يتضمنه من الأخلاق والقيم والحكم والأمثال والولاء والترابط والحماية لأفراد الأسرة مما يتيح للأطفال جوا اجتماعية صحيا •

وحتى الأساطير تعطينا صورة مشرفة للمرأة المصرية القديمة ففى « قصة ايزيس وأوزيريس » نجد ايزيس **الزوجة المخلصة** والأم الرؤوم والتى قامت برعاية ابنها « حورس » حتى أخذ ثار أبيه « أوزيريس » مثلما نجد اليوم فى الصعيد التى تقول فيه الأم لأبنها : « علينا ان نأخذ ثأر أبيك » • وكانت المرأة هى الشريك المخلص فى الحياة الأسرية وكانت عصب الأسرة بحق تتولى المسئولية كاملة فى غياب زوجها (مثلما نرى هذا فى دير المدينة التى يغيب فيها الزوج أثناء عمله فى المقبرة الملكية) • وكان الزوج يغازل زوجته ويعاملها برقة وبحب ومن باب التكريم والحب الزائد يدعوها « أخته » • وقد فهم خطأ بعض المترجمون عندما قاموا بترجمة عبارة الغزل « يا أختى » بأن المصريين كانوا يتزوجون اخواتهم ، وقد صحح « مورينس بين برايز » هذه المعلومة الخاطئة فقال : » وعلى نقيض الاعتقاد الشائع فان المصريين لم يتزوجوا اخواتهم الا فى العائلة المالكة • وكانت الزوجة تدعى أختا على سبيل التكريم والاحترام دون أى علاقة جسدية بين الأخ والأخت • وكان زواج أبناء العمومة معروفا » (١٠٠) •

وفى مججرى حديثه عن الحياة فى دير المدينة قال المؤلف : « لم تكن الحياة فى دير المدينة كلها عمل وجد • فقد أتيح للرجال والنساء الوقت للاستجمام والترويج عن النفس اذ كان **المصريون شعبا محبا للأنس والبهجة بطبيعته** [وهذه سمات عامة للشخصية القديمة] وقد استمتعوا بملذات الحياة لدرجة أنهم عملوا على استمرار هذه المباهج فى الحياة الآخرة • وكانت الاحتفالات الدينية بطبيعة الحال فرصة المجتمع لاظهار مشاعر الفرح والسرور ، كما كانت هناك مناسبات أكثر ألفة ومودة مثل الزفاف وأعياد الذكرى السنوية وأعياد الميلاد وكان

الجميع يشاركون في هذه الحفلات حيث كان الشراب يقدم دون حساب على أنغام الموسيقى والغناء لتسلية الضيوف كما كان يتم تناول الهدايا ويبدو أنه كانت تعد قوائم تفصيلية بأسماء الضيوف وما أحضروه من هدايا حتى يتسنى للمضيف والمضيفة رد هدايا مماثلة في حفلات قادمة » (١٠١) ٠

من هذا التعليق نعرف أن المصرى القديم كان محبا للأنس والبهجة ومجامل وكريم فالمشاركة واضحة في الاحتفالات وتقديم المشروبات كان بوفرة ٠ وكانت الموسيقى والغناء من الضروريات في الاحتفالات والانسان المصرى عموما يحظى باحترام الآخرين بقيامه بواجباته الاجتماعية العامة ومنها الاحترام داخل الأسرة واحترام العلاقات الجنسية السوية ٠ فعند عرض قصة التمساح المسحور (فى الفصل الخاص بالأدب) سنرى بأنه عندما قبض التمساح المسحور على الزوجة الخائنة وعشيقها فقد تم تنفيذ عقوبة الموت لقاء هذه الخيانة الزوجية التى تهدد الأخلاق والدين والرباط الاجتماعى المقدس ٠ كما أنه فى فصل الأساطير سنرى فى قصة الصراع بين حورس وست عندما أراد ست أن يوسم ابن أخيه بالعار ٠٠ وذلك أنه فى جو من التراضى « دعا ست حورس الى منزله لقضاء الأمسية لكن أثناء الليل اغتصب ست الشرير ابن أخيه ٠ فذهب حورس لأمه شاكيا وكانت ايزيس قد استعادت عافيتها وعادت للكفاح مرة أخرى ، فخلصته أولا من منى ست ، ثم أخذت بعضا من منى حورس ودهنت به الخس أحد الأطعمة المحببة الى ست الذى تناول الخس دون أن يتطرق اليه الشك فى وجود اى شىء غير عادى ٠ وخلال الدور الثانى لانعقاد المحكمة اتهم ست حورس ٠٠ ثم هتف ست : « دعوا وظيفة الحاكم تمنح لى لأنه بالنسبة لحورس الذى يقف هنا فقد قمت ضده بدور الرجل ٠ فصرخ أعضاء التاسوع صرخة عظيمة وتجشأوا وبصقوا على حورس ٠ فضحك حورس منهم وأقسم بالاله : ان كل ما حدثكم به ست كذب فلتنادوا على منى ست وسترون من أين يجيبكم ثم نادوا على منى وسترون من أين يجيئكم ٠

« من الواضح أن المصريين قد نظروا الى الطرف السالب فى علاقة جنسية شاذة بكل احتقار وهو المصير الذى كان ينتظر حورس اذا ما ثبت اتهام ست له ٠ لكن على أية حال حين نودى على منى ست عثر عليه فى مستنقع على حين خرج منى حورس حين نودى عليه من رأس ست على هيئة قرص ذهبى » (١٠٢) ٠

واذا كان أهم ما نستخلصه من دراستنا للحياة اليومية هو معرفة العلاقة بين أفراد المجتمع فأهم هذه العلاقات هى العلاقات الأسرية

متمثلة فى العلاقة بين الآباء والأبناء من ناحية والعلاقة بين الزوج والزوجة من ناحية أخرى • والأفضل أن نبدأ بالعلاقة بين الرجل والمرأة (الزوج والزوجة) ثم نتناول بعد ذلك العلاقات بين الوالدين والأولاد وأهمها الاهتمام بالطفولة والنشىء • والعلاقة بين الزوج والزوجة تعنى معرفة حقوق وواجبات كل منهما ، ومعرفة القواعد والعرف والقوانين التى تحدد العلاقات القانونية بينهما • « ولقد تمتعت المرأة - فى مصر الفرعونية - بمكانة فى المجتمع والأسرة لم تبلغها المرأة لدى أى شعب من الشعوب القديمة ، بل فى كثير من المجتمعات الحديثة • فلم يعرف المصريون فكرة انفصال الجنسين وحجاب المرأة • بل كانت المرأة تغدو وتروح فى حريه • وتتحدث مع من تشاء وتخرج بين الناس سافرة الوجه• وكانت تسهم بنصيب كبير فى الحياة الاجتماعية »(١٠٣) ويكاد يجمع المؤرخون على أن ما بلغته المرأة المصرية من مكانة رفيعة لم يكن له مثيل لدى الشعوب الأخرى • وفى ذلك يقول ماسبيرو مثلا : « المرأة المصرية من الطبقة الدنيا والمتوسطة أكثر احتراما وأكثر استقلالا من أية امرأة أخرى فى العالم » (١٠٣) ويقول ماكس ميكر « لم يكفل أى شعب ، قديم أو حديث ، للمرأة مركزا قانونيا مماثلا فى سموه لما كفله لها سكان وادى النيل » (١٠٣) وكذلك يقول باتوريه : « كل الشعوب القديمة ، فى الغرب كما فى الشرق ، يبدو أنها اجتمعت حول فكرة واحدة : أن تجعل من المرأة كائنا أدنى من الناحية القانونية ••• أما مصر فانها تعرض لنا منظر جد مختلف ، فنحن نجد فيها المرأة مساوية للرجل من الناحية القانونية • لها نفس الحقوق وتعامل بنفس الكيفية » (١٠٣) •

ان الأمثلة السابقة هى شهادة حق من مؤرخين وباحثين درسوا المجتمع المصرى القديم وعرفوا بالمكانة السامية التى كانت للمرأة المصرية القديمة وهذا يدل على سمو الحضارة العظيمة التى عرفت قدر المرأة التى هى عماد الأسرة ومربيه النشىء فأعطتها حقها وكرامتها • واذا قرأنا أقوال الحكماء أدركنا دورهم - دور الحكماء - فى الارتفاع بثقافة الناس وتحمسهم لوضع الأسس السليمة للأسرة المترابطة القوية • فنجد بتاح حتب - أحد الحكماء فى فترة الأسرة الخامسة - ينصح ابنه قائلا :

« اذا كنت رجلا عاقلا فاتخذ لنفسك (فأسس لنفسك) بيتا وأحبب زوجتك وخذها بين ذراعيك • أشبع جوفها • واكسى جسدها • ان الدهان هو علاج أعضائها ، ويفرح قلبها طول حياتك لأن مثلها مثل الحقل الذى يعود بالخير الوفير على صاحبه • لا تكن فظا لأن اللين يفلح معها أكثر من القوة ، انتبه الى ما ترغب فيه والى ما تتجه نحوه رغبتها وتنظر عيناها وأجلب لها وبهذا تستبقيها فى منزلك » (١٠٤) •

ويذكر العلامة « سليم حسن » حال الأسرة فى عهد الدولة القديمة وعلى وجه الخصــوص الأسرتين الثالثةوالرابعــة فيتناول أقدم الوثائق التى تنبىء عن كيفية تأسيس الأسرة المصرية يرجع عهدهــا الى عصر « متون الأهرام » جاء فيها : « يأوزير أنت « جب » الأكبر وبكره ووريثه ثم يقول « انه ابنى وعزيزى وأول من ولد لى وهو الذى يجلس على عرش « جب » وهو الذى قد ارتاح اليه «جب » وهو الذى أعطاه ورثة أمام التاســـوع الالهى العظيم » ومدلول هذا المتن يفـــرد بصراحة نظـاما للأسرة يظهر فيها **الابن الأكبر** بانه هو وارث والده بعد وفاته وان كان لا يمكن بالضبط أن نقرر فى أى عصر أصبحت « متون الأهرام » معمولا بها . ومهما يكن من شىء فان بعضها يرجع الى عصور سحيقة أعرق فى القدم من «عهد بناء الأهرام » . وأقدم وثيقة شرعية وصلت الينا لها علاقــة **بحقوق الأسرة** « هى ترجمة العظيم « متن » الذى عاش أواخر الأسرة الثالثة وبداية الأسرة الرابعة ... والمطلع على تاريخ حياة هذا الرجــل العظيــم يجمع معــلومات هــامة جــدا عن **توارث العقــار** فى أسرته » (١٠٥) « ولدينا وثيقة لأحد العظماء من عهد « خوفو » تثبت حق وراثه الذكور والاناث أملاك والدها وأعنى بذلك وصـــية الوزير والأمير « نى كاو رع » ابن خوفو ، وذلك أنه خلافا لما أوصى به لزوجته قسم عقاره بين أولاده بوصية على وجه التساوى تقريبا » (١٠٦) .

مما تقدم نجد أن الأسرة المصرية كانت تنظم حيــاتها القواعــد والقوانين والأعراف فحتى فى مقبرة « مكت رع » نجد رب الأسرة ينفق على أولاده . ان الترابط الأسرى على مر العصور هى **أقوى رابطة** ضمنت عدم تفتت المجتمع المصرى حتى وهو يعانى من الاحتــلال أو ضــعف سياسى . ان النظام الأسرى الذى لم يتغير عموما منذ قدماء المصريين وحتى الآن ــ يستثنى من هذا الشخص المزواج والذى يســـعى للذة الجسدية الوقتية ومدمن الحب والذى يعيش فى فراغ عاطفى ــ هو الدعامة الرئيســـية لمجتمعنا ولذلك نعتبر « **الترابط الأسرى** » هو من أهم مقومات الشخصية المصرية .. اننا نجد الشاب البالغ يتجه تفكيره الى تكوين أسرة .. لأنه يحب الاستقرار العاطفى والنفسى ويحب أن « يعيش فى الحلال » حسب تعبير الغالبية منهم . وهذا يعنى أيضـا اهتمامهم بالناحية الخلقيــة ، وهو مرتبط ارتباطا وثيقا بمعنى السلوك القويم فى علاقة الرجل بالمرأة طبقا للأعراف والتقاليد بل وطبقا للصحة النفسية لأن الحب والدفء العاطفى والتعاون والعطـــاء هى الأساس الثابت للرباط المقدس ، والأولاد يتمتعون بالصحة النفسية فى جو التفاهم والحب من الوالدين . وحتى الأشخاص الذين يخالفون النواحى الخلقية والسلوك الأسرى القديم تجدهم يتوارون .. ويمارسون نزواتهم

سرا بعيدا عن عيون الناس ولا يستطيعون أن يتفاخروا بالسلوكيات المعوجة · ان جرائم الشرف خير مثال على غيره الزوج المصرى على الأفعال غير الأخلاقية التى تهدد الكيان الاجتماعى الهام ويهدد الرباط المقدس الذى حللته القواعد والأعراف الاجتماعية والدينية ·

ولدينا فى التاريخ القديم مثال نفخر به فى كافة الآزمان وهى الأم الملكة « تيتى شرى (١٠٧) وهى أم « سقنن رع » وجدة « كامس » و « أحمس » بطل التحرير الذى طرد « الهكسوس » · فهى من أسرة من عامة الشعب والتى أنجبها الشريف « ثنتا » · وهى مثال للأم والجدة لأعظم ثلاثة قادوا حرب التحرير ضد المحتلين الهكسوس ·· والمرأة كانت لها مكانتها الاجتماعيه البارزة فكان يطلق على الزوجة « ربة الدار » أو « ربة الأسرة » أو « سيدة المجلس » وكلها أوصاف معبرة عن وضع الزوجة (١٠٨) « والزواج لدى المصريين حقيقة اجتماعية أكثر منه عقدا قانونيا ، هدفه الانجاب ورعاية الأولاد ومبنى على التعـــاطف والمحبة · وكان للأبوين عادة رأى فاصل فى المسألة الزوجية ، ولكن بدون طقوس أو توثيق ··· وتنص البرديات فى العصور المتأخرة على حقوق تمليك الزوجة للثروة ، كما تنص على التزاماتها كزوجة · لكن لم يرد بهذا الخصوص أية وثائق من الدولة الحديثة مما قبلها · وربما كانت مثل هذه الترتيبات شفهية فى تلك الحقبة ، اذ جرى العرف على أن تحصل الزوجة على ثلث المنقولات المكتسبة أثناء الزواج ، مع الانفراد بملكية ما تجلبه معها من منقولات ··· ولم يرد أى ذكر لموضوع (المهر) فى أية وثيقة قديمة » (١٠٩) ·

وتوجد وثيقة وحيدة مهمة تتعلق بهذا الموضوع منقوشة على شقفه من الحجر الجيرى بدير المدينة فى سنة ٢٣ من حكم رمسيس الثالث ، وفى يوم معين تحدث أحد أعضـــاء الجماعة واسمه (تلمونت) الى كبير الملاحظين (خنسو) والى الكاتب آمون فقال :

« اجعلوا (نجم موت) يقسم قسما غليظا أنه لن يطلق ابنتى » · بعدها أقسم (نجم موت) قائلا : « بحياة آمون أو بحياة فرعون !! اذا حدث وطلقت ابنه (تلمونت) فى المستقبل ، أكون مستحقا للضرب مائة جلدة ، وأكون مستحقا لتجريدى من كل ما اكتسبناه معا » (١١٠) ·

هكذا كان أجدادنا يهتمون بالرباط الأسرى الذى هو أحد مقومات الشخصيـــة المصريـــة · فالانتماء للأسرة هو انتماء للمجتمع والانتماء للمجتمع هو انتمـــاء للمكان الذى تكونت فيه المجتمع الا وهو الوطن · وعلاقة الناس ببعضهم يعنى الارتباط بالأخلاق لكى يكونوا متعاونين ومتحابين ويسيرون على عرف قائم على قواعد تحدد أصول المعـــاملات الاجتماعيـــة ·

التربيـــة والطفـــولة

كتب الدكتور أحمد هيكل « تميزت الحضارة المصرية خلال حقبها التاريخية المتعاقبة منذ أقدم العصور حتى الآن بالاهتمام البالغ بالطفولة ، واتسمت الأنســـاق الفكرية والروحية والثقافية فى مصر بمحتوى بالغ الثراء من القيم الأخلاقية والتوجيهات التربوية فى كل مجالات الأنشطة الاجتماعية والادارية استمرت متدفقة منذ بواكير التاريخ المصرى وحتى العصور الاسلامية » وكتب دكتور « أحمد قدرى » رئيس هيئة الآثار فى ذاك الوقت فى مقدمة الكتاب :

« نستطيع أن نحـكم على العمق الانسانى لحضـارة ما ودرجـة تمدينها من موقف هذه الحضارة من الطفولة والطفل ، والحضارة التى ظهرت وتطورت على أرض مصر سواء فى العصر المصرى القديم أو القبطى أو الاسلامى تتسم بعطاءات بالغـة الثراء فى هذا الصـدد · ولقد زخرت الأنماط الفـكرية والثقافيـة عامة فى مصر الحضـارة باهتمـام بالـغ **بالأســاليب التربوية والتعليميــة** ، وكذلك بتعميــق **القيم الأخلاقيــة** ، والمبـادىء التى تستهدف دوما **اســعاد الأطفــال** وتقويمهم واعـدادهم للمستقبل ودعم قدراتهم على مواجهــة تحديات الحياة فى شتى مجالات الأنشطة والانسانيــة فى الدولة والمجتمــع على حد ســواء ·· ومعرض الطفولة والحضـارة المصرية التى اختيرت قطعة الأثرية لكى تعرض فى تتابع زمنى مرحلة تربو على خمسة آلاف عام من التاريخ يقدم لأطفالنا القيم والمبادىء والمفاهيم الأخلاقيــة والتربوية التى سادت وتجذرت فى أعماق التربة المصرية » (١١١) ·

وهذا ما تنــاوله الكتــاب عن الطفولة فى مصر القديمة ، اذ توفر للمصريين ظروف بيئية طبيعية كفلت لهم الحيــاة المستقرة · وكان فيها من المستقبل المعيشى أكثر ممن عداهم من الشعوب القديمــة ، لذلك كان للأطفال أكبر الحظ من الرعاية والعناية والحنان فى ظل أسرة متماسكة · لقد كانوا قرة أعين الأبوين ، يبذلان غاية الجهـد لتنشئتهم التنشـأة السليمة [وهذه ســمة ثابتة فى الشخصية المصرية ـ **الأسرة المتماسكة ورعاية الطفولة**] · كان البيت هو مهد التربيــة ، وميدانها الأول ، ففيه يتعلم الطفل ويستقى معارفه الأولى عن الحيــاة الانسانيــة ، وتتفتح مداركه حيث كان **لاســتقرار الأسرة وتماســكها** أكبر الأثر فى تـكوين نفسيته تكوينا صحيحا · اليست هذه هى أسس الصحة النفسية ؟

وتدلنا الرســوم والتماثيــل عن مدى تعلق الوالدين بأطفالهما واحطاتهما بالرعــاية والحب ، فنرى الأب يجلس طفــله فى حجره أو

يمسكه بيده حانيا عليه أو يقبله ، كذلك مثلت الام وهى ترضع صغيرها ، او تمشط طفلتها برعاية ومحبة . ويسعد الوالدان لرؤيتهم يلعبون ويمرحون، وخاصة عندما يصحبونهم فى رحلات صيد الطيور والأسماك. ولقد حفلت الكتب بالنصائح التى وضعها الحكماء أمام الأبناء فيقول الحكيم بتاح حتب : « ما أجمل طاعة الأبن الذى يأتى ويستمع ، ان الطاعة هى خير ما فى الوجود . كم هو جميل أن يطيع الطفل أباه ، فيصبح أبوه من ذلك فى فرح عظيم » . وكان المصريون يدعون الى حب الأم والعطف عليها والبر بها ، ويذكرون أولادهم بفضلها ، وبأهمية رضاها عنهم ، فيقول الحكيم آنى لابنه (الأسرة ١٨) :

ضاعف كمية الخبز التى تقدمها لأمك ، واحملها كما حملتك ، انها عندما ولدتك بعد شهور من حملك استمرت تحملك حول عنقها ، وقد أرضعتك ثلاث سنوات .. ولم تكن متبرمة .. ولقد ألحقتك بالمدرسة عندما تعلمت الكتابة (١١٢) ، وكانت الأعمال المنزلية ورعاية الأطفال عمل الأم الأساس فهى التى تضع الأسس ، وترس القواعد فى بناء طفلها جسدا وعقلا وهى التى ترعى صحته وتداعبه بالرحمة والحنان وتلقنه الكلمات الأولى ويظل تحت رعايتها واشرافها حتى يدخل المدرسة .

ولم يكن الأب غليظا يتباعد عن أولاده ، فهو بدوره يتولى الاشراف على طفله ، ويلقنه مبادىء الأخلاق وآداب السلوك ، ويبعث به الى المدرسة ليتزود بالعلم والمعرفة . وقد اعتنى الوالدان بأبنائهما صحيا بالحرص على تنظيف أبدانهم ووقايتهم من الأمراض . وقد أخذ الطفل حظا وافرا من اللعب ، وكان له الأثر الواضح فى تنمية مداركه واتساع أفقه ، فقد عثرنا على أنواع كثيرة من الدمى واللعب التى كان يقدمها الأبوين لأطفالهم ، منهم ما كان يتحرك بالخيوط كتماثيل الأقزام الصغيرة التى تقوم بالرقص ، أو ما يتمثل ضفدعة صغيرة صنعت من العاج ، واما فك متحرك ، أو ما يمثل تمساحا خشبيا صغيرا ذا فك متحرك يحركه الطفل بخيط يتصل به . ومنها ما هو على هيئة العرائس والدمى الصغيرة صنعت من الطين والفخار والخشب ، وكثيرا ما كان له أذرع وأقدام متحركة .

ويشترك الطفل بعد أن يكبر قليلا مع أقرانه فى كافة أنواع اللعب الجماعى ، الذى يخضع لقواعد معينة ، وهى ذات قيمة تربوية كبيرة تساعد على تربية الأبدان والعقل معا . ومن الألعاب التى نرى صورها على جدران المقابر ، ومازال يمارسها الأطفال حتى الآن لعبة

الطوق والعصا ، يلعبها طفلان معا ، ويستخدمان فيها طوقا وعصايتين ، يدفع أحدهما الطوق بعصاته ، ويحاول الآخر رده بكل قوته وينتصر الاقوى فى النهاية • وهناك لعبة أخرى يعتمد فيها الأطفال على أعقاب أقدامهم ، ويدورون عليها فى شبه حلقة ، بحيث يقف اثنان فى محورها، ويمسك كل منهما بيدى زميلين له يميلان للخلف • ومن الألعاب المحببة الى نفوسهم هو أن يجلس طفلان على الأرض ظهرا لظهر وقد تشابكت أذرعهما ، ويحاول كل منهما أن ينهض قبل صاحبه • وهكذا تتكرر عدة مرات • وزاول الأطفال كذلك ما نسميه بالألعاب السويدية بالاضافة الى المصارعة والقفز • واذا ما شب الطفل ، وأصبح صبيا كانت له ألعابه التى تلائم سنه مثل لعبة « السيجة » ، وهى عبارة عن لوح من الخشب أو الأبنوس مقسم الى ثلاثين مربعا ١٠ × ٣ وقطع اللعب على هيئة الحيوانات كالكلب والأسد •

« ومن أشهر الألعاب الشائعة اليوم والتى كان يلعبها الأولاد فى ذلك الوقت هى لعبة السلم والثعبان [اذا تأملنا المعنى من وراء لعبة السلم والثعبان فانها ترمز لمعنى حى فى الحياة فهناك **قوى الخير مثل السلم تساعدك على الصعود وهناك قوى الشر مثل الثعبان تسحبك الى** أسفل وتبدد جهدك] • وبقدر الاهتمام بالتربية الجسمانية للطفل كان هناك اهتمام بالتربية الروحية والعقلية له ، فقد كان يتعلم القراءة والكتابة غالبا على أيدى والديه قبل دخول المدرسة مما يؤكد أن التربية قد نشأت فى أول الأمر فى محيط الأسرة •

« وكان الوالدان حريصين على دفع أبنائهم الى التعليم ناصحان لهم بأن يصحبوا كتابا وعلى طلب المزيد من العلم ويوصياتهم بملازمة الكتب ، فمن الحكم الشائعة :

« ان **الكاتب** دون سواه هو الذى يدير أعمال جميع الناس ، أما من يكره العلم فان الحظ يتخلى عنه » • وكانت العلاقة بين المدرس وتلميذه علاقة وطيدة ، **فالمربى هو الأب العطوف** والمسئول الأول عنه ، وهو الراعى الصالح • وكانت التربية فى المدارس تشمل **تربية الأبدان** ، الى جانب **تربية العقول** • أما عن آداب السلوك ، فلقد حرص الآباء والمعلمون على تلقين التلاميذ وقواعدها ، وقد صيغت فى أسلوب النصائح والوصايا التى هى نماذج من **الفضائل الخلقية** • وقد حثت هذه النصائح الأبناء على التسلح بالتقوى والخوف من الله ، والبر بالوالدين والتسامح ، والأمانة ، والاخلاص وغير ذلك من **القيم** • ومن حكم وتعاليم القدماء المصريين (١١٣) :

« ضاعف قدر الخبز الذى تعطيه لأمك وأحملها كما حملتك » ٠

« الحكيم آنى الأسرة ١٨ »

« من لم يجمع الحطب صيفا لن يجد الدفء شتاء » ٠

« من تعاليم عنخ ششنقى ــ القرن الخامس ق٠م » ٠

« قدم الماء لأبيك وأمك واياك أن تغفل هذا الواجب حتى يعمل ابنك مثله لك » ٠

« الحكيم آنى الأسرة ١٨ »

« الانسان يبنى ويهدم بلسانه » (١١٤) ٠

« تعاليم امنئووبى ــ القرن العاشر ق٠م »

« تعلم تدين لك الدنيا »

« من نصائح الطلاب ــ الأسرة ١٩ »

« تخير الكلمة الطيبة قبل أن تنطق بها ٠ وأحبس الكلمة السيئة فى جوفك » ٠

« الحكيم آنى الأسرة ١٨ »

« اذا جلست للأكل مع أشخاص كثيرين فلا تقبل كثيرا على الطعام حتى لو كنت تشتهيه » ٠

« نصائح موجهة الى كاجمنى ــ ٢٠٠٠ ق٠م »

« اكتب بيدك وأقرأ نغمك واستشر من هم أكثر منك علما » ٠

« بردية من الأسرة ١٩ »

« التأنى قبل الكلام شيء محبب الى الله » ٠

« تعاليم أمنئووبى »

« لا تقل انى عالم بل بادر وتعلم » ٠

« من تعاليم عنخ شيشنفى »

« ان الثراء قد لا يدوم ، ولكن الخلق الحسن هو الغنى الدائم » ٠

« من حكم بتاح حتب »

« لا تزه بعلمك ولا تفخر بنفسك ، فتقول : انى أعلم » ٠

« من حكم بتاح حتب »

« كن ملجأ للناس ، واجعل لسانك ينطق بالحق ، ولا تخدعنه ، ولا تقل قولا زورا » .

« من بردية الفلاح الفصيح »

« يبقى الحق أبدا ، ويصاحب من يتبعه فى العالم الآخر » .

« من بردية الفلاح الفصيح »

« لا تجلس اذا كان واقفا من هو أكبر منك سنا » .

« من حكم آنى »

« ان الفضيلة التى يتحلى بها الابن لها قيمتها عند الأب ، والخلق الحسن يبقى شيئا مذكورا » .

« بتاح حتب »

« اذا وجدت رجلا يتكلم ، وكان أكبر منك وأشد حكمة فأصغ له وأحن ظهرك أمامه » .

« بتاح حتب »

« ان حدود الحق واضحة ، والحلال بين والحرم بين » .

« بتاح حتب »

« كن مجتهدا ، لأن الذى لا يعمل لا يساوى شيئا » .

« الحكيم آنى »

« لا تدخل بيت انسان الا بعد ان يؤذن لك بالدخول ويقول لك صاحبه بفمه : أهلا بك » .

« الحكيم آنى » (١١٥)

ان الحكم السابقة تؤكد على الأخلاق وعلى الاهتمام بالعلم وعلى السلوك الاجتماعى السليم وعلى أهمية اختيار الكلام المناسب عند مخاطبة الناس حتى لا يجرح المخاطب مشاعر المستمعين . ففى وصف اللسان بأنه « يبنى ويهدم » تأكيد على معنى اجتماعى واضح ، فجرح شعور الناس يعنى ايذاء نفوسهم وخسارتهم كأصدقاء او محايدين على الأقل ، لأن اللفظ السىء سيجعل الناس ينفرون من المتحدث وسيجعل منهم أعداء أو على الأقل معرضين عنه وغير متقبلين له . فالبناء هو كسب الصداقة والهدم هو خسارة الناس واساءة للعلاقات الودية أى هدم العلاقات الاجتماعية . وكان قدماء المصريين يهتمون جدا بالتحدث عن كسب حب الناس لهم ، فاننا نجد فى الباب الوهمى (وهو يعتبر « القبرية » فى الدولة القديمة) ثم فى اللوحات « القبرية » فى الدولة الوسطى والدولة الحديثة ، نجد المتوفى يقول « لقد كنت محبوبا من الوالدين ومن الاخوة ومن الجيران » وهذا يعبر عن حاجته النفسية الى حب الآخرين ، وهى من أهم الحاجات النفسية للانسان . فالانسان يشبع احتياجاته الجسدية بتلبية حاجاته البدنية ، أى الأكل والجنس والمأوى . أما احتياجاته النفسية فأهمها (أن يحب وأن يكسب حب

الآخرين ، ثم التقدير من الغير واكتسابه احترامهم) • وهذا يبين تماما اهتمام المصريين القدماء بهذه المطالب النفسية التى لا تقل أهمية عن الحاجات الجسدية ، لأن هذه الحاجات النفسية هى التى ساعدته على العيش فى جو الحب والتعاون سواء فى نطاق الأسرة أو الجيران أو المتعاملين معه •

لقد كان المجتمع المصرى مجتمعا متماسكا وتأتى المثل والقيم والأخلاق الحميدة كدعائم لهذا الترابط الاجتماعى الوثيق والقوى ، والذى يمثل درعا واقيا للانسان فى حياته اليومية ، وفى اشباع حاجاته الاجتماعية والنفسية ، ناهيك عن اشباعه لحاجاته الروحية التى تأتى « الأخلاق » فى مقدمتها • فالأخلاق تنهى عن الشر وتحبذ الخير وتقدم العون للمحتاجين ، ومساعدة الفقراء والعجزة ، والبر بالوالدين والتقرب الى الخالق بتقديم القرابين وبالصلاة • فالصلوات هى الصلة المباشرة بالاله وقد وضح ازدياد الصلة المباشرة بين الخالق والمخلوق منذ الدولة الوسطى بمصر القديمة ، ونجد أمثلة لصلوات عامة الشعب على جدران المقابر فى دير المدينة ـ القريبة من الأقصر ـ وفى أماكن أخرى •

وتتمثل أساليب السلوك الاجتماعى السوى فى الحكم التى تتعلق بالغرور وفى معاملة الوالدين والبر بهم وفى قول الحق واحترام الآخرين خصوصا من هم أكبر سنا ، وفى التمسك بالخلق القويم وفى المخاطبة بالكلمة الطيبة وتفادى الكلمة السيئة • ان الحكيم يحبذ القراء على طالب العلم والاستزادة به واستشارة من هم أكبر سنا حيث لديهم المعرفة الأكبر والخبرة الأطول والحكمة التى اكتسبوها فى الحياة • انه يحذر الشاب من أن يأخذه الزهو ويقول أنه عالما • الأفضل أن يتعلم وأن يصغى لمن هم أكبر منه سنا وخبرة وحنكة فى الحياة • وفى السلوك الاجتماعى يؤكد الحكيم على عدم الانكباب على الأكل فى حضور الآخرين حتى لا ينفر منه الحاضرون • وعند الحديث يجب التأنى فى الكلام ـ حتى يلاحظ المتحدث ملاءمة الحديث للمستمع وكى يلاحظ رد فعله وتجاوبه أو نفوره مما يسمع ـ ويؤكد الحكيم أيضا على تأثير الكلام ، فالكلمة الطيبة لها وقع حسن ، والكلمة السيئة لها وقع سيء ، لذلك يجب تجنبها • وعندما ينطق الشخص فيجب أن ينطق بالحق ولا يقول زورا • لأن الشهادة لها تأثير على مستقبل اناس آخرين • فالشهادة الحق ستحفظ للمتهم حقه قبل الآخرين فلا يتعرض للظلم ، فى حين أن الشهادة الزور ستضر بالمتهم • وكلنا نعرف كم من الأبرياء دخلوا السجون ظلما بسبب اناس لا ضمير لهم أخذوا ثمن الشهادة الزور وضيعوا الحقوق وعرضوا حياة اناس أبرياء للموت أو السجن • وطالما

أن هناك نفوس ضعيفة ــ وما أكثرهم ــ فلن تتحقق العدالة ، ويصبح مستقبل الناس ومصيرهم رهنا بما يتفوه به هؤلاء الفاسدون المفسدين ٠ اذن لابد وأن نبجل ونحترم قول هذا الحكيم الذى يؤكد على معنى الحق ومعنى العدالة ومعنى الشرف ومعنى الصدق ٠ ان المؤرخين الذين شهدوا بأن الحضارة المصرية القديمة هى **حضارة أخلاقية** ، فانهم أعطوا أجدادنا العظام شهادة حق ، وهذا وسام نعلقه على صدورنا افتخارا بأخلاق أجدادنا التى ورثنا عنهم **هذه السمة القومية** التى ترتبط بالتربية وبالأسرة والتعليم الخلقى والسلوك الدينى الخلقى الذى نتلقاه ــ ولا يزال يتلقاه أبنائنا ــ وهم ذخيرتنا الدائمة لمستقبل مشرق للحضارة الأخلاقية٠

أما عن التربية الجسمانية فواضحة فى الصور التى على الجدران وفيها يمارس الأولاد والبنات الألعاب الرياضية ولكننا نلاحظ أن « **الألعاب** كانت ذات **طبيعة تعليمية اذ** تهيىء النشىء لمرحلة البلوغ ٠ كما أن فيها عنصرا نفسيا (سيكولوجيا) اذ أنها تساعد على كبح جماح الغريزة الجنسية »(١١٦) ٠٠٠ « لقد شاهدنا مشاهد الطفولة فى مصر القديمة وهى لا تختلف عن عالم الطفولة فى أية بيئة أخرى قديما وحديثا ولكننا ندرك أن **الاهتمام بالطفولة نابع من اهتمام المصرى بأسرته** من ناحية تربية النشىء بدنيا ونفسيا واجتماعيا ٠ فكل النصائح التى تنصب على السلوك والأخلاق هى تربية خلقية اجتماعية كما أن بعض الألعاب لها صلة بالعبادة ٠ فالألعاب البهلوانية الوثيقة الصلة بالرقص والتى نلاحظها فى كثير من الرسوم مثل مشاهد الفتيات وهن ينثنين أو يتشقلبن ــ مثل مشاهد البنات الراقصات على أيديهن وأرجلهن فى المقصورة الحمراء لحتشبسوت فى معبد الكرنك ــ هى تعبير عن الرقص الدينى وفيها نلاحظ أن هذا النوع من الرقص من اختصاص البنات ٠ وفى نفس المشاهد نجد الموسيقيين يصاحبون الراقصات على القيثارات والشخاشيخ مما يدل على أنها بعض بنود المواكب الدينية » (١١٧) ٠

ولم يكن الاهتمام بالأطفال منصب على اللعب بغرض التسلية أو بهدف تعليمى بل نجد مقابر الدولة القديمة حافلة بصور الأطفال وهم يساعدون الرعاة بمراقبة القطعان أو رعايتهم أى أنهم ينمون فيهم المشاركة فى تحمل المسئولية ، وهذا يساعد على تنمية شخصياتهم فى أنهم أعضاء نشيطين فى المجتمع ، فأحيانا يساهمون فى فلاحة الأرض أو قضاء المشاوير أو المساهمة فى الأعمال المنزلية الصغيرة وتربية الدواجن والغنم ٠٠ وفى أعمال الخبز وجمع وقود الفرن ٠ أو فى المساهمة فى تنظيف المنزل أو الاهتمام بحيواناتهم المدللة وعلى وجه الخصوص الكلاب والقطط ٠ وفى « مصطبة « حتب حر آخت » من الأسرة الخامسة توجد

صورة طفل يناول قله لفتى بالغ لكى يشرب ، وصورة شبيهه على مركب بضاعة نهرية • وفى مقبرة بيبى عنخ – من الدولة الوسطى – بمنطقة « مير » صورة كوخ طبخ (مطبخ) يظهر فيها جهة اليمين رجل متقرفص منهمك فى شى بطة على صفيحة فوق شـواية ، ويروح بيده الأخرى على الفحم بمروحة ، وفوقه قطع من اللحم وبطـة معلقة فى صف واحد ، ويجلس فى مقابله جهة اليسار زميل متقرفص أيضا يأكل قطعة من اللحم • وبين هذين صبى يحمل بيده اليمنى براد أو شىء غير واضح بيده اليسرى ، فى حين يأمره المتقرفص يسارا : تقدم وأعمل ، وأحضر الفتية للطعام ، فيجيب « سأفعل » (١١٨) •

« وهناك أمثلة كثيرة تظهر دور الأطفال فى المعاونة وفى القيام بأعمال بسيطة مثل « هش الطيور من فوق كومة من الحبوب » ، وبنات جميلات تقمن بالخدمة على الموائد فى الولائم أو أخرى تسوى ملاءة وتنظم الكراسى فى الحجرة • وكان للأطفال دورا اقتصاديا فى البيوت الفقيرة ، اذ أنهم يعملون من أجل كسب العيش • أى أن حياة الأطفال لم تقتصر على اللعب واللهو ، بل كانوا يـدربون بالتـدريج على الألعـاب التى سيمارسونها عند البلوغ وحتى من خلال اللعب والألعاب المسلية الهادفة يتحول اللعب تدريجيا الى أمور أكثر جدية ، حيث يبدأ الأطفال بالمساهمة فى أنشطة آبائهم سواء فى البيت أو الحقل أو الورشة ••• وفى الصور الجدارية المقبرية كثيرا ما يصور الصبية مع آبائهم عند تقديم القرابين للآلهة والموتى • وعلى لوحات الدولة الحديثة توجد فى بعض الأحيان صـور أولاد وبنات يتضرعون لايزيس مع الكبار » (١١٩) • وللأطفـال فى دير المدينة صور من هياكل مقبرية وهم يتعبدون لآلهتهم الخاصة • وفى المناظر التى يصور فيها الأطفال لابسين – فى الدولة الحديثة – كان يظهر لباسهم مثل الكبار تماما • بل كان الاهتمام بالمظهر واضح أيضا بتصفيف الشعر •• بل حتى الأطفال كانوا يضعون باروكات للشعر مثل الكبار (يلاحظ انتشار الباروكات بين الكبار سواء رجالا أو نساء وربما يكون هذا راجعا لمراعاة النظافة التى تستوجب حلق الشعر أو معظمه وارتداء باروكة وهذا واضح فى كل الرسوم الجدارية أو حتى التماثيل الصغيرة والكبيرة) •

من هنا نجد اهتمام الأبوين بأطفالهم وتنشئتهم التنشأة السليمة من الناحية الجسمانية (البدنية) والنفسية (احساسهم بالثقة بالنفس للاعتماد عليهم فى أخذ دور فعـال فى المشـاركة فى الأعمال المنزلية ويتعلمون الاعتماد على النفس) والروحيـة (متمثلة فيما يتعلمونه من أخـلاق حميدة وتذكرتهم بأن الأعمال الصالحة ترضى الاله) والعلمية

والتعليمية (لأن نفس الألعاب تثير فضولهم للمعرفة واتصال الألعاب بالنواحى الاجتماعية وبالعبادة · ان تعليمهم الحكم منذ نعومة أظفارهم هو تلقينهم الحكم وتذكيرهم بواجباتهم نحو أسرهـم · فألطفل الذى تعلمه آقوال الحكماء بأن واجبهم تقديم الخير والاهتمام بالأم التى حملتهم وهم صغـار وانها غذتهم واهتمت برعايتهم هو درس عملى بضرورة رد الدين الذى عليهم قبـل أهلهم الذين لم يهملون فى تربيتـهم والذين أعطوهم الحب والحنان والرعاية ·· أليس هذا توثيقا للروابط الأسرية الحميمة ؟ أليس هذا تأكيدا على الرباط الممتد أفقيـا عبر الأسر من الجد الى الأب الى الأولاد ؟ أليست هذه هى السلسلة المتصلة عبر القرون لمعنى امتداد الأسرة التى امتدت منذ أقدم العصور وحتى اليوم ؟

لقد دنست القوى الأجنبية أرض الوطن ، وقد سلبت منا ومن أجدادنا جزء من ثمار تعبهم · لقد سرقوا أموال أجدادنا ولكنهم فشلوا فى كسر **السلسلة المتصلة أفقيا** وهى **صلة الأسرة** سواء بمعناها الحرفى أو معناها الثقافى الخلقى الدينى · وصبر أجدادنا على الضيم من أجل المحافظة على تراب الوطن وأرض الوطن الخضراء واستمروا يرعونها بماء النيل الخـالد · وأخرجوا منها الخيرات التىأكل منها أبناء النيل وأكل منها أيضا المحتلون ·· ولكنهم رحلوا واستمرت الأرض واستمر نيلها **واسـتمر رمز المثـابرة والعمـل والصبر والانتـاج ـ الفـلاح المصرى العظيم** · ان الترابط الأسرى هو السمة الأساسية الخـالدة وقد دعمها التدين والأخـلاق والحب والتعـاون والعطاء والايمان بالخالق الواحد الأحد الذى يرعى السكان والبلاد ·

« ورغم هذا الترابط العائلى القوى ، فالمجتمع المصرى لم يشهد تعصبا عائليا · فقد كان سكان كل قرية يتعاونون سويا فى الأزمات ، وأوقات الشـدة ، بصرف النظر عن كبر أو صغر العـائلات · بل ان الشواهد التاريخية تؤكد ان كل قرية كانت تدفع الضرائب للحاكم مجتمعة · فاذا عجزت عائلة أو أكثر دفع ما عليها من ضريبة أو خراج ، فأهل القرية يدفعون عنها » (١٢٠) ··· « لقد كانت الأسرة فى مصر عبر تاريخها الطويل هى مركز العملية الانتاجية · فهى الوحدة الانتاجية الأولى فى القرية والمدينة ، على السواء · فالزراعة فى الأساس هى عمل عائلى · والأرض كانت طيلة التاريخ المصرى ملكا للحاكم ، لا أحد يملكها الا اذا منحه الحاكم صكا بذلك » ·· وقد منحت هذه الصكوك للكهنة وكبار الموظفين (فى مصر القديمة) · أما عموم الفلاحين فانهم يفلحون الأرض ، وينتفعون بعائدها ، دون أن يملكوها · وقد عزز نظام الانتفاع من الاعتماد على الأسرة كوحدة انتاجية ، فتستطيع كل

أسرة أن تنتفع بكمية من الأرض على قدر ما تملك من قوة عمل من أبنائها وبناتها · ويمكن للأسرة أن تزيد من حجم الأرض على قدر ما يتوافر لها من امكانيات مادية وبشرية · وكان حق الانتفاع بالأرض يتوارث داخل الأسرة » (١٢٠) ·

بهذا نجد أن نظام الانتاج ذاته والذى يمثل العنصر الاقتصادى فى المجتمع يعتمد تماما على النظام الأسرى · فالأسرة هى وحدة انتاجيه تتعاون سويا لكى تستفيد من الأرض ومن خيراتها · والأسرة ترعى الأرض وتفلحها وتنتفع بعائدها · وتعاون أفراد الأسرة يساعدهم على زيادة الأرض التى تمنح المزيد من الخيرات ومزيدا من الأمن الغذائى · فكلما تعاونوا وكلما بذلوا جهدهم كلما أمكنهم الاستفادة من الأرض أى أمكنهم الاستفادة من الامكانيات البشرية والامكانيات المادية ·

« كانت القرية المصرية تعرف منذ القدم تلك الرابطة الجمعية التى تأسس عليها بنائها وهى رابطة العائلة أو **الأسرة الممتدة** · فهذه الرابطة هى التى تحقق للأفراد الأمان والضمان · وهى التى تنظم عملهم واستهلاكهم وزواجهم وتربية أولادهم · ومن خلالها يتم حل النزاعات التى تنشب داخل كل أسرة ، أو فيما بين الأسر » (١٢١) ·

« وفى المدينة ، كان للحياة الأسرية شأن كبير أيضا · لقد انتظم الانتاج فيها حول الصناعات الحرفية والخدمات · وشهدت المدينة ما يعرف بنظام الطوائف الحرفية ، حيث يجتمع أصحاب كل حرفة فى رابطة تخضع فى نظامها الداخلى لقواعد صارمة فى الترقى والعقاب · ونجد أن هذه الطوائف قد تأسست فى الأصل حول أسر بعينها ، كما أن تنظيمها الداخلى يشبه الى حد كبير تنظيم الأسرة ، الأمر الذى يدعونا الى القول بأن الأسرة قد لعبت أيضا دورا هاما فى العملية الانتاجية فى المدينة · فيتمتع رئيس الطائفة بسلطة أشبه بسلطة الأب ، فهو كبير الطائفة يرجع اليه فى كل أمر ، كما يقوم بحل النزاعات التى تنشب داخل الطائفة ، أو بين الطائفة وغيرها من الطوائف » (١٢٢) ·

وان كانت الحياة الريفية تملى على الأسرة ارتباط انتاجهم بالأرض وبخيرات الأرض والاستفادة بالصناعات المرتبطة بالانتاج الريفى وبتسويق المنتجات الريفية فى سوق المدينة القريبة ، وكل أفراد الأسرة يتعاونون فى كافة الأنشطة المرتبطة بهذا الانتاج سواء التسويق (وترى على جدران المقابر المرأة تبيع وتشترى فى السوق) أو القيام بأعمال مرتبطة به مثل عمل السجاجيد والسلال وما الى ذلك ، فان المدينة أيضا

ينتظم فيها الانتاج حول الحرف • وكان رجال الحرفة الواحدة مرتبطين ببعضهم كأنهم أسرة واحـدة ورئيس الطائفـة كان بمثابه الآب ويقوم بتنظيم العمل وحل المشـاكل التى تصادفهم ، ويتعاونون سويا من أجل تحقيق الهدف الانتاجى • ان الروابط المصرية القديمة تجعل من المجتمع المصرى القديم روابط أسرية حميمة سواء أكانت على نطـاق الأسرة الصغيرة (الأب والأم والأطفال) أو نطاق الأسرة الكبيرة المتحابة المتعاونة المنتجـة •

« ورغـم أن الأسرة المصرية قد تأسست على مركزية **دور الأب** ـ باعتباره المرجع فى تحديـد قواعـد السلوك والاشراف على الحياة الاقتصادية • الا انها تتميز بقدر أكبر من التوازن والمشاركة فى اتخاذ القرار عن مثيلاتها فى أكثر المجتمعات العربية • فالاب فى الأسره المصريه ليس طاغيا متسلطا • فقد احتلت المرأة دورا هاما داخل الأسرة ، وهى تشـارك مشاركة فعالة فى تدبير شـئونها واتخاذ القرارات فيها • ولا تنقصنا الأدلة على أن الدور المباشر للأم كان فى بعض الأحيان أكبر من دور الأب فى مباشرة شـئون الأسرة واتخاذ القرارات فيها ، بشرط عدم الاصطدام بمرجعية الأب • وفى المناطق الحضرية ، كثيرا ما تطور نوع من تقسيم العمـل بين الأب والأم ، بحيث يكون للأول المرجعيـة النهائية فى شئون أسرته ، ويكون للأم سلطة القرارات اليومية ،وأحيانا الهامه ، والتى عادة ما تضفى عليها هيبة الأب ، باعتباره صاحب هذه القرارات ••• ومن المؤكد ـ فى كل الأحوال ـ أن المصرى عبر العصور كانها قد احترم زوجته وأجلهـا وترك لها حرية كبيرة فى تصريف شئون الأسره وسمح لها بمجال واسع للقرارات التى تخصها هى • وقد تمتعت المرأة المصرية بقدر من الحرية لم تتمتع بها فى قطر اسلامى أو عربى آخر • وطوال الجانب الأعظم من تاريخ البلاد ، كانت المرأة ترث عن والديها مثلهـا مثل اخوتها الذكور ، وتشـارك فى الحيـاة الاقتصادية بصورة مباشرة • وقد استفاضت النصوص الفرعونية فى تصوير المرأة كعاملة أو كربة منزل ، بـل وكالهـة • وقد ظلت المرأة المصرية تتمتع بقدر كبير **من الحرية** حتى فى أشد العصور انغلاقا وتخلفا ••• ولا غرو فى أن هذا الاحترام والتبجيل للمرأة قد انعكس على ألقابها فى الثقافة المدنية المصرية ، فهى الأم ، وست الخلق ، وست الحسن ، وست الحكام ، وست القضاة وست الكل ، وست الحبايب » (١٢٣) •

الفصل الثاني

العقيدة الدينية

ان العقيدة الدينية ترتبط بالوجدان لذلك يأتى التدين والاحساس بالقوى الغيبية قبل أن تأتى نصوص الدين والتى يترتب عليها علوم الدين • من هناك أتى تناولى أولا للعقيدة فى الفصل الثانى فى حين تركت الأساطير وهى « علوم عصر ما قبل العلوم » الى الفصل الثالث • فالشعور أسبق من الفكر والتفسير ويأتى قبل محاولة تشكيل الصورة العادة للدين ومحاولة الوصول الى الأسرار التى تكمن وراء الظواهر الطبيعية أو التى تؤثر على حياة الانسان وتساعده فى حياته [قوى الخير] أو تقف عثرة فى تحقيق آماله وأمانيه [قوى الشر] • ولأن قدماء المصريين لم يسجلوا ديانتهم فى كتاب واحد فقد أوجدوا اختلافات فى أسماء الخالق الأعظم والآلهة المحلية الأخرى • وسأتناول العقيدة تحت العناوين التالية لكى تتضح لنا الفكرة العامة عن العقيدة الدينية رغم كثرة الصعاب التى تكبدها الباحثون والمؤرخون فى سبيلهم للوصول للفكر الدينى • لقد لاحظوا عادات الدفن منذ عصور ما قبل التاريخ ـ أى التى لا يوجد فيها نصوص مكتوبة ـ ولاحظوا وجود الأوانى والأثاث والأطعمة مع المتوفى فى المقبرة مما يعطى مؤشرا بأنهم سيحتاجون هذه الأشياء ، وهذا يعنى أنهم يعتقدون فى حياة أخرى بعد الموت • وفى العصور التاريخية التالية لتوحيد القطرين ووجود دولة تتكون من **أرض وشعب وحكومة** ، وجدنا كتابات فى حجرات الدفن :

١ ـ فى الأهرامات التى بنيت فى زمن الأسرتين الخامسة والسادسة مثل « أوناس وبيبى وتيتى » وهى « متون الأهرامات » •

٢ ـ وفى « نصوص التوابيت » فى الدولة الوسطى •

٣ ـ وفى « كتاب الموتى » فى الدولة الحديثة ، هذا بالاضافة الى الكتب الأخرى المختلفة •

وقد تمكن الدارسون من استخلاص الديانة الرسمية من تلك النصوص لأن الكهنة هم الذين سجلوها ، وتمكنوا أيضا من استخلاص

الديانة الشعبية من كتب ومصادر أخرى • وسأتناول عرض العقيدة الدينية تحت العناوين الرئيسية التالية :

١ ـ الايمان بالخالق الواحد (الاله الأعظم ـ « نترعا ») ـ الآلهة الأخرى ـ أهم المعبودات فى العصور المختلفة •

٢ ـ الديانة الرسمية والديانة الشعبية (عقيدة رع وعقيدة أوزيريس) ـ ديانة أخناتون [الاله آتون] •

٣ ـ نشأة الكون والخليقة ـ علاقة الاله الأعظم والآلهة الأخرى بالناس ـ علاقة الناس بالقوى الغيبية ـ قوى الخير وقوى الشر ـ أثر العقيدة على الناس •

٤ ـ البعث ـ الخلود ـ الحياة الآخرة ـ هزيمة الموت ـ عظمة الموت ـ مصير الموتى : السماء أم الأرض أم الفناء ؟

٥ ـ الايمان ـ التدين ـ السلوك الخلقى ـ الطقوس الدينية وما تعنى ـ الروح والقرين (البا والكا) ـ التعلق بالسحر والتعاويذ والتمائم •

٦ ـ الكهنة المصلحون والكهنة المرتزقة والكهنة المفسدون ـ دور الكهنة فى التوضيح ودورهم فى الخلط والتداخل مما نتج عنه الخرافات والخزعبلات •

٧ ـ ما الذى تركته العقيدة الدينية على مقومات الشخصية المصرية : الورع ـ التقوى ـ الصلة بالخالق وخشية غضبه وحبه له وطلب عونه ـ السلوك الخلقى القويم •

١ ـ الايمان بالخالق الواحد

لقد كان قدماء المصريين يحسون بالقوة الغامضة الخفية عن الأنظار والتى لها قدرة كبيرة ، والتى قامت بعملية الخلق ، كما أنها كانت تتحكم فى مصائر الناس • فبالاضافة الى أنها تعرف كل شىء فى الطبيعة وفى الحياة وأنها ذات صلة وثيقة بالانسان كما يقول الأستاذ « أرمان » مؤلف كتاب « ديانة مصر القديمة » : « ومما يبعث على الدهشة أن المصريين كثيرا ما تحدثوا علاوة على آلهتهم المعينة عن « اله عام » ويحدث ذلك عادة

فى الأدب عندما يفكرون فى تلك القوة التى **تتحكم فى مصائر الناس** ، فمثلا يقولون : « ما يحدث هو آمر **الله** » ، « صائد الطيور يسعى ويكافح ولكن **الله** لا يجعل النجاح من نصيبه » ، « ما تزرعه وما ينبت فى الحقل هو عطية من عند **الله** » ، ومن أحبه **الله** وجب عليه الطاعة » ، « **الله** يعرف أهل السوء » • وربما كان المقصود بالله فى كل حالة من هذه الحالات على حده « اله الشمس » مثلا أو « الملك » أو « الكا » ولكن على العموم لابد أن ساورتهم تلك **الفكرة الغامضة عن الله وقدرته وجبروته** • وهنا فقرة وردت فى كتاب قديم من كتب الحكمة تقول : « ان **الله** خفى ولذلك وجب على الناس تقديس صورته كبديل له » (١٢٤) وأضاف ارمان بأن « هؤلاء القوم الذين كان هذا هو شعورهم وحديثهم لم يكونوا بمنأى عن **العقيدة الحقة** ، ولو أنهم فى واقع الأمر تعلقوا أيضا بدينهم الموروث وبقوا عبادا لآلهتهم » وفى تتبعنا لكل ما قيل وما كتب عن الآلهة المتعددة . وما كتب عن الخالق الواحد سنلاحظ التأكيد على وجود هده القوة العظمى – حتى وان اختلفت المسميات طبقا لرجال اللاهوت فى كل مركز دينى كان له تأثير كبير فى وقت ما أو فى مكان ما ولكن تستمر الحقيقة المتكررة عن هذا الخالق الواحد رغم وجود الآلهة الأخرى التى كانت تعبد ولكنها لم تعلو الى مكان هذا الاله الأعظم – نترعا – بل هى من خلقه •

والمعروف أن الظروف المحيطة بالانسان هى التى تشكل وجدانه وأحاسيسه وأفكاره وعقيدته وآماله وطموحاته ومخاوفه ، لأن الانسان ابن الظروف بمعنى أنه يتأثر بها قبل ان يستطيع أن يسيطر عليها ويتحكم فيها • فالظروف الجغرافية لها تأثيرها ، ووفرة أو ندرة الخيرات تعطيه الاحساس بالأمان أو بالخطر • فانسان المناطق المدارية – مثلا – والتى لا تتوقف فيها الأمطار تقريبا والتى تكون فيها الطبيعة كريمة بما تهب الانسان من خيرات لديه الاحساس بأن قوته اليومى فى متناول يده ، فى حين أن البدوى الذى تعلم الترحال فى الصحراء وعدم الاستقرار لا يحس بنفس الأمان – الغذائى – بل انه ينتقل حيث يجد الكلأ ، وحيث يجد ينبوع ماء ، ويعيش معظم وقته فى البحث عن الطعام الذى يجمعه سواء صيدا أو تربية للحيوان الذى يمده باللبن أو باللحم ولذلك يحتفظ بالناقة والأغنام فى كل ترحاله • بينما نجد انسان السهول يعيش فى مرحلة انتاج الطعام فاستقر بجوار الأرض التى يزرعها وحيث يأتيه الماء بصفة شبه مستمرة من أنهار أو ينابيع مياه أو أمطار • وحاجات الانسان تختلف من بيئة الى أخرى ، وانه يكتسب صفات اكتسبها من خبرته عن الحياة المحيطة به ، بل ان الأفكار نفسها تختلف من مكان الى آخر ومن عصر الى آخر •

والمصرى القديم الذى مر بعصور مختلفة منذ العصر الحجرى وحتى اتحاد الشمال والجنوب والذى احتفظ بمختلف الآلهة المحليه على مر تاريخه الطويل ، والذى عاش فى حكم الملك الاله فى مجتمع مستقر وآمن ، لابد وانه اختزن الكثير والكثير من الأفكار والمعتقدات . « ومن المحال رسم صورة لديانة منسقة ومنطقية فى كل تفاصيلها أو صلاحيتها العامة للاقليم المصرى ، لأن مثل هذه العقيدة الموحدة والمتناسقة لم تتواجد قط ، **فالديانة المصرية ليست من خلق مفكر واحد** ، لكنها النتاج العام للعديد من مختلف التيارات اللاهوتية والسياسية . ولم تكن هناك ثمة سلطة مفردة ومسيطرة بشكل كاف طوال التاريخ المصرى القديم لكى تختصر كل العقائد المحلية وتوحدها فى اطار لاهوتى أو فكرى شامل يفرض على كل المصريين » (١٢٥) فانسان العصر الحجرى الذى كان دائم الترحال والتنقل والذى سيطر عليه الاحساس بعدم الاستقرار بل والتعرض للخطر من جانب رحلات القنص فالحيوانات المتوحشة لم تتركه طليقا وهو يجمع الثمار ويصطاد الحيوانات الضعيفة التى كان يأكلها . هناك خطر دائم يتربص به ، وهو فى حاجة الى طلب العون من أخيه الانسان أو من قوة خارجية أقوى منه ويريد حمايتها فظهرت الآلهة المحلية المختلفة وتعددت . وفى مرحلة الاستقرار وهى فترة الزراعة واستئناس الحيوان حقق تعاون الأسرة الكبيرة من أجل تنظيم الحياة ومن أجل الدفاع عن النفس ضد الحيوانات المفترسة وضد اعتداء آخرين عليهم وأيضا لمقاومة قوى الطبيعة فى وقت تهديد حياتهم مثل أوقات الفيضان العاتى مثلا . والارتباط بالجماعة وبالأرض والنهر ترك بصماته على الشخصية المصرية ــ الشخصية القومية ــ فارتباطه بالأرض والنهر التى تشكل الأمن الغذائى له ــ قديما وحديثا ــ أصبح جزء ثابت فى الوجدان المصرى . والمتتبع لتاريخ مصر الطويل عبر كل العصور يجد الفلاح ــ أى الانسان ــ فى منظومة خالدة مع الأرض ومع النيل وهو الذى استمر يرعاها ويحافظ عليها حتى عندما تعرضت البلاد للاحتلال . وسلب اللصوص ــ سواء المحتلون أو الاقطاعيون أو المنحرفون من أصحاب السلطة ــ خيرات البلاد ولكن بقى الفلاح يعزق أرضه ويأتى بثمارها للجميع ورحل المغتصبون وبقت الأرض والنيل ومعهما العنصر المنتج دوما وهو الانسان المجد المخلص والزارع للأرض .

لقد زاد الاستقرار مع وجود مجتمع القرية ومجتمع المدينة ووجود الأقاليم المتحدة والتى كانت الخطوة نحو الاتحاد الأكبر ــ مصر العليا ومصر السفلى ــ ووجود رمز الوحدة السياسية وهو الملك . كان عنصر الأسرات يسير بالبلاد خطى واسعة نحو **التنظيم والادارة** وتطور الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وظهر العرف والسلوك الاجتماعى

الحميد وظهور القوة السياسية التي قامت على صيانة المجتمع من القوى المعادية الخارجية ، والتي وضعت القواعد والنظام الذى يتبعه الناس وبذلك تكونت الدولة بمفهومها القانوني اى أرض وناس وحكومه ، وبدات تتشكل القواعد المنظمة لأفراد المجتمع • وبدا يتطور الفكر وتتبلور العقيدة محليا فى صورة آلهة محلية تحميهم وتعينهم ، وفى صورة آلهة كونية ترتبط بالقوى الكونية : السماء ــ الشمس ــ القمر ــ النجوم ــ الليل ــ النهار ــ السحب ــ الرعد الخ • وأراد الانسان أن يبلور أفكاره عن هذه القوى المتحكمة فى الطبيعة وفى الكون وفيه هو ذاته فصاغها رجال اللاهوت فى صورة أساطير يحاولون فيها تفسيرا للقوى الكونية ، ويحاولون ايجاد علاقات بين القوى بعضها ببعض ، وبين هذه القوى والانسان • وكان أهم سؤالين يحتاجون لاجابة شافية هما :

١ ــ من أين أتينا ؟ أى من الذى أوجدنا ؟ أى من الذى خلقنا ؟

٢ ــ الى أين نذهب بعد الموت ؟

وقد أجاب المصريون القدماء عن هذين السؤالين وأن اختلفت الاجابة جزئيا فى تسمية **الخالق الأعظم** : بتاح (فى منف) ــ رع (فى هليوبوليس) ــ الثامون (فى الأشمونين) ــ خنوم (فى أسوان وجزيرة الفنتين) ــ آمون رع (فى طيبة) ــ آتون (فى تل العمارنة) • الا أن الكل يشتركون فى وجود الاله الأعظم ــ نترعا • ويتناول العلامة « سليم حسن » الخليقة والخالق فيقول « أما كل العوامل التى ساعدت على خلق العالم أو المخلوقات التى كان لها نصيب فى ذلك فلم تكن الا مجرد صور أو مظاهر لبتاح اله « منف » المحلى المسيطر على أصحاب الحرف والصناعات والذى يعد اله كل حرفة (يقصد أنه كان **الاله الأحد الفرد الصمد**) » (١٢٦) • وبذلك نجد أن بتاح كان يعد اله كل حرفة يشار اليه كاله خالق • « وفى أون (هليوبوليس) وضع الكهنة قصة خلق الكون التى قبلت بصفة عامة كديانة رسمية فى كل أنحاء البلاد ، ويمكن اعتبارها أولى خطى الفكر نحو **التوحيد** ، ولن ندخل فى تفاصيل قصة الخلق ودلالاتها العميقة فى الفكرين المثالى والمادى على السواء ، ولكن حسبنا هنا ان نشير الى أن الفكرة الأساسية التى أصبح يعتنقها المصريون عموما هى ان هناك **خالقا** أول لهذا الكون • وهذا الخالق مستقل بذاته ، وأكبر من أى شيء سواه ، وأنه أوجد الآلهة الأخرى كامتداد له ومساعدين ، وهكذا اذا كانت الديانة المصرية القديمة تقوم على فكرة التعدد أصلا فان العين المدققة لا تعجز أن تستشف فى أغوارها فكرة **التوحد** » (١٢٧) •

وعاد الأستاذ « محمد العزب موسى » ليؤكد على نفس المعنى عند حديثه عن « كتاب الموتى » فقال « ومما يلفت النظر بصفة خاصة فى

هذا الكتاب (كتاب الموتى) أنه يدل على الاعتقاد باله واحد خفى متفرد وينجو من هرطقات تعـدد الآلهة » (١٢٨) وهذا « **الاله الواحد** » الذى اختلفت سماته فى مراكز اللاهوت المختلفة ، الا أن معنى « **الاله الخالق** » التى تخص آلهة عظمى بعينها توضح هذا المعنى الراسـخ وهو **الخالق الواحـد** وفى هليوبوليس أشير اليـه تارة بالاله « رع » وتارة بالاله « آتوم » ولكنه هو اله الشمس و « رع » أهم الآلهة المصرية وأشهرها ، أدمج مع عدة آلهة ، يأخذ هيئة الانسان ، وعبد كخالق للعالم ٠ يسافر فى مركبة عبر السماء بالنهار وفى العالم الآخر فى الليل ٠ مركز عبادته فى هليوبوليس منذ القدم حيث يرأس التاسوع المكون منه ومن « شو وتفنوت وجب ونوت وأوزيريس وايزيس وست ونفتيس » ٠ منذ الأسرة الرابعة أصبح الاله الرسمى للبلاد ٠ اندمج مع آمون منذ الدولة الحديثة تحت اســم « آمون رع » (١٢٨) وتعتبر مدينة هليوبوليس أعظم مراكز اللاهوت فى مصر القديمة ٠٠٠ وفيها قام المعبد الرئيسى « لرع » الرب الأعلى الذى عبد باعتباره الشمس ، كما كان قد عبد فى العصور المبكرة تحت اسم « آتـوم » أى الكامل (١٢٩) ورغم أن « مصر القديمة لم تعرف أسطورة رسمية أجمع عليها رجال الكهنوت لتفسير بدء الخليقة » (١٢٩) الا أن كل الأساطير كانت تشير الى وجود الكائن الذى خرج الى الوجود من ذاتـه ٠ وفى الفصـل ٦٠٠ من « نصوص الأهرام » (١٣٠) نجد أتـوم باعتبـاره « التل العـالى » نجد هذا النص « أى أتوم عندما جئت الى الوجود خرجت فى صورة تل عال وأشرقت فى هيئـة حجر « البن بن » فى العنقاء فى هليوبوليس » (١٣١) وفى الفصل ٨٥ من « كتاب الموتى » نجد الاشـارة الى « الشمس المشرقة بما تمثله من اعادة يومية للخلق » (١٣٢) والتى كان الجعران يتمثلها كرمز للاله عندما جاء الى الوجود باسم « خبرى » نجد هذا النص « لقد خرجت الى الوجـود من ذاتى فى خضـم المياه الأزليـة باسـم « خبرى » » (١٣٢) ٠ ويشار للشمس بثلاثة أسماء ففى الصباح يطلق عليها « خبرر » وفى الظهر « رع » وفى المساء « آتوم » ٠ ويوضح مؤلف كتاب الرمز والأسطورة هذا المعنى فى قوله : « لئن كان أتوم الاله الأصلى والرب الأعلى ، لكنه اله خفى ، أما « خبرر » فهو اله يتجلى صورة مرئية سواء فى مطلع الصباح أم فى كل نهار ٠ أما رع فهو الاله الموجود الآن فى السماء ٠ ولما كان أتوم فى جوهره اله محجوب عن الأنظـار فقد آل الى أن يكون شمس الليل ، وهى تعبر العالم السفلى ، أو بات المتحكم فى مصير العالم ٠ وهو جاثم على قمة قطبه » (١٣٣) ٠

ان « نصوص الأهرام » توضح بأن الشمس « خرجت الى الوجود من ذاتها » (١٣٣) أى ان **الاله الخالق خلق نفسـه من ذاته** ٠ وقد تناول

مؤلف كتاب الرمز والأسطورة عرض قصة الخليقة من واقع النصوص الدينية المسجلة فى الأساطير والتي توضح معنى الخالق الواحد فقال « عاش المصريون تحت سلطان نظام أوتوقراطى مطلق خير ، ولم يعرفوا الا مصدرا واحدا للسلطة على الأرض ، فليس من الغريب أن يؤمنوا **بخالق واحد** ومبدع متفرد انبثقت منه القوى المقدسة · ويرجع الفضل لأهل هليوبوليس فى تقديم تفسير لتطور الكون من ارهاصات الروح حتى حلول عصرهم » (١٣٤) · وفى كتاب الديانة المصرية القديمة ذكر الآلهة التالية كآلهة خلق : رع ـ أتوم ـ خنوم ـ حرشف ـ أتون ـ بتاح ـ خبرى ـ سكر · وخبرى ورع وأتوم هم اله واحد ـ الشمس ـ وقد « تصور المصريون الشمس فى الصباح طفلا اسمه « خبر » وفى الظهيرة رجلا اسمه « رع » وفى الغروب كهلا اسمه « أتوم » » (١٣٥) · أما الاله خنوم فهو « الاله الكبش الذى اشتق اسمه من فعل « خنم » بمعنى (يخلق) ، مما يشير الى أنه كان (خالقا) منذ البداية · الذى عبد منذ بداية الأسرات وكان مركز عبادته منطقة الشلال ، وحول جزيرة الفنتين حيث يكون هو وزوجتيه « ساتت وعنقت » ثالوثا لهذه المنطقة · من ألقابه « خالق البشر » و « أبو الآلهة منذ البداية » (١٣٦) وفى معبد « الدير البحرى » نرى منظر « خنوم » وهو يقوم بخلق حتشبسوت هى وقرينها بناء أمر الاله « آمون » على عجلة الفخرانى مما يدل بأن دور خنوم هو تشكيل الانسان و « الكا » مثلما يقوم الفخرانى بصنع أدواته من الفخار · أما الاله « حرشف » ومعناه « الذى على بحيرته » · اله خالق على هيئة الكبش كان مركز عبادته فى هيراكليوبوليس (أهناسيا) اندمج مع الاله « رع » و « أوزيريس » أثناء الدولتين الوسطى والحديثة ، وكذلك مع الاله « آمون » » (١٣٧) ·

أما الاله « سكر » اله الخلق والموتى ، عبد فى « منف » · ارتبط مع « بتاح » ارتباطا قويا منذ الدولة القديمة ، وبعد ذلك مع الاله (أوزيريس » واندمج معهما تحت اسم « بتاح سوكر أوزيريس » · نراه على هيئة صقر أو برأس صقر وجسم آدمى بغير أعضاء مميزة · كان ابنا « لحورس » فى العصور المتأخرة » (١٣٨) أما الاله « آتون » فهو « « قرص الشمس » الذى لم يعبد قبل الدولة الحديثة ، ارتفع فى عهد الملك « اخناتون » الى أن يكون **الاله الأوحد** · مثل فى أول الأمر برأس صقر ، ثم كقرص شمس بأشعة تنتهى بيد آدمية تمسك غالبا علامة الحياة · من ألقابه : « الحرارة المنبثقة من قرص الشمس رب الأفقين ، الذى يتلألأ فى أفقه باسمه · كوالد لرع الذى عاد الينا كآتون » (١٣٩) ·

وعندما يأتي الحديث عن اخناتون وآتــون فاننا نتأمل طويلا مدى اقتراب أجــدادنا من مفاهيم لا تختلف كثير عما نردده نحن أصــحاب الرسالات السماوية الذين نقول الله نور السماوات والأرض وأنه خالق البشر والحيوان والأرض وأنه لا شريك له وأنه ـ جـل جـلاله ـ يمدهم بحاجاتهم ، وأيام الانسان معدودة !! وأنه خالق الســموات العليا وأنه يخلق الملايين وحده وبنفسه وفي الأنشودة يقول اخناتون « أيها الاله الذى سوى نفسه بنفسه ٠٠٠ خالق كل أرض وبارىء كل من عليها » وفى أناشــيد أخناتون « نرى قوى عالمية ملهمة لم توجد من قبل ، لا فى الفكر المصرى القديم ولا فى فكر أية مملكة أخرى ، فهى تشمل فى مداها العــالم كله » (١٤٠) وها هى مقتطفات من انشودة آتون أو الأنشــودة التى شدا بها أخناتون :

بهاء آتون وقوته العالمية تشرق وتضىء

« أنت تبزغ بجمالك فى أفق السماء
أنت يا « آتون » الحى الذى كنت فى أزلية الحياة
فحينما كنت تطلع فى الأفق الشرقى
كنت تملأ كل البلاد بجمالك
أنت جميل وعظيم ومتلألىء ومشرق فوق كل أرض
وأشعتك تحيط بالأرض حتى نهاية جميع مخلوقاتك
أنت « رع » ٠ وأنت تخترق حتى نهايتها القصوى (يعنى الأرض)
ورغم أنك قصى جدا فان أشعتك فوق الأرض
ورغم أنك تجاه البشر فان خطواتك خفية (عنهم) » (١٤١) ٠

ثم تحدث اخناتون عن الليــل والانسان وكيف أن الأرض تظلم كالموت فينامون فى حجراتهم ورءوسهم ملفوفة ، أما الحيوانات فتتحرك فى الليل فيخرج الأسد من عرينه (ليفترس) والثعابين تنساب لتلدغ٠ أما عندما يضىء بالنهار فالناس يستيقظون وترعى الماشــية وترفرف الطيور وتقلع السفن ثم يتحدث عن خلق الانسان قائلا :

« أنت خالق الجرثومة فى المرأة
والذى يذرأ من البذرة أناســيا
وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه

ومهدئا اياه حتى لا يبكي
مرضعا اياه حتى فى الرحم
وانت معطى النفس حتى تحفظ الحياة على كل انسان خلقته
وحينما ينزل من الرحم (أمه) فى يوم ولادته
فأنت تفتح فمه كلية
وتمنحه ضروريات الحياة » (١٤٢) ٠

نلاحظ أن تطور البذرة الى انسـان وحتى مولده يتولاه الاله فى الرحم وحتى الولادة بل حتى بعد الولادة يمنحه ضروريات الحياة ثم يتحدث عن اعطائه النفس للحيوان مثلما أشار لذلك عند التحدث عن خلق الجرثومة فى بطن الأم واعطائها النفس ثم تحدث عن تعدد أعمـال الخالق ـ الاله الأحد ـ فقال :

«ما أكثر تعدد اعمـالك
انها على الناس خافية يأيها الاله الأوحد
الذى لا يوجد بجانبه اله آخر
لقد خلقت الأرض حسب رغبتك
وحينما كنت وحيدا (لا شيء غيرك)
خلقت الناس وجميع المـاشية والغزلان ،
وجميـع ما على الأرض ،
مما يمشى على رجليـه ،
وما فى عليين بما يطير بأجنحته
وفى الأقطار العالميـة سوريا ،
وكـوش وارض مصـر
فانك تضع كل انسان فى موضعه ٠
وتمـدهم بحاجـاتهم
وكل انسـان لديه قوتـه
وأيامـه معـدودات
والألسنة فى الكلام مختلفة
وكذلك تختلف اشكالهم وجلودهم
لأنك تخلق الأجانب مختلفين » (١٤٣) ٠

ثم تناول اخناتون خلق النيل فى العالم السفلى ليحفظ « أهل مصر أحياء » كما خلق نيــلا فى السماء يصنع أمواجا مثل « البحر الأخضر العظيم » ثم تحدث عن فصول السنة كما أن له السيطرة العالمية :

« أنت خلقت السموات العلى لتشرق فيها

ولتشاهد كل ما صنعت حينما كنت لا تزال وحيدا (لا شيء غيرك)

مضيئا فى صورتك آنت « آتون » الحى ٠

وبازغا وساطعا وذاهبا بعيدا وآيبا (فى الغدو والآصال) ٠

أنت تخلق الملايين من الضوء وحدك بنفسك

من مدن وقرى وحقول وطرق عامة وأنهار ٠

وجميع العيون تراك تجاهها ،

لأنه « آتون » (شمس) النهار فوق الأرض ٠

وحينما تغيب

فان جميع الناس الذين سويت وجوههم

لكى لا ترى نفسك بعد وحيدا

يغشاهم النعاس حتى لا يرى واحد منهم ما قد خلقته

ومع ذلك فانك لا تزال فى قلبى » (١٤٤) ٠

وكان أهــم تطور طرأ على الديانه المصرية القــديمة هو محاولة اخناتون جعل ديانة « آتون » ذات صــبغة عالمية وكذلك محو أى اله بجانب « آتون » أى أنه أصبح بوضوح تماما الواحد الأحد الذى لا يدانيه اله آخر من كل آلهة الأساطير التى كتبها رجال اللاهوت السابقين له حتى أن « أوزير » الذى كان يمثل الديانة الشعبية قد تم تجاهله تماما ففى حين كان يحاول رجال اللاهوت الهيوليين بجعل « رع » هو « أوزير » محاولين ازالة الغموض الذى طرأ نتيجة نقل المحاكمة التى كانت تتم أمام « رع » فى متون الأهرام وجعلها تتم أمام « أوزير » فى نصوص التوابيت وفى كتاب الموتى [سيتم مناقشة هذا تفصيليا فى الفصل التالى الخاص بالأســاطير] لقد كانت ثورة اخناتون الدينية صــدمة مباشرة لديانه « آمون رع » ولرجال لاهوته رغم وجود عناصر مشابهة كثيرة بينهما وأهمها فكرة « الخالق الواحد » الذى خلق نفسه من ذاته ففى عقيدة رع ــ والتى انتقلت الى آمون بعد نســـبة صفات رع اليه وأصبح آمون رع ــ نجده فى الفصل ٥٨٧ الذى يبدأ :

سبحان « آتون »

سبحانك أيها « الكائن » يا من خرج الى الوجود من ذاته ،

صعدت تاسمك « التل العالى »

وجئت الى الوجود باسمك « الكائن » (١٤٥) ٠

ونجد الأناشيد الخاصة « بآتون »تبدى انسجاما مع هذه الفكرة وتميل الى ترديد تلك الحقيقة القائلة :

« بأن خلق العالم الذى يلى ذلك قد حدث

حينما كان الاله لايزال وحيدا (لا شيء غيره) ٠

وتكاد الكلمات : « حينما كنت لا تزال وحيدا (لا شيء غيرك) » تكون نداء يردد فى تلك الأناشيد ٠

« وهو الخالق العالمى الذى ذرأ كل أجناس البشر وميز بعضهم عن بعض فى لغاتهم وألوان جلودهم ، ولا تزال قوته المنشئة مستمرة تأمر بالخروج من العدم الى الحياة حتى من البيضة الجامدة » (١٤٦) ٠

لقد كانت محاولة اخناتون بجعل ديانة « آتون » عبادة عالمية فقد أصبح « آتون » هو الخالق العالمى ، وقوة اله الشمس المانحة للحياة ٠ وهى مصدر الحياة والزاد الدائم ٠ وهذه القوة ظاهرة للناس ولا تحتاج للأساطير لتعريف بها ٠ « واشعة الشمس التى تجلب النور والحرارة الى الناس ٠ وهذا الادراك المدهش لقوة الشمس بصفتها منبع كل الحياة فوق الأرض يردد باستمرار دائم ، اذ ترى الأناشيد تميل الى الامعان فى ذكر أن أشعة الشمس قوة عالمية عتيدة على الدوام :

« أنت فى السماء ولكن أشعتك فوق الأرض

أشعتك تنفذ الى أعماق البحر الأخضر العظيم » (١٤٦) ٠

ولم تتجاهل عقيدة « آتون » النيل الذى تعتمد عليه الحياة فى مصر فجعلت « آتون » يخلق نيلا آخر فى السماء ولكنها تجاهلت « الاله » أوزير كلية ، فلم يذكر قط فى كل الوثائق الاخناتونية بل ولا فى أى قبر من قبور « تل العمارنة » (١٤٧) : كان اله الشمس فى نظر « ابور » (*) راعيا شفيقا ، وكان الناس فى نظر « مريكا رع » (*) قطعانه التى من أجلها صنع الهواء والماء والطعام ٠ ولكننا نجد أن « اخناتون » يذهب الى أبعد من ذلك ، حيث يقول لاله الشمس : « انت أب وام لكل ما صنعت » ٠ وهذا التعليم هو الذى مهد الطريق لكثير من التطور الذىظهر فى الديانة فيما بعد حتى الى عصرنا الحالى » (١٤٨)،

وقد وصف « برستد » ــ مؤلف فجر الضمير ــ اخناتون بأنه كان « رسولا لكل من عالمى الطبيعة والحياة الانسانية » (١٤٩) ووصف حركته التوحيد بأنها « ذروة التقدير القديم للنظام الخلقى الذى تودى به على لسان المفكرين المصريين القدماء الذين عاشوا فى عهد الأهرام وأسسوا مملكة عظيمة من القيم الأخلاقية العالمية التى تتمثل فى تلك الكلمة الشاملة الجامعة « ماعت » (العدالة) التى أوجدها اله الشمس فى هليوبوليس » (١٥٠) لقد كان « **التوحيد** » موجودا منذ مملكة الشمس القديمة وظهر فى ثنايا تعليم كهنة هليوبوليس ولكنه ظهر بوضوح فى عقيدة اخناتون وقد عبر « بريستد » عن هذا المعنى فى النص التالى :

« وبذلك نجد أن سيطرة مملكة الشمس القديمة للقيم الخلقية ، وقد امتدت الى حدودها العالمية المنطقية ، وان « التوحيد » الذى كان منطويا فى ثنايا تعليم كهنة هليوبوليس ، قد نطق بهما « اخناتون » نطقا لا ابهام فيه ولا خفاء » (١٥١) .

ورغم أن أعداء اخناتون كانوا يطلقون عليه « مجرم اخيتاتون » ــ « واخيتاتون » هى تل « العمارنة » التى انتقل اليها اخناتون عندما بدأ ثورته ضد كهنة آمون فى طيبة ، الا أن أثره الفكرى الواضح قد ظهر جليا بالتأكيد على معنى التوحيد وأصبحت تنبث بلا تردد ــ فى سطور الأناشيد التى انتشرت وترددت بعد عودة عقيدة آمون فى طيبة . وأصبحت الصفات التى كانت تنسب لآتون ، تنسب لآمون ولا يتردد مؤلفى الأناشيد فى تسمية ذلك الاله الممدوح ــ آمون ــ باسم « رع » أو « آتوم » فنجد الناس يرتلون لآمون :

« رب الصدق ووالد الآلهة
خلق الناس وبارىء الحيوان
رب كل كائن
ومنشىء شجرة الحياة
خالق الأعشاب ورازق الماشية لتحيا » (١٥٢)

وفى نشيد آخر نجد ما يأتى :
« سلام لك ! يارع يارب الصدق
الذى أمر فوجدت الآلهة
يا آتوم الذى خلق الناس

« والذى حــدد صــورهم
وخــلق أرزاقهــم
والذى ميز لون (كل جنس عن الآخر)
والذى يســمع دعوة من فى الأسر
والذى تتدفق من قلبه الرحمة عندما يدعوه انسان
والذى يخلص الضعيف من المستكبر
والذى يفصل بين الضعيف والقوى
رب المعرفة الذى فى فمه الأمر السائد
والذى يأتى النيــل حبا فيه
رب الحســن عظيم الحب
الذى بمحبته يحيا البشر » (١٥٣) .

وكذلك بقيت الجمل الدالة على التوحيد منبثة بين ســطور هذه الأنشودة بلا تردد وان كانت الأنشودة دائما تشير الى الآلهة فتقول :

« الفريد فى ذاته ، الخالق لكل كائن
الواحد الأحد ، خالق كل موجود
والذى نشأ الناس من عينيه
وخرجت من فمــه الآلهــة
خالق الأعشــاب للماشية
وشجرة الحياة لبنى الانسان
والذى يضع قوت السمك (فى) النهر
والطيور التى تجوب السماء » (١٥٤)
ونجد كاتبــا فى أحد مخــازن الخزانة فى جبــانة « طيبــة » يدعو « آمون » فيقول :

« الذى يأتى الى الصامت
الذى ينجى الفقــير
ويعطى النفس لكل انسان يحبه
أمــدد الى يــدك
نجنى ، ســـطع على
لأنك تخــلق قوتى
« انت الاله الأوحد لا اله غيرك »

فأنت نفس رع الذى يشرق فى السماء
وآتوم خـالق البشر
الذى يسمع دعاء كل من يدعوه
والذى ينجى الانسان من المتكبر
والذى يجرى النيل الأجل من هو بينهم
والهادى لجميـع الأنـام ·
وعندما يشرق يعيش البشر
وقلوبهم تحيا عندما يرونه
والذى يمنح النفس ما فى البيضة » (١٥٥) ·

كان أهل طيبـة يشكون لآمون مصـائبهم وهمومهم فى حيـاتهم اليومية وهذا يبين صـلة الناس بخالقهم وثقتهم فى مساعدتهم وحـل مشاكلهم وثقتهم فى شفقته وحنانه · فكان « آمون » فى نظر النـاس الاله الجليـل الذى يسـمع شكاية الشـاكين ويجيب الفقير المعذب إذا استغاث به · ونرى فى جبانة طيبة أحد الرسـامين يقص علينا رحمـة الاله « آمون » فيما يلى :

« الحمـد لآمـون
انى منظم الأناشيد باسمه
وانى أقـدم له الحمد
بقـدر علو السـماء
وعـرض الأرض
وأتحـدث عن قوتـه
الى الذى يسير فى النهر منحدرا
والذى يسير فىالنهر صـاعدا
احذره ؟
وكرر ذلك للابن والبنت
وللصـغير وللكبـير
وخبر بذلك الجيل بعد الجيل
من الذين لم يولدوا عد
واخبر بذلك السمك فى النهر
والطيـور فى السـماء

وكرره لمن لا يعرفه حتى الآن
وللذين يعرفـه ٠
احـــذره !
أنت يا آمون انك رب الصمت
الذى يأتى عند استغاثة الفقير ٠
وعندما استغيث بك فى كربتى
ففى الحـال تأتى وتنجينى
ليتك تمنح نفسا من يقوس الدهر قناته ٠
وليتك تنجينى وأنا فى العلال
وعندما يستغيث الناس بك
فانك أنت الذى تأتى اليهم من بعيد » (١٥٦) ٠

ان هذه الأنشودة تبين مدى صلة الناس بالاله ـ **الواحد الأوحد** ـ فالناس تتضرع للاله وتشكره على مساعدته لهم وعلى الخيرات التى يمنحها لهم ، وهو ملاذ المحتاج والفقير ويسمع لاستغاثة المكروب ويأتى اليهم من بعيد وينجى الناس ٠ كما أنه الرزاق للناس والسمك والطيور وهو يرعاهم ويعطف عليهم ٠ لقد أستمد الناس العون من الله ٠ وهـذه **الصلة الروحية بين الناس والاله الخـالق المجيب الرازق الحامى العطوف هى احدى سمات الشخصية المصرية** ٠ فالمصرى وتدينه معروف منـذ أقدم العصـور بل وحتى يومنا هذا ٠ ان الاتكال على الله وطلب العون منه والتضرع اليه لم يتغير أبدا ٠ ان صلة المصرى القديم بالله وجدت منذ وجود المصرى فى وادى النيل حيث الأرض والنيل وخالق الأرض وخالقه ٠ ان هذه الصلة هى التى أعطت الانسان المصرى القوة الدفينة فى وجدانه تأن الله القوى يرعاه حتى فى أحلك الظروف وأتى المحتلون ورحلوا ولم يمسـوا الوجـدان الدينى القوى الذى يميز أبناء شعبنا على مر العصور ٠ وكان الحكام الأذكياء يعرفون ذلك فلا يمسون العقيدة بل أننا نجد البطالمة يكسبون الشعب ببناء المعابد للآلهة المختلفة وتقديم القرابين أمام الناس وتقريبهم للكهنة حتى يضمنوا ولاء الناس لهم ٠

وبالرغم أن هنـاك من المؤرخين والدارسين للديانة المصرية القديمة قد أساءوا فهم هذه الديانة بل نجد اليونانين يسخرون منهـا والعرب أعتقدوا بأنهم كانوا يعبدون الأوثان غير مدركين أن التماثيل كانت ترمز الى الآلهة وتماثيل الملوك كانت البديل للجسد عندما يبلى ويفنى الا أن هناك من استخلصوا بأن المصريين القدماء كان أقرب لفكرة التوحيـد

وسوف أسرد هؤلاء الذين أعطوا أجدادنا حقهم فيما يخص العقيدة فالدكتور « جمال حمدان » يقول : « هناك من يرى أن الديانه الفرعونية ليست وثنية مطلقة ولا نقول مطلقا ، « فأميلينو » يقرر انه رغم تعدد الآلهة كانت الكهانة المصرية دائمـا على ادراك « **بوحدانية الله** » ، هذا بينما تذهب « نعمات فؤاد » الى أن الديانة المصريه القديمة ٠٠ يظلمها من يسميها وثنية » ٠٠ فان المصريين كانوا منذ البداية **مؤمنين بالفطرة**، وكانت مصر دائما بلد الايمان قبل وبعد الأديان » (١٥٧) ٠

ولقد أوضحت بأن مصر التى اتحدت على خطوات احتفظت بكل الآلهة المحلية ايمانا من أبنائها بالتسامح ولم يفرضوا الديانات والآلهة المحلية على الأقاليم الأخرى ولم يحظ بوضع الاله **الخالق** الا عدد محدود حسب المدارس اللاهوتية الرئيسية ٠ ويقول مؤلفى معجـم الحضـارة المصرية القديمة « يبدو أن تعدد الآلهة هو السمة المميزة للديانة المصرية نتيجة العوامل التاريخية ٠٠٠ ولكن ظهر أن عدد الآلهة الأصيين الذين عبدوا فى كل منطقة صغيرة جدا ٠٠٠ والمصريين لم يفرطوا فى شىء من ماضيهم ٠ بل جمع كل شىء وحوفظ عليه جنبا الى جنب مع المعتقدات التى يجب أن نعتبرها غير ملائمة ٠٠ ورغم أن الآلهة تبعا لبلادها ، كانت تختلف فى الشكل وفى الاسم وفى طريقة السلوك ، فمن المدهش أن نجد خارج هذه الاختـلافات فكرة ((**الألوهيـة**)) المجردة التى لا تنكر ، ممثلة فى شعار على هيئة لواء معـلق فى طرف سـاق خشبية ، تغرس عند مداخل المعابد البدائية ٠ وكلمة « نتر » أو « الألوهية » هى الاسم الذى كان يصف اى واحد من تلك الآلهة مهما كان اسمه ، كما استعملت لكل سمة ربانية ٠٠ وكان الاعتقـاد فى « **قوة الهية** » غير شخصية ، ولا نهائية موجودة فى كل اله على حدة (ولكنها عامة ومنتشرة فى حيز واسع وراء أشكالها المرئية المختلفة) عنصرا أساسيا فى الفكر المصرى لهذا السبب ، يمكن أن نقول ، الى حد ما ، ان **التوحيد** المصرى موجود دائما مع تعدد الآلهة الواضح فى العبادات المادية » (١٥٨) ٠

ويقول الدكتور « ناصر الأنصارى » : « كان الايمان **بالله الواحد** ـ ولا يزال وسوف يظل باذن الله ـ متغلغلا فى نفس المصرى منذ قديم الأزل ٠ وليست الحضارة المصرية القديمة الا شاهدا على ذلك ، فلولا الايمان بالله لما قامت هذه الحضـارة ولما اسـتمرت ما يقرب من الثلاثين قرنا من الزمان » (١٥٩) وكرر نفس المعنى قائلا « كان المصريون يؤمنون بوجود **اله واحد أزلى أبدى** ، هو الذى أوجد جميع الكائنات » (١٦٠) ٠ وأوضح الدكتور الأنصارى تعدد الأسماء له فقال : « وكان المصرى القديم يؤمن أن **الاله الواحد** ، الذى يؤمن به ، له قدرات عديدة ، فتعددت اسماؤه

لكثرة صفاته » (١٦٠) وقال الأستاذ محسن لطفي السيد « فالاله واحد أحد عند المصريين القدماء ولكن أسمائه كانت تختلف من عاصمة الى أخرى • ففى ممفيس كان اسمه « بتاح) ، وفى هليوبوليس « رع » وفى طيبة « آمون » ، هذا بالنهار ، أما ليلا فان اسمه يصبح « أوزيريس » أو « سفر » أو خنتي يامنتي •• الخ (١٦١) • وأكد « رندل كلارك » نفس فكرة **الخالق الواحد والمتحكم فى المصائر** قائلا : « كان الاله الأعرف فى عرف اللاهوت هو **الخالق والمتحكم فى المصائر** والتجسيد الأعظم للقوة ، والارادة والحكمة ، والخلود ، وأسمه محفوف بالجلال الى درجة تفوق قدرة العقل على الفهم ، فلا يمكن ادراك ماهيته الا باستخدام الرموز » (١٦٢) •

وعاد « راندل كلارك » يؤكد نفس المعنى عند الحديث عن التفسيرات الموجودة فى كتب اللاهوت المصرى قائلا « وتكشف الحواشي أو بعض المصريين قد أدركوا أنه لا يوجد فى الواقع الا **اله واحد** ، أو على الأقل صورة حقيقية عظيمة واحدة فحسب (١٦٣) ويقول العالم « سيث » « ان فكرة **التوحيد** كانت موجودة عند قدماء المصريين منذ الأسرة الأولى • وهذا المتن فى أصله يرجع الى عبادة **اله واحد** فى منف وهو الاله بتاح ولكن الأستاذ « برستد » يقول انه فى الأصل كان للاله رع اله الشمس ثم نسب للاله بتاح رب منف فيما بعد » أما الأستاذ « بدج » فضمن فى كتابه كل أرائه وانتهى الى أن المصرى يعتقد فى **اله واحد** وان الآلهة الأخرى ما هى الا من خلق هذا الاله الأكبر » (١٦٤) ثم قال « ان الاله « أوزير » •• تقمص انسانا ليكون محسوسا عند المصريين » (١٦٥) •

ان **الايمان** بالخالق الأعظم ينبع من داخل الانسان ، وما لم يكن هذا الاحساس الدفين موجودا داخل وجدان الانسان لما تمكن اى فكر دينى أن يتغلغل الى داخل الناس •• وهذا الاحساس الكامن داخل كل انسان وكذلك الايمان بمختلف درجاته كامن أيضا • وهذه الصلة الروحية بين الانسان وبين القوى الخالقة موجودة دائما • وقد عبر عنها الكتاب فى قصصهم : ففى قصة « روبنسن كروزو » الذى وجد نفسه على جزيرة مهجورة ، وكان التأمل هو الذى يشغل فكره بعدما ينتهى من عملية البحث عن الطعام ، وأوصله هذا التأمل الى هذه القوى العظمى المسيطرة على الكون لأنها هى خلقت هذا الكون وخلقت الانسان والكائنات الحية الأخرى • وفى قصة « حى بن يقظان » يصل المؤلف بالبطل الى نفس النتيجة • ويقول الدكتور حسن طلب فى الفصل الثانى من كتاب حكمة المصريين : « ان الأدلة التى يوفرها علم الدين المقارن تثبت لنا بما لا يدع مجالا للشك ، أن كثيرا من الأفكار والعقائد التى

قامت عليها الديانات السماوية الثلاث : اليهودية والمسيحية والاسلام . كانت فى الأصل أفكار وعقائد سائدة فى الديانة المصرية .. أما التوحيد ، فانه يعود قطعا الى أصــول مصرية . وليس توحيد اخناتون الشهير هو الشاهد الوحيد ، اذ تعود جذور التوحيــد الى عصور أقدم بكثير من عهد أخناتون ، فحين كان يبدو أن المصريين يؤمنون بتعدد الآلهة ، كانت هناك رؤى واتجاهات فكرية عقلانية لا ترى فى تعدد الآلهة الا مجرد صور مختلفة لاله واحد ، فكان المصريين حين انتقلوا من عقــائدهم القديمة الى المسيحية الى الاســلام ، لم يكونوا قد قاموا بانقــلاب تام فى حيــاتهم الدينية ، بقدر ما كانوا يستندون الى تراث دينى خصب ، وتجــارب دينية غنية » (١٦٦) وســير « الن جاردنر » يشــير فى فقرة عن قدرة الخالق فيحذر أن الاله ، وان كانت قوته مخبوءة ، الا أنه يدير مصائر البشر ، لأنه هو الخالق للجميع والحكم بينهم » (١٦٧) .

ان كل دارسى الديانة المصرية القديمــة وصــلوا الى هذه النتيجة الهامة وهى وجود خالق واحد وأنه يدير مصــائر البشر وأنه راعى صالح للقطيع وأنه مجيب للدعوات . ويرى الأستاذ « محسن لطفى السيد » بأن « اخناتون » الذى نادى بصــورة مباشرة بالتوحيــد لم يأت بعقيدة جديدة فيقول : « والحق أقول ان اخنــاتون عندما نادى بالتوحيد فهو لم يأت بعقيدة جديدة أو شاذة ، ولكنه أعاد الدين الحق الى أصــوله ، بعد أن كثرت الأســماء وتعددت الأشــكال للاله الواحد ، وكاد العامة والبسطاء أن يعتقدوا أن كل واحد من هذه الأسماء اله مستقل بذاته ، وقد ساعد على هذا الاعتقاد غير القويم تعصب كهنــة كل عاصمة للاله المعبود عندهم ، فكهنة هليوبوليس كانوا يتعصبون للاله رع بينما كان كهنة منف يتعصبون للاله بتــاح وكهنة طيبــة للاله آمــون . وربما ينسى العامة أن هذه كلها مجرد أسماء لاله واحد بعينه . الأمر الذى اضطر الكهنة فى النهاية الى توحيد الأسماء . فأصبح الخالق هو آمون رع ، حسب ما ترتب عليه زوال المنافسة .. حتى جاء « اخناتون » ومحــا أسما الآلهة كلها محوا ماديا باسم آتون الواحد الأحد ليرفعه فوق شبهات الشرك » (١٦٨) .

أما عن مكان الاله العظيم فان « متون الأهرام » تتحــدث عنه فى السماء فمن الصــورة التى ظهرت فى بردية ٨١٥ المذكورة فى كتــاب « ستث » نعرف عن متاع جنة الملوك السماوية عندما يتجه بيبى الى السماء طبقــا للوصف الذى ذكره العلامة « سليم حسن » فى الجزء الثالث : « وهناك تلميحات فى (متون الأهرام) تساعد على معرفة صورة عن متاع جنة الملوك السماوية ، تلك الجنة التى كانوا يغارون عليها ،

وحرموها على أفراد شعبهم فى عهد الدولة القديمة ، هى التى حارب الشعب للحصول عليها الى أن ظفر بها من بين براثن أولئك الملوك ٠ فاستمع لما يقال للملك (هل تريد أن تحيا ؟ يا « حور » يا من يسيطر على حربة الصدق ؟ [وهى الحربة التى لا تدع أى شخص يمر بباب الجنة غير الصادقين المبرئين أماه **الله**] ، كان كذلك عليك ألا تغلق مصراعى باب السماء ، ويجب عليك ألا تحمى عقبة (أى عقب الباب) وخذ روح « بيبى ٠٠ الى هذه السماء بين المنعين **حول الاله** ، والذى يحميهم الاله وهم الذين يتكئون على صولجاناتهم » (١٦٩) ٠

من هذا النص نستنتج أن حورس يقف على باب الجنة أى حارس باب الجنة مثل « رضوان » وأنه يمنع أى شخص أن يمر به فيما عدا الصادقين المبرئين أمام الله ٠ وما يقال للملك يبين دور « حور » فى أخذ روح « بيبى » الى هذه السماء بين المنعمين حول الاله ٠ أليس فى هذا اشارة واضحة الى رب العرش ــ وهو « رع » فى متون الأهرام ــ بل وهنا الاشارة الى المنعمين حول الاله ، والذين يحميهم الله وبأنهم « هم الذين يحرسون صعيد مصر » والذين قد ارتدوا أحسن الملابس الكتانية الأرجوانية ، والذين يأكلون التين ويشربون الخمر ويتمضخون بأحسن العطور ، وعند ذلك سيتكلم الروح عن « بيبى » أمام **الاله الأعظم** ، ويسمح « لبيبى » ان يصعد الى **الاله الأعظم** » (١٧٠) ٠

هل يختلف هذا الوصف للجنة وللحارس أمام الجنة كثيرا عما جاء فى الكتب السماوية مثل رضوان ومثلما يوجد فى سفر التكوين حيث ملاك الرب يحرس الجنة ؟ ومع اختلاف التسمية فقط ، فهل هناك شك بأن كاتب متون الأهرام كان يدرك معنى « **الاله الأعظم** » ٠ أليس هو الخالق الأعظم ؟ والذى صورته الأساطير بأنه خلق ذاته من ذاته وأنه هو الذى خلق كل شىء : الآلهة الذين أكملوا التاسوع الهليوبولى والانسان والأشياء ؟ أليس فى هذا دليلا ضمنيا على الاعتقاد فى **التوحيد** ؟ ولقد أنشد الشعب لرع فى الدولة القديمة وأنشدوا « لآمون رع » فى الدولة الحديثة **كخالق** ووصفوه بأنه : « رب الصدق ووالد **الآلهة** الذى خلق بنى الانسان ، وسوى الحيوان ٠ رب كل الكائنات الذى يخلق شجرة الفاكهة والذى من عينيه خرجت الأعشاب التى تزود الماشية ٠ وهو الصورة الجميلة التى سواها « بتاح » [« بتاح » اله الحرف قد منح « آمون صورته » ، ولذلك يسمع « بتاح جميل الوجه »] والشاب الجميل الحبوب التى تثنى عليه الآلهة ٠ وهو الذى خلق من (هم أسفل ومن هم أعلى) [أى الرجال والنجوم] والذى يضىء الأرضين ، وهو الذى يخترق القبة الزرقاء فى سلام ، ملك الوجه القبلى والبحرى ،

« رع » المنتصر » (١٧١) وفى المقطوعة الثالثة نجد «**انك أنت الواحد الأحد الذى خلق كل الكائنات** ، وانك **الواحد الأحـد** الذى صـنع كل ما يوجد · الناس خلقوا (خرجوا) من عينه · ومن فمه أتت الآلهة الى الوجود » (١٧٢) ·

هل هنـاك شك بعد كل الأناشـيد التى تغنى بها الشـعب بأنهم كانوا يؤمنون بالاله الواحد الأحد ؟ انه الاله الأعظم الذى خـلق كل الكائنات · ونجد العلامة « سليم حسن » يتناول هذه النقطة فيقول : « تدل البحوث العميقة التى قام بها علماء الآثار على أن فكرة **التوحيد** كانت متغلغلة فى التفكير الدينى المصرى منذ أقدم العصور · وهذا **الاله الواحد** كان يمثل عند المصريين فى أعظم الأجرام السماوية حجما وأكثرها نفعا ، وأعنى بذلك اله الشمس « رع » ، وقد كان يعبر عنه بصفة مبهمة منذ عهد « بناة الأهرام » بلقب « **غير المحدود** » وقد بدأت فكرة الوحدانية تأخذ شكلا أوضح في نصائح « مريكا رع » كما أوضحنا من قبل ، وقد وصف بأنه **الاله العادل** ، وأنه يحكم مصر وحسب » (١٧٣) ·

ان أهم سـمة مشتركة بين المصريين هى **التدين** والايمـان بالاله الخالق وبقدرته وبجبروته ·· واننا نجد من وصفهم له ومن الصفـات التى وصفوها بها مثل الاله العادل وأنه الراعى الصالح الذى يهتم ويخاف على رعيته بأن هناك الحب من الناس له ــ جل جلالته ــ انه ليس بعيدا عن البشر ، انه مجيب للدعوات يسمع استغاثة المظلومين ويغيثهم والأمثلة على هذا الحب الكبير تمتلىء به صفحات كثيرة فى الأدب الشعبى والذى ساعطى أمثلة كثيرة أخرى عند تناول الفكر العلمى والأدبى وها هو هنا واضح فى الفكر الدينى والعقيدة · وفى نص ينسب الى « سـوتى » و « حور » وقد كانا يعملان فى طيبة فى فن العمارة وكانا يعيشان فى بلاط « امنحوتب الثالث » والد اخنـاتون نجد اشـارة مباشرة وتعبير صريح عن « السـيد الأحد » فى هذه الأنشـودة الشمسية التى تحتوى على أسطر خطيرة المعنى هى :

« انك صانع مصور لأعضائك بنفسك ··
ومصـور دون أن تصـور ·
منقطع القرين فى صفاته **مخترق الأبدية** ·
مرشد آلاف الآلاف الى السـبل ·
وعندما تقلع فى عرض السماء يشاهدك كل البشر ·
(رغم أن) سير **خفى عن أنظارهم** ·

انك تجتاز سياحة مقدارها فراسخ ،
بل مئات الآلاف وآلاف الآلاف من المرات ·
وكل يوم تحتك (تحت سلطانك)
وحينما يأتى وقت غروبك ·
تصغى ساعات الليل اليك ايضا ·
وعندما تجتازها لا يكون ذلك نهاية كدك ·
وكل الناس ينظرون بوساطتك ·
وأنت **خالق الكل** ومانحهم قوتهم ·
وأنت أم نافعة للآلهة والبشر ·
وأنت صانع مجرب ······
وراع شجاع يسوق ماشيته ·
وأنت **ملجؤها** ومانحها قوتها
········
وهو الذى يرى ما خلق
والسيد **الأحد** الذى يأخذ جميع من فى الأراضى أسرى كل يوم ·
بصفته واحدا يشاهد من يمشون عليها ·
ومضىء فى السماء **وكائن كالشمس** ·
وهو يخلق الفصول والشهور ·
والحرارة عندما يريد
والبرد عندما يشاء
·······
·······
فكل بلد فى فرح عند بزوغه كل يوم لأجل **أن يسبح له** » (١٧٤)·

« ومن الواضح فى مثل تلك الأنشودة أن مدى اله الشمس الشاسع الممتد على كل البلاد وفوق كل الأرض قد لقى فى النهاية اهتماما ··· ولذلك اتخذت الخطوة الخطيرة لمد سلطان اله الشمس فوق كل الأراضى والشعوب ··· ولم تصل الينا وثيقة أقدم من هذه عن التفكير المصرى تضم تعبيرات صريحة عن ذلك التفكير ، كما نجدها هنا فى قوله « السيد **الأحد** الذى يأخذ جميع من فى الأراضى أسرى كل يوم **بصفته واحدا** يشاهد من يمشون عليها » ·

اذن الاله الخالق هو « السيد الأوحد » و « الواحد » و « الراعى » الشجاع الذى يسوق ماشيته وهو « الملجأ » و « مانح القوة » وهو « العطوف » الذى وصفه النشيد بأنه « أم نافعة » للآلهة والبشر وهو « عارف بكل أحوال البشر » لأنه يشاهد من يمشون عليها « بصفته واحدا » وهو « مضىء » فى السماء وخلق الفصول ويمنح الحرارة والبرد عندما يشاء هل هناك وصفا لصلة الخالق برعيته أكثر من ذلك ؟ واذا وجدنا ان المصرى قدما وحديثا يتكل على الله ويلقى حمله على الله واثقا بأنه يجد العطف والرعاية والاهتمام والحب والاتكال على الله سمة عامة بين سـكان وادى النيــل ولا أقول « التواكل » فالاتكال هو تعبير على العمل فى ظل الحماية الالهية أما التواكل فمعناها السلبية وعدم الاشتغال بل الكســل فالاتكال يعنى المطابقة مع المثل الشعبى « اسعى يا عبد وأنا أعينك » فى حين ينطبق التواكل مع المثل الشعبى أيضا « نام يا عبد وأنا أهينك » • أليس « التدين » هو أرسخ مقوم للشخصية المصرية ؟ الم يكن التدين عونا على تحمل مصائب الدهر من ظروف معاكسة ومن فترات ظلم واحتلال بغيضة ؟ لقد كان « التدين ؟ هو القوة الكامنة فى وجدان المصريين لأنه يعطى التحمل والمثابرة والصبر والايمان بأن بعد العسر يسر وأن النور واليقظة لابد وأن يأتيا بعد الظلام وفقدان الوعى •

ويرجع العلامة « سليم حسن » الاتجــاه فى التفكير الدينى نحو السيد الأوحد الى الحركة الاجتماعية فى العصر الاقطاعى فيقول : « ومن الأمور الهامة ملاحظة أن ذلك الاتجــاه كانت له علاقة مباشرة بالحركة الاجتماعية فى العصر الاقطاعى المصرى • اذ نجــد أن النعوت التى كان ينعت بها « اله الشمس » نحو قوله « الراعى الشجاع » الذى يســوق ماشيته وهو ملجؤها ومانحها قوتها » ترجع بنا الى الوراء الى عهد النصائح التى وجهت الى « مريكارع » فيما تقــدم ذكره ، وهى التى سميت فيها الناس « قطعان الاله » • وترجع بنا أيضا الى أفكار « ايبوا » فيما تقدم ذكره حيث يقول : « انه راع لجميع الناس » وكذلك مما يلفت النظر النعت الآخر وهو قوله : « أم نافعة للآلهــة والبشر » لأنه يحمل فى ثناياه فكرة مشابهة تشعر بالاهتمام ببنى البشر » (١٧٥) ويعتبر « ايبوا » نبى عصر الاضمحلال الأول وهو الذى وصف ما حاق بالبلاد من كروب ولكنه فى نهاية المطاف « يدعو مدبر أمر الكون بالضمير « هو » وهذا هو بالتحديد ما يجعل من هذه الفورة أمرا مثيرا للمشــاعر • انما تحيط اللثام عن عقيدة التوحيد الكامنة فى عقليــة المصرى ولموقف التراجيدى الذى نشأ حينما تعرض هذا المفهوم بما له من هيبة لاعصار كاد أن يقتلعه من جذوره • لقد كانت صــورة « الاله كراع » محب لقطيعه اســتعارة شاعرية تعبر عن الخير المطلق فى العالم وتدبير أموره • وهى صــورة

لا محل لها فيما يبدو فى عصور الفوضى حينما كان رجل يرفع ذراعه ضد جاره • ولجأ ايبوا الى استخدام صــورة ملاح يدير دفة سفينته فى جو عاصف • وهو نائم ليعبر فى استعارة ملائمة عن انحسار ايمانه بالملكية التى فرضتها الآلهة » (١٧٦) •

ان التدين والاحساس بالأمان فى ظل رعاية الله للانســان هى التى جعلت من المصرى ـ قديما وحديثا ـ متفائلا وسعيدا وعبر عن هذه السعادة بحبه للمرح ، أما اذا حدثت ظروف تهز هذا الاحساس بالايمان فاننا قد نجد التشاؤم يحل محـل التفاؤل وهذا وضح فى ظهور الأدب التشاؤمى فى الفترة التى تلت اهتزاز القيم عقب الثورة الاجتمــاعية التى بدأت فى فترة الاضمحلال الأولى بعد انهيار الأسرة الســادسة والذى يعنى انتهاء الدولة القديمة التى كانت راسخة الأركان من ناحية النظام والعدالة ، ولكن الاقطاع أثقل على كاهل الناس كما كان حرمانهم من الجنة السماوية التى كانت قصرا على الملك والمقربين من حاشيته سببا فى ثورتهم الاجتماعية الدينية والتى اكتسبوا حقوقا أوضحتها فى الفصل الأول ـ وأجد أنه من الأصـوب تناول هذا الأدب التشاؤمى كوجه آخر لعملة العقيدة لأنها تلقى الضوء على معنى الهزة الدينية • فالهزة الدينية نتج عنها الشك فى العقائد الدينية ، الشك فى قدرة الملك على حفظ النظام الذى كان يتمثل فى كونه الملك الاله فى الدولة القديمة • فبالنسبة لعامة الشعب بل لكل أفراد الشعب النظام هو الاستقرار هو تنفيذ ارادة الخالق ووجود النظام كان مرتبط بالعدالة والحق والصدق [ماعت] وبالأخلاق • وعندما يهتز النظام فان الفوضى تعم فتنقلب المعايير ولا توجـد قوة مسيطرة تقوم بتنفيذ العـدالة وهو ما يهم الناس فى المقام الأول • ومع وجود الفوضى فلا ضمان للأخلاق السامية بل ان الاستقرار يهتز ، وتهتز الثقة فى كل ما تعلم الناس عن عقيدة دينية ومثل خلقية وأمان اجتماعى واقتصادى •

وهناك وثيقة هامة محفوظة فى متحف برلين سماها العلامة سليم حسن « شجار بين انسان سئم الحياة وبين روحه » تعطينا صورة حية للانسان عندما يخيم عليه التشاؤم

المقطوعــة الأولى (١٧٧)

« انظر ، ان اسمى ممقوت أكثر من رائحة اللحم المنتن فى أيام الصيف عندما تكون السماء حارة • أنظر ، ان اسمى ممقوت أكثر من مقت صيد السمك فى يوم صيد تكون السماء فيه حارة •

« انظر ان اسمى ممقوت أكثر من رائحة الطيور وأكثر من تل الصفصاف المملوء بالأوز .

« انظر . ان اسمى ممقوت أكثر من رائحة السمك وأكثر من شواطىء المستنقعات عندما يصاد عليها .

« انظر . ان اسمى ممقوت أكثر من رائحة التماسيح
وأكثر من الجلوس .... حيث التماسيح
« انظر . ان اسمى ممقوت
أكثر من زوجة عندما يقال عنها الأكاذيب لزوجها
« انظر . ان اسمى ممقوت
أكثر من حبى شديد قد قيــل عنه انه .. لمن يكرهــه [لا شك يقصد أنه ولد من أم أخرى]
« انظر . ان اسمى ممقوت
أكثر من ... مدينة
« وأكثر من ثائر ولى الأدبار .

« ومع أن ترديد ذلك الشـــعر يدل على أن اسم ذلك الرجل قد صار نتنا فى أنوف أصدقائه الا أننا نجده فى الشعر الثانى يترك ذكر نفسه ليهتم بأولئك الذين كانوا سببا فى تعاسته ، فنراه يلقى نظرة على مجتمع أهل عصره فلا يجد فيه فاشيا الا الرشوة والخيانة والظلم وعدم الاخلاص حتى بين أسرته هو .

وهذا الشعر أيضا هو شكوى مرة كان يستهل كل مقطوعة منه دائما بجملة استفهامية خرج فيها الاستفهام عن معناه الى التوبيخ أو التحقير ، وهى « لمن أتكلم اليوم ؟ » وربما كان يقصد بذلك : أى صنف من النـــاس هؤلاء الذين أخاطبهم ؟ وقد كان الجواب الذى يعقب كل استفهام برهانا جديدا لمقاصده . وهاك ما قال فى ذلك :

الشعر الثانى (١٧٨)

« لمن أتكلم اليوم ؟ الاخوة شر وأصـــدقاء اليوم ليسوا جديرين بالحب

« لمن أتكلم اليوم ؟ الناس شرهون • وكل انسان يغتال متاع جاره

« لمن أتكلم اليوم ؟ فالرجل المهذب مات والصفيق الوجه يذهب في كل مكان

« لمن أتكلم اليوم ؟ فان من كان ذا وجه طلق أصبح خبيثا وأصبح الخير ممقوتا فى كل مكان

« لمن أتكلم اليوم ؟ فان الذى يستفز غضب الرجل الطيب بأعماله الشريرة يجعل كل الناس يضحكون (أى يسخرون منه) حينما تكون خطيئته شنيعة

« لمن أتكلم اليوم ؟ الناس يسرقون وكل انسان يغتصب متاع جاره

« لمن أتكلم اليوم ؟ فقد أصبح الرجل المريض هو الصاحب الذى يوثق به • أما الأخ الذى يعيش معه فقد صار العدو •

« لمن أتكلم اليوم ؟ لا يذكر أحد الماضى ولن يفعل أحد الخير لمن يسديه اليه

« لمن أتكلم اليوم ؟ الاخوة شر ، والانسان صار يعامل كالعدو رغم صدق ميوله

« لمن أتكلم اليوم ؟ اذ لا ترى الوجوه ، وأصبح كل انسان يلقى بوجهه فى الأرض اعراضا عن اخوته •

« لمن أتكلم اليوم ؟ والقلوب شرهة والرجل الذى يعتمد عليه القوم لا قلب له

« لمن أتكلم اليوم ؟ فالصديق الذى يعتمد عليه أمس معدوما وأصبح يعامل الانسان كأنه رجل مجهول رغم انه قد جعل نفسه معروفا

« لمن أتكلم اليوم ؟ اذ لا يوجد إنسان فى سلام والذى ذهب معه لا وجود له (؟)

« لمن أتكلم اليوم ؟ فانى مثقل بالشقاء وينقصنى خل وفى

« لمن أتكلم اليوم ؟ فالخطيئة التى تصيب الأرض لا حد لها » •

« لقد منحت روح ذلك المتألم عن الموت ثم أخذت تقترح عليه أن يعيش عيشة اللهو والملاذ مثل الذى جاء فى أنشودة الضارب على العود [سأتناولها بعد هذه المقطوعة] · ولما أحس من أعماق قلبه فظاعة الموت وأخذ يفهم عدم فائدة العناد المادى المحصن لدفع غائلة الموت عنه · نكص على عقبيه مدة قصيرة ثم عاد يتأمل فى الحياة · والنظمان اللذان دونهما هنا يصوران لنا ماذا رأى عندما رجع لبحث الحياة · أما ما يلى فهو وثبة منطقية تدل على أنه ليس هناك أى بصيص من الأمل فى الحياة مع الاقتناع التام بأن الموت هو الخـــلاص الوحيد من ذلك البؤس الذى صـــار مغمورا به ·

« والنظم الثالث أنشودة قصيرة فى مدح الموت · غير أنها ليست بحثا ساميا فى فوائد الموت مثل الذى نطق به أفلاطون بعد ألف وخمسمائة سنة من ذلك العهد فى قصة موت سقراط ، كما أنه لا يمكن قياسه بعقيدة التشاؤم الفلسفية التى جاء ذكرها فى سفر ابتلاء « أيوب » النبى صلوات الله عليه ، ولكنها تعد أقدم صيغة ذكرت عبر بها الانسان الذى عذب ظلما عن الموت وأول صرخة من متألم برىء وصل الينا صداها من عهود ذلك العالم القديم · وهى بحق تعد ذات فائدة فريدة قد لا تخلو من جمال بما احتوته من حرارة نفسية خلابة ·

« ومما يلفت النظر أنها لا تحتوى أى فكرة عن الاله ، بل هى تبحث عن التخلص السار من آلام الماضى التى لا تحتمل دون أن تتطلع الى المستقبل ، وقد كان من خصائص العصر والجو الذى نشأ فيه ذلك النظم ، ظهور ذلك التخلص السار فى شكل صور محسوسة مأخوذة من الحياة اليومية لسكان وادى النيل الأقدمين · وهاك ما قاله فى ذلك :

« الموت خلاص سار » ان الموت أمامى اليوم كالمريض الذى يقدم على الشفاء وكالذهاب الى حديقة بعد المرض ·

« ان الموت أمامى اليوم كرائحة بخور المر وكانسان يقعد تحت الشراع فى يوم شديد الريح ·

« ان الموت أمامى اليوم كرائحة زهرة السوسن وكما تقعد الانسان على شاطىء السكر ·

« ان الموت أمامى اليوم مثل مجرى النهر الصغير ومثل عودة الرجل من سفينة حربية الى داره ·

« ان الموت اليوم كسماء صافية ومثل رجل يصطاد طيورا لا يعرفها .

« ان الموت أمامى اليوم كمثل رجل يتوق لرؤية منزله بعد أن مضى سنين عدة فى الآسر » (١٧٩) .

« وبالرغم من أن تلك الصور مأخوذة من الحياة الدنيا المتوغلة فى القدم فان معظمها غير مألوف لنا الا أنها لم تفقد كل تأثيرها فى أنفسنا ، اذ نجد فيها **الحياة مشبهة بمرض طويل يشفى بالموت** مثلما يدخل الناقة حديقة جميلة ، والموت مثل عبير المر تحمله ريح النيل العذب ، ومثل المسافر يجلس تحت الشراع الذى تزجيه الريح ، وأوبة المحارب المنهوك القوى الذى كان يسير فى المياه البعيدة ثم يقترب من وطنه أو مثل السرور الذى يحدث فى نفس الأسير العائد من المنفى النائى الى الوطن السعيد . فتلك الصور لها تأثيرها الكبير فى نفس كل انسان فى أى عصر وفى أى جو » .

« وموضوع النظم الرابع هو النظرة العاجلة الى المستقبل النهائى الذى لم تتعرض لذكره الأنشودة السابقة ، ونجد كلا من مقاطعة الثلاثة يبتدىء بقوله « **ان الذين هنالك** » وهى جملة عادية ، وبخاصة لأنها وردت بصيغة الجمع : « ان الذين هنالك » ويقصد بهم الأموات ، وهم الذين رأيناهم مذكورين فى النصيحة الموجهة الى « مريكارع » و « ان الذين هنالك » سيكون نفسه الها « ويوقع عقاب الشر على مرتكبيه » لا على البرىء كما هو الحال فى حياة ذلك التعس الذى نحن الآن بصدده « وان الذى هنالك ينزل فى السفينة السماوية مع اله الشمس وسيرى أن أحسن القربان تقدم لمعابد الآلهة ولا تصرف (عبثا) فى الرشوة أو يسلبها السارق من الموظفين » .

و « ان الذى هنالك » هو حكيم محترم لا يطرد عندما يشكو الى الموظفين الفاسدين ، بل يوجه شكايته الى اله الشمس (رع) ويهيىء له تلك الفرصة بوجوده يوميا مع الاله . وقد أعلن ذلك التعس فى بداية شجاره مع روحه أنه مقتنع ببراءته فى عالم الآخرة . ثم هو يعود مرة ثانية الى ذكر ذلك الاقتناع فى النظم الرابع الذى هو خاتمه تلك الوثيقة المهمة . وبذلك تكون مختتمة بحل يوافق الحلول التى كان أدركها نبى الله « أيوب » عليه السلام ، وهى الالتجاء الى **العدالة فى الحياة الأخروية** — ولو أن « أيوب » عليه السلام لم يتخذ من مرضه مبررا لطلب الموت — وهو بذلك قد جعل الموت طريقا الى الدخول فى قاعة المحاكمة الالهية ، ولذلك كان سعيه الى بلوغ تلك النهاية سعيا سريعا لا هوادة فيه فيقول :

« الميزات السامية للقاطنين هنالك (يعنى فى الآخـرة) (١٨٠) ٠

« ان الذى هنالك سيقبض على المجرم كأنه اله ويوقع عقاب الاجرام على من اقترفه ٠

« ان الذى هنالك سيقف فى سفينة الشمس ويجعل أحسن القرابين هنالك تقدم للمعابد ٠

« ان الذى هنالك سـيكون رجـلا عاقلا غير منبوذ مصليا (لرع) حينما يتكلم » ٠

« ولما كان هذا التعس يتوق للخلاص السار الذى يهيئه له الموت ، وكان يظهر عليه أنه قد استعان بعض الثقة بما كان سينعم به من الميزات السامية فى عالم الآخرة ، فان روحه تستسلم له فى النهاية فيدخل فى ظلال الموت ويسير فى طريقـه ليكون مع أولئك الذين هنالك ٠ على أننا نحن بدورنا نرقب بشىء من الاحساس المرهف هذا الرجل المجهول الاسم الذى يعد أقدم روح بشرية معروفة لنا يذهب الى تلك الحجرات الداخلية فى عالم الآخــــرة :

« وقبل أن نختتم كلامنا عن هذه الوثيقة نقول ان بعض من كتب عنها يرى أن فيها ما يمثل رجلين : أحدهما يرى أن الموت هو الخلاص الوحيد للانسان اذ يعيش بعده فى عالم سلام وأمان ٠ والثانى رجل شهوة يرى أنه من الواجب على الانسان أن ينس كل أحزان الحياة وآلامها وأن يجعل السرور وحده يسيطر على حياته » (١٨١) ٠

ان العقيدة تعنى الايمان بالخالق وبالقوى الغيبية الأخـرى سـواء أكانت خيرة أو شريرة وتعنى التمسك بالأخلاق الحميدة التى هى مقياس الرباط برب الكون ورب النـاس والمدبر لشئون الكون والمدبر لشئون الناس ٠ والعقيدة تعنى أيضـا الروح والخلود والبعث والحياة الآخرة والحساب يوم المحاكمـة (يوم الحســـاب) ومصير الموتى نتيجة هذا الحساب ٠ والانسان المتدين عموما يكون أميل الى التفاؤل وينظر للموت كأنه البوابة الى عالم الخلود حيث السـعادة والهنـاء ٠ والمتدين يحس بارتبـاطه بقوة حاميـة أعلم منه وهى التى تـرعاه وهى التى تعينه فى الشدائد وهى التى يتضرع اليها لتحميه من نوائب الدهر ومن كيد الأعداء وترفع عنه الألم الذى يأتى من بنى البشر ٠ وفى هذه القصيدة السابقة نجد التشاؤم يحل محل التفاؤل ، واحساسه بأنه مكروه ممن حوله ليس

بسبب عيب فيه بل ظلما من الناس الذين أتهموه باطلا فاهتزت ثقته بمن حوله واهتزت ثقته في العدالة والانصاف ـ وهذا شك في عدالة السماء ـ وأعتقد أن الاحساس بالظلم ناتج عن تجربته في عصر الفوضى الذى انعدمت فيه العدالة ـ رغم أنه يحس في باطنه بأن العدالة لازالت موجودة في الحياة الأخرى مثلما عبر عن ذلك في الجزء الرابع من القصيدة ٠

« **وأغنية الضارب على العود** » (١٨٢) تعبر بوضوح أكثر عن فترة الشك في الحياة الآخرة مما يعنى أيضا **التشكك** في العقيدة وها هو نص الأغنية وتبدأ بوصف غريب للقبر :

« آه يأيها القبر لقد أقمت للافراح

لقد أسست لكل جميل ؟ [المعنى : أنك لست مكان حزن]

ويقول العلامة « سليم حسن » عنهـا : « ولدينا أغنية كاملة تلفت النظر كانت تغنى في مثل هذه المناسبات ٠ وهى تصف زوال كل الأشياء الدنيوية لتحث السامعين على التمتع بأكبر قسط ممكن مدة حياتهـم ٠ والدولة الحديثة التى قد حفظتها لنا عرفت أنها مأخوذة من بيت الملك « انتف » أى من قبره [لابد أنه أحـد أفراد أسرة « أنتف » في وأوائل الدولة الوسطى] وقد كتبت مام العواد أيضا ٠ وتوجد صورة كاملة منها بين أغانى الدولة الحديثة :

« ان الأمور تسير سيرا حسنا مع هذا الأمير الطيب ، وان المقدر الجميل قد وقع [الموت] فتذهب أجسـام وتبقى أخرى منذ عهد الذين سـبقونا ٠

والآلهة [الملوك القدماء] الغابرون راقدون في أهرامهـم ، وكذلك الأشراف والمعظمون قد دفنوا في أهرامهم ٠

والذين بنوا بيوتا قد أصبحت مساكنهـم كأن لم تكن ٠ فمـاذا جـرى لهـم ؟

لقد سمعت أحاديث « امحوتب » و « حردادف » [وهما من أشهر الحكماء] اللذين يتحدث بكلماتهم في كل مكان ـ فأين مساكنهم (الآن) ؟ جدرانهم دمرت ومساكنهم لا وجود لها كأن لم تكن قط ٠

ولم يأت أحد من هناك ليحدثنا عن حالهم ويخبرنا عما يحتاجون اليه لتطمئن قلوبنـا ؟

قبل أن نذهب نحن كذلك الى المكان الذى ذهبوا اليه .

كن فرحا حتى تجعل قلبك ينسى أن القوم سيحتفلون يوما ما بموتك، فمتع نفسك مادمت حيا ، وضع العطر على رأسك ، وألبس الكتان الجميل، وذلك نفسك بالروائح الذكية المقدسة .

وزد كثيرا فى المرات التى تملكها ، ولا تجعلن قلبك يكتئب . اتبع رغباتك وأفعـــل الخير لنفســك (؟) . افعل ما تميل اليه على الأرض ولا تغضبن قلبك حتى يأتى يوم نعيك . ومع ذلك فان صــاحب القلب الساكن [أوزير] لا يسمع عويله ، وان الصــياح لا ينجى انســان من العــالم السفلى .

[وفى أسفل مكتوب هذا الحداد] :

« اقضى اليوم فى سعادة ولا تجهدن نفسك !ن اصغ ، لا يستطيع أحد أن يأخذ متاعه معه . اصـــغ ، وليس فى قدرة انســـان ولى أن يعود ثانيـــة » (١٨٣) .

اصغ ! بمعنى اصغى جيدا لما أقوله لك ويتبعها بحقيقة مؤكدة بأنه لا يعود من أرض الموتى أحـد . لا أحـد يعود لكى يخبرنا عن سر هذه الأرض المجهولة . اننا لا يمكن أن نعلم علم اليقين عما يحدث هناك فى هذا العالم المجهول لنـا . وكما عبر عن سر الرغبة فى أن يعود أحد من من هناك وهو لكى « تطمئن قلوبنا » اذن لا يوجد اعتقاد جازم بما يحدث هناك . واذا كان الحال هكذا أن أننا غير واثقون بما قيل عن هذا العالم الآخر بعد الموت ، اذن ليس لنـا خيار غير التمتع بهذه الحياة الأرضية التى نعرفها . ومن أجل التمتع بهذه الحياة التى نحياها والتى نعرفها جيــدا ، فلابد أن نكون فرحين ــ حتى ننسى أن الموت قادم لا محـاله وسيحتفل القوم بيوم موتك !! ــ وأن نستمتع بالمتع المادية الدنيــوية [وفى هذا تشكك فى الروح وفى خلود الروح] بأن نضع الروائح الذكية على رؤوسنا وأن نلبس الملابس الفاخرة من الكتان . وطالما أن هذا هو كل ما فى امكاننا فعليك الانغماس فى الملذات ولا تجعل قلبك يكتئب . ولماذا الاكتئاب وأمامك المتع التى يمكن أن تستفيد بها ، ولماذا العويل اذا كان هذا العويل لا ينجيك من العالم السفلى (الحياة الآخرة) .

ألا يذكرنا هذا الموقف بشعر « عمر الخيــام » « فاغنم من الحاضر لذاته » ؟ وهذا هو موقف الانسان المتشكك . وقد ترجم « فيتز جيرالد » « رباعيات الخيام » فى القرن التاسع عشر وكان لها دويا عظيما فى انجلترا

فى عصر الشك الدينى وهو نفس الفترة المماثلة لعصر الشك فى مصر القديمة ابان الثورة الاجتماعية الدينية الكبرى التى بدأت عقب الأسرة السادسة واستمرت طوال فترة « الاضمحلال الأولى » وهى فترة الفوضى وانهيار النظام مع انهيار السلطة الملكية ومع انهيار عصر الاقطاع • وقد تناولت هذه الحقبة بشىء من التفصيل فى الفصل الأول • ان هذه المقطوعة تعتبر سبقا أدبيا وسبقا فلسفيا للمتأمل فى الحياة بعد الموت • وعندما نقرأ جملة « ولم يأت أحد من هناك ليحدثنا عن حالهم ويخبرنا عما يحتاجون اليه لتطمئن قلوبنا » فاننا نتذكر فورا ما قاله هاملت فى مناجاته لنفسه : « أكائن أنا ، أم غير كائن • هذا هو لب المشكلة » •

عندما كان يتأمل هاملت فى مسرحية شكسبير الخالدة (هاملت) الحياة والموت ويتساءل لماذا لا نقدم على الانتحار ونتحمل نوائب الزمن وينتهى بمعرفة السبب وهى أنها « الأرض التى لم يعود منها كل من سافر اليها » • أليست هذه الجملة مطابقة لقول هذا « الضارب على العود » فى جملته « ولم يأت أحد من هناك ليحدثنا عن حالهم ويخبرنا عما يحتاجون اليه لتطمئن قلوبنا » ان فى هذا سبق للفكر المصرى بنحو ثلاثة آلاف عاما أو أكثر • كما أن كلمة « **لتطمئن قلوبنا** » تبين مدى الهزة النفسية العقائدية التى انتابت المصرى فى تلك الفترة الحالكة من تاريخ مصر • فها هو الشاعر يرى ان مساكن الأسبقون قد محيت وحتى أحاديث الحكماء والمشهورين أمثال « **أمحوتب** » و « حرداف » التى كان يرددها الناس أصبحت مآلها مثل مآل مساكنهم التى دمرت ! ان هذا القلق لم يجد له الشاعر ما يخرجه منه الا الهروب الى المسرات والملذات الوقتية والذى يعنى عدم التفكير فى الآخرة التى كانت تشغل الناس فى فترات الاستقرار واستتباب النظام • كان الناس وقت الهدوء يفكرون فى يوم الحساب — يوم المحاكمة — عندما يقفون أمام الميزان ويتحدد مصيرهم [الجنة أم النار ؟] وكانوا يؤمنون أن أعمالهم الحسنة هى طريقهم الى السعادة الأبدية والخلود ، أما الضارب على العود فانه يتشكك فى ذلك • « وتحولت أغانى العازفين الى أناشيد حزن ، **وأصبح الرجل الأحمق يشك فى وجود (الاله)** فيقول : ••• « **اذا عرفت أين يوجد الاله قدمت له قربانا** » (١٨٤) ورغم أن الفقرة الأخيرة تشير الى الكفر بالله ، الا أن كاتب هذا المتن هو حكيم يدعى « ايبوا » وموضوع كتابته هو « تحذيرات نبى » كما وصفها هو بنفسه ووجهها الى الملك المسن « ببى الثانى » آخر ملوك الأسرة السادسة • وكان الحكيم يحذر الملك من المصائب التى تحل بالبلاد من بؤس عام • وتخريب وقحط ، وفقد الناس الثقة فى الأمن نتيجة عدم معرفة الملك بالحقائق حيث أن الأخبار التى تصله لا تطلعه على حقيقة الأمور فى البلاد التى أدت الى الانحلال والفوضى ، الا أن الحكيم يتحفظ

بشدة بأن **الرجل الأحمق** فقط يشك في وجود (الاله) أى أن هذا الموقف من الصلة بالاله ليست عامة بل هى حالات تخص فقط الرجل الأحمق ٠ وهذا يوضح أن وجدان المصرى المتشبع بالتدين لم يتطرق اليه هذا الشك الذى انتاب الحمقى فقط ٠

والأدب المصرى القديم هو المرآة الحقيقية لعقيدة النـاس العـامة والخاصة ــ ونجد ان الأدباء عبروا عن الخالق الأعظم الخالد بكلمة « **لاله** » دون أى اشارة لاسمه لأن الناس يحسونه بوجدانهم وها هى أمثلة كثيرة من الحكم والأمثال والنصائح التى تنقل لنا هذه الصورة عن الاله وعن احساس الناس به والخوف من اغضابه :

« ينصح ملك أهناس ابنه الدعو « مرى كارع » ٠٠ بأنبل ما جاء به التفكير الخلقى فى مصر القديمة ، وهى أن يستقر فى ذهن هذا الابن : « أن فضيلة الرجل المستقيم أحب (عند الله) من ثـور الرجل الظالم (أى من قربان الرجل الظالم) ، فنحن هنا نجد اعترافا صريحا بقيمة الحياة الصالحة فى نظر **الاله** ، وهو الذى لا يقبل أن تقوم الهدايا عنده مقام الأخـــلاق » (١٨٥) ٠

ويشير الأستاذ « محرم كمال » الى أن « التعاليم الموجهة الى الملك « مرى كارع » (١٨٦) وجدت سطورة على بردية « لينجراد » التى يرجع عهدها الى عصر « تحتمس الثالث » (١٤٧٨ ــ ١٤٤٧) قم) وها هو الجزء الخاص **بالاله والبشر** (١٨٧) :

« يمر الجيل من الناس ، **والله** العليم بالأخلاق قد أخفى نفسه ٠ أعبد الله وعظمه حتى لو اتخذ لنفسه صورة شكلت من الأحجار الكريمة أو من النحاس لأنه كالماء الذى يحل محله الماء ولا يرضى النهر لنفسه أن يبقى مختبئا وانما يكتسح السد ؟ الذى يخفيه ٠٠

« ان الروح تذهب الى المكان الذى تعرفه ولا تضل عن طرقها التى سلكتها فى الأمس » ٠٠

« ان **الله** ليتقبل فضيلة الرجل الصالح ، وهى أحب الى قلبه من ثور يقدمه الرجل الظالم » ٠٠

« افعل شيئا **للاله** حتى يجزيك بالمثل ، بقربان تمتلىء به المائدة ، وبنقش يخلد به اســمك » ٠٠٠ « والله عليم بكل من يعمــل شيئا من

أجله » ·· « ان الله قد رعى النـاس ، وهم قطيع الله ، وهو راعيهـم » وقد خلق السموات والأرض كمـا يرغبون ، وخفف من حدة الظمأ للماء ، وجعل الهواء لتحيا به أنوفهم · وانهم لصـور منه خرجت من أعضائه ، وهو يصعد الى السماء حسب رغبنهم · وقد خلق لهم النبات والماشـية والطيور والأسماك غذاء لهم » ·· « وهو خد خلق النور حسب ما يرغبون ، وجعلهم كذلك ينامون وهو يسمعهم عندما يبكون » ·· « ان الله عليم بكل اســـم ··· » ·

وبدراستنا للنص الســابق نجد أن الكاتب يعدد قدرات الله فهو يصفه بأنه العليم بالأخلاق وأنه أخفى نفسه ·· وعظم الله حتى اتخذ لنفسه صورة شكلت من مواد مادية ·· والله يقبل فضيلة الرجل الصالح ·· والله يجازى البشر ·· والله عليم بكل من يعمل شيئا من الله ·· والله راعى للناس ، وانه خلق السموات والأرض والماء والهواء والنبات والماشية والطيور والأسماك غذاء لهم ·· وخلق النور ·· ويسمع الناس عندما يبكون · والله عليم بكل اسـم » ·· لقد تكرر وصفه بالعليم ·· عليم بالأخلاق ·· عليم بما يريدون ويبكون من أجله وعليم بكل اسم ·· اذن الله جل جلاله يعرف ما يريد الناس وليس ببعيد عنهم بل أنه يستجيب لهم ·· بأوه يجـازى البشر · ويسمع لهم عندما يبكون ·· « والله » المذكور فى النص ليس اله محلى تقتصر مهمته على شىء محـدد صغير بل هو « الخالق » وكما رأينا فى كل الكتابات بل وفى كل نصوص الأهرامات « ونصوص التوابيت » « وكتاب الموتى » والكتب الأخـرى لم يرد ذكر الا لخالق واحد أحـد ·· حتى لو اختلف الاسم طبقا لمدارس اللاهوت المختلفة ، التى اختلفت فى التسمية ولكنها لم تختلف عن وجود هذا الاله الأعظم ـ نترعا ـ وهو الخالق الأعظم الأوحد · وهذا الخالق أمد البشر بكل ما يحتاجونه · أمدهم بالنبات والماشـية والطيور والأسماك كغذاء لهم ·· وأمدهم بالماء ليروى الظمأ ، وأمدهم بالهواء الذى يتنفسونه ·· بل هو مســـتمر فى رعايتهـــم فهم قطيـــع الله الذين « خرجـوا من أعضـائه » ·

واذا كان الله هو الخالق والراعى والمحب للفضـيلة والذى خلق السموات والأرض وكل شىء ، فلابد أن يقوم الانسان بالتعبير عن الشكر بتقديم القرابين ولكن هذه القرابين ليست مجرد « ثور يقدمه رجل ظالم » بل لابد وأن تتسم بالفضيلة التى هى أحب للاله بل هى ضرورية جدا · والتفكير الخلقى هو سمة مشتركة للمصرى القديم ·· وهى ترتبط ارتباطا وثيقا بالتدين وكلاهما يعبران عن الصلة الطيبة بين البشر وخالقهم ··

ونجد الملك فى تعاليمه الموجهـة الى (ابنه) الملك « مرى كارع » يؤكد على عبـارة الله وتعظيمه لأنه العليم والراعى والخالق والمستمع لانينهـم الذى يعبر عنه البكاء فى جملة « وهو يسمعهم عندما يبكون » ٠ واذا كان الانسان لا يستطيع القيام بشىء أكثر من تقـديم القرابين ، الا أن الله يقوم بأشياء عظيمة أكثر بكثير من تلك القرابين التى تقدم ٠٠ فهو يجازى البشر الصالحين ٠٠ وهو الذى يستمر فى رعايتـه للناس لأنهم « قطيع الله » وهذا التشبيه يحمل فى ثنـاياة معنى الاهتمام التام فنحن دائمـا نردد كلمة الراعى الصالح تعبيرا عن حسن رعاية الراعى لقطعانه فهو يدرأ عنهم الخطر وهو الحامى لهم من كل شر يهدد حياته ٠٠ فالراعى دائمـا يكون ممسكا عصاه وفى حالة يقظة وتأهب للدفاع عن قطعانه ٠٠ وهذه الصورة هى الصورة الدائمة لراعى الغنم لأنه يسهر عليهـم والا كانوا عرضة للضياع وفريسة للوحوش الكاسرة ٠

ومن نصائح « آنى » عن تقوى الله (١٨٨) : بيت **الله** يدنسـه الصخب ادع بقلب ودود **ربك** ذا الكلمات الخفيـة ٠ فينجز ما تطلب ، ويسـمع ما تقول ، ويقبل ما تقرب ٠٠٠ « اعرف قيمة **ربك** ، واحترم اسمه ، وقدم قربانك له ، ولا تتعد على حقوقه » وهنا يظهر معنى التقوى والتقديس للرب ٠٠ البشر عليهم الدعاء لله بالصلاة وعليهم تقديم القرابين اعترافا بفضله عليهم والله سبحانه وتعالى ينجز ما يطلبه البشر ويسمع لما يقولون ٠ ويقبل القرابين ٠ وهذه **الصلة الروحيـة** هى احدى مقومات الشخصية المصرية قديما وحديثا ٠

أهم الآلهة العظمى والآلهة الأخرى :

ولكى تكتمل الصورة بالنسبة للراغبين فى دراسـة الديانة المصرية فاننى أذكر أهم الآلهة العظمى ــ نتر ــ عا ــ وأماكن عبادتهـم فى مصر القديمـة :

١ ــ « أتوم Atum (١٨٩)

اسمه يعنى « التام أو الكامل » ٠ اعتقد المصريون أنه خلق نفسـه بنفسه على قمة التل الأزلى ، ومن ثم فهو خالق العـالم ٠ خلق من ذاته وبمفرده « شـو وتفنوت » ، وعلى هذا الأسـاس يقع على رأس قائمـة « تاسـوع هليـوبوليس » ٠ اندمج مع « الاله رع » وعرف باسـم « أتوم رع » » (١٩٠) ٠

٢ ــ « آتون Aten (١٩٠)

« قرص الشمس « الذى لم يعبد قبل الدولة الحديثة ، ارتفع فى عهد الملك « أخناتون » الى أن يكون الاله الأوحـد ، مثل فى أول الأمـر

برأس صقر ، ثم كقرص شمس بأشعة تنتهى بيد آدمية تمسك غالبا علامة الحياة · من ألقابه « الحرارة المنبثقة من قرص الشمس رب الأفقين، الذى يتلألأ فى أفقه باسمه · كوالد لرع الذى عاد الينا كآتون »» (١٩١)·

٣ ـ « آمــون Amon (١٩١)

الاله « الخفى » يظهر على هيئة رجل يلبس تاج تعلوه ويشتان ، ويتخذ شكل الاله « مين » فى كثير من الأحيان ، كذلك مثل على صورة الكبش أو الأوزة · أول ما ظهرت عبادته كانت فى اقليم طيبة ، يعد أحد أعضاء ثامون الأشمونين ، ثم أصبح المعبود الرسمى للامبراطورية الحديثة ولقب « بملك الآلهة » واندمج مع كبار الآلهة فأصبح « آمون ـ رع » على انه اله خالق ورب كل الصناعات والفنون » (١٩٢) ·

٤ ـ « بتــاح Ptah (١٩٢)

يتخذ بشكل انسان بدون تحديد واضح لأعضائه ، أدمج منذ عصر مبكر مع الاله « أبيس » و « سكر » وبعد ذلك مع الاله « تاتن » · عبد على انه اله خالق ورب كل الصناعات والفنون »» (١٩٢) ·

٥ ـ « تاتن Tatenen (١٩٣)

تعبير عن الأرض البارزة ، وتجسيم لعمق الأرض أدمج مع الاله « بتاح » رب منفس منذ الدولة الحديثة تحت اسم « بتاح ـ تاتن » · اتخذ شــكل رجل بتاج له قرنين كبش وريشتان · من ألقابه « سيد الزمن » نظرا لأنه كان « يمثل البداية الأزلية »» ·

٦ ـ « حرشــف Harsaphes (١٩٤)

« الذى على بحيرته » اله خالق على هيئة الكبش كان مركز عبادته فى « هيراكليوبوليس » (أهناسيا) اندمج مع الاله « رع » و «أوزيريس» أثناء الدولتين الوسطى والحديثة ، وكذلك مع الاله « آمون » (١٩٤) ·

٧ ـ ا « حــو Hu (١٩٥)

تجسيد « للنطق » الذى به ينادى الاله الخالق الأشياء لتكون ، يكون مع « سيا » و « حكا » القوى الخالقــة التى تصحب مركب اله الشمس أثناء رحلتها » (٣) ·

٧ ـ ب « حــكا Hike (١٩٦)

تجسيد آدمى « للسحر » عبد منذ وقت مبكر خاصة فى الدلتا وفى اسنا يصحب غالبا الاله « رع » فى مركبته » (١٩٦) ·

٧ ـ ج « ســـيا Sia (١٩٧)

تجسيد للمعرفة والذكاء ٠ ارتبط مع « تحوت » خاصة فى العصور المتأخرة ٠ وكان يصحب « رع » فى مركبة الاله « حو » (تجســـيد النطق) » (١٩٧) ٠

٨ ـ « خبرى Khepry (١٩٨)

« الذى أتى للوجود بذاته » ، مظهر للشمس فى الصباح ، يمثل غالبا على هيئة الجعران ونادرا على هيئة رجل يعلو رأسه جعران أو براس جعران ٠ نشأت عبادته فى مدينة « هليوبوليس » ٠ أدمج مع الاله « رع » تحت اسم « خبر ـ رع » » (١٩٨) ٠

٩ ـ خنـــوم Khnum (١٩٩)

الاله الكبش الذى اشتق اسمه من فعل « خنم » بمعنى (يخلق » ٠ مما يشير الى أنه كان (خالقا) منذ البداية٠ الذى عبد منذ بداية الأسرات٠ وكان مركز عبادته منطقة الشلال ، **وحول جزيرة الفنتين حيث يكون هو** وزوجته « ساتت وعنقت » ثالوثا لهذه المنطقة ٠ من ألقابه « خالق البشر » و « أبو الآلهة منذ البداية » » (١٩٩) ٠

(يوجد فى حجرة الولادة ـ ولادة حتشبسوت ـ فى الدير المبنى منظر الاله خنوم وهو جالس على عجلة الفخرانى يقوم بصنع حتشبسوت وقرينهـــا) ٠

« وخنوم » هو الاله الذى يخلق البشر حيث يقوم بعمل الفخارى ، فيجلس الى دولابه ويشكل الطفل وقرينه ٠ ومن ألقابه « الفخارى الذى يشكل الانسان ويخلق الآلهة » ومعبده الرئيسى كان عند الشلال الأول حيث تخيل المصريون منابع النيل هنا ، ومن ثم فكان هو المسيطر عليها، وقد عبد هناك هو وزوجتيه « ساتت » و « عنقت » ٠ وقد جاء أن الملك « زوسر » بناء على مشورة وزيره « ايمحتب » وهب الاله « خنوم » منطقة المراحل الاثنى عشر على ضفتى النهر بكافة مواردها ، ليفيض النيل من جديد فى السنة السابعة من المجاعة » (٢٠٠) ٠

١٠ ـ « رع » Ra (٢٠١)

أهم الآلهة المصرية وأشهرها ٠ أدمج مع عدة آلهة ، يأخذ هيئة الانسان ، وعبد كخالق للعالم٠ يسافر فى مركبة عبر السماء بالنهار وفى العالم الآخر فى الليل ٠ مركز عبادته فى هليوبوليس منذ القدم حيث

يرأس التاسوع المكون منه ومن « شو وتفنوت وجب ونوت وأوزيريس وايزيس وست ونفتيس » منـــذ الأسرة الرابعة أصبح الاله الرسمى للبـــلاد · اندمج مع « آمون » منـــذ الدولة الحـديثة تحت اســـم « آمون ــ رع » » (٢٠١) ·

١١ ــ « حـــورس Horus (٢٠٢)

« البعيد » ، اله قديم للسماء صورة المصريون على هيئة الصقر او رجل برأس صقر · ومنذ بداية العصور التاريخية كان حورس رمزا للملك حيا أو ميتا · له عدة مظاهر من بينها « حور آختى » (حورس الأفقين) و « حورس بن ايزيس » ، و « حورس البحـدتى » (رب أدفـو) ، و « حورس سماتاوى » (موحد الأرضين) ، « حورس باخرد » (حورس الطفل) · له دور كبير فى الصراع مع الشر ممثلا فى عمه « ست » المغتصب للعرش من أبيه « أوزيريس » والذى انتهى بانتصاره » (٢٠٢) ·

١٢ ــ « أنوبيس Anubis (٢٠٣)

مثله المصريون على هيئة كلب يربض على قاعدة تمثل واجهة المقبرة أو فى وضع مزدوج متقابل · ومثل كذلك على هيئة انسان برأس كلب · يعد حاميا وحارسا للجبانة ، واتخذ كذلك صفة « المحنط » لأنه قام بتحنيط الاله « أوزيريس » · تبعـــا لاحدى الأســـاطير فان أبوه هو « أوزيريس » وأمه هى « نفتيس » » (٢٠٣) ·

١٣ ــ « أولاد حورس Sons of Horus (٢٠٤)

أبناء حورس هم « امستى وحابى ودوا موتف وقبحسنوف » يقومون على حراسة « أوزيريس أثناء تحنيطه ومن ثم يحرسون أوانى الاحشاء الأربع · ويمثلون أركان العالم الأربعة » » ·

١٤ ــ « ايزيس Isis (٢٠٥)

أخت وزوجة الاله « أوزيريس » ، وأم الاله « حورس » والتى حمته من أخطار كثيرة حيث لعبت دورا هاما كالهة ساحرة · تمثل دائما كامرأة تحمل علامة « العرش » على رأسها ، وأحيانا تلبس تاج عبارة عن قرنين بينهما قرص الشمس ، وأخذت أشكال ومظاهر آلهة مختلفة · انتشرت عبادتها فى أوربا منذ العصر اليونانى الرومانى » ·

١٥ ــ « باستت Bastet (٢٠٦)

عبدت على هيئة القطة ، اندمجت مع الالهة « سخمت » فى الدولة الحديثة · كانت مدينة بوباستيس (تل بسطه) مركز عبادتها » (٢٠٦) ·

١٦ ـ « بس Bes (٢٠٧)

اسم يطلق على اله على هيئة قزم ذو سيقان مقوسة ووجه مربع ولبدة أسد • وأحيـانا يلبس تاج من الريش العـالى • يعد الها للمرح والسرور وحاميا للمرأة عند الولادة مع الآلهة « تاورت » » (٢٠٧) •

١٧ ـ «تحـــوت Thot (٢٠٨)

اله القمر، رسول الآلهة ، ورب فن الكتابة ووسيط فى الصراع بين « حورس وست » • رمز اليه بالطائر « ابيس » وأحيانا بالقرد • كان مركز عبادته مدينة الأشمونين » (٢٠٨)•

(فى مشاهد المحاكمة الخاصة بالمتوفى فى العالم الآخر نجده واقفا على هيئـة الطائر « ابيس » وممسكا فى يده الريشة التى يكتب بها ويسجل بها ما يراه ـ ومعه أنوبيس وحورس ـ وفى معظم الصور نجده فى نفس مشهد المحاكمة على هيئة قرد « البابون » وجالس أعلى الميزان فى منتصـــفه) •

١٨ ـ « حتحـــور Hathor (٢٠٩)

ويعنى اسمها « منزل حورس » ، وتعد من أشهر الآلهات المصريات، وهى « عين رع » التى دمرت أعدائه ، بالاضـافة الى أنها عبـدت كالهه للموتى فى طيبة على وجه خاص • غالبا ما تتمثل على هيئة امرأة تحمل تاج عبارة عن قرنين بينهما قرص الشمس أو كبقرة وأحيانا نراها كلبؤة أو ثعبان أو شجرة • مركز عبادتها الرئيسى فى دندرة حيث كونت ثالوثا هى وزوجها « حورس » رب أدفو وابنها « ايحى » » (٢٠٩) •

١٩ ـ « حقـــات (٢١٠)

الهة على هيئة الضفدعة أو امرأة برأس ضفدعة ، وكانت تقوم بدور فعـــال فى مســـاعدة النســـاء أثنـاء الولادة ، وهى زوجـة الاله « خنوم » » (٢١٠) •

٢٠ ـ « خنسو Khons (٢١١)

« الهائم على وجهه » يشتق اسمه من فعل « خنس » بمعنى (يعبر)، نظرا الى عبور القمر للسماء • رب القمر • ذو هيئة آدمية بعيمة القمر فوق رأسه • كابن « لآمون وموت » والذى يكون معهم ثالوث طيبة • يظهر كصبى ذو ضفيرة ترمز الى سن صغيرة « (٢١١) •

٢١ ـ « سبك Sobek (٢١٢)

عبد على هيئة تمساح أو على هيئة رجل برأس تمساح • كان ابنا للآلهة « نيت » ربة سايس • أهم مراكز عبادته « كروكود يبولس » (الفيوم) وكرم أمبو • اندمج فى عصر لاحق مع الاله « رع » تحت اسم « سوبك ـ رع » » (٢١٢) •

٢٢ ـ « ست Seth (٢١٣)

صوره المصريون على هيئة انسان برأس حيوان غريب يشبه رأس الكلب بأذن مفلطحة قائمة وذيل مستقيم ممتد الى أعلى • وهو من أقدم آلهة مصر وعضو التاسوع المقدس • ومركز عبادته الرئيسى مدينة « أمبوس « نوبت القديمة) بمحافظة قنا • يرمز للشر فى أسطورة « أوزيريس » حيث قتل أخيه واغتصب العرش من « حورس » ولكنه هزم فى النهاية • قدمه ملوك الأسرة التاسعة عشرة والعشرين • وجد الهكسوس بينه وبين الههم « سوتخ » تشابه » (٢١٣) ••

٢٣ ـ « سخمت Sakkhmet (٢١٤)

اسمها يعنى (القوية) الهة لها طبيعة وقوة اللبؤة مثلت غالبا على هيئة امرأة برأس لبؤة • عبدت فى البدء فى منف حيث كونت مع « بتاح » و « نفرتم » ثالوثا وكانت تشفى من الأمراض ، وكعين للشمس المدمرة تهاجم القوى الشريرة • وهى الهة للحرب المصاحبة للملك فى غزواته • وفى أسطورة فناء البشر كانت « عين رع » التى فتكت بالبشر• ومن ألقابها عظيمة السحر » (٢١٤) •

٢٤ ـ « سرقت Selkis (٢٥١)

« الآلهة التى تجعل (الخياشيم) تتنفس » والتى تحمى المتوفى ، نراها فى هيئة آدمية يعلو رأسها عقرب • أخذت « ايزيس » فى كثير من الأحيان هيئتها ، ولقد اشتركت معها فى حماية تابوت المتوفى ومع « نفتيس ونيت » » (٢٥١) •

٢٥ ـ سكر Soker (٢١٦)

اله الخلق والموتى ، عبد فى منف • ارتبط مع « بتاح » ارتباطا قويا منذ الدولة القديمة ، وبعد ذلك مع الاله « أوزيريس » واندمج معهما تحت اسم « بتاح سوكر أوزيريس » نراه على هيئة صقر أو برأس صقر وجسم آدمى بغير أعضاء مميزة •• كان ابنا « لحورس » فى العصور المتأخرة » (٢١٦) •

٢٦ ـ « ماعت Maat (٢١٧)

تجسيد « للحق والعدالة والنظام » . وهى الأساس الذى خلق عليه العالم . وهى « ابنة رع » ذو عبادة واسعة الانتشار » (٢١٧) .

٢٧ ـ « مين Min (٢١٨)

عبد رمز هذا الاله منذ عصر ما قبل الأسرات ومن ثم فهو يعد من اقدم الآلهة المصرية . وفى العصور التاريخية نراه على هيئة رجل منتصب يلبس رداء ضيقا ويرفع أحد ذراعيه الى أعلى لتحمل السوط بينما تختفى اليد الأخرى تحت ردائه .أهم مراكز عبادته كانت أخميم وقفط . ويحمل فوق رأسه تاجان ذو ريشتان . كانت تقام له أعياد فى موسم الحصاد، (أعياد الاله « مين ») » (٢١٨) .

٢٨ ـ « نفتيس Nephthys (٢١٩)

« ربة المنزل ، زوجة للاله «ست » اشتركت مع « ايزيس » فى جمع أشــلاء « أوزيريس » ولم تأخذ دورا شريرا باقترانها « بست » . وكانت تقوم بحراسة أركان التوابيت مع « ايزيس ونيت وسرقت » . وفى أحد الأساطير هى أم للاله « أنوبيس » » (٢١٩) .

٢٩ ـ « نون Nun (٢٢٠)

الخضم الأزلى الذى انبثق منه كل شىء ومن ثم فهو « أبو الآلهة » . منه تخرج الشمس يوميا . ومع شقه الأنثوى « نونيت » يكونان زوجا من أربع أزواج لثامون الأشمونين » (٢٢٠) .

(ثامون الأشمونين هو نون ونونيت ـ العمق العظيم ـ ، وحوح وحوحت ـ اللانهـاية ـ ، وكوك وكاوكت ـ الظـلام المخيم ـ ، وآمون وآمونت ـ اللارؤية ـ) .

٣٠ ـ « نيت Neith (٢٢١)

« المرعبة » الهة رمزها المقدس قوســا وسهمين صورت على هيئة امرأة تلبس تاج الدلتا الأحمر . حامية للملك ، مركز عبادتها الرئيسى فى مدينة « سايس » بغرب الدلتا واسنا بالصعيد وهى أم الاله « سوبك » ، وابنــة « لرع » . وتعــد احــدى الحارســـات مـع « ايزيس ونفتيس وسرقت » (٢٢١) .

٢ ـ الديانة الرسمية والديانة الشعبيه

تحت عنوان (نور الشمس والخضرة ـ امتزاج « رع » مع « أوزير » وظفر « أوزير ») (٢٢٢) ناقش برستيد كل من المعتقدات الشمسية (الديانة الرسمية) والمعتقدات الأوزيرية (الديانة الشعبية) وكيف أن المعتقدات الشمسية كان لها الصدارة في « متون الأهرام » التى كانت تهتم بصعود الملك الى السماء ليعيش مخلدا بين الآلهة الأخرى في حين أن عامة الشعب كانوا محرومين من الخلود السماوى » • وكلا من نور الشمس والخضرة كانا مندمجين في الديانة المصرية القديمة جنبا الى جنب بحالة لا يمكن فصلهما من ذلك الاندماج ••• كانت توجد مجموعة خاصة بالحياة الآخرة يمكن تسميتها « معتقدات شمسية » ومجموعة أخرى خاصة بالحياة الآخرة أيضا تسمى بلا نزاع « معتقدات أوزيرية » ••• ومن الواضح أن المذهب الشمسى كان لاهوت الدولة تحيط به أبهة الملك ونفوذه ، على حين أننا نواجه في مذهب أوزير ديانة الشعب التى اجتذبت اليها كل فرد متدين ••• وخص الملوك بآخرة سماوية جليلة ••• ولما أخذ نفوذ « أوزير الذى كان آخذا في الازدياد محل الآلهة الجنازيين الذين كانوا أقدم منه صار هو بذلك رب العالم السفلى ••• وكان من نتائج ذلك أن أخذ « أوزير » وعالمه السفلى يناهضان الآخرة الشمسية في سلطانها • وندرك في ظهور هذين المذهبين جنبا الى جنب الكفاح الطويل الذي قام بين دين حكومى ودين شعبى لأول مرة في تاريخ العالم البشرى » (٢٢٣) •

وقد تناولت في الفصل الأول كفاح الشعب ضد الاقطاع (كسلطة دنيوية) وضد حرمانهم من الخلود (كسلطة دينية) وذلك ابان الثورة الشعبية الاجتماعية الدينية التى اندلعت عقب انهيار الدولة القديمة أى عقب الأسرة السادسة • ونتيجة هذه الثورة تم القضاء على الاقطاع •• وأخذ الشعب حقه في الخلود بازدهار عقيدة أوزير وظهر الفارق بين « متون الأهرام » (الخاصة بالملك) « ومتون التوابيت » ثم كتاب الموتى » • وبعد أن سادت الفوضى مدة من الزمان ظهر الكتاب المصلحون يطالبون بالعدالة الاجتماعية ويندون بالملك الذى كان منزويا فى عقر داره •• وظل هؤلاء الكتاب يعالجون الموقف بحكمتهم •• وظهر المصلح العظيم في شخص الفرعون « أمنمحات الأول » •• فأعاد للبلاد بعض مجدها القديم وبث فيها روح العدالة ، وأخذ يفسح المجال للحرية الشخصية من الناحية الاجتماعية والقضائية • غير أن هذه الحركة الفكرية العظيمة التى أوجدها أولئك الكتاب لم تقف عند هذا الحد من الاصلاح الاجتماعى بل اتسعت دائرتها وتشعبت نواحيها فكان

مما تناولته الناحية الدينية ، ولاسيما ما يختص منها بحقوق الانسان فى عالم الآخرة والجنة السماوية التى كانت حتى هذا العهد وقفا على الفراعنة وأسرهم ، من أجل ذلك أخذ القوم يفكرون فى أمر آخرتهم وما فيها من نعيم وبدءوا يطالبون بمساواتهم أمام الاله دون تفريق بين فقير وغنى ، وعلى أثر ذلك نجد بعض الأفكار الدينية الشعبية الجديدة أخذت تظهر فى المتون الدينية ٠٠٠ وأول ما ظهرت هذه العقائد الشعبية فى « متون التوابيت » التى كانت تتعارض فى كثير من الأمور مع متون العقيدة الشمسية الأصلية ٠٠ فى « متون الأهرام » (٢٢٤) ٠

وظهرت عدة كتب بعد ذلك تخص الحياة بعد الموت ونلاحظ فيها أن الملوك والشعب على السواء كان يستخدمونهم ومنهم « كتاب الموتى » و « كتاب البوابات » و « المرشد » الذى يسمى « ما يوجد فى عالم الآخرة السفلى » ٠ « على أن الباحث المدقق يجد فى « كتاب الطريقين » ـ أن الفكرتين اللتين احتواهما الكتاب ـ لا يخرجان عن تلخيص لكل من المذهب الشمسى (ديانة الملوك) والمذهب الأوزيرى (ديانة الشعب) ٠ وهاتان الفكرتان قد وضحتا توضيحا شافيا فى كتابى « ما يوجد فى العالم السفلى » و « كتاب البوابات » : فالأول يفسر لنا العقيدة الشمسية ، والثانى يوضح لنا المذهب الأوزيرى ٠٠٠ والواقع أن « كتاب الطريقين » له اتصال « بكتاب البوابات » لأنه يعد مرشدا يستعينه المتوفى بما يحتويه من ارشادات فى صورة تعاويذ سحرية على شق طريقة وعرة المحفوفة بالمخاطر فى عالم الآخرة ليصل سالما الى جنة الخلد (روستاو) التى كان يلقى فيها النعيم المقيم مثل الاله « أوزير » (٢٢٥) ٠

ونلاحظ « أن المصريين قد حاولوا بين الحين والآخر الفكاك من قيود اللاهوت » (٢٢٦) وعامة الشعب عموما لا يميلون الى معرفة الأفكار المعقدة التى فى الكتابات اللاهوتية المختلفة فاللاهوت أساسا قائما على تفسير الديانة الرسمية (ديانة رع) ولم يهتم بذكر المعتقدات الشعبية ٠ ولكننا نجد هذه المعتقدات فى كتب الحكمة وفى الصلوات البسيطة التى كان ينطق بها أفراد الشعب ٠ ولما كان **المصريون شعبا عمليا غير ميال للاهوت الفلسفى** فانهم لم يحاولوا قط استنباط علاقة منتظمة لآلهتهم المختلفة لتطبيقها فى كل أنحاء البلاد وفى عصور ما قبل التاريخ كان لكل قرية على ما يبدو الهها المحلى ومع توحيد البلاد ، ابتلعت الآلهة القوية بعض الآلهة الصغيرة المجاورة بينما استمرت آلهة أخرى فى العيش بسلام بجوار آلهة جديدة دخيلة ٠ وحظيت بعض الآلهة بالاحترام والاعتراف بها فى كل أنحاء القطر اما بسبب حماية البلاط واما لنفوذ كهنتها » (٢٢٧) ٠

نلاحظ مما سبق بأن « المصريون كانوا يؤمنون بوجود **اله واحد أزلى أبدى ، هو الذى أوجد جميع الكائنات ٠٠ وأن الاله الواحد ، الذى** يؤمن به ، له قدرات عديدة فتعددت أسمائه لكثرة صفاته ، ولكن مع الوقت وقع فى الشرك ، فقد أصبح يؤمن بوجود آلهة كثيرة تتعدد بتعدد أسمائها ، ثم انتقل الى الايمان بالتجسيد الحى للآلهة فى أجساد الحيوان ، حتى أصبح لكل مقاطعة حيوانها الخاص » (٢٢٨) ٠٠ « أما الطبقة المثقفة فقد ظلت على الاعتقاد بأن هذا التعدد فى أسماء الآلهة ليس الا رموزا لشيء واحد ، **قد يكون هو اله العالمين ، أو الخالق ، أو منظم الكون** ، والفرعون ليس الا تجسيده الحى » ٠

تأملات فى معنى الموت

ان الانسان يقف أمام كلمة الموت وماذا يعنى الموت بالنسبة لنا وتنتابه عدة أفكار متضاربة وأحاسيس متنوعة بين خوف ورهبة وبين رغبة فى تحقيق حياة أحسن من الحياة التى نحياها ٠ اذا نظرنا الى الموت على اعتبار أنه نهاية مادية لحياتنا الأرضية مظهره توقف القلب عن النبض فاننا نحتار فيما يجب عمله فى حياتنا متأثرين بالمعنى الذى يمكن أن نستخلصه من نظرتنا للموت : هل نتبع فلسفة عمر الخيام « فاغنم من الحاضر لذاته ؟ » أم ننظر الى الموت كانطلاق للروح الى عالم الخلود بعيدا عن أرض المتاعب وتتحرر الروح من الجسد الفانى وبعيدا عن هذه الأرض المليئة بحروب الشيطان ؟ وهذا يتوقف على الايمان والوجدان وتأثرها بالديانة التى تلقيناها منذ نعومة أظفارنا ٠ واذا تخيلنا أجدادنا وما تلقوه من تعاليم وأفكار فى الديانة المصرية القديمة وما فيها من غموض وتناقض فاننا نضع عدة علامات استفهام لما يمكن أن ينحو سلوكهم وردود أفعالهم تجاه هذا الكم الهائل من أقوال وحكم وطقوس وشعائر وتعاويذ وأساطير متنوعة ولكن مستر ارمان يرى ان من ينشر ديانة واضحة انما ينزع عنها سر الحياة ويجنبها ناحيتها الروحية وراء الطبيعة وهى تلك الظاهرة التى تجعلها محببة الى الانسان وذلك لأنها ليست وليدة تفكير ، بل هى **وليدة شعور** » (٢٢٩) ٠

ان الحياة البشرية يكتنفها كثير من الغموض ولولا هذا الغموض لأصبحنا كالحيوانات نعيش يومنا تحت ظل قانون الغابة يأكل القوى الضعيف ، ويفعل الانسان ما يريد طبقا لحاجته الجسدية أى الجانب المادى للانسان **ولكن هناك الروح (هى سر الحياة** بل وسر ما بعد الحياة فهى سر لدى الخالق الأعظم) التى نحوم حولها ولا نصل الى

جوهرها ‥ هى قوى غامضة لا تخضع لمقاييسنا المادية رغم المحاولات الدائمة والمستمرة من جانب الانسان للوصول الى ادراك كنهتها وشكلها وجوهرها • انها حقا القوة الغامضة التى تعطى للانسان حياة فترمز الى نهاية الحياة المادية بخروج الروح من الجسد • وهناك النفس البشرية التى لها وجود مع وجود الحياة • والنفس البشرية غامضة أيضا وقد أدرك علماء النفس بأنها كالبئر العميق الذى لا أعماق له • وقد اكتشف « فرويد » جزء من سرها وهو العقل الباطن ولا يزال علماء النفس حتى المتخصصين جدا مختلفين فى طرق العلاج وفى الوصول الى أغوار النفس البشرية • والأمراض النفسية والأمراض العقلية خير دليل على صعوبة فهم الانسان • ان فلسفة الموت فلسفة عميقة لأنها تهز كيان ووجدان كل انسان على ظهر اليابسة • هناك اناس يصرخون صراخا من الأعماق وهم على حافة الموت ويعلق بعض الناس بأن أمثال هؤلاء الناس يرون مصيرهم بعد حياة مليئة بالشرور فيصرخون ويولون ‥ وهناك أناس يبتسمون فى وداعة ويرددون بخشوع « اشتاقت نفسى الى لقاء ربى » ومن يقول « انتهت فترة سجنى فى هذا الجسد البغيض ، فهذا الجسد هو الذى جعلنى ضعيفا أمام الشيطان وأمام الاغراءات ويتركنى عبدا للخطيئة من طمع وحب تسلط وحب الظهور والغرور والعصيان والتمرد على طريق الخير والفضيلة • ومن الناس من يردد مع « أبى العلاء المعرى » •

« تعب كلها الحياة فما أعجب من طالب فى ازدياد »

اننا جميعا نقرأ الحكم التى نطق بعضها الكثيرون وهم متأثرين بفكرة الموت • ولولا « حكمة الموت » هذه والتى انبثقت من الحكمة الأبدية من الخالق جل جلاله ، لكنا نعيش تحت سقف قانون الغابة حيث يقتل القوى الضعيف • ان الموت وعظمته فى تعليم الانسان ان الحياة زائلة وأنه لابد وان يقف « أمام الميزان بالنسبة للقدماء المصريين » أو أمام الديان الأعظم طبقا للثقافة الحالية ، هو خير معلم للانسان • ان الموت هو خير انذار للناس ، وهو « الفرملة » لكل أعمال التجبر من أصحاب النفوذ سواء أكان نفوذ سياسى أو نفوذ مالى أو تحكم فى مصائر الناس وأرزاقهم • لولا هذا الموت صاحب الجبروت العظيم والتى يحسها الكثيرون عندما يقفون فى تجربة محنة شبيهة بمحنة الموت فيتراجعون عن غيهم وعن تسلطهم لأنهم يدركون الحكمة الالهية بأن الانسان فان ان الانسان تافه مآله الى التراب وان ما جمعه من سلطة أو جاه أو مال يتركونه وحده فى يوم الحساب •

لقد أدرك أجدادنا العظام معنى سلطان الموت ، ووجدوا ببصيرتهم النافذة ان حياة الخلود أهم من هذه الحياة القصيرة حتى ولو طالت سنوات العمر • وقد أعطاهم سلطان الموت أهم مكون الشخصية القومية المشتركة وهو « التمسك بالقيم الروحيــة وبالأخلاق ومراعاة الضمير • وأصبحت أهم سمة لنا فى الماضى والحاضر وأتوقع أن تكون فى المستقبل أيضــا ـ طالما حافظنا على ثقافتنا المصرية ـ وهى سمة « التدين » • لاحظ المناظر الموجودة على الجدران فى مقابر القدماء والاهتمام الذى أولوه بخصوص الحياة الآخرة ، ولاحظ أحفادهم الآن وهم يذهبون للمقابر وقت الأعياد فالمسيحيون يذهبون للمقابر فى « الطلعة » وهى اليوم السابق للعيد والمسلمون يذهبون للمقابر صباح يوم العيد عقب صلاة العيد وتأمل معنى هذا التقليــد الجميل : يبدأ العيد بالشــكر والصلاة لله عز وجل ثم يذهبون للموتى من الأقربين لهم يبكونهم وفى نفس الوقت يذكرونهم وكأنهم بينهم وبعد أن يؤدوا واجبهم فى وضــع الزهور على المقابر وتقدم « فطير الرحمة » وتوزيع الأموال والمــأكل على الفقراء يعودون لمنازلهم للاحتفال بمباهج العيد ـ دين ودنيا •

الحياة بعــد الموت عند قدماء المصريين

من اعتزازى بما تلقيته من الدكتور محى عبد اللطيف (رحمـــه الله) فى محاضراته فى دورة ايجوث عام ١٩٨٩ فاننى انقل هذه الفقرات عند حديثه عن العقيدة الدينية لقدماء المصريين : « تتميز مصر بعقيدتها : فالمصرى أول من آمن بالبعث وأول من آمن بالحســاب (عقاب وثواب) وهذا ملمح حضارى رهيب • ظهرت فكرة البعث ما قبل التاريخ فى المدفنات الأولى حيث كان يوضع المتوفى فى وضع أشبه بوضع الجنين فى بطن الأم وكان يوضع مع المتوفى حبوب • ومعنى هذا أنه سيولد مرة أخرى ووضــعوا معــه بعض الأشــياء لأنه سيحتاجها فى البعث • ما الذى جعــل المصرى القديم يعتقد فى الولادة مرة أخــرى Rebirth ؟

وجدان الزارع أهدأ ولكن ساكن المدينة قلق • فالزارع بدأ يتأمل بعد أن شبع واستقر •والتأمل أول مراحل التصوف والتعبد •• لاحظ أن الطبيعة بها استمرارية • الشمس تشرق ثم تغيب ثم تشرق مرة أخرى وتغيب وتشرق مرة أخرى • وهكذا اذن هناك هذه الاستمرارية • ولما اختفت الشمس ولا يعرف أين سماه العالم السفلى • والانسان نفسه يولد وينمو ويكبر ويشيخ فلماذا لا يولد مرة أخــرى ؟ اهتدى الانسان المصرى وحده ، وحده بدون رسالات سماوية • فكر فى البعث نتيجة تأمله

فى المظاهر الكونية وهو نفسه أحد هذه المظاهر الكونيـة · ووصل الى الثواب والعقاب فعلى جدران التوابيت نجد الميزان وعليـه قلب الميت فى كفه ورمز العدالة [ماعت] فى الكفة الأخرى » ·

« عدم وجود بعث وثواب وعقـاب معناه عدم وجـود قيم فيعيث الناس فى الأرض فسادا · الوازع للقيم هو عقيدتهم وكانوا يكررون « نصوص البراءة » وهى أشبه بالوصايا العشرة فيقول : أنا لم أقتل ، لم أسرق ، لم أزن · كنت كالأب لليتيم » ·

ان فكرة البعث لها أثرها الواضح فى الفكر المخرى وفى الحضارة المصرية القديمة · فمعنى البعث هو الأمل ولكن هذا الأمل لا يتحقق الا بالأفعال الطيبة أى أعمال الانسان الحسنة التى ستظهر عند وضع القلب ـ الذى يمثل الضمير ـ على الميزان · وهذا معناه ضرورة وجود « الفضيلة » كمرشد للانسان فى حياته ولذلك يكرر البـاحثون بأن الحضارة ارصرية حضارة أخلاقية ·· ويعتبر برستيد أحد المتحمسين لهذا المعنى فلقد استوقفه أن يجد المصريين قد سبقوا العبرانيين بحوالى ألف عام فى تأكيد معنى الأخلاق فيقول فى كتابه « فجر الضمير » :

« كشفت وأنا مستشرق مبتدىء أن المصريين كان لهم مقياس خلقى أسمى بكثير من الوصايا العشر وأن هذا المقاس ظهر قبـل أن تكتب تلك الوصايا بألف سنة » (٢٣٠) ويقول الدكتور سيد عويس :

« لا يوجد شعب قديم أو حديث بين شعوب العـالم احتلت فى نفسه فكرة الحياة بعد الموت المكانة العظيمة فى نفس الشعب المصرى القديم ، ومن الجائز أن ذلك الاعتقاد الملح فى الحياة بعد الموت كان يعضده كثيرا ، ويغذيه ، تلك الحقيقة المعروفة عن تربة مصر ومناخها ، وهى أنها تحفظ الجسم الانسانى ، بعد الموت ، من البـلى » (٢٣١) ربما يكون هذا صحيحا من باحية الجسد التى تحفظه تربة الصحراء الجافة · ولكن هذا الجسد قد فقد القدرة على الحركة أى فقد الحياة ذاتها ·· اذن لابد أن هناك شيئا خالدا فى الانسـان وهى « البـا » و « الكا » والتى تقول « متون الأهرام » و « متون التوابيت » بأن « البا » تصعد الى السماء وتبقى « الكا) بالقرب من الجسد · ويضيف الدكتور سيد عويس : « وقد يضاف الى ما جعل المصرى القديم يؤمن باستمرار الحياة بعد الموت ما كان يرا فى الأحلام من أشخاص الموتى يخاطبونه أو يغشون الأماكن التى كانوا يعيشون فيها · وربما كانت هذه الأحلام واعية الى ايمانه بأن الروح تعيش مستقلة عن الجسد وتبقى

بعد الوفاة ، فاذا كان جسم الانسان سليما استطاعت الروح أن تعود اليه » (٢٣٢) ٠

ان المصرى القديم لابد وأنه تأثر بما يشاهده فى الكون حوله وفى الطبيعة حوله وتأثر بما يلاحظه فى حياته الشخصية ايضا ٠ ففى الكون هناك استمرارية الشمس من شروق وغروب وفى وجود الفصول الأربعة المتتالية ووجود النجوم الخالدة ودورة القمر كل شهر قمرى وظهور النجوم « سيروس » قبل الفيضان بشهرين ٠ ولا أغالى ان قلت بأن شروق الشمس يحمل فى طياته معنى الأمل والتفاؤل داخل الانسان والتشبيه الذى لا نزال نستخدمه حتى يومنا هذا وهو أن الليل له نهاية وبعد الظلام يأتى النور والظلام قد يعنى ألام الليل وقد يعنى المواقف الصعبة ويعنى الظلم ويعنى التجبر ويعنى الضيقات التى يتسرب خلالها اليأس الى داخل الانسان ٠٠٠ ويأتى بعد هذا الظلام ـ بكافة معانيه المختلفة ـ النور والاشراق والأمل وازاحة الغمة ونهاية الشر والصعوبات والضيقات ولدينا أمثلة أخرى مثل « بعد العسر يسر » « بعد الضيق تأتى الانفرجه » « وبكرة تزهزه وتنور » ٠ أما ما كان يراه المصرى فى الطبيعة حوله وهو فيضان النيل الذى يأتى بالخير والرخاء بعد فترة التحاريق التى تعانى فيه الأرض من الجفاف والجذب ٠ فها هو الأمل بالخير بعد خطر الجفاف الذى يمثل الشر فى نظر الناس الذين يتعرضون للجوع فى حالة استمرار الجدب ٠ فالأمل يأتى بعد اليأس والخير يأتى بعد الأرض الجافة التى تتشقق وتهدد الحياة ذاتها٠ حتى قصة أوزيريس وست تمثل نفس المعنى٠ وبعث أوزيريس يحمل معنى البعث الذى يتمناه الانسان بعد الموت ٠ ويحمل أيضا معنى الحياة الذى يمثله الفيضان بعد أن عانت الأرض ٠ والحقول من موت المزلوعات نتيجة الجفاف ٠ أما داخل الانسان نفسه فانه يتعرض لصورة شبيهة بالموت وهو النوم ولكنه يعود للحياة ويستيقظ فى الصباح ليبدأ يوم جديد متجدد وتستمر الحياة ويستمر الوعى بعد أن غاب الانسان عن وعيه أثناء النوم ٠٠ وهناك شىء آخر وهو الأحلام وهى جزء غير مادى ٠٠ وهذا ما دفعهم الى الاعتقاد بأن « البا » (الروح) تتحرك بحرية أثناء النوم ٠٠ ويمكننى أن أضيف بأن حب الذات داخل الانسان ترفض فكرة الفناء وتتمنى البعث والخلود ٠٠ والانسان عموما فى كافة الأزمنة والأماكن يؤمن بالحياة الأخرى وان اختلفت صورة الحياة الأخرى وصورة الجنة أو النار طبقا لثقافة كل شعب وسواء كان الخلود بالجسد أو بالروح ، المهم هو الرغبة فى استمرار وجود الانسان فى الحياة ٠

ويقول الدكتور « أحمد أبو زيد » عن الحياة الدينية فى مصر القديمة : وربما كانت فكرة الخلود والحياة بعد الموت ووجود عالم آخر

ينتقل اليه الأحيـاء بالموت هي احدى هذه الأفكار الرئيسية التي لعبت في حياة المصريين القدماء دورا محوريا تقوم حوله كثير من معتقداتهم وأنظمتهم الاجتماعية والسياسية بل ومظاهر حياتهم العمرانية كما تتمثل في المقابر والمعابد وما يتصـل بها من ممارسات وشعائر وطقوس ۰۰۰ ان فكرته القديمة ظلت راسخة عميقة في ضمير الانسان المصرى » (۲۳۳) وفعلا فكرة الحيـاة بعد الموت هي جزء هام من التراث الثقافي والديني المصرى وان اختلفت صـورة الحياة الأخرى ـ وهذا ليس موضوع هذا البحث ـ ولكن المهم هو استمرار فكرة البعث والخلود والحياة الآخرة والحساب أمام الديان الأعظم ۰ ويستمر الدكتور « أحمد أبو زيد » في متابعة النقاش في هذا الموضوع فيقول : « وفكرة الخلود والحياة في العالم الآخر فكرة أصـيلة في الديانة المصرية القديمة ۰ وربما كانت هناك علاقة وطيدة بينها وبين **فكرة التوحيـد** ، وذلك على اعتبار أن الاله الواحد أو الاله الأحد هو بالضرورة **اله أزلى وخالد** ، وأن الانســان له هو أيضا صفة الاســتمرار في الوجود لارتباطه بفكرة الخلق والألوهية الموحدة ، أى أن الخلود والبقاء ۰۰۰ هما في الفكر الديني المصرى جزء من طبيعة الأشياء على الرغم مما يطرأ عليها من تغيرات ، بحيث ان **الموت** يتضمن ـ بالنسبة للانســان المصرى ـ نوعان **الأمل** أو حتى (**الوعد**) بحياة أخرى أكثر اكتمالا وبقاء من واستمرار من الحياة الدنيا » (۲۳٤)۰

والموت هو الحقيقة الخالدة في حياة الانسان ۰۰ وكل نفس ذائقة الموت لا محالة ۰۰۰ وهناك ثلاث أحداث هامة في حياة الانسان : الميلاد ـ الزواج ـ الموت ۰ ويفرح الأهل بالميـلاد لأنه يعني اسـتمرار للحياة فالابن أو الأبنة هما الامتداد الطبيعي للأب والأم والزواج هو وسيلة هذا الاستمرار ۰ ولذلك فالحدثان الأولان أحداث سعيدة ويأتى ويشكل بالنسبة للأسرة حدث مؤلم لأن شخص من الأسرة يختفي جسديا ۰۰ فالموت عكس الحيـاة فهو نهـاية الحياة على الأرض سواء رضينا أم لم نرضى ۰ وأمام هذه الحقيقة الخالدة وقف الناس طويلا وتأملوا ومنهـم من أخذ العبر وأكثرهم لم يشغلوا بالهم كثيرا من درس الموت بل وأقول من « **عظمة الموت** » فالموت هو الناقوس للبشر ليتذكروا أن (غدا ۰۰ القيامة » « غدا ۰۰ الحساب عما اقترفنا في الحياة » ومن الناس من يتعظون من هذه الحقيقة ۰ وكثيرا ما نجد الوعاظ يكثرون من تأملاتهم في تفاهة الحياة وتفاهة البـاحثين عن الماديات ومنهم من يسخر من الطماعين المتكالبين على جمع النقـود والثروات ويقولون للنـــاس ان الميت ليست لديه جيوب تأخذ فيها الأموال معه ۰۰ ومعظمهم من يقول الحقيقة التي نعرفها جميعا « عريانا أتيت الى هذا العالم وعريانا خرجت منه » وينسب هذه الكلمات لأى عظيم من العظماء المشهورين من العالم

القديم وأكثر الوعاظ ينسبونها الى الاسكندر الأعظم على أنه من عظماء العالم القديم واوسعهم نفوذا فى امبراطوريته الواسعة ٠٠ مع اننى أشك بأن الاسكندر الذى اختطفته الحمى فجأة وهو فى ريعان الشباب لم يكن لديه الوقت للحديث عن الموت ٠٠ ولكن المهم هو ان الحياة الفانية لا يخلد فيها أحد ٠٠ ولكن لابد أن هناك نوع ما من الاستمرارية فى العالم الآخر ، أى أن هناك حياة أخرى ولابد أنه لا نهاية لهذه الحياة الآخرة أى هناك الخلود ٠

« ويقول الأستاذ « برستيد » فى كتابه « فجر الضمير » ان حقيقة الموت فرضت انطباعا هائلا على الدين المصرى وأثرت تأثيرا عميقا على كل من اللاهوت الشمسى واللاهوت الأوزيرى (أى ديانة وعبادة الشمس واللاهوت المتعلق بأوزيريس) ؛ بل ان هاتين العبادتين تتداخلان معا فى مسألة المعتقدات المتعلقة بالموت ٠ فلقد كان المصريون يعتقدون اعتقادا جازما فى الحياة بعد الموت ويمارسون ممارسات كثيرة حول هذا الموضوع ، وكلها لا تزال تجد لها أصداء فى مصر المعاصرة » (٢٣٥) ونلاحظ أن الديانتين الرسمية المتمثلة فى ديانة وعبادة « رع » ـ اللاهوت الشمسى ـ والديانة الشعبية المتمثلة فى اللاهوت الأوزيرى تتداخلان بل وتتلاقيان عند فكرة البعث والحياة الآخرة فمتون الأهرام التى كانت تعنى بسعادة الملك وبصعوده الى السماء لكى يعيش الملك هناك باعتباره ابن الشمس (صا رع) قد حدث عليها تغيرا فى أخذ الاله أوزير مكانه تدريجيا ثم اضطر كهنة هليوبوليس بأن يوجدوا توفيقا بين « رع » و « أوزير » وأصبح أوزيريس يمثل الماضى بينما يمثل اله الشمس المستقبل ففى « الفصل السابع عشر من فصول الموتى (يحتفظ) ببعض شروحاتهم فى هوامشه ، وحينما يقول الخالق : « لى الأمس ، وأعرف الغد » (٢٣٦) ٠

يقول أحد الهوامش « أما الأمس فهو أوزيريس ، وأما الغد ٠ فهو أتوم هكذا صار أوزيريس الماضى ، بينما بات اله الشمس المستقبل ٠ وتساوى روايات أخرى أوزيريس بكلا الأمرين ، فهو الماضى والمستقبل ، وهو العلة والامكانية ويقدم أحد الحواش المكتوبة على تابوت من بنى حسن تفسيرا أكثر اسهابا :

« فالزمن الذى نحيا فيه الآن ؟ انه « أوزيريس » الذى قد دفن بينما ابنه مازال يحكم ٠ ويفسر الآخرون المساء بأنه أوزيريس والغد رع ٠٠٠٠ تكشف تلك الملاحظات عن اختلافات فى التفسير وفروق لاهوتية هينة ٠ وفى موضع آخر يصف نفس النص عنقاء هليوبوليس قائلا :

• المضطلع باقرار ما سيكون »

ويتساءل كاتب قديم « من هو ؟ » ويجيب على نفسه « هو أوزيريس أما ما سيكون فهو الخلود والأبدية • أما الخلود فهو النهار • والأبدية « فهي الليل » •

[وفى شكل (٢١) روحا « رع وأوزيريس » مجتمعان فى منديس]

وبالمثل يقال أن روحى الاله الأعلى التوأمين هما أوزيريس ورع :

« انه أوزيريس حينما يزور منديس ، حيث يجد روح رع ، وحينما يلتقيان يتعانقان وهكذا **يعيش الاله فى صورتين** » (٢٣٧) ••

« ولقد حفظت لنا بردية آنى صلاة يتوحد فيها رع مع أوزيريس :

« سبحان أوزيريس ، رب الخلود ، الخير ، حورس الأفق (أى رع) متعدد الصور بهى الطلعة » (٢٣٧) •

وبهذا نجد أن أوزير — الذى يمثل الديانة الشعبية — قد أخذ مكانة كبيرة • ولقد كان هذا انتصار كبير للشعب الذى ثار ضد الاقطاع (عقب الأسرة السادسة) وفى نفس الوقت ثار على كهنة هليوبوليس ليحصلوا على مكانهم فى الخلود الذى كان مقصورا على الملك ولمن يمنحه من أفراد رعيته • و « أوزيريس » أول سكان الغرب » كان بعيد فى (ابيدوس) •• وهو — بنوع خاص — اله مقدس رحيم ••• وكانت أعز أمنية لكل مصرى تقى أن يدفن فى ابيدوس • وواقع الأمر أن كثيرا من المصريين من سائر الطبقات قد أثروا منذ نهاية الدولة القديمة أن تكون مقابرهم فى هذا المكان المقدس » (٢٣٨) • وقد ظهرت مكانة أوزيريس موضوع فى « نصوص التوابيت » (فى الدولة الوسطى) وفى كتاب الموتى (فى الدولة الحديثة) ونجد فى خطاب (٢٣٩) « رعمسيس الثانى » الموجه الى « والده •• أوزير » النص الآتى :
« انى أتضرع لوجهك كما كان يفعل ابنك « حور » وانى أفعل ما يفعله فأعمل لك آثارا فى المكان المقدس (الجبانة) وأضاعف الأوقاف لروحك، وبأنى أنا المجيب عن والدى وهو فى عالم الآخرة السفلى ، وأنى تحت تصرفك وتحت سلطانك • ولما كنت أعرف **أنك تحب العدالة** فانى أقدمها لجمالك حاملا اياها على راحتى أمام وجهك حتى تجعل الأرض ملكا لى فى سكينة وحتى **تهبنى الخلود** بوصفك ملكا ، **والأبدية بوصفك راعيا للأرضين** » (٢٣٩) •

أما عن **الروح** فأحيانا يكتنفها الغموض فى بعض النصوص ومعظم النصوص تتحدث عن « الكا » على أنها « القرين » والبعض يترجمونها الروح و « البا » هى « الروح » الخالدة التى تصعد الى السماء وفى هوامش « كتاب الديانة المصرية » القديمة يقول المؤلف : « « **البا** » كانت تصور على هيئة طائر برأس آدمية ، وهى تستطيع الخروج من المقبرة والعودة اليها لأنها تريد التمتع بالدنيا » و « **الآخ** » هو عنصر الهى يمثل شخصية صاحبه ، يذهب الى السماء بعد موت صاحبه ويصبح نجما فى الليل و « **الكا** » أى القرين هو القرين هو الجسم الأثير الذى يصاحب الجسم المادى ، وهما يتشابهان تماما ، ويخلقهما • الاله « خنوم » فى نفس الوقت ، والقرين يحيا بعد الموت ، بل يعتقد أن ما تركه المصرى من أهرامات ومقابر وما بداخلهما كان لخدمة « **الكا** » قبل كل شىء » (٢٤٠) •

وفى كتاب ديانة مصر القديمة : « هنا فى الجبل **يتحول الميت الى روح حية** » كانت تمثل حسب الطريقة القديمة على هيئة طائر وهو يجثم عادة فوق الجثة التى كان قد خلقها اله الشمس ولكنها تستطيع الخروج من المقبرة والعودة اليها لأنها تريد التمتع بالشمس والدنيا • ويتقبل الميت كذلك المأكولات » (٢٤١) هنا نجد أن الميت يتحول الى روح حية على هيئة طائر وهى الصورة التى تخص « البا » فى معظم الكتابات القديمة وفى موضع آخر يقول المؤلف « وكان معتقدا أن الموتى يقيمون فى مقابرهم أو فى عالم خاص بهم • وكان موتهم يفسر بأن قوة خاصة كانت تلازمهم فى حياتهم ، وتسمى « **الكا** » قد هجرتهم • ويستقبل كل انسان هذه « الكا » عند مولده وذلك بأمر من الاله رع • وما دامت معه هذه الكا ، وما دام هو « رب الكا » وأنه « يغدو معها » ، فهو حى يرزق [انظر مثلا الفقرة ٩٠٦ من « متون الأهرام » (أصحاب الكاوات = الأحياء) (كل الكاوات الحية = كل الناس) ، أثر سبك حتب فى اللوفر » انه معافى وسعيد بما له من كا = انه حى) ولئن كان أحد لا يستطيع رؤية هذه الكا ، فالمعتقد أنها تشبه صاحبها تماما » (٢٤٢) • ان « الذارعين المتمدتين كانا رمزا « للكا » منذ أقدم الأزمان • فاذا مات الانسان هجرته الكا ، على أنه كان يرجى منها أن تظل معنية بالجسد الذى سكنته أمدا طويلا ، وأن تكون الى جانب الميت من وقت الى آخر على الأقل ، وأن تبادر الى مساعدته اذ دعاها [فقرة ٦٣ من متون الأهرام] وقد جاء فى كتابة متأخرة : « انك تعيش سعيدا أبدا وبجانبك الكا التى لك ، انها لن تهجرك أبدا » •••• لذلك كان ينعت القبر بأنه « دار الكا » ، كما كانت تقدم الأطعمة وفقا لصيغة القربان الشائعة الى « كا » الميت • وقد طفقت تلك الفكرة الغامضة عن الكا تتطور فيما بعد ،

فكانت الكا تعتبر تارة كأنها **كائن الهى** كما يدل على ذلك رسم لفظها **فى** اللغـــة المصريـــة القـــديمة ، وتـارة **الملاك الحـارس** ، الذى يهتم بالانسان » (٢٤٢) ٠

بهذا نرى أن مفهوم « الكا » كان يتغير من آن الى آخر وحتى فى الخليقة كان يذكر أن الاله « ختوم » قام بخلق حتشبسوت والكا معا حسب أسطورة حتشبسوت كابنة الاله آمون المدونة على جدران الدير البحرى ٠ ويتحدث مؤلف كتاب ديانة مصر القديمة عن « البا » فيقول : « والى جانب هذه الكا ، التى ظلت دائما **كائنا غامضا** غير محدود ، على كثرة دورانه على اللسان ، فكر المصريون فى **الروح** ـ وكانـوا يسمونها ((**بـا**)) ـ وقد تصـوروها فى مختلف الأشـكال ٠ وهى اذ كانت تترك الجسد ، وتنفلت منه عند الموت ، فقد تخيلوها عادة كأنها **طائر** ٠٠٠ وقد فكر آخرون فى زهرة **اللوتس** ٠٠ وفكر فريق آخر فى **الثعبان** ٠٠ أو التمساح « (٢٤٣) ٠

ويذكر « برســتيد » فى كتابه « **فجر الضمير** » « **البا** » و « الكا » ولكنه اختلف عنهم فى ذكره بأن « **البا** » تظهر للمرة الأولى فى الوجود عند موت الانسان بقوله : « ومما يدعو للدهشـــة أن المؤرخين فاتتهم الحقيقة الهامة وهى أن « **البا** » تظهر للمرة الأولى فى الوجود عند موت الانسان ٠٠ فقد التجأ القوم الى كل أنواع الحيل والاحتفالات الدينية ليصبح المتوفى « با » عند موته » (٢٤٤) ورغم توضيح برستيد لحقيقة اختلاط المعتقدات باندماجها عبر العصور المختلفة وتداولها فانه حاول توضيح ما كان يتصوره المصرى القـديم لطبيعة الانسـان « فانه كان يتصور أن شخصية الانسان الحقيقية فى الحياة تحتوى على الجسم المادى الظاهر وعلى الفهـــم الباطن ، ومقره فى اعتقادة هو « **القلب** » أو « **الجوف** » وهما التعبيران الرئيسيان عن « **العقل** » ٠ وتحتوى هذه الشخصية أيضا على الجوهر الحيوى المحرك للجسم ويقصد به « **النفس** » كما يلاحظ عنـد الكثير من الشـعوب الأخرى ٠ غير أن هذا الجوهر الحيوى لم يكن مميزا بشكل ظاهر عن « العقل ، وكان الاثنان يمثلان معا فى رمز واحد هو طائر له رأس انسان وذراعاه ، ونجده مصورا فى المناظر التى على القبور وعلى توابيت الموتى يرفرف على المومية ويمد لأنفها باحدى يديه صورة شراع منشورا وهذا الشراع هو الرمز المصرى القديم « للهواء » أو « للنفس » ويحمـل فى يده الأخرى علامة هيروغليفية ترمز للحيـاة ، والمصريون يسمون هذا الطائر الصغير الممثل برأس انسان وجسم طائر « **با** » (٢٤٤) ٠

ويذكر « برستيد » بأن عجز الانسان أن يصبح« با » بعد موته هو الذى جعل الكهنة يقدمون القرابين التى تحتوى على القوة الخفية التى تحول المتوفى الى روح ، وأن هـذه القرابين كان يشار اليها بأنهـا « عين حور » اشارة الى الأسطورة بأن « أوزيريس » قد صار روحا بعد موته بعد أن تسلم من ابنه « حور » عينه التى انتزعها من محجرها « ست » (تفاصيل هذه القصة سأذكرها فى الفصل الثالث الخاص بالأساطير) • ثم يتحدث عن « الكا » قائلا : « وعندما يبتدىء المتوفى حياة جديدة فى الآخـرة لا يعرفهـا كان يساعده فى ذلك ملاك يحرسه يسمى « كا » يظهر فى الوجود مصاحبا لكل انسـان من وقت ولادته ويرافقه فى كل حياته حتى ينتقل الى عالم الآخرة ••• وجـدير بنا أن نلاحظ فى هذا المقام أن « الكا » يحتمل أنها كانت فى الأصل خاصة بالملوك فقط ، فكان كل ملك يعيش فى حراسة ملاكه الحارس • ثم صار هذا الامتيـاز الملكى بطريق التطور التـدريجى حقـا مشـاعا لعـامة الشعب » (٢٤٥) •

ويذكر الدكتور « سيد عويس » البعث والبـا والكا بالصـورة الآتية : « بعد بعث الجسم لابد من اعادة قوى الانسان العقلية اليـه واحدة فواحدة ، ويتم حصوله عليها ، بوجه خاص ، بصيرورة المتوفى روحا « با » وبتلك الكيفية يعود المتوفى الى الحياة مرة أخرى وهو حائز لجميع قواه التى تساعده على المعيشة فى الحيـاة الآخـرة • ويبدو أن « سليم حسن » يرى ما يراى «جيمس هنرى برستيد » ، فهو يفهم أن شخصية الانســان الكاملة ، بعد الموت ، كانت تتألف من « البا » والجسم • وكثيرا ما ترى « البا » تحوم فوق الجسم أو تطير الى داخل القبر لتنضم الى الجسم ، ومن ثم نرى فى متون الدولة الحديثة عبارة كالآتى : « ليت (با) المتوفى لا تنفصل عن جسمه أبديا » (٢٤٦) ويخلط الدكتور « سيد عويس » بين الكا والبا فى ترجمـة كلاهما الروح دون أن يحدد الفرق بينهما ففى أحد النصـوص يقول : « ويلاحظ أن بقاءالروح « الكا » متمتعا بالحياة بعد الموت يتطلب شروطا معينـة ، أخرى ، غير حفظ الجسم ، حتى يحل فيه عندما يريد ، منها اقتضاء حفظ تمثال فى مكان أمين حتى يجد « الكا » فيه القسمات الشخصـية التى فقدتها الجثة » (٢٤٧) ثم يتحدث عن الكهنة « فالطبقة العليا من الكهنة كانت تلقب « بخدم الآلهة » وكان يخدم الموتى « خدم الكا » أو « خدم الروح » » (٢٤٨) • ويشير الدكتور أحمد أبو زيد الى « البا » كروح والى « الكا » (كروح حارسه) •

ان الحياة الآخرة تعنى ببساطة الانتصار على الموت • فالموت لم يكن يخيف الناس كأنه نهاية للحياة • لقد انتصر عليه أوزيريس ببعثه

بعد الموت وأصبح الموت هو البوابة الى العالم الآخر • وكما رأينا فالعبادة الأوزيرية تعنى الديانة الشعبية وها هو انتصار أوزير بمنح الشعب كله حتى عامة الشعب الحق في الخلود وأصبح أوزير هو القاضى يوم الحساب حيث الميزان الذى يوضـع فيه قلب الميت فى كفـة وماعت اله الحق والعدالة والصدق في الكفة الأخرى وتتلى فيه نصوص البراءة في حضرة أوزيريس ويتم محاكمـة المتـوفى ويتحدد طريقه الى الجنة أو النار ــ الى الخلود من عدمه •

مصير الموتى

مع وجود الأخلاط بسبب تداخل المعتقدات عبر التاريخ الطويل سنجد الاختـلافات في تحديد مصير الموتى • وفى الأساطير ستظهر تفاصيل أكثر عن هذا ولكن سأعطى صورة مختصرة هنا : طبقا «لمتون الأهرام » السماء هى مصير الملك وبعض من يختارهم الملك من حاشيته • ونجد تلميحا لوصف جنـة فرعون لمـا يقال للملك فى النص (٨١٥) هل تريد ان تحيا ؟ يا « حور » يا من تسيطر على حربة الصـدق ؟ (وهى الحربة التى لا تدع أى شـخص يمر بباب الجنة غير الصادقين المبرئين أمام الله) • اذا كان الأمر كذلك فينبغى عليك ألا تغلق مصراعى باب السماء ، ويجب عليك ألا تحمى عقبة (أى عقب الباب) ، وخذ زوج « بيبى » الى هذه السماء بين المنعمين حول الاله ، والذين يحميهم الاله ، وهم الذين يتكئون على صولجاناتهم » (٢٤٩) كما يستفيد الموتى الممتازون من هذا الوجود السماوى فى فقرة ٩١٣ من « متون الأهـرام » فالميت يطير فى شكل طائر الى السماء : « انه يغدو الى السماء كالصقور وريشه كريش الاوز » (٢٥٠) ومن يرتقون السلم الى السـماء وكانت هناك حقول أيارو حيث يحرث ويحصد ويشرب ويحب ويفعل سائر ما كان يفعل على الأرض هؤلاء (الممجدون الأوائل) (٢٥١) وكانت جنة الشعب مركزها الأرض طبقا « لمتون الأهرام » فان الملك وذريته كانوا يعرجون الى السماء فينعمون هناك بجنة الخلد ، أما الألوف وهم عامة الشعب فكان مأواهم الأرض » (٢٥٢) حيث جنة القربان التى يظنون أن موقعها هليوبوليس ــ مركز عبادة رع • وطبقا لكتاب الطريقين فكان مكان عامة الشعب « روستاو » وهو عالم الآخرة السفلى الخاص بالاله « أوزير » » (٢٥٣) •

هكذا نجد أن مصير الموتى كان مرتبط بالأفكار السائدة فى فترات التاريخ المختلفة فالسماء طبقا « لمتون الأهرام » كانت خاصة بالملك ومن

يختارهم من حاشيته بل أن بعض الموتى يتحولون الى نجوم خالدة تسطع فى السماء ويتمتع الملوك بجنتهم السماوية • وبعد الثورة الشعبية (الاجتماعية والدينية) حق للشعب الخلود والذى يرتبط بالاله أوزير سواء فى حقول أيارو أو « روستاو » • واحيانا كان يشار الى الدنيا السفلى حيث يخيم السماء وحيث يعيش الموتى ولكن مرور « رع » – الشمس – فى العالم السفلى أثناء الليل ينيره للقاطنين فيه • وكان حب المصريين لأرضهم ولنيلها الفضل فى تخيل الحياة الآخرة كصورة مماثلة لحياتهم على الأرض حيث تمتعوا بالأرض الخضراء وحيث شربوا من ماء النيل الخالد ، والنهر فى العالم الآخر شبيه بالنيل أيضا الذى كان الها صغيرا خلقه رع ولم يتخيلوا الجنة تختلف عما تمتعوا به فى جناتهم الأرضية من أرض خصبة خضراء يمدها بماء النيل الذى عشقوه •

النصوص الجنائزية (٢٥٤)

« كان سحرة قدماء المصريين ينمقون تعاويذهم السحرية الشفوية ويزيدون فيها باستمرار ، حتى أن الموتى ، سواء أكانوا فى صحبة « رع » فى العلا أو « أوزيريس » فى عالمه السفلى ، يتمتعون بحياة أكثر تألقا من حياتهم السابقة ، ويسدون حاجاتهم البشرية دون خوف من موت ثان نهائى : فوضع نوع خاص من الأدب ، يعتمد فى تأثيره على **سحر الكلام** (كانوا يقرءون بعض فقرات منه بصوت مرتفع فى الجنازات وفى أثناء القيام بالطقوس الجنائزية) ، وعلى **سحر اللفظ** المكتوب (ملئت جدران الحجرات ، والأثاث الجنائزى وأوراق البردى الموضوعة فى القبور بتلك الألفاظ السحرية) وكانت هذه النصوص موضوعة أساسا لضمان حياة الملك ، ثم امتد أثرها بالتدريج الى رعاياه • وتلك النصوص التى تحمل الاسم الكئيب « جنائزية » والتى قصد بها « اعطاء الحياة » من عدة أنواع :

١ – مجموعة من الصيغ المستقلة ، تختلف فيها بينها اختلافا كبيرا ، لأن بعضها عبارة عن ألفاظ سحرية تنفع الأحياء أيضا ، كما تنفع الذين « مجدوا » (توفوا) • ومن هذا النوع ، تلك **النصوص** التى نقرؤها فى **الأهرامات** ، والتى يرجع تاريخها الى نهاية الدولة القديمة ، التى كتبت على **توابيت** بعض الأفراد فى الحقبة المتوسطة الأولى والدولة الوسطى • ونجد أخيرا « فقرات » **كتاب الموتى** ، التى أخذ بعضها من مجموعة صيغ التوابيت •

٢ ــ كانت كتب ((نظام الكون)) التى يمكننا ان نراها فى « مقابر وادى الملوك » ، مؤلفات ضخمة ، متشابهة النوع ، من عهد « الدولة الحديثة » ومنها نسختان مختلفتان من كتاب عنوانه « امى دوات Imy Dust » (أو « ما فى القاعة المخفية ») وكتاب الأبواب » « وكتاب الكهوف » ، « وكتاب النهار » ، « وكتاب الليل » ، وكتب أخرى ذات صور تعويذية ، وعدة رسوم مربكة صممت من أساطير الأسلاف وحورت الى معان خيالية مع تعليقات تفسر ، بشتى الصور ، اعادة بعث رع فى كل يوم ، الذى يشبه به الرجل الميت من خلال جولاته فى العالم السفلى ٠

٣ ــ طقوس الموتى الدينية ، وتشمل : طقوس « فتح الفم » ، وطقوس « التحنيط » وقد نقشت على القبور حتى تبقى الطقوس التى تقام على الجثة دائمة المفعول الى الأبد ٠

٤ ــ كتيبات الفترة المتأخرة ، وهى : « كتاب الأنفاس » « وكتاب الأنفاس الثانى » (وسمى خطأ « عسى أن يزدهر اسمى ») و « كتاب السفر خلال الخلود » ، وغير ذلك من الكتب ــ عملت هذه الكتب وقرئت كى تحيا الروح فى السماء والجسد فى العالم السفلى ٠

٥ ــ طقوس عبادة رع (تعاويذ ضد أنوبيس) (*) أو طقوس الآلهة الأموات (نحيب ايزيس ونفتيس ، وكتاب ساعات سوكر ، ومؤلفات أخرى للاحتفالات) والغرض منها أن تعطى الحياة للاله فى معبده ، وكذلك يمتد أثرها لتحفظ الرجل الميت آمنا فى قبره ٠

«قام كثير من الكتبة ، من شتى درجات العلم والمعرفة ، بنسخ هذه النصوص واعادة نسخها مرات لا تحصى ، وحذفوا منها بعض الفقرات والعبارات ٠ وفيما بعد ، راجع العلماء هذه النصوص وأعادوا صياغتها ، وهكذا صارت هذه النصوص عسيرة التحقيق وكثيرا ما تكون صعبة الترجمة (لا توجد ترجمة معتمدة نهائيا لكتاب الموتى) ، وغالبا ما تحير الرجل العادى فى عصرنا هذا ٠ ولو أن العناوين التى ذكرناها هنا ، تعطى القارىء فكرة ما ، فانها لا توضح له شتى محتويات هذا الأدب المكدس ٠ بيد أننا نقول ان كل ما ذكرناه فى هذا المعجم مطابق تقريبا للواقع ٠ لم يكن قدماء المصريين ، فى عصور الفراعنة ، محضرى أرواح ولا عبدة موتى ٠ ولكنهم كانوا يرغبون فى الحياة الى الأبد » (٢٥٥) ٠

أثر الدين على الشخصية المصرية

ويمكن تلخيص أثر الدين على الشخصــية المصريــة فى النقاط التــالية :

١ ـ **التدين** هو سمة مميزة للمصرى وقد أثر التدين على حياته الأرضية وعلى سلوكه وعلى نظرته للخلود والبعث والعالم الآخر والأخلاق والضمير والسلوك الخلقى • وكان دائم اللجوء الى الله طلبا للعون، لذلك كان مواظبا على الصلاة لاستمرار وتأكيد صلته بالله •

٢ ـ يغلب عليه التفاؤل لأن الخالق رحيم مجيب للدعوات وهو الراعى الصالح للانسان •

٣ ـ لا يخشى الموت فهو المعبر الى حياة أفضل •

٤ ـ يراعى الضمير وعادل فى أحكامه ويساعد الفقراء والمحتاجين مثلما ظهر كثيرا فى اللوحات القبرية •

٥ ـ يحب النظام والعدل والخير •

٦ ـ تغلب عليه التقوى الفردية بالاضافة الى العبادات الجماعية والايمان بالروح الخالدة •

٧ ـ الاتكال على الله والرضــاء بارادته وحكمه والثقة فى حبه لبنى البشر ، فهو المحب المجيب والراعى والحصن ضد قوى الشر • ومن الحكم التى ترددت « الانسان فى التفكير والرب فى التدبير » واحساسه الفطرى بترديد « أنا راضى بالمكتوب » •

٨ ـ الوجـدان الحى المليء بالايمــان والثقة بالله واليه المصير • كلمة الاله تتعدى الى السلوك •

٩ ـ الله هو النور مثلما كان « رع » هو الاله الخالق الذى ينير الكون•

١٠ـ لم يتعطش للثأر (٢٥٦) ، فالطقوس ليس فيها مكان لآلهة ظمأى نحو الدماء ـ الطقوس تؤدى بشكل هادىء رزين (٢٥٦) • [وهذا انطبع على الشخصية المصرية] •

الفصل الثالث

الأساطير : تفسير لاهوتى للديانة الرسمية

ان العقيدة تنبع من الوجدان الدينى ولذلك هى فطرية تخص الفرد والعامة والخاصة وتأتى قبل محاولات رجال اللاهوت فى تفسيرهم وشرحهم لصلة الانسان بالاله الأعظم أو الآلهة الأخرى ، وبالخليقة وبنظريات الخلق وصراع الخير والشر ، وما يحدث فى الكون من ظواهر طبيعية تمس الحياة على الأرض وتخيل ما قد يحدث بعد الموت · وتأمل المصرى القديم الشمس بالنهار كقوة لها تأثيرها على الانسان والنبات وعلى بعث النور لكل الأرض واختفائها بالليل وماذا يعنى ؟ وأين تذهب· واذا كانت رحلتها من الشرق الى الغرب واضحة ويراها الجميع فأين يا ترى تكون رحلتها أثناء الليل وهى تتجه من الغرب للشرق - حسب تفسير المصرى القديم · وفيضان النيل يأتى بعد ظهور « نجم الشعرى » بشهرين فمن أين يأتى هذا الفيض العظيم من المياه المليئة بالغرين ؟ والحياة التى تحيط بالانسان تثير تساؤل المصرى القديم ·· من الذى أوجدها ؟ والقوى الخفية التى يحس بوجودها بوجدانه تثير الفكر وتحتاج لمعرفة حقائق عنها · ولا يستطيع عامة الناس أن يجدوا الاجابة عن مثل هذه التساؤلات ، وهنا يبرز دور رجال الفكر وهم رجال اللاهوت فى الاجابة عن كل ما يدور بخلد الناس ·

وتعكس الأسطورة فكر المصرى ونظرته عما يحيط به فى الكون من قوى غامضة ويحاول تفسيرها بطريقة تعكس شخصيته التى ترى الخير ينتصر على الشر والنور ينتصر على الظلام والاله الخالق ينبثق الى الوجود عبر النظام الذى يوجده والذى ينتصر على لجة المياه الممثلة للفوضى التى تعنى عدم وجود النظام · المصرى يرى الشمس فى الصباح تشرق بعد الليل المظلم ، انها تنبعث وينبعث معها الضوء فينير الكون·· ويرى كتلة الأرض التى تنحسر عنها مياه الفيضان وكأنها تخرج من وسط المياه المتخبطة ويراها بعد ذلك تخضر وينبعث منها الخير - الخضروات والنباتات - بعد أن كانت جافة بلا حياة وبلا زرع · ان « خبر » - الشمس فى الصباح - الذى يمثل الخالق طبقا للاهوت

هليوبوليس والذى أتى للوجود بخلق نفسه من داخل ذاته ، هو الذى خلق العالم وخلق الانسان ويحب الخير • وهو ـ اله الشمس ـ كالراعى الصالح للانسان ويمكن للانسان أن يلتجىء اليه بصلواته وهو يستجيب له •• ان هذه الصلة بين الخالق والانسان صلة طيبة تجعل وجدان المصرى القديم يشع **بالتدين** ويربطه بقوة خالقه • **واصبح التدين من المقومات الرئيسية** للشخصية القومية بل اتجه الفكر المصرى الى عقيدة البعث بعد الموت ـ ربما ـ لأنه رأى الشمس فى حالة بعث دائم كل صباح بعد ظلام الليل ، ولاحظ بعث الحياة من الأرض التى كانت جافة وكأنها بلا حياة بعد أن غمرتها مياه الفيضان ثم تظهر الحياة فى صورة النبات الذى ينمو نباتا أخضر يحمل فى صورة « زرع » وهو خير ينتظره الانسان لكى يعيش عليه •

وحتى « **الأخلاق** » التى اكتسبها من تعامله مع الآخرين لأنها تجعله محبوبا من الآخرين ومقبولا لديهم ، فقد صورتها الأساطير على أنها الأساس فى الحصول على الخلود • ففى يوم الحساب عندما يوضع القلب فى احدى كفتى الميزان وتكون « ماعت ـ اله الحق والصدق والعدالة أو الريشة التى تمثلها » فى الكفة الأخرى فان أخلاق الانسان متمثلة فى أعماله الحسنة هى التى تحسم الموقف • وهى الفيصل فى تحقيق الطريق الى جنة « أيارو » والا كان مصيره الى الفناء أو النار • فبذلك نستطيع أن نستخلص سمات هامة للشخصية القومية مثل « **التدين** » و « **الأخلاق** » من خلال أساطير الخلق ويوم المحاكمة فى الآخرة • والأساطير تعطينا العديد من سمات الشخصية المصرية ، واذا أخذنا أسطورة أوزيريس ـ كمثال ـ نجد انتصار الخير على الشر ونجد صورة **مشرقة للمرأة المصرية** ـ التى تمثلها ايزيس فى تلك الأسطورة ـ فهى **الزوجة المخلصة والأم الرؤوم** • والأسطورة نفسها تجسيد للعدالة والحق والثواب لمن يستحقه وانتصار للخير على قوى الشر البغيضة والمتربصة للانسان لتحرمه من السعادة والهدوء والاستقرار •

وأهم ما نستشفه من الأساطير هى : الخالق الواحد ـ الملكية والنظام ـ فكرة البعث والخلود ـ مكان الموتى ـ مكان القوى الشريرة ـ صراع الخير والشر ـ دور السحر فى الحماية من القوى الشرير ـ دور الشعب فى تأكيد حقه فى الحياة الآخرة بترسيخ الديمقراطية الدينية ـ تمرد البشر • وسوف أتناول توضيح هذه النقاط أثناء عرض الأساطير المختلفة ، وسيدرك القارىء بأن المتدينين من رجال اللاهوت هم الذين صاغوا تلك الأساطير فى رؤيا روحية ودينية وأنهم تأثروا وأثروا فى الحياة اليومية لشعب متدين تقى يشع وجدانه وفكره بمعانى الصلة

الوثيقة بالقوى الخالقة المحبة الحامية والمعنية ـ ولا يهم قطعا اختلاف التسمية من مكان لآخر طبقا لاختلاف المدارس الفكريـة اللاهوتية في المراكز الدينية المختلفة . المهم هو أن الآلهة ـــ بمسمياتها المختلفة ـــ هي التي نشرت العدل والخير والنماء والسلام . والمهم أيضا أن التصوف المصرى ـ أى التدين الوثيق الصـلة بالخـالق الأوحد والأعظم ـ كان موجودا داخل النفس منذ أقدم العصــور . والروحانيات لها مكانها المميز فى الفكر المصرى منذ أقدم العصور بل حتى الآن . لقد كانت الروح ((البا)) تنطلق الى عنان السماء مثلما كانت تنطلق أثناء النوم فى صورة أحلام ، حتى أنهم أحيانا ما فسروا الأحلام كتنبؤ لما قد يحدث . والروح الخالدة طليقة تتحرك فى كل مكان ولها الخلود . ومن هنا كان الرباط الوثيق بين الحياة والموت وهما وجهان لعملة واحدة .

عندما كان المصرى القديم يتأمل الطبيعة وقوى الطبيعة والقوى الميتافيزيقية ـ قوى ما وراء الطبيعة ـ التى لها تأثيرها على الكون والقوى الكونية ، كانت تدهشه أشياء كثيرة ، ووقف مذهولا أمام ظواهر أخرى ولكنه حاول أن يفكر ويفسر ويستنتج لكى يفهم ما يدور حوله . وقد صاغ رجال الدين الكثير من الأفكار فى صورة « أساطير » محاولة منهم لفهم وتفسير أسرار الكون وأسرار الحياة والتى يرتبط بها سر الموت . وقطعا سأل المصرى القديم نفسه هذا السؤال الأبدى الذى ظل الانسان يسأله لنفسه والذى نسأله نحن لأنفسنا والذى سيسأله أحفادنا لأنفسهم وهو : **أين نحن ذاهبون بعد الموت ؟** حياة أخرى أم فناء ؟ ويرتبط بهذا السؤال سؤال آخـر هام وهو : **من أين أتينا ؟** أى ما هى القوى التى أوجدتنا أى خلقتنا ؟ والتفكير التساؤلى ملازم لأى انسان خصوصا صاحب النظرة التأملية . والتأمل هو بداية التصوف بمعنى البحث عن الاله الخالق وعن مصير الانسان بعد الموت . واذا كانت الفلسفة هى دراسة عقلية جادة ، لا تتناول سوى موضـــوعات وحقائق بلغة التجريد ، فانها تنـاولت الحياة اليوميـة وزاد اهتمامها بذلك فى القرن العشرين فى تحليلات الفلاسفة الوجوديين وفلاسفة التحليل النفسى .

ولم يكن قدماء المصريين قد وصـلوا الى قدر من العلوم تتيح لهم تفسيرا علميا أو تطبيقيا تجريبيا يساعدهـم على تفسير تلك الظواهر الطبيعية التى يشاهدونها وليس فى وسعهم أيضا تفسير ظواهر غامضة مثل سبب اختفاء الشمس مثلا ، ولا يدركون ما يحدث فى هذه الفترة ـ الأثنى عشر ساعة أثناء الليل . لذلك حاولوا صياغة أفكارهم فى صورة أساطير . وانسان القرن الثلاثين قبل الميلاد ، والذى ليس لديه الا عينيه وقوة ملاحظته ومتابعته للظواهر الطبيعية ، سيختلف قطعا

عن انسان القرن العشرين الميلادى ، الذى ورث عمن سبقوه كروية الأرض ودورانها حول نفسها ودوران الكواكب حول الشمس الثابتة ٠ لقد قام انسان القرن العشرين الميلادى بارتياد سطح القمر علىقدميه ، وقامت سفن الفضاء بغزو الفضاء ، وتم تسجيل أسرار علمية جديدة مثل الأشعة الكونية والجاذبية الأرضية والمجالات المغناطيسية وتمدد الكون، ونجد المفهوم الحديث للمكان والزمان متغير تماما عن كل النظريات السابقة ٠ فنرى النظرة الى الكون تحمل تفسيرات تعتمد على العلم وليست كالأساطير القاصرة على محاولات تفسير الكون ٠ ونجد علماء اليوم يقولون :

« وقد يكون من الأفضل أن نعتبر الكون ظاهرة شاملة : أو بعبارة عالم الرياضيات الألمانى « هرمان ويل » Herman Weyl (١٨٨٥ ـ ١٩٥٥) » العالم لا يحدث ، وانما هو ببساطة موجود ولا يحتاج الأمر أن يكون للعالم بداية ، لتسير المجريات فيه فى طريق مرسوم بدقة صوب نهاية غير معلومة ٠ ويعد العالم على الأصح بمثابة مكان ـ زمان ، مادة وتفاعلات ، فى اطار امتداد من الماضى الى المستقبل ومن موقع الى موقع ومن حدث الى حدث فى شبكة واسعة من التعقيد والوجود » (٢٥٧) وتحت عنوان « العقل والكون » يقول المؤلف :

« وقد يبعث المنظور الكونى على الرهبة والاستثارة ولكنه ليس بمنظور الجنس البشرى ٠ فالانسان ينظر الى الكون من حوله ويسعى الى الفهم والتفسير والتبرير ٠ وعلى خلاف « الاله » الذى يتجاوز المكان ـ الزمان ، يعد الانسان جزءا من المكان ـ الزمان ومن هذا المنطلق ، لا يتوافق ما ناقشناه فى هذا الكتاب من نظريات متعلقة بالكون مع المدارك الحالية للجنس البشرى ٠ وانما يرون الكون من خلال نافذة صغيرة هى نافذة العقل البشرى » (٢٥٧) ٠

ويحاول المؤلف توضيح هذه الصورة بأن الصورة التى نراها من خلال هذه النافذة تشبه « الفيلم السينمائى » ٠ انها بمثابة شريط يجرى ، ويبدو العالم مليئا بالنشاط ٠٠ لماذا ؟

« ان الأشياء تحدث لأن الزمان « يجرى » ٠ وهل هناك قول أكثر بداهة من ذلك ؟ ومع ذلك فكم هو غير مفهوم ؟ كيف يجرى الزمن ؟ والزمان هو جزء من المكان ـ الزمان ٠ فما هو الشىء الذى يجرى فيه الزمان ؟ وبأى سرعة هو يجرى ؟ أبسرعة يوم فى اليوم ؟ » (٢٥٨) ويتحدث المؤلف عن الزمان الفيزيائى وعن الماضى والحاضر والمستقبل فيقول :

« ويتخذ الاحساس البشرى بالزمان عدة مستويات تتجاوز الزمان الفيزيائى ــ فالفيزياء تميز بين الماضى والمستقبل ، بينما يميز العقل بين الماضى والحاضر والمستقبل · اننا « نتذكر » الماضى و « نخطط للمستقبل » ولكننا « نتحرك ونعمل » الآن · وتمثل اللحظة الراهنة لحظـة تعاملنـا مع الكون ــ ويمكن دائما أن نغير العالم فى هذه اللحظـة » (٢٥٨) ·

وفى كل يوم نسمع عن اكتشافات جديدة وكمثال لذلك ما اكتشفه فخر علمائنا المصريين الدكتور « أحمد زويل » ((الفيمتوثانية)) · كنا من فترة قصيرة ماضية نقول (طرفة عين) كأقل فترة زمنية وأصبحت طرفة العين هذه طويلة بالقياس بالفيمتو ثانية · فما بالنا بالانسان المصرى القديم منذ أكثر من خمسة آلاف عاما ؟ ويشـاركنا العـلامة « ب · س · ديفيز » مؤلف كتاب « المفهوم الحديث للمكان والزمان » فى تقديرنا لمحاولات الانسان القديم فى تفسير ما يراه حوله فيقول :

« ولقد شهد التاريخ تطورا فى المحاولات البشرية الراميـة الى ايجاد قوى خارقة تبرر بها خصائص الظواهر الطبيعية · وليست هناك أسباب واضحة لهذه المحاولات · وقد تصورت المجتمعات البدائية ، التى لم يكن لها معرفة بالعلوم الفيزيائية ، وجود آلهة من شتى الأنواع ، كل منهم بقدرة معينة ، فمنهم من يجلب المطر ومنهم من يسبب الفيضانات ومنهم المسئول عن الضوء وهلم جرا · وكان الناس يسمون هذه الآلهة الأوائل بالصفات البشرية ، حيث كان يعتقد أن لهم أجسـاما مادية يشبهون بها الانسـان بينمـا لا تختلف قدراتهم العقلية ودوافعهم كثيرا عما يتصف به الأطفال · وكثيرا ما كان الاله يتخذ فى ذهن الناس صورة المقـاتل الخارق المشـترك فى النزاعـات القـائمة بين القبائـل المحليـة » (٢٥٩) ·

وأعتقد بأننا لابد أن نجد العذر للمصرى القديم فى كل محاولاته الرامية الى تفسير الكون وكل ما يدور حوله عن طريق الأسـطورة · و « الأسطورة ليست مجرد حكاية خرافية بل هى منهج فكرى استخدمه الانسان القديم ليعبر فيه عن نظرته فى الكون ، بدء الخليقة ، نظام الكون ، الصراع الأزلى بين الخير والشر الخ ، ويطرح فيه تساؤلاته عما يراه من تناقضات تشوب هذا النظام الرائع الذى ابتدعه الاله الأعلى وسنة الحياة » (٢٦٠) · وتم ربط الأسطورة بالدين· وهذا شىء منطقى ، لأن العلم الحديث ذاته لم يسهم فى موضوعات مثل نشأة كل شىء ونهايته · وحتى فى تحليل العالم لمعنى الزمان والمكان نجد العالم يقول :

« ولا يكتمل تحليل المكان والزمان بدون دراستهما فى شموليتها • ويعد الكون هو الهيئة الشاملة للمكان ، وتاريخه هو الصورة الشاملة للزمان• فماذا يمكن أن يقال بشأن بنية الكون وحياته ، وعن مولده وفنائه ؟ ويبعث على الدهشة فى بعض الاحيان ألا يكون من شأن العلم أن يسهم بأى شكل فى موضوعات مثل نشأة كل شيء ونهايته • وعادة ما تعتبر هذه الأمور من اختصاص الدين أو الفلسفة » (٢٦١) •

وبهذا نجد أن عالم فى نهاية القرن العشرين يؤكد على أن موضوعات مثل الكون ونشأته من اختصاص الدين أو الفلسفة . وهذا ما فعله كتاب الأساطير المصرية فقد صاغوها فى قالب شبه فلسفى واقترنت هذه الأساطير بالدين ، لانها تتناول قوى غيبية أقوى مما وجد فى الطبيعة المحيطة بهم • وان كان الفيضان عنصرا تأثروا به فى صياغة بداية الكون فى الاشارة المستمرة للمياه الأزلية السابقة عن خلق العالم ، وكان بروز الأرض التى تظهر للناس بعد انحسار المياه عن الحقول وتحدث عنها مؤلفى الأساطير وترددت فى كثير من الأساطير (وجود لجة من المياه الأزلية سابقة لظهور المخلوقات • وكان المصريون يطلقون على المحيط الأزلى « نون » أبا الآلهة وأطلقوا على الأرض انبثاق « التل الأزلى » • وأشارت بعض الكتب التى تحدثت عن الأساطير بأن هذه الصورة مأخوذة من منظر الفيضان الذى يغمر الأرض كلها وعندما تنحسر المياه تظهر التلال الطينية ، ويرى العالم البريطانى فى كتابه (الرمز والأسطورة) أنه « كان للخروج من المياه أربعة مظاهر ، هى انبثاق الضوء والحياة والأرض والوعى • وتختلف أساطير الخلق التى تصف الخلية من حيث العناصر التى تؤكدها : فعندما بزغ الضوء لأول مرة انفصلت الأرض عن السماء » (٢٦٢) •

وتصور الأساطير الحياة فى هيئة ثعبان منتصب أو زهرة تخرج من المياه وتتفتح براعمها لتميط اللثام عن أول ضوء • وتعنى الأرض انبثاق « التل الأزلى » أو « الموطن الأول » أو « العرش الأزلى » ومعه منشأ النظام والادارة (٢٦٣) • وينطوى مفهوم عالم الأحياء على وجود العقل والارادة • وقد تناول العالم البريطانى « الكلمة » الأولى و « الأمر » أو « الارادة » و « الفهم » بأنها أمور لا ترد منفصلة فى أى من أساطير الخلق التى تتضمن مجموعات مركبة من رموز متعددة • وقد أورد هذا العالم التحفظ التالى : « مصر القديمة لم تعرف أسطورة رسمية أجمع عليها رجال الكهنوت لتفسير بدء الخليقة ، وربما يرجع ذلك الى احساس المصرى بأن نشأة العالم يحفه الغموض والتعقيد حتى يتعذر تفسيره دائما باستخدام نفس المصطلحات • ولقد اعتاد علماء المصريات على اعتبار

الرموز التى تحفل بها أساطير الخلق رموزا مشتقة من سلاسل أسطورية مميزة متصلة بأهم المعابد مثل هليوبوليس « وهرمو بوليس » « وممفس » « وطيبة » . بيد أن الشكوك أخذت تحوم حول صحة هذا الرأى حديثا حيث لم تعرف مصر أسطورة خلق أساسية حتى فى أهم مراكز العبادة » (٢٦٤) .

كثيرا ما يخلط الناس بين الأسطورة والخرافة بل يذهب البعض الى أن الأساطير كلها خرافات وهذا مفهوم خاطىء فالخرافة لا تستند الى أى أساس مثل ارجاع الاصابة بالأمراض الى عين الحسود وما الى ذلك مثل (مس الشيطان) أما الأساطير فهى محاولة تفسير لأشياء وقعت أولها علاقة بالكون والظواهر الطبيعية وقد يكون التفسير قريبا من الحقيقة وقد يكون بعيدا عن الحقيقة فغروب الشمس ثم شروقها فى الصباح حقيقة وظاهرة طبيعية ومحاولات التفسير تختلف فمثلا تخيل المصرى بأنها تستكمل رحلتها تحت الأرض من الغرب الى الشرق لكى تعود الى الظهور فى الشرق مرة أخرى فى الصباح التالى . لم يكن يعرف الانسان القديم بدوران الأرض حول نفسها وبدورانها حول الشمس ، فلم يكن قد وصل تقدمه العلمى الى هذا الحد . ولم يسخر العلماء من الأساطير مثلما يفعل بعض الناس بل حاولوا أن يفسروا ما كان يسعى الى شرحه الانسان الأول عندما رأى البرق وسمع الرعد ورأى الفيضانات وهى تغمر وتدمر أراضيه ، كما لاحظ دون أن يفهم التتابع البطىء لفصول السنة ، ولاحظ اختفاء بعض النجوم وتغير موقعهم فى السماء ولاحظ أن نجوم القطب الشمالى هى الثابتة فكان يسير على هديها فى الترحال فى الصحراء ليلا . وحتى بناة الأهرام بنوا جميع مداخل الأهرامات فى اتجاه الشمال لكى يعيش « مع نجوم السماء الخالدة » ويعنى نجوم القطب الشمالى التى لا تختفى عن نظره طوال العام . ويفسر مؤلفى « الموسوعة الأثرية العالمية » الاختلاف الجوهرى بين موقف الانسان الحديث وموقف الانسان القديم ويوضح الفرق بين دهشة الانسان البسيط لما يراه حوله وبين علماء ومثقفى هذه الحقبة من الزمن فهم الذين قدموا له التفسير وهم الذين سطروا الأساطير والكهنة والأطباء السحرة هم علماء ذاك العصر . « فالكاهن أو الطبيب الساحر كان هو الذى يخبره (يخبر الانسان البدائى) متى يفيض النهر ، ومتى يسقط المطر ، ومتى يزرع ومتى يحصده » (٢٦٥) .

« وكان على الكاهن أن يفسر الأشياء ، يفسرها لنفسه ولأتباعه ، ولا نقول أن طبقة المثقفين كانت تخدع أتباعها عن قصد ، ولكن كانت الوسيلة الوحيدة لتفسير ما نسميه « بالقوى الطبيعية » هو تبسيطها

فى صورة انسانية ٠ فالرعد والمطر والبرق والفيضان والبحر والبر والجبال والسهول والولادة والحب والموت والمرض والداء لم يكن فى الامكان ادراك كهنها الا بالتعبير عنها باصطلاحات انسانية ، وكما عبر الأستاذ « فرانكفورت » (مؤلف كتاب « المغامرة الذهنية للانسان القديم ») أن « الاختلاف الجوهرى بين موقف الانسان الحديث وموقف الانسان القديم فيما يختص بالعالم المحيط به هو أن العالم الحديث ينظر للظواهر الطبيعية فى العالم على أنها مجرد جماد (« هى » للجماد (It) بينما نظر اليها الانسان القديم وكذلك الانسان البدائى على أنها شخص حى يخاطب (أنت) ، فالانسان البدائى كان له أسلوب واحد للتفكير واسلوب واحد للتعبير واسلوب واحد للتخاطب هو الأسلوب الشخصى ، ولا يعنى هذا أن الانسان البدائى ، لكى يفسر الظواهر الطبيعية ، يفيض صفات انسانية على دنيا الجماد ٠٠ فالعالم لا يبدو للانسان البدائى جمادا أو خاويا له نابضا بالحياة ، وللحياة شخصية فى الانسان أو الحيوان أو النبات ٠٠٠ » (٢٦٥) ٠

ان فكرة وجود حياة أو روح فى الظواهر الطبيعية التى رآها الأقدمون هى التى أوصلت الينا تفسيرات شعبية لا يزال بعض العوام يرددونها فعندما كنت طفلا وأسأل والدى عن سبب سقوط المطر كان يقول لى بأن الملائكة تملأ الماء من الأوانى لديها وتقذفنا بها ٠٠ بل كان الصبية والفتيات الصغيرات يغنون وهم يخاطبون المطر كأنها شخص يسمعهم « يا مطرة رخى رخى على قرعة بنت أختى » هل يختلف هذا كثيرا عن ادراك الانسان الأول ؟ ويقول مؤلفو « الموسوعة الأثرية العالمية » واذا ما رأينا معبدا قديما قد نتعرض للتفكير ، نعم ، هذه الشعوب صنعت الأدوات والأسلحة ، وعاشت فى مساكن مريحة وصنعت الخبز والخمر وأحبت وتزوجت وأنجبت أطفالا ، وماتت ، تماما كما نفعل نحن الآن ، وكذلك بنوا الكنائس ، فاذا أخذنا بهذه النظرة السطحية أننا لن نفهم أبدا دنيا أسلافنا ، فقد كان المعبد لديهم مقر القوة ومنبع الطاقة ، وفيه وفى كل الرجال الذين يقومون على خدمته تكمن الحياة وكل قوة وكل مفهومية ، ولهذا فان أجدادنا قد أعطوا وقتا أطول وعناية أعظم وحبا أكبر لبناء بيوت آلهتهم وفى اعداد مقابر موتاهم أكثر بكثير مما نفعل نحن حاليا ٠

« وفى بعض الحضارات مثل حضارة مصر القديمة سيطرت طائفة الكهنة بقوة على الشعب حتى أن المجتمع المصرى بقى ثابتا غير متجدد نسبيا لمدة ٣٠٠٠ سنة تقريبا ، فاذا فحصنا نقشا غائرا يرجع تاريخه الى ٢٧٠٠ ق٠م ٠ وقارناه بنقش آخر يرجع تاريخه الى ٣٠٠ ق٠م ٠

فاننا - فيما عدا التطور فى الأسلوب - لا نجد تغيرا يذكر ، فالعرف والتقاليد ولو أنهـــا تثبت المجتمع لا أنهـــا قد تكبت التطور وتكبح جماحه » (٢٦٦) ٠

ان موضوع (الثبات) أو الاستمرارية التى يدركها كل دارس التاريخ المصرى القديم يرجع الى أهم مقوم من مقومات الشخصية المصرية الا وهو « التدين » والموضوع ليس سيطرة رجال الكهنوت على الشعب فى الفترة الفرعونيـــة الشعب قام بثورة اجتماعية دينية بعد سقوط الدولة القديمة بل يمكننا أن نقول ان الثورة على الاقطـاع وعلى احتكار الفرعون وحاشيته للخلود هى التى أسقطت الدولة القديمة ٠ والشعب هو الذى أجبر الكهنة على تغيير النصوص الواردة فى « متون الأهرام » والتى كانت تعنى فقط بضمان وصول الملك للسماء حيث يتمتع بالخلود هو ومن يختار من رجـال حاشيته وفرضت الديانة الشعبية نفسها على رجال الكهنوت المعنيين أساسا بالديانة الرسمية والتى تتمثل فى عبادة (رع) وبالجنة السماوية التى كانت مخصصة للملك وبعضا من حاشيته فى حين كان الشعب مكانهم الأرض وأخذ (أوزير) يأخذ وضعا متميزا واضطر أخيرا الكهنة أن يوفقوا بين الديانة الشعبية والديانة الرسمية بجملة « الأمس هو أوزير والغـد هو رع » ثم قالوا بن رع وأوزير هما واحد ٠ بهذا نرى بأن صوت الشعب كان عاليا ومؤثرا وليس كما يرى بعض العلماء بأن الكهنة هم الذين كانوا يقودون الناس ٠٠ المسألة هى أن الكهنة يعرفون كيفية مخاطبة الوجدان المشبع بالتدين لدى الشعب ٠ وهذا الأساس الثابت كان أقوى من مجرد المسميات للآلهة طبقا لنفوذ رجال كهنوت مدرسة دينية معينة فى زمن معين ٠ التدين هو السـمة الأولى والقوية فى وجدان وكيان الشخصية المصرية ٠ التدين هو الدفء الروحى والنفسى والعاطفى للانسانالمصرى الذى يرتبط بالقوة الكبرى ويحس بالقوة فى مواجهة صعوبات الحياة ٠ انظر الى أى شخص متدين والاحساس بالأمان يسيطر عليه ويحس بالسكينة وهو يردد « ربنـا موجود » وهو المعين والبلسم والشفاء لكل الجروح النفسية ٠ وعندما يتعرض للظلم يردد الانسان الواثق بالله « ربنا على الظالم » فحتى لو لم تنصفه القوانين المدنية فان هناك قانون أسمى وأكثر عدالة ٠

نعود للأســاطير وأهميتها فى تنــاول الميتافيزيقيا وفى محاولات تفسير الظواهر الطبيعية وفى شرح ماهية الكون والموضـوعات الغيبية مثل الخلق والخليقة والبعث والجنة والنار وعـلاقات القوى الكونيـة ببعضها وعلاقة الانسان بالقوى العظمى - قوى ما وراء الطبيعة ٠ ونبدأ بوجهة نظر عالم النفس « كارل يونج » فانه يقول : « الأسطورة تكشف

من توافق بايقاعات النفس مع ايقاعات الطبيعـة ، وبين الصراع بين « النور والظلام » أو بين « الحق والباطل »(٢٦٧) . وكان يونج قد اعتبر « الأنماط الأولية » (النماذج البدائية) التي هي مضمون اللاوعي الجمعي ، انها المسئولة عن صنع « الصور النمطية » التي هي مضمون اللاوعي الجمعي ، انها المسئولة عن صنع « الصور النمطية »المألوفة في الأساطير ، وفي الأحلام ، وفي الفن ... وبدت الأسطورة كموسوعة للأنماط النفسية والانفعالات العامة » (٢٦٧) وعرف الأساطير في موضع آخر بأنها ما هي « الا تعبيرات رمزية تصور ما جريات الأمور في أعماق النفس البشرية في مقابل أحداث الطبيعة الخارجية » (٢٦٨) .

ويرى الدكتور « سيد عويس » « أن الأساطير كانت المحاولات الأولى للناس ، في الأزمان الغـابرة لتفسير ظواهر الطبيعـة وظواهر المجتمع . حيث كان ينقصهم التفسير العلمي لهذه الظواهر ، فلجأوا الى الخيال والأوهام . أي أن الأسطورة عبارة عن الاجابة على السؤال : كيف تحدث ظاهرة طبيعية معينة ، أو ظاهرة اجتماعية معينة ؟ والاجابة على السؤال : لماذا تحدثان ؟ » (٢٦٩) ... ويتناول الدكتور (فوزي فهمي » موضوع الأسطورة في تناوله الدراما الاغريقية وكرر ما قيل عن الأساطير بأنها تدور حول ركائز ثلاث هي : الانسان والطبيعة والآلهة . وهي ملاذ قلبه وملجأ روحه يكشف فيها عن مكنون نفسه ويؤكد على اختلاف الأسطورة عن الخرافة فيقول : « ان الأسطورة ليست خرافة ، بل هي قائمة على أساس ثابت من الحقيقة ، فالمضـمون الذي تحويه الأسـطورة عملا خياليـا محضـا بالنسبة لأصحابها القدماء ، وذلك الأسـطورة ليس عملا من ابداع شخص واحد ، ولكنها عبارة عن استخراجات الواقع المحيط بالشعب ، وان كانت الأسطورة لم تكتف بهذا المضمون المستخرج من الواقع المحيط بالشعب ، فانها أضافت الى مضمون الأسطورة تلك الأشواق الروحية » (٢٧٠) واستطرد يقول : « فالأساطير على الرغم من سذاجة مفهومها بالنسبة لنا ، الا أنها تعتبر واقعا كان يوما يحيط بالأشخاص الذين صاغوها ، وكانت بالنسبة لهم أيضا ، علما ، وفلسفة ، ودينا . لقد اعتبرها أحد العلماء بأنها (علوم عصر ما قبل العلوم) وكذلك يرى « سير جيمس فريزر » ما يراه الرأي السـابق ، ويقول في ذلك : « انها تقوم على الايمان بنظام دقيق في الظواهر ، فالانسـان القديم كان يعتقد انه اذا قام بطقوس معينة ، نزل المطر وانتصر في الحرب ، تماما كما يؤمن الانسان الحديث أنه اذا توافرت ظروف معينة تحول السـائل الى بخار ، وتحولت الطاقة الى حرارة » وبذلك يحق لنا أن نقول « يخطيء هؤلاء الذين يأخذون الأساطير على أنهـا خرافة فحسب ، ليس فيها من الواقع والأهداف شيء سوى

ما تضم من خيالات غريبة شاردة لا تصلح لغير الأطفال ، فما كانت الأساطير شيئا من هذا أبدا ، والا لما استطاعت قط أن تكون هذه هى الأعمدة الخالدة التى قامت عليها أركان الأدب العالمى ، ولما أصبحت هى الجذور التى تفرعت منها هذه الألوان فى الأدب والفنون » (٢٧١) ٠

وقد أحرزت « الدراسات السوسيولوجية تقدما فى مجال رمزية الأسطورة على اعتبار أنها المادة الحقيقية التى ينبغى الرجوع اليها من أجل التعرف على الجوانب الخفية فى حيـاة المجتمع ٠ وقد توصـل الباحثون الى وجود تشابه بين أساطير الشعوب المختلفة ، رغم ما يفصل بينها زمانيا ومكانيا٠ أما الأنثروبولوجى « ياكوب باخوفى J. Bachofen فيشير فى كتاباته الى الرابطة القومية بين الأسطورة والرمز حيث وجد أن العديد من مظاهر الحياة التى كانت ترد فى الأساطير ما هى الا رموز تمثل معنى « الخصوبة » (٢٧٢) أما « ادوار بيرنت تايلو « E. B. Tylor » فقد تعرض فى دراساته الأنثروبولوجية الحديثة للعديد من أنساق الرموز ، ومن رأيه أن الشعوب البدائية تتمتع بقدرة خاصة على صنع الأساطير ، ويرجع ذلك الى نظرتهم الشمولية الى الكون ، والى ايمانهم بحيوية الطبيعة لدرجة تصل الى امكانية تجسيد كل مظاهرها ، وفى ضوء ذلك توصل الى أن الجوانب الرمزية فى الممارسات ، والشعائر السحرية ، فى ثقافات القبائل البدائية ، بما تتضمنه من رموز لآلهة مجسدة ، ليست الا تجسيدا لأفكار غامضة ، عن الكائنات العليا ، التى تملأ الكون ، والانسان البدائى لا يدرك ما هيتها ، لأنه كان مايزال لا يميز بين الرمز (الاله المجســد) والفكرة التى يرمز اليها ، فهمـا يختلفـان معا فى ذهنـه » (٢٧٣) أما الأسـطورة فى مفهوم « روجيـه جارودى فهى عمل انسانى أصيل يهدف الى تجاوز الطبيعة ، ومهمة الفن هى خلق الأسطورة » (٢٧٤) ٠

بهذا نجد أن الكثيرين يؤكدون على أن الأسطورة ما هى الا التعبير عن العالمين الداخلى والخارجى ، بل أن الأسطورة تفهم أحيانا على أنها استعارات من المظاهر الطبيعيـة للأرض ٠ وتحت عنوان « الأسـاطير الفرعونية والرمز » (٢٥٧) يقول دكتور « محسن محمد عطية » : « كان المصريون القدماء يستخدمون صور الكائنات كرموز تدل على أمور معنوية، ومن هذه الرموز « الحية » التى تمثل رمز الحكمة ، والتى تصور على صولجان « أوزيريس » وتكلل تاج « ايزيس » ٠ وكانت كائنات « العالم الالهى » بالنسبة للعقليـة القديمة ، تدرك ب « الرمز » الذى يحول عناصر ذلك العالم الى مظهر ملموس ، يدرك بالحواس ٠ هكذا استخدمت التصورات الأسطورية فى العقيدة الفرعونيـة ، التى ظهرت فى هيئة

رمزية مثال : « البقرة السماوية » وتمثل المرأة « نوت » وكذلك « المحيط السماوى » ، انها تلد كل يوم عجلا (هو الشمس) حيث ينمو فحلا ، لكي ينجب عجل الغد · وقد اشتملت النصوص المنقوشة على جدران هرم آخر ملوك الأسرة الخامسة (الملك أوناس) على تعاويذ « حورس » شكل الصقر · وهناك صورة اللاله حورس ، منقوشة على على أنه قد حدث على أجنحة الصقر · وبقيت فكرة « العجل السماوى » ومضمونها أن الملك قد أرضعته بقرة · وقد رأينا فى النقوش الفرعونية العديد من صور الملوك فى هيئة « العجل » القوى المنتصر على أعدائه ، مثلما هو منقوش على وجه صلاية « نعرمر » (مينا) ، حيث يظهر العجل (رمز الملك) يهدم حصنا · ويظهر الملك على الوجه الآخر من الصلاية ، وقد تزين رداؤه بذيل ثور » (٢٧٥) ·

« تحكى الأسطورة المصرية القديمة عن « المحيط البدائى » بأن التل البدائى قد برز فوق سطح الماء ، يحمل أول كائن حى ، وقد تمثل فى صورة « الثعبان » (الذى كان يعتبر الجسم الأول لأى « اله) أو « الجعل » ··· ومن المعتقد أن أسطورة « تل الأرض الأزلى » ترمز فى الميثولوجيا الفرعونية الى نهر النيل ، عندما تنحسر مياهه عن الأرض · أما « تحوت » الذى كان يرمز الى « الشكل الأول للفكرة » فقد بدا على هيئة قرد ، أو على هيئة الطائر « أبو منجل » ، كما اتخذ مشط من العاج للملك « جت » (الملك الثعبان) من حوالى عام ٢٩٠٠ ق·م· ، وقد مثل واقفا فى زورق فوق السماء مرة وأخرى وهو يقف تحت السماء · انه يمثل « حورس السماوى » رب السماء ، و « حورس الأرض » ملك مصر ·· أما حورس شمس النهار ، ونجم الليل ، فهو تصوير تأملى لحورس الاله والملك ، قد جاء بعد توحيد مصر » (٢٧٦) ·

ويرى فرويد أن « الأسطورة مثلا ان هى الا شظية أبقى عليها الزمن من طفولة الحياة النفسانية للجنس البشرى ، أما الأحلام فهى الأسطورة الخاصة بالفرد » (٢٧٧) أما العالم البريطانى « رندل كلارك » ـ مؤلف كتاب (الرمز والأسطورة فى مصر القديمة ـ فقد عقد مقارنته بين الأساطير باعتبارها قصصا مترابطة طويلة وأنها ظاهرة حديثة وبين أساطير المصريين المبكرة التى كانت سندا للطقوس · ووجد أن معظم أساطير المصريين الأولى تتألف من وقائع قصيرة يمكن أن تروى فى جملتين وهى لا تمثل أحداثا مترابطة طويلة مثل حضارات سومر ، ذلك لأن الأساطير فى عرف المصريين ليست مجموعة من النصوص بل لغة وذلك يفسر قدرة المصريين على تعديل أفعال الآلهة أو اضافة المزيد اليها أو حتى

ظهور الأساطير من جديد بأبطال آخرين دون أن يفطنوا الى حدوث تضارب فالثبات ليس شرطا اساسيا من شروط الأسطورة ، حيث أن الأساطير قد أبدعتها عقول تفتقر الى التناسق والثبات الفكريين بمعناهما المنطقى . لقد كانت الأسطورة أسلوبا للتعبير عن تطورات المرء فى الكون وعن حاجات الروح الانسانية قبل ظهور الفلسفة المنفصلة عن الدين عند الاغريق ، وهو السر فى بساطة الأساطير المصرية وفى غرابتها وأحيانا فى عمقها . انها الحلم والمتافيزيقيا والشعر كله فى آن واحد . ويمكن تلخيص المبادىء التى تأسست عليها الأساطير كالتالى :

- حددت الآلهة المبادىء الأساسية التى تقوم عليها الحياة والطبيعة والمجتمع .

- تتحتم الاشارة الى « المرة الأولى » حينما يريد المصريون تفسير علة وجود شيء .

- كانت كل مظاهر القوى سواء طبيعية أو بشريا تمثيلا جديدا لبعض الوقائع الأسطورية .

- تنقسم القوى المعادية الى أعداء رئيسين وأتباعهم ولم يكن للاله أن يموت (عدا أوزيريس) والا انقطعت صلة الأسطورة بنظام الكون . ومن ثم كبح جماح الأعداء الكونيين (أبو فيس وست والعين) بينما حاق الدمار باتباعهم .

- كانت فكرة الروح واحدة من أكثر الأفكار شيوعا فى الديانة المصرية القديمة .

- يتصل بالروح والشكل والهيئة (خبرو) « كان الاله الأعلى قد مر بسلسلة من التحولات الصورية أثناء نشأته وتطوره من الحياة الأولى التى انبثقت من المياه ، ومن الممكن أن يتشكل فى صورة راع يرعى قطيعه أو ملك على عرشه ، أو تمثال مقدس فى مقصورته ، فضلا عن صوره القديمة مثل زهرة اللوتس والطفل المقدس والصقر والثعبان والكبش الخ . وبفضل تلك الفكرة لم يجد المصريون غضاضة فى تقبل أن يكون خنوم (كبش الألفنتين) الذى يشكل البشر على عجلة الفخرانى هو أيضا الاله الأعلى فى صورة أخرى ولقد حافظت « الصور » على تماسك الأساطير وحالت دون تفكك الديانة المصرية الى مجموعة من العبادات المستقلة .

- كانت كل الآلهة فى حقيقتها صـــورا للآلهة العظمى الواحدة وهو ما يفسر تحول العـين فى قصـة تمرد البشر على « رع » الى « سخمت » كما يبرر سهولة الخلط بين حتحور وايزيس ·

- لقد رأى المصريون فى **الكلمة الخالقة** الأساس المنطقى الذى يقوم عليه عالمهم ·· ان النصوص القديمة توحى دائما بمعان أعمق وأبرع وأكثر عقـلانية مما نتصـور مهما بالغت فى اسـتخدام الاستعارات أو رواية الأحـداث · ولم تكن الأساطير دائمـا رواية لقصة ، بل كانت تفسيرا للكون على لسان مؤمن بالديانة المصرية·

- صيغت الأساطير فى أوساط تقية ورعة بل ومحافظة على التقاليد الدينية · بيد أننا نرى أن المصريين قد حاولوا بين الحين والآخر الفكاك من قيود اللاهوت ، وشرعوا فى استخدام لغتهم الأسطورية فى كتابة الطرائف أو لوصف الطبيعة أو لتوسيع فهمهم لطبيعة الفرد · ان هذا لا يعنى سوى أن مصر القديمة كانت حضـارة متكاملة ، وأن أساطيرها كانت ثرية ثراء الحياة التى تعكسها ومتعددة قدر تعدد أوجهها » (٢٧٨) ·

بعد هذه الكلمة العامة عن الأساطير وأنها تختلف عن الخرافات وعن دورها الأساسى فى شرح ما يدور حول الانسان وما يتخيله عن الخليقة ـ السابقة لوجوده على الأرض ـ وعن حياته الآخرة المتمثلة فى البعث والمحاسبة عن أفعاله فى صورة المحاكمة فاننى أعرض باختصار أهم الأساطير التى تتعلق بهذه الموضـوعات الحيوية لكى نتمثل خيال وتفكير المصرى القديم ·

متـــون الأهـــرام

« تعد « متون الأهرام » بحق أهم مصدر يضع أمامنا صورة عن الحالة الدينية والعقلية والاجتماعية فى تلك الأزمان السحيقة » ·· (٢٧٩) « ولقد كانت الغاية المطلوبة من وضع متون الأهرام على وجه عام هى ضمان السعادة فى الحياة الأخروية ·· لذلك نجد أبرز شىء فى هذه المتون الاحتجاج الملح بل **الاحتجاج الحماسى ضد الموت** ، ويمكن أن نعبر عن هذا الاحتجاج بأنه صورة لأقدم ثورة عظيمة قام بها الانسان ضد الظلمة والسكون العظيمين اللذين لم يفلت منهما أحد (القبر) · وكلمة الموت لم تذكر قط فى « متون الأهرام » الا بصيغة النفى أو مستعملة للعدو

فترى التأكيد القاطع بحياة المتوفى : « الملك « بيبى » لم يمت بل جاء معظما فى الأفق ، هيا أيها الملك « أوناس » ! انك لم تسافر ميتا بل سافرت حيا ، لقد سافرت لكى يمكنك أن تعيش ، وانك لم تسافر لكى تموت » . « انك لن تموت ، هذا الملك « بيبى » لن يموت » الملك « بيبى » لا يموت بسبب أى ملك ٠٠٠ ، ولا بسبب أى ميت ، هذا الملك « بيبى » يعيش أبدا ، عش ! انك لن تموت ، واذا رسوت [استعارة للموت] فانك تحيا [ثانيا] « هذا الملك « بيبى » قد فر من موته » « وهكذا نجد تجنب ذكر الموت باستمرار فى هذه المتون ، وكثيرا ما تختم صيغة تجنب الموت بالتأكيد الآتى : « انك تعيش ، انك تعيش ، أرفع نفســـــك ، انك لن تموت ، فقم ، ارفع نفسك « أو » أرفع نفسك أيها الملك السامى **بين النجوم** التى لا تفنى [وهى النجوم الثوابت] ، انك لن تفنى أبدا » (٢٨٠) ٠

ان « متون الأهرام » موجودة فى أهرامات ملوك الأسرة الخامسة والسادسة وهى منقوشة فى ثمانية من أهرام سقارة ، وتحتوى على ستة موضوعات : شعائر جنائزية ــ شعائر قديمة خاصة بالعبادة ــ أناشيد دينية قديمة ــ تعاويذ سحرية ــ صلوات وتضرعات لفائدة الملك المتوفى ــ وأجزاء من أساطير قديمة ، وتشتمل على ٧١٤ صيغة ٠ « ولما لم يكن فى مقدور متون الأهرام زعزعة الرأى القائل بوجود الحياة فى القبور فانها لم تعر هذا الرأى اهتماما كبيرا ، بل وجهت جميع همتها تقريبا الى حياة فى نعيم يقع فى مملكة بعيدة ٠٠ ومما تستحق معرفته والاهتمام به أن تلك المملكة البعيدة لا يراد بها الا « **السماء** » **و** « **أن متون الأهرام لا تعرف شيئا تقريبا عن الحياة الأخروية المظلمة التى توجد فى العالم السفلى** ٠ ولذلك فان عالم الأموات عندهم لا يراد به الا « **العالم السماوى** » بهذه الصيغة ٠ وقد اختلط فى تلك الآخرة السماوية المذكورة فى متون الأهرام مذهبان قديمان :

أولهم يمثل المتوفى **بصورة نجمية** ٠ والثانى يصور المتوفى حالا فى اله الشمس ٠ أو بعبـــارة أخرى يصـــور ذات المتـــوفى بأنه نفس **اله الشمس** » (٢٨١) ٠

« وقد بينت « متون الأهرام » ٠٠ أن روح الملك عندما تخرج من ذلك الممر يحملها هذا الاتجاه على الصعود فورا الى النجوم القطبية **ومع** أن المذهبين المذكورين **النجمى والشمسى** يوجدان معا جنبا لجنب فى **متون الأهرام** ٠ فاننا نجد أن المذهب الشمسى هو السائد بدرجة عظيمة حتى يصح لنا بوجه عام أن **نصف متون الأهرام بانها شمسية الأصل** ٠ ومن المحتمل أن يكون الاعتقاد بالمصير الشمسى قد نشأ فى عقيدة قدماء المصريين

عن طريق شروق الشمس ثانية كل يوم بعد غروبها ، فكان يحدث بذلك الموت على الأرض ، وأما الحياة فكانت تكتسب فى السماء فقط وهو المكان الأعلى الذى يرفع اليه الملك فوق المصـــير المحتوم الذى يذهب اليه عامة الناس « الناس يفنون وأسماؤهم تمحى فأمسك أنت بذراع الملك « بيبى » وخذ أنت الملك « بيبى » الى الســـماء حتى لا يمـــوت على الأرض بين النـــاس » (٢٨٢) ٠

نلاحظ أن « متون الأهرام » تخص الملك وتضمن سعادته في السماء وتؤكد على معنى الحياة الأخرى مع الانتصار على الموت ، والنص يكرر « انك لم تسافر ميتا بل سافرت حيا ٠٠ انك لن تموت ٠٠ انك تعيش ٠٠ انك تعيش ٠٠٠ بين النجوم التى لا تفنى ، كما نلاحظ ان مكان الملك هو السماء فى حين أن عامة الناس يفنون وأسماؤهم تمحى » لذلك كانت الثورة الاجتماعية ثورة دينية أيضا بمعنى أن **النـاس طالبت بحقها فى الخلود أسوة بالملك** وستتضح هذه النقطة عند تناول « نصوص التوابيت » « وكتاب الموتى » « وكتاب الطريقين » الذى يوضح بصورة قاطعة نجاح الديانة الشعبية (ديانة « أوزير ») فى ضمان الخلود لكل الشعب وأصبح أوزير هو القاضى فى مشهد المحاكمة فى الفصل ١٢٥ من كتاب الموتى ٠ وفى هوامش كتـــاب الديانة المصرية القديمة أعطانا المؤلف الفرق بين « متون الأهرام » « ونصوص التوابيت » فقال :

« وجدت نصوص الأهرامات لأول مرة على جدران ممرات حجرة دفن الملك « أوناس » من الأسرة الخامســـة وظلت حتى آخر الأسرة السادسة ٠ وكان المقصود بهذه النصوص هو ضمان سعادة الملك المتوفى وسلامته فى العالم الآخر ٠٠ وهى فى مجموعها عبارة عن ٧١٤ فقرة ٠ ويختلف وجود بعضها من هرم لآخر ٠ وغالبا أنها كانت عبارة عن مجموعة عقائد وأحداث عصور تعود الى ما قبل الأسرات حتى تاريخ نقشها ٠٠و٠٠ ظهرت « نصوص التوابيت » من أواخر الأسرة السادسة وانتشرت على جدران التوابيت انتشارا كبيرا أثناء عصر الانتقال الأول ٠ وفى حين أن نصوص الأهرامات كانت خاصة بالملوك فان نصوص التوابيت كانت تشمل **أيضا أفراد الشعب** ، وذلك نتيجة **للديموقراطية الدينية التى حصل عليها** ٠ وهى فى مجموعها تتألف من فصول لحماية المتوفى فى العالم الآخر حيث أصبح كل متوفى يتخذ لنفسه لقب « أوزيريس » » (٢٨٣) ٠

وأوضح العلامة « سليم حسن فى عرضه لمتون الأهرام بأن « تلك الفكرة القائلة بأن الحياة توجد فى السماء هى الرأى السائد ٠ وهى أقدم كثيرا من المذهب « الأوزيرى » فى متون الأهرام ٠ وقد بلغ هذا الرأى

درجة من القوة جعلت نفس « أوزير » يمنح بضرورة الحال آخرة سماوية شمسية ، وكان ذلك فى المرحلة الثانية التى دخلت فيها أسطورته فى متون الأهرام ... والموضوع الهام فى متون الأهرام هى تطلع المتوفى لحياة أخروية فاخرة فى أبهة حضرة اله الشمس حتى أن نفس القبر الملكى قد اتخذ من أقدس شكل يرمز به الى الشمس وهو الشكل الهرمى . وقد عمد لاهوت الحكومة الذى جعل الملك الابن المجسم والممثل للاله « رع » على الأرض الى تصوير الملك يسبح فى السماء بعد الموت ليسكن مع والده الى الأبد ، أو أنه يحل محله ويكون خلفه فى السماء كما كان خلفه فى الأرض . وعلى ذلك نجد أن الآخرة الشمسية هى فى الواقع المصير الملكى ، ولا يبعد أن ذلك المصير كان خاصا « بالفرعون » فقط ، ثم صار ذلك المصير فيما بعد بالتدريج لجميع البشر يشاركونه فيه . ولم يكن فى الامكان اعطاء ذلك الحق لهم الا بعد أن كان كل مطالب بذلك المصير يتصف بالصفة الملكية أيضا » (٢٨٤) .

« أمثلة من متون الأهرام » (٢٨٥)

من فصل ٤٦٧

« ان من يطير يطير ، وهكذا يطير الملك أيضا بعيدا عنكم يأيها الناس

انه ليس من أهل الأرض بل هو من أهل السماء

وأنت يا اله مدينته اجعل روح (كا) (الملك بجوارك)

ان الملك قد طار الى السماء فى صورة سحابة مثل طائر الواق

ان الملك قد قبل السماء كصقر » (٢٨٥)

ومنها فصل ٢٦٧ سطر ٣٦٤

« ان قلبك معك يا « أوزير » ، وقد مال معك يا « أوزير » . وذراعاك معك يا « أوزير »

وهكذا فان قلب الملك معه ، وقدماه معه

وقد ضرب له سلم (على الأرض) فهو يرقى فيه الى السماء

وانه يصعد (الى السماء) على دخان المبخرة العظيمة » (٢٨٥) .

« حور » المسيطر على حربة الصدق يعلن وصول المتوفى الى السماء (٢٨٦)

فصل ٤٤٠ ـ سطر ٨١٥ الخ

هل تريد أن تحيا يا « حور » المسيطر على حربة الصدق ؟

عليك اذن ألا تغلق مصراعى باب السماء ، ويجب عليك أن تردع مصراعى بابك الحائلين بمجرد أخذك روح (كا) هذا الملك الى هذه السـماء

بين المبجلين حول الاله ، الى هؤلاء الذين فى حظوة الاله

« وهم الذين يتكئون على صوالجهم والذين يسهرون على حراسة الوجه القبلى

والذين يرتدون ملابسهم الأرجوانية ويعيشون على التين

والذين يشربون الخمر ويدلكون أنفسهم بأحسن الزيوت

وعلى ذلك دعه (كا) يتكلم من أجل الملك للاله العظيم » (٢٨٧)

ويظهر من فصل ٤٦٧ أن الملك يطير الى السماء بعيدا عن الناس لأنه ليس من أهل الأرض ، وأنه طار الى السماء مثل « طائر الواق » وفى صورة سحابة وأنه قبل السماء مثل الصقر الذى يطير عاليا جدا ومن فصل ٢٦٧ هناك وسيلتان للوصول الى السماء : اما سلم يرقى الى السماء أو يصعد على دخان المبخرة العظيمة ومن فصل ٤٤٠ نعرف أن « حور » هو حارس الجنة بحربة الصدق التى يمسكها ويسيطر عليها ٠ كما نعرف عن ملبس أهل الجنة الفاخر المصنوع من قماش أرجوانى ويعيشون على التين ويشربون الخمر ويدلكون أنفسهم بأحسن الزيوت وأهم شىء هو القرب من الاله العظيم حيث تتحدث عن الملك « الكا » ٠

الأناشيد الدينية فى عهد الدولتين الوسطى والحديثة (٢٨٨)

« رغم أن الاله « أوزير » قد ذكر فى « متون الأهرام » ووجد الملك به باعتباره اله الموتى ، فان الديانة التى سادت هذه المتون كانت الديانة الشمسية ، أى عبادة الاله « رع » ٠٠ ولم نجد لعبادة أفراد الشعب فى هذه المتون أثرا ، وقد ظلت الحال كذلك الى أن أخذت ديانة الاله « أوزير » تظهر فى عالم الوجود ٠ والواقع أن اسم « أوزير » لم يظهر فى صلوات القوم الدينية الا فى عهد الأسرة الخامسة ٠٠ » (٢٨٨) ٠

ولما كان الملك المتوفى لابد أن ينتقل من عالم الجبـــانة الى عالم السماء ـ وتلك ظاهرة تصفها لنا « متون الأهرام » ـ كان يقوم برحلته

هذه طبعا تحت حماية الاله « أوزير » الذى كان فى الوقت نفسه يعتبر حامى الملك فى الجنة السماوية بالقرب من « رع » وبهذا انتزع « أوزير » من بين الآلهة الأرضية وأصبح فى عداد الآلهة السماوية ٠ وكانت نتيجة ذلك أن أدخل « أوزير » فى مذهب عبادة الشمس ، فصار بهذا **موحدا مع « رع »** ، وأصبح من الصعب فصل الواحد منهما عن الآخر ، اذ كان « أوزير » يعتبر روح « رع » وجسمه نفسه « كما سنرى بعد ٠ وعلى أثر سقوط الدولة المنفية وقيام الثورة الاجتماعية والدينية التى أدت الى قلب نظام الحكم ، أخذ كل متوفى يوحد بالاله « أوزير » ٠ فكان فى بادىء الأمر الملك وحده الذى يوحد « بأوزير » بعد موته كما ذكرنا ، ولكن عقب هذا الانقلاب اضطر الملك الى منح هذا الامتياز أولا حاشيته ثم كبار موظفيه ، وأخيرا أصبح ارثا مشاعا يتمتع به كل فرد فى الدولة المصرية » (٣٨٩) ٠

انشـــودة رع

« سلام لك يا « رع » رب الصدق

.....

الذى أمر فوجدت الآلهة

يا « آتوم » الذى خلق الناس

والذى حـــدد صـــورهم

والذى ميز كل جنس عن الآخر

والذى يسمع دعوة المأسور

والذى قلبه رحيم عندما يدعوه الناس

والذى يخلص الفقير من المستكبر

والذى يبعد الضعيف من القوى

رب المعرفة الذى فى فمه الأمر السائد

رب الملاحظة عظيم الحب

والذى يحيا البشر بمجيئه »

« ومن ثم نرى أن الجمل الدالة على التوحيـــد مبعثرة فى هذه الأنشودة وهى بلا شك تتضمن ذلك وان كانت دائما تشير الى الآلهة فى صيغة الجمع

« الصورة الفريدة الخالق لكل كائن

الواحد الأحد الفرد الصمد خالق كل موجود » (٢٩٠) ٠

التعـــليق :

ان الأناشيد الدينية هى جزء من العقيدة الدينية وقد ضمنتها فى الفصل الثانى ولكن أعطى هنا أمثلة أخرى للأناشيد التى كانت تنشد فى الدولة القديمة (لرع) وأناشيد للاله « آمون ـ رع » فى الدولة الحديثة كأمثلة للاله الخالق (وقد سبق ذكر أناشيد أخناتون لآتون فى الفصل الثانى ٠ ومن تحليلنا لهذا النشيد تتضح لنا فكرة المصرى القديم عن « **الواحد الأحد** » ـ « **الفرد** » ـ « الصمد » ـ « خالق كل موجود » ٠ هذا من ناحية التوحيد الكامن طوال العصور المختلفة ٠ أما عن حب الاله للناس فنجده فى العبارات التالية : « يسمع دعوة المأسور » ـ « الذى قلبه رحيم عندما يدعوه الناس » ـ « الذى يخلص الفقير من المستكبر » ـ « الذى يبعد الضعيف من القوى » « رب المعرفة » « رب الملاحظة ، عظيم الحب » ٠ والذى ينجد المتوسلين اليه ٠ هكذا كان الخالق العظيم محبا ومعينا للبشر ٠ وهذه النظرة للاله الواحد الأحد الذى يســـمع للناس ويرحمهم تشكل صلب الديانة المصرية القديمة : ديانة الحب والسلام والصلة الحميمة الصادقة مع الاله ، وهذا يعطى الدفء الروحى والتفاؤل والراحة النفسية ، واحساس الانسان بقوته وبكيانه فى صلته بالخالق العظيم ٠

أناشيد للاله « آمون رع » (٢٩١)

« الحمد لك يا « آمون ـ رع ـ حور أختى »

الذى تكلم بفمه ، ومن ثم خلق بنى الانسان والآلهة والماشية والماعز

. . . .

جميعها وكل ما يطير وما يحط وانك راع شجاع ترعاهم الى أبد الأبدين

. . . .

وكل انسان يقول : اننا ملكك يتساوى فى ذلك الشجاع والجبان٠ والغنى والفقير بصوت واحد وهكذا يقول كل شىء ٠ ورقتك فى قلوبهم وكل انسان يرى جمالك ٠

. . . .

ألم تمض اليـوم راعيـا لبنى الانسان الى أن ارتحت فى حياتك (غاب كالشمس ؟) وعامة القوم وعليهم يمدحونك ، والمـاعز والمـاشية تنطلع اليك ، والأشياء الطائرة تتعلق عاليـا نحـوك ، وكل النباتات النامية تلتفت اليك لجمالك ولا حياة لمن لا يراك ما أشجعك ، ما أشجعك! يا الهنا « رع » ما أشجعك ! لقد حكمت العالم السفلى ووهبت ساكنيه الحياة واستجبت لشكايات المتعبين فيه ٠

....

ما أشجعك يالهنا يا « رع » أنت يا رب السماء وأنت أيها الراعى الذى يعرف كيف يكون راعيا ، أليست أذناك تميـلان الى قلوبهم ؟ وارشادك (؟) فى كل جسم وبطشك متيقظ لكل سيء النية ولبس هناك شيء تجهله على الأرض ٠

....

[ما أجمل] شروقك يا « رع » انك البارىء الذى يخلق السعادة والملتفت الى صوت كل من يصيح نج أنت من ٠٠٠٠ والراعى قد وضع أمامه الى أن وصل الى المعبد ٠

ما أجمل اشراقك يا « رع » يا ربى ، يا من يعمل راعيا فى مراعيه ٠ والانسان يشرب من مائه ، تأمل انى أتنفس من الهواء الذى يمنحه ، وهو مالك الحياة التى تذهب سويا مع حمايته (؟) الى كل فرد يلتفـ حولك (؟) » ٠

التعليق :

لقد أدرك كهنة آمون بأن ادماج آمون مع رع ـ حور أختى (أى حورس الأفق) يعطيه صفة هامة وهى صفة الخالق ٠ وبذلك يستطيع الكهنة والناس أن يتغنوا به كاله خالق وكراعى للناس والمشرق على الكون ومالك الحياة ٠ ان صورة الاله الخالق راسخة فى ذهن المصرى منذ أقدم العصور ٠ وحتى فى الأدب نجد أنه كان يشـار اليه بدون تسمية تحت كلمة (الاله) (الرب) فيقال مثـلا « وهذا يغضب الاله » أو « الرب لا يرضى عن ذلك » ويضربون أمثلة تشبه قولنا الآن (الانسان فى التفكير والرب فى التدبير) ٠

« ان فكرة الوحدانية قد عبر عنها فى أناشيد « آمون رع » التى على ورقـة « ليدن » بجانب فكرة تعدد الآلهة التقليـدية فى الديانة

المصرية ، وليس هناك تضارب ظاهر فى التعبير عن هاتين الفكرتين فى متن واحد » وقد علق العلامة « سليم حسن » فى ذيل الصفحة بقوله « وهذا يطابق ما نشاهده عند عامة الشعب المصرى الجاهل فانهم يعتقدون بوحدانية الله ولكنهم فى آن واحد يتوسلون الى أولياء الله معتقدين أنهم ينفعونهم أو يضرونهم »(٢٠٢) « على أنه توجد أنشودة للاله « أوزير » من نفس ذلك العصر مخاطبة له بما يأتى « أنت أب الناس وأمهم » ، « وهم يعيشون من نفسك » (٢٩٢) ٠

وفى كل ذلك نجد « روح العناية الانسانية » التى كانت قد ظهرت منذ التعليم الاجتماعى فى العهد الاقطاعى المصرى ، وكذلك « فى الوثائق الحكومية وبخاصة فى الدستور الذى وضعه الفرعون فى عهد الأسرة الثانية عشر وسار عليه الملوك فيما بعد » وأمثال هذه الأناشيد تكشف لنا عن ثقة شخصية تدل على طيبة الاله وهى بذلك برهان هام على طموح الانسان الشخصى فى عون الله ورحمته ، ومن ثم تكشف لنا عن « بداية العصر الجديد للتدين الانفرادى الذاتى وهى مناجاة الله مناجاة سامية خاصة تدل على الورع والتوسل اليه فى كل ما يحيق بالانسان من ضرر » (٢٩٣) ٠

ان هذه المناجاة التى تدعو على الورع والتوسل اليه هى جزء من التدين الذاتى وهو جزء من وجدان الشخصية المصرية ، والنسك والتصوف هما صورة لهذا حتى الآن فنجد الرهبان ومشايخ الطرق الصوفية امتدادا لهذا ٠ وحتى المصرى العادى نجد داخله عامر بالايمان بالله وبثقته بأن الله سبحانه وتعالى سميع عليم ومعين ٠ وان الروح الدينية الورعة تؤكد على تلك العلاقة الشخصية الوثيقة بين العبد وربه ٠ « وتلك المعتقدات التى كانت ذات علاقة شخصية وثيقة بين العبد وربه قد صارت آنئذ بمرور القرون منها جأ بطيئا متدرجا ، منتشرة انتشارا واسعا بين الشعب ، وكانت النتيجة انبثاق فجر عصر التعبد الانفرادى والالهام الباطنى بين الله وعامة خلقه ، وذلك يعنى التحنف والتعبد لاستصلاح النفس والروح وتحليتها بالأخلاق الفاضلة عن طريق العبادة والورع والزهد والتنسك وهو ما يعرف بالتصوف عندنا الآن » (٢٩٣) ٠

العناية الالهية وصلة الناس بالاله

فى خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر قبل الميلاد ، نجد مثلا كاتبا فى احدى مستودعات الخزانة فى جبانة طيبة يدعو الاله « آمون » فيقول : « أما من جهة ٠

الذى يأتى الى الصامت

والذى ينجى الفقير

ويعطى النفس كل انسان يحبه

نجنى واسطع على

لأنك تخلق قوتى

....

وأنت الاله الأحد لااله غيرك

فأنت نفس « رع » الذى يشرق فى السماء

و « آتوم » خالق البشر

....

الذى يسمع دعاء من يدعون

والذى ينجى الانسان من المتكبر (٢٩٤) ·

« من ذلك نفهم أن الاله الذى يوجه عنايته الى كل شىء ··· كان فى استطاعة أهل « طيبة » أن يشكوا اليه مصائبهم وهمومهم فى حياتهم اليومية واثقين فى شفقته وحنانه وفيض رحمته · على أن أهم هذه اللوحات التى يمثل فيها التعبد والتقرب الى الله زلفى لاغاثة الملهوف عند اشتداد الكرب ، لوحة محفوظة الآن فى متحف برلين (Berlin No. 23077) ··· نرى فيها بوضوح كيفية نجاة نجل هذا الرسام العظيم من مرض ألم به بفضل « آمون » وشفقته العظيمة · وقد كان آمون يعد فى نظر ذلك الرسام الاله الجليل الذى يجيب دعوة الداعى اذا دعاه ، ويجيب الفقير المعذب اذا استغاث به » (٢٥٩) ·

ان الأمثلة السابقة تبين بوضوح أن الوعى تحرر تماما وأصبحت الصلة الشخصية بين الانسان وربه واضحة تماما · ولو قارنا بين محاولة الشخص التنصل من خطاياه فى الاعتراف الانكارى فى كتاب الموتى وفى مخاطبته لقلبه بألا يكشف أى شىء يوم المحاكمة وبين هذه الصور من التضرع للاله والاعتراف بالخطايا مع التذلل والخضوع والمسكنة لوجدنا فى هذا أكبر دليل على وجود اتصال بين العبد وربه · « كان فى مقدور كل انسان أن يؤدى نفس الصلاة غير أن هذه الصلاة صارت وقتئذ بمثابة **محاسبة باطنية** ، أى أنها كانت تعبيرا يقصد به **الاتصال المباشر الذاتى** بين العبد وربه ، وهذا الاتصال هو الذى يرى فيه العبد أن **ربه واحد يغذى** روحه كما يغذى الراعى قطعانه :

« يا « آمون » ارشد المتألم الى الطعام لأن « آمون رع »
يرعى من يتكل عليه ٠

يا « آمون رع » انى أحبك وقد ملأت قلبى بك

وستنجينى من أفواه النـاس فى اليوم الذى سيفترون فيه على الكذب

لأن رب الحق يعيش فى الحق » (٢٩٦) ٠

من أساطير قدماء المصريين (٢٩٧)

« قدس قدماء المصريين النيــل وأطلقوا عليه اســم « حعبى » أو « جابى » لأنه يحبو مصر كل عام بوفاء وخيراته ، وأكسب البـلاد فتنة وجمالا طبيعيا ، فحبب المصريون القدماء فى الحياة والفنون ، وعلمهم الوحدة والتعاون ، والوفاء والنظام ، والحساب والهندسة وعلوم الفلك والزراعة وبناء السفن مما ساعد على قيام الحضارة والمدنية الأولى فى العــالم ٠

وكان اذا حل فصل الفيضان ، وجاء يوم وفاء النيل خرجت الأمة على بكرة أبيها فرحة مستبشرة ٠ للاحتفال بعيده احتفالا شعبيا عظيما ، فتحتشــد الجموع على شواطىء النهر العظيم لمشــاهدة مراكب الملك والأمراء والنبلاء والكهنة الجميلة ، وهى تتهادى كالعروس فى خيلاء على صفحة النيل الخالد الهادئة ، وحولها الفلك حاملة بعض أفراد الشعب فى منظر خلاب جميل . بين التهليل والتصفيق وزغاريد النسـاء ، وصياح الأطفال الذين يلبسون الملابس الملونة بالألوان المصرية القديمة الزاهية هاتفين : « يا جعبى يا جعبى » (وهذا هو المشاهد تماما فى حفل نقل مراكب « آمون بالنيــل فى عيــد « ايبت » المنقوش على جدران معبد الأقصر) ٠

وكان المصريون القدماء يرسمون بالطباشير الأسود على أقمشــة ثمينة غالية صورا لبعض الآلهة ويعطرونها ويلقون بها فى نهر النيل لهذه المناسبة ، كما جاء ذلك فى بردية وثيقة « رعمسيس » الثانى ، (وهذا هو أصل الخرافة التى يتناقلها الناس الآن عن عروس النيل) ٠
وكذلك كانوا يلقون أحيانا ببعض تماثيل ، ثم ينحرون الذبائح ٠

وكانت النساء الراقصات المغنيـات (الغوازى) يطفن بالقرى والبلدان والأسواق لتسلية الجماهير ، واحتفالا بعيد وفاء النيل السعيد بصحبة فرقة موسيقية مكونة من عازف على المزمار الغاب ذى القصبتين أو الناى وضارب على الدف وتقضى البلاد يومها فى فرح شامل » ٠

أسطورة « خنوم » اله الشـلال (٢٩٨)

« حدث فى أيام الملك « زوسر » بانى الهرم المدرج بسقارة من عهد الأسرة الثالثة فى الدولة القديمة ، أن تأخر فيضان النيل سبع سنوات متواليات ٠ وكانت كمية المياه الموجودة فى المجرى لا تكفى لرى الأراضى فأجدب الزرع ولم يستطع الفلاحون العمل بحقولهم ، وندرت الحبوب ونضبت المواد الغذائية وزاد البؤس وحل الشقاء وفاض بالناس معين الصبر ونسـبوا هذا القحط الى اهمال الملك « زوسر » وانقطاعه عن زيارة معبد الاله المسيطر على نهر النيل ٠

ولما رأى الملك « زوسر » تلك النكبة الجائحة التى حلت ببلاده ، ضاق صدره وفكر فى الأمر وهداه تفكيره الى استشارة الحكيم العالم والمهندس البارع والطبيب الحازق والفلكى الساحر ، الكاهن المرتل الأكبر وزيره المحبوب « امحوتب » فاستدعاه ولما مثل بين يديه سأله عن « مكان ولادة النيل (أى منبع النيل) وعمن يسيطر عليه من الآلهة » وبعد أن عرف الوزير « امحوتب » ما أراده الملك رجا جلالته : « أن يمهله قليلا لكى يرجع الى المدارج البردية المحفوظة فى مكتبة رؤساء الكهنة اذ أنه لا يستطيع الاجابة الآن عن أمر كهذا » ٠

وقضى الوزير « امحوتب » مدة من الوقت باحثا مدققا ، ثم عاد بعدها الى الملك « زوسر » حاملا اليه تقريرا به « الأسرار والعجائب التى لم تكشف لأى ملك فى العصور السابقة التى لا يمكن تصورها » ٠

وبعد أن أخذ الملك « زوسر » التقرير الذى رفعه اليه وزيره الحكيم « امحوتب » قرأه وتمعن فيـه ، ثم كتب بسرعة خطـابا الى نائب الملك بالنوبة ، طالبا منه الشورة والمساعدة وليعمل على انقاذ البلاد من القحط الذى حل بها وشملها حتى أضحت فى حالة محزنة يرثى لها وقال له : « ان عقلى مشتت من الأيام الخالية ، لما كان لى محام ، والى وقت الآلهة والاله « تحوتى »، والى وقت الكاهن المرتل « امحوتب » ابن الاله « بتاح » جنوبى حائطه « (وهذا اللقب مشتق من كلمة أطلقت على معبد هذا الاله الذى كان قائما بمنف) ٠

ثم شرع الملك بعد ذلك فى السؤال عن الاله أو الآلهة المسيطرة على نهر النيل ، والذى فى يده ملء مخازنه بالحبوب حتى يستطيع الذهاب بنفسه الى معبد هذا الاله ليستعطفه ٠

وعرف الملك فى النهاية أن الاله « خنوم » اله منطقة الشلال هو الاله الحاكم المسيطر على منابع نهر النيل العظيم ، فما كان من الملك الا أن شد رحاله وذهب الى معبد « خنوم » بأسوان وزاره زيارة شخصية وصلى هناك وتضرع اليه مستعطفا وقدم القرابين لمعبده ثم عاد الى « منف » مقر الحكم ٠

ومرت الأيام وفى ذات ليلة بينما كان الملك « زوسر » نائما اذا بالاله « خنوم » حاكم النيل المسيطر عليه يستجيب لضراعته ورأى الملك فى نومه أن الاله زاره ووعده بأن يفيض نهر النيل وأن لا يعود الى الهبوط ثانية وقال له : « انه سيوزع مياهه وسيغمر مياهه وسيغمر بها الأراضى كلها بكثرة وأن الزرع سيأتى بمحصول أوفر مما كان ، وستزول الضائقة التى يقاسيها الشعب ، وستنتهى المجاعة ، وستملأ جميع المخازن الخالية بالحبوب ويعود اليسر والرخاء للبلاد كما كان » ٠

ثم جرت المياه فى مجاريها وفاض الخير والبركة ٠ وأصبح الفلاحون فرحين مغتبطين يزرعون ويحصدون فى حقولهم وعاد الرخاء للبلاد ، فلما رأى الملك فضل الاله « خنوم » المسيطر على النيل أصدر مرسوما باشارة وزيره الحكيم العاقل « امحوتب » سجل فيه اعترافه بنعمة الاله « خنوم » وأوقف لمعبده بألفتين مساحات هائلة من الأراضى محاذية لشاطىء النيل من « الفتتين » الى « تاكو مبسو » وخص المعبد بما يجبى منها من ضرائب ودخل وخيرات ، وأرسل الى المعبد كذلك الهدايا الثمينة من الذهب والعاج والأبنوس ، والتوابل والبخور والأخشاب والأحجار الكريمة وكل ما يلزم للمعابد ٠

وهذه الأسطورة مكتوبة على لوح من الجرانيت فى جزيرة سهيل (التى تبعد حوالى ميلين جنوب أسوان) ويقال ان كهنة معبد « خنوم » بأسوان كتبوها فى عهد البطالة اعترافا بفضل الملوك الأقدمين الذين منحوا معبدهم من أقدم العصور النعم والهدايا والأوقاف حتى يمدهم فرعون الحاكم بمثل ما أهداهم سلفه » (٢٩٩) ٠

التعليــــق :

لقد اهتم كهنة خنوم باظهار فضل الههم الذى يعبدوه لأن فى ذلك مصلحة شخصية لهم حتى أنهم كتبوا هذه الأسطورة فى العصر البطلمى

مع أن القصة تشير الى زمن الأسرة الثالثة أى الدولة القديمة وحددوا الملك زوسر وحددوا السبب الذى جعل الملك زوسر يلجأ الى الههم – خنوم – اله الفنتين حيث كان يعتقد أن منبع النيل كان هناك ولذلك وجب استعطافه ووقف أراضي على معبده هبة من الملك • والجدير بالذكر أنه كان هناك صراعا بين كهنة خنوم وكهنة ايزيس فى معبد فيلة • وكان كل منهم يريد أن يستأثر بأكبر قدر من الأراضى التى كانت توقف على المعابد •

« امى دوات » أى « ما هو كائن فى العالم الآخر » (٣٠٠)

ان الزائر لوادى الملوك فى الضفة الغربية فى الأقصر يرى على جدران كثير من مقابر الملوك هذا الكتاب منقوشا • فمثلا فى مقبرتى تحتمس الثالث وأمنحتب الثانى ملوك الأسرة الثامنة عشر نجد النص الكامل لهذا الكتاب ومقابر سيتى الأول ورمسيس الثانى ومرى ان بتاح من الأسرة التاسعة عشر ورمسيس الثالث ورمسيس السادس ورمسيس التاسع من الأسرة العشرين ولكى يتعرف القارىء الآن على فكر المصريين القدماء بخصوص هذا الكتاب • ولأن مؤلف كتاب « تفسير كتاب ما هو كائن فى العالم الآخر » الأستاذ « محسن لطفى السيد » باحث ممتاز ومترجم ممتاز للنص الهيروغليفى وأشرك معه بعض من زملائنا المرشدين ، فاننى أجد أنه سيعود بالفائدة على القارىء أن اقتطفا منه بعض الفقرات التى توضح الفكر المصرى القديم بخصوص رحلة الشمس من الغرب الى الشرق تحت الأرض وما يدور فى هذا العالم الآخر •

لقد تساءل المصريون القدماء : أين تذهب الشمس عندما تغرب وتختفى فى الأفق الغربى وتظل غائبة ساعات طويلة حتى يحين الفجر ؟• لقد تصوروا أن الشمس خلال الليل تقطع المسافة التى كانت قد قطعتها فى النهار من الشرق الى الغرب ، بيد أن الشمس تقطع المسافة هذه المرة متجهة من الغرب الى الشرق فى العالم السفلى – أى ضد حركتها النهارية – كى تشرق من جديد فى الأفق الشرقى • كذلك تصور المصريون القدماء أن العالم السفلى شبيه « بأم الدنيا » وهى مصر التى يقسمها النيل الى ضفتين : ضفة شرقية وضفة غربية ، ملؤها الخصب والخيرات • كذلك يجرى فى العالم السفلى نهر عظيم كنهر النيل تماما [لاحظ ارتباط تخيله بشىء ملموس يراه كل يوم : الأرض والنيل] ، ويمخر عباب ذلك النهر الاله الأكبر فى مركبه التى يستقلها بعد الغروب واسمها « مسكتت » أما المركبة التى يبحر الاله فيها صباحا طاوية عباب السماء فاسمها « معنجت » ، أى أن هناك مركبة للنهار وأخرى لليل •

وتحصر الضفتين سلسلتان من الجبال واحدة تقوم فى الشرق وأخرى فى الغرب تماما ، محاكاة للطبيعة فى وادى النيل الممتد من أسوان الى عين شمس • وبين الضفتين يجرى نهر عظيم كنهر النيل ولكن ماءه ينساب متجها من الغرب الى الشرق على مدى نصف الوقت • ثم يعود فيجرى من الشمال الى الشرق فى النصف الآخر من الليل • لقد الف هـذا الكتاب كهنة الاله « آمون » لتعظيم الههم الذى لقبوه بملك الآلهة : « نسوت نترو » • وقد وصل الينا الكتاب فى شكلين : أما الشكل الأول فكان مخصصا للملوك فقط ، ونراه منقوشة نصوصه على حوائط المقابر الملكية مزودة بالصور التوضيحية • ثم بعد ذلك وجد شكل آخر من نفس الكتاب وهو نص مختصر مكتوب على « أوراق البردى » • وكلا النصين ــ نعنى بهما الملكى والمختصر ــ يؤكدان ما هو مكتوب على حوائط المقابر الملكية مقرونا بالتصاوير ، ان هو الا صورة طبق الأصـل من النص الأصـلى الموجود فى المنزل الخفى فى العـالم الآخر •

والمقصود بالمنزل الخفى فى العالم الآخر هو منزل أوزيريس فى العالم السفلى أى قبره ، ذلك القبر الذى بناه حورس ليكون مقرا لوالده ومنزلا له فى الأبدية • ولم يأل حورس جهدا فى تزيين جدران ذلك القبر بلوحات تبين مسار الشمس خلال ساعات العالم السفلى الاثنتى عشرة كأنما يريد بذلك الابن البار ــ أى الاله حورس ــ أن يقدم لوالده « أوزيريس » خريطة تفصيلية تهديه فى العالم السفلى ، ويحدد كتاب « ما هو فى العالم الآخر » الموضوع الجغرافى لمكان كل ساعة من الساعات الاثنتى عشرة فيؤكد أن الساعات الأولى والثانية والثالثة والرابعة توجد على الجانب الغربى فى المنزل الخفى فى العالم الآخر • وأن الساعتين الخامسة والسادسة على الحائط الجنوبى ، وأما السابعة والثامنة فعلى الحائط الشمالى ، وأما الساعات التاسعة والعاشرة والحادية عشر والثانية عشرة فانها توجد على الجدران الشرقى فى المقر الخفى •

وجدير بالملاحظة أن قوام الساعة العاشرة هو الماء ، بينما الساعة الحادية عشرة قوامها النار على النقيض من سالفتها ، وبحلول الثانية عشرة فى اختتام الليل يتحول الاله « يوف » الميت الى « خبر » ، ذلك الذى يركب مركب الصباح تارة أخرى ويشرق من جديد فيضىء الكون بنوره • ويلاحظ أن كتاب « ما هو فى العالم الآخر » بشكله الأخير أصبح شائعا ابان الأسرة الثامنة عشرة • وفكرة البعث وعودة الحياة من جديد فى الساعة الخامسة •• والاله « يوف » هنا هو الاله أوزيريس سيد آلهة العالم الآخر • وفى مقبرة الملكة نفرتارى نرى آمون محنطا

وله رأس كبش (رمز الاله آمون) يعلوه قرص الشمس ٠ وعلى جانبى الإله نرى الالهة ايزيس والالهة نفتيس ، وهناك سطران من الكتابة على جانبى الاله المحنط يقول السطر الأيمن منهما : « رع يتحد مع أوزيريس » والسطر الأيسر يقول : « أوزيريس يتحد مع رع » ٠ اذن فالاله رع هو أوزيريس عينه ٠

ولا نعدم فى كتاب الموتى ما ينص على هذا المعنى صراحة ، فالفصل ١٧ من الكتاب يقول : **بلسان الخالق** : « أنا الأمس وأعلم علم الغد » ٠ والأمس هو أوزيريس والغد هو الاله أتوم (رع) [« خبر » هو الشمس فى الصباح – « رع » الشمس فى الظهيرة – و « أتوم » الشمس فى المغيب] وهكذا يشير أوزيريس الى الزمان الماضى وأما « رع » فهو المستقبل ٠ وما الماضى والمستقبل الا جزءان لا غنى للزمان عنهما كى تتم حركته الأبدية ٠ وفى بردية آنى من « كتاب الموتى » هناك دعاء يقول : التبجيل لك يا أوزيريس يا سيد الأبدية أيها الكائن الخير حورس فى الأفق (أى الاله رع) يا متعدد الأشكال ويا عظيم التجليات ٠ انه بتاح سقر أتوم فى هليوبوليس (أون بالمصرية القديمة) سيد مقام الشتيت (اسم الحرم المقدس للاله سقر) الذى خلق مدينة ممفيس وآلهتها « وهو المرشد فى العالم الآخر » **فالاله واحد أحد عند المصريين القدماء** ، ولكن أسماءه كانت تختلف من عاصمة الى أخرى ٠ ففى ممفس كان اسمه « بتاح » ، وفى هليوبوليس « رع » وفى طيبة « آمون » ، هذا بالنهار ، أما ليلا فان اسمه يصبح « أوزيريس » أو « سقر » أو « خنتى يامنتى » ٠٠٠ الخ ٠ والحق أقول ان اخناتون عندما نادى بالتوحيد فهو لم يأت بعقيدة جديدة أو شاذه ٠ ولكنه أعاد الدين الحق الى أصوله ، بعد أن كثرت الأسماء وتعددت الأشكال **للاله الواحد** ، وكاد العامة والبسطاء أن يعتقدوا أن كل واحد من هذه الأسماء اله مستقل بذاته ، وقد ساعد على هذا الاعتقاد غير القويم تعصب كهنة كل عاصمة للاله المعبود عندهم ، فكهنة هليوبوليس كانوا يتعبدون للاله « رع » بينما كان كهنة منف يتعصبون للاله بتاح وكهنة طيبة للاله آمون ٠ وربما ينسى العامة أن هذه كلها **مجرد أسماء لاله واحد بعينه** ٠ الأمر الذى اضطر الكهنة فى النهاية الى توحيد الأسماء فأصبح الخالق هو « آمون رع » وحسب ، مما ترتب عليه زوال المنافسة ٠٠ حتى جاء اخناتون ومحا أسماء الآلهة كلها محوا ماديا باسم **آتون الاله الواحد الأحد** ليرفعه فوق كل شبهات الشرك ٠

ولعل أشهر الآلهة فى الديانة المصرية القديمة هو الاله «أوزيريس» ابن السماء والأرض ، أى ابن الالهة « نوت » والاله « جب » ، وهو

الذى قتل على يد أخيه الأصغر « ست » ، الذى مزق جسده أربع عشرة قطعة ونثرهـا فى النيـل ليبعثرهـا عبر أقـاليم مصر جميعها ...

وما « أوزيريس » **الا اله ذو طبيعة انسانية ، لا يذوق الموت الا على يد** اله ، وقد قتله أخوه فعلا فمات ، لكنه لم يلبث أن عاد للحياة مرة أخرى وكفل له التحنيط والتعاويذ التى رتلتها ايزيس ونفتيس وأنوبيـس باله التحنيـط الحيـاة الأبدية ، ولكنه آثر أن **يحيـا فى العـالم الآخر بعد ما تعرض له من غدر فى العـالم الأرضى** كسيد له ، أما روحه فانها صعدت للسماء .

وأوزيريس بوصفـه سـيدا للـعالم الآخر ، يشرف على الموتى ويحاسبهم على أفعالهم وما جنت أيديهم وهم على ظهر الأرض • وكتاب الموتى يخصص العـديد من فصـوله لوصف **المحـاكمة التى يتولاهـا** « أوزيريس » والاعتراف الأنكارى الذى يدلى به المتوفى وغير ذلك من الأدعية والتعاويذ التى تكفل البراءة للمتوفى ، فيحصل على لقب **صادق الصوت** ويحق له من ثم دخول **جنة الخلد المسماة « بحقول ايارو »** حيث ينتظره الهناء الأبدى • وقد خصصت الفصول من التاسع والتسعين الى الخامس والعشرين بعد المائة لمعالجة هذا الشأن • أما كتاب « **ما هو فى العالم الآخر** » فانه يخصص الفصول من السادس الى التاسع لوصف الحساب من عقاب وثواب فى العالم السفلى •

الساعـة الأولى

تمثل الغسق بعد أن غابت الشمس – تسع آلهة تسبح بحمد الله أثناء مروره فى مركبـة وهنـاك تسع قردة ، ووظيفة القردة التسبيح بحمد الله ، وبعد القردة هناك اثنتا عشرة حية ، وقد رفعت كل واحدة رأسها وهى تلفظ حمما ملتهبة من فمها ، ووظيفة كل حية هى **أن تنير الطريق لمركب الاله** ، حيث أنه ليس هنـاك ضوء فى العـالم الآخر الا بواسطة اللهب الذى تقذفه الحيات من أفواهها وكل حية بدورها تأخذ مكانها أمام مركب الاله فى الساعة التى تخصها ، وعند انتهاء الساعة تترك مكانها لحية أخرى ، وهكذا حتى تنتهى ساعات الليل • ثم نرى تسعة آلهة واقفين ، وقد رفع كل واحد منهم يديه تعبدا للاله أثناء مروره فى مركبه • وهم الصـورة المقابلة للآلهة التسـع الذين رأيناهم فى الضفة المقابلة والنص يقول :

« **الآلهة التى تسبح بحمد الله** » وأخيرا نـرى اثنتى عشرة الهة فى صوامعهن ، ووظيفتهن أيضا مثل الآلهة السـابقة هى التسبيح بحمد الله أثناء مروره وفى النهاية هناك نص طويل يختتم بالجملة الآتية :

(تقدم باسمك اللهم الى المكان الذى يرقد فيه الاله « أوزيريس » الذى هو فى مقدمة أهل الغرب • وهكذا تنتهى الساعة الأولى من ساعات العالم الآخر) •

الساعة الثانية

الساعة الثانية والساعة الثالثة تتبعان الاله أوزيريس بوصفه أول الغربيين وهم الموتى اذ أنهم يدفنون فى الغرب وكان هذا اللقب لاله الموتى فى أبيدوس ثم صار لقبا لأوزيريس •• والفرق بين الساعة الثانية والساعة الثالثة هو أن الساعة الثالثة هى مسكن الاله أوزيريس نفسه •

وأمام مركب الاله مركبا أصغر حجما به اله القمح « نبر » كما يوجد مركب الاله حتحور ومركب الاله جحوتى اله القمر • والساعة الثانية هى أرض خصبة تنتج الخير الوفير لينعم فيها أنصار الاله « أوزيريس » •

الساعة الثالثة

واسم المنطقة فى العالم السفلى التى يعبرها الاله فى الساعة الثالثة هو وادى السيد الأوحد الذى يخلق القرابين • والساعة الثالثة مقر الاله «أوزيريس » وهو هنا يتربع على ثمانية عروش •• وترى العديد من الآلهة الذين خلقهم الاله « رع » لحماية الاله « أوزيريس » ومنع اية ارواح شريرة من الدخول الى تلك المنطقة وسكان هذه الساعة كلهم من أنصار « أوزيريس » وهم قادرون على قهر أعدائه • وهناك عديد من الآلهة ومنهم كبش كبير ذو قرون أفقية ومعه سكين فى مقدمته واسمه الذى يقتل أعدائه وهناك « أنوبيس » طيبة ثم الها راكضا على الأرض وله اسم طويل : « الذى يجلب العين (عين رع) وبذلك يهدىء الآلهة وهو تلميح لقصة هلاك البشرية ••• ثم يأتى ثلاثة آلهة راكعين والهة اسمها « باخت » تحمل فى كلتا يديها عيون الاله « رع » وخلفها يقف الاله « خترى » ، وهو حارس تلك المنطقة فى العالم الآخر •

الساعة الرابعة

نحن الآن فى جحيم الاله سوكر (سقر) ويجب أن يكون مفهوما أن جحيم سقر كان فى الأصل يتكون من ١٢ ساعة كاملة ولكن فى كتاب

« ما هو فى العالم الآخر » فقد اختصر الجحيم الكامل الى ساعتين فقط ٠٠ وهذه المنطقة لم تعد خصبة كما شاهدنا فى الساعات الســـابقة ولكنها منطقة صحراوية قحلة مظلمة تغشاها ثعابين هائلة نحيفة ٠ ولعدم وجود نهر ولا ماء فان مركب الاله لا تستطيع الابحار على سطح الرمال ولذلك تتشكل بصورة ثعبان ضخم حتى تتمكن من الانسياب على الرمال وتلك خصائص الثعابين ٠٠٠ ولما كانت المنطقة حالكة الظلام فان هذا الثعبان ذا الرأسين يقذف بالحمم المشتعلة من فمه فيضىء نارهـــا له الطريق ٠

والساعة الرابعة والخامسة تمثلان فى الحقيقة جبانة منف المسماة حاليا هضبة سقارة ٠ ويلاحظ أن الساعة الرابعة خالية من الســكان وليس فيها الا الآلهة والثعابين المرعبة ٠

الساعة الخامسة

وهى مركز جحيم الاله « سقر » وفى وسط تلك الساعة داخل جبل من الرمل يوجد مقره ٠ وهى منطقة يسكنها آلهة اسمها أرواح العالم الآخر ٠

الساعة السادسة

مركب الاله « رع » المتوفى (يوف) يستمر فى ابحاره نحو الشمال ويصل الى الدلتا حيث أضرحة الاله « اوزيريس » فى أبو صير ٠٠ وعقيدة البعث التى تصفها ســاعات الليل الاثنتى عشرة ، تعبر عن تحول الاله الميت الى شمس جديدة فى ظل حماية الاله « محن » الثعبان الحامى والذى سنراه فى الساعة المقبلة أى الساعة السابعة يصعد الى المركب ٠٠ والنص يقول أن الاله الراقد هو جسم الاله « خبرى » وهو جسد ميت والمعنى واضح فان شكل الجعل عند رأس الاله هو صورة الشمس عندما تبعث من جديد فى الأفق الشرقى وهكذا جمعت الصورة بين الجثة والجعل أى عودة الروح الى الاله الميت ٠٠ وأهم صورة فى الرسم بين الجثة والجعل أى عودة الروح الى الاله الميت ٠٠٠ وأهم صورة فى الرسم التوضيحى للساعة السادسة فهى صورة الثعبان ذى الرؤوس الخمسة المسمى « عشاحرو » أىذو الوجوه العديدة ، والفكرة كما سبق شرحها هى فكرة **البعث** وعودة الحياة ، أى الميلاد من جديد ٠

الساعة السابعة

والســاعة السابعــة هى مخبأ أو معتكف الاله « أوزيريس » ونظراً لخطورة الأعداء فى الساعة السابعة فلابد من اتخاذ اجراءات شــديدة لدرء الخطر ... وأهم اجراءات الحماية هى صعود الالهة « ايزيس » الى مقدمة المركب لكى ترتل تعاويذها . ومن المعروف أن للاله « أوزيريس » أربعة أرواح كانت فى الزمن الغابر تصور بصورة أربعة كباش .

وأخيرا نرى ثعبانا ضخما وقد شكل من جسده ما يشبه العرش وقد جلس فوقه اله اسمه جثة « أتوم » ولهذا الثعبان اسمان : الأول حياة الأشكال ، والثانى حياة الأرواح ، وهذا الثعبان يقذف باللهب من فمه ضد أعداء « أوزيريس » ويلتهم الأرواح الشريرة أعداء الاله ، وعلى وجه الخصوص « أبوفيس » ..

الساعة الثـامنة

أسم المنطقة تابوت الآلهة ... ومازال الثعبان « محن » يلتف فوق الاله ويحميه ... واسم ساعة من الليــل التى تقود هذا الاله العظيم هو : « سيدة الليل » .

الساعة التاسعة

الساعة التاسعة ليست جبانة مثل الساعة الثامنة رغم وجود بعض الشواهد التى لهـا علاقة بشـعائر الدفن ... والنوتية واجبهم ليس التجديف فقط بل انهم يقومون برش الأرواح الموجودة على ضفتى النهر فى تلك المنطقة برذاذ الماء بواسطة أطراف مجاديفهم . وهكذا **تحصـل الأرواح** على بركة **الاله** .. والأفاعى تنير الطريق للاله رع خلال الساعة التاسعة .

الساعة العـاشرة

تشبه الساعة العاشرة والســاعة الحادية عشرة كلا من الســاعة الرابعة والساعة الخامسة فى أن الجسد يتحد مع الجعل « خبرى » ، وهذه كناية عن البحث أو الميلاد من جديد . الساعة العاشرة **قد كرست للماء** ، أى الماء الأزلى الذى خرجت منه كل الأشياء الحية ، أما الساعة

الحادية عشر فقد كرست لنقيض ذلك أى أنها **كرست للنـار** • فالماء هو البداية والنار أو الجنة هى النهاية (هنا يعتبر المتوفى كوكبا من كواكب السماء) •

الساعة الحادية عشرة

اذا كانت الساعة العاشرة كما رأينا فى السابق تمثل لجة المـاء الأزلية « نون » ، فان الساعة الحادية عشرة تمثل النار وبئس القرار والجحيم حيث العذاب المقيم فى سقر •• وهناك أربع من الآلهات وهم جميعا حراس وزبانية الجحيم •

الساعة الثانية عشرة

ان هذه المنطقة السرية فى العالم السفلى حيث يولد الاله عندما يخرج من (نون) المياه الأزلية ويتحد مع بطن الالهة « نوت » • فى الساعة التى فى نهايتها سوف يبعث الاله من موته وسوف يولد من جديد •• وهى تمثل الشـفق قبل شروق الشمس واسم المدينة التى يعبرها الاله فى هذه الساعة هو نهاية الظلام وبزوغ الميلاد •

أما الآلهة المتعبدة فهى ترفع يديها لعبادة « رع » فى الفجر عندما يستريح فى الباب الشرقى للمساء وينادونه قائلين : **قد ولد هذا الذى ولد قد وجد هذا الذى وجد ، المجد على الأرض •**

أن التسبيح بمولد الاله والتهليل له يشبه اعلان الفرحـة للناس والمجد للاله ومثلما كتب الأستاذ « محسن لطفى السيد » هذه الملحوظة بأن الجملة الأخيرة تتطابق مع الآية التالية :

« المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة » (٣٠١) •

(انجيل لوقا الاصحاح الثانى رقم ٢٤)

وفى مقدمة المركب هناك عشرة آلهة يرفعون أيديهم للسماء تعبد الاله وهم أشكال للاله « أوزيريس » •• أما الجثة « يوف » فلم يعد لها دور ، فالاله قد ولد فى جديد وقد دلف الاله الى عالمنا ليشرق بنوره ويبدد الظلمات أما الجثة فتراها ملقاة بجوار الحائط •

(تم تلخيص وعرض كتاب « امى دوات » كما كتبه الأستاذ محسن لطفى السيد) .

التعليق : نستخلص من سلوك « حورس » تجاه والدة « أوزيريس » سمة محببة لدى المصريين وهى أيضا مشتركة ــ بصفة عامة بينهم ــ ألا وهى **البر بالوالدين** . وكان الابن الأكبر فى مصر القديمة يقوم بتقديم القرابين بصفة منتظمة من أجل والده ــ ووالدته بالطبع ــ وحتى اليوم نجد المصرى الحديث يقدم الفطير فى المقابر فى المناسبات المختلفة للفقراء ويردد فقرة جميلة فيها الحب والاخلاص والبر وهى « نور ورحمة » على أرواحهم !! هل هناك أجمل من هذا ، وهى لم تكن عادة متبعة فى الماضى وحسب ، بل هى سمة مشتركة تعبر عن الشخصية المصرية الأصيلة الكامنة داخل وجداننا الغنى بالمشاعر الطيبة لما فيها من عرفان بالجميل . وطبقا لفكرة التوحيد بين رع (الاله الخالق) وأوزيريس (اله الموتى) الذى يمثل الخلود للمصريين فانه يعنى فى العقيدة المصرية القديمة فكرة **الاله الواحد** حتى ولو عرضها اللاهوت الشمسى بصورتين : صورة خالق ــ وهو خالق واحد أحد ــ وصورة اله الدينونية الذى يتم الحساب أمامه وطبقا لما تنجم عنه المحاكمة من حيث تحديد أحقية الميت فى الجنة أو فى النار فانه يتحدد المصير الأبدى [ألسنا نحن أيضا نخشى أن تفقدنا أخطاءنا النعيم الأبدى ؟!] اننا لا نســـتطيع أن نفرض على من سبقونا صيغة محددة تنطبق حرفيا عما نؤمن به حاليا .. ولكن المعنى العام والاطار العام لفكرة البعث وفكرة الحساب وفكرة الحكم وتحديد الطريق الذى يستحقة الانسان طبقا لأعماله الصالحة أو الطالحة هو أقصى ما نستخلصه من محاولات المصرى القديم ــ عن طريق رجال الفكر ورجال اللاهوت ــ للوصول الى ادراكه لعالم ما وراء الطبيعة وما يمكن أن يتخيله وما يحسه بحسه ووجدانه الدينى .

هناك ملاحظة هامة بخصوص الماء والنار . فالحياة بدأت من الماء [« ومن المـاء كل شىء حى » . و « خبر » ظهر الى الوجود من خلال لجة الماء] . أما المصير فقد يكون مآله النار وقد يكون الجنة ــ ان كانت أعماله حسنة . كما أن معنى البعث بعد الموت متمثلا فى تحول « يوف » الميت الى « خبر » ــ شمس الصباح ، وفى نفس الوقت تأكيد لمعنى **الاله الواحد** الذى تحول من صورة الموت الى الحياة مع تغير الليل الى النهار من « يوف » الممثل لأوزيريس الى « خبر » أى بعث الحياة واشراقه الشمس . أما فكرة ــ أوزيريس يفضل الحياة فى العالم الآخر بعد أن عانى من الغدر فى العالم الأرضى ــ فلها تكرار فى بعض الأساطير وعلى وجه الخصـــوص « أســـطورة هـلاك البشر » أو « قصـــة هـلاك

الانسانيــة » (٣٠٢) • كما أوردهــا الدكتور سليم حسن • وملخص القصة كالآتى :

« شعر الاله « رع » اله الشمس أنه صار مسنا ، وان رعيته من بنى الانسان يتآمرون على قتله ، فاستنجد بالالهة « حتحور » التى تسمى فى هذه القصة « عين رع » لتقضى على بنى الانسان جملة ، ولكنها بعد أن بدأت عملها عز على الاله « رع » فدبر طريقة ينقذ بها من بقى من البشر ، ويخلصهم من بطش هذه الالهة ، وتم ذلك بمعونة شراب الجعـة الذى (هو) حبيب الى قلبها ، فاحتست منه حتى ثملت ولم تع ما كانت تريد (٣٠٢) •

دراسة القصة :

« تمثل لنا هذه القصة أو بعبارة أدق هذه الخرافة نوعا من الشعر القصصى الذى يدور حول « الالهة حتحور » اله السماء ، والاله « رع » اله الشمس ، وقد حفظت لنا بتوفيق غريب ، اذ أنها قد نقلت فى كتاب تعويذات سحرية ، وقد نقش هذا الكتاب على جدران مقبرة الملك سيتى الأول من الأسرة التاسعة عشرة ، ثم على جدران مقبرة رعمسيس الثالث من الأسرة العشرين • ووردت هذه القصة فيما نقش باعتبارها جزءا من هذا الكتاب ، كما وجدت مكتوبة على « ناووس » توت عنخ آمون » الخشبى (ولم تنشر بعد) • غـير أنه من النقشين الأولين وان وجدا مهشمين استطعنا أن نحصل على نص كامل تقريبا لهذه الخرافة • ويرجع تاريخ هذه الوثيقة الى الدولة الوسطى ، والمرجح أنها كتبت فى بدايتها (٣٠٣) •

« على أن أول ما يسترعى النظر فى أسلوب هذه القصة هو سذاجة التعبير والتكرار الممل كالذى نسمعه فى بيوتنا عندما تقص علينا خرافة من الخرافات ، يضاف الى ذلك أن القصة تحتوى على اشتقاقات لغوية خاصة بأسماء الآلهة تلفت نظر المشتغلين باللغة المصرية • وكذلك نجد فيها صورة طريفة للاحتفالات والمراسيم المحلية التى كان لابد منها فى الطقوس المصرية (٣٠٣) •

« أما أهم ما يلفت النظر فيها من حيث القصص فهو وجه الشبه بين قصة الطوفان الذى جاء ذكره فى الكتب المقدسة ، والذى كان من جرائه فناء الانسانية ـ فناء الانسانية تقريبا ، وبين فيضان الشراب الذى غمر البلاد المصرية فى قصتنا مع الفارق ، أن الخيال المصرى فى قصتنا قد قلب الطوفان الذى أرسل هناك لهلاك البشر ليكون حافظـا ورحمة لهم هنا • ولكننا نذكر هذه المقابلة بشىء من التحفظ المقرون

بالشك • وسيبقى هذا الشك موجودا الى أن تصل الينا وثائق أخرى تثبت حدوث هذا الطوفان فى مصر ، وبخاصة اذا علمنا أن « أفلاطون » قد أنكره » (٣٠٤) •

تعليقى الشخصى : اننى أجد التحفظ الذى يثيره الدكتور العلامة « سليم حسن » تحفظا مبنيا على ايمانه الشخصى العميق ، ولكن مجال الدراسة التاريخية ومجال دراسة الفكر البشرى يجب أن يبنى على وضع النصوص التى وصلتنا كما هى للقارىء وسواء وافق عليها علماء أو فلاسفة مثل أفلاطون أم لا فهذا ليس مجالا للدراسة خصوصا المبنية على الدين والعقائد لما فى ذلك من حساسية • والدراسة الموضوعية هى خير ضمان لعدم الانزلاق فى مجال حساس خصوصا أنه لا يمكن تطبيق المنطق الفلسفى الحرفى فى مجال يصعب تطبيقه بل يستحيل • كل ما يمكن أن نقوله : « هذا شىء مقبول نفسيا لدينا » أو هذا لا يتعارض مع ما نؤمن به ، أو القياس النسبى مثل : هل يمكن تطبيق قواعد العلم المحدود على القوة الهائلة غير المحدودة ! وكما قال المصرى القديم المتمثل فى قصيدة « اليائس من الحياة » : هل عاد أحد من هناك ليخبرنا عما يوجد هناك لكى يطمئن قلبنا ؟ وأذكر النقاش الذى دار بين طالب كان معى فى السنة التوجيهية وبين أستاذ الجغرافيا المتفتح عقليا والذى كان علامة حقا وكنا كلنا نبجله ونحترمه • فقد أثار هذا الطالب هذه النقطة بالذات ــ الفيضان ــ وقال الطالب بحدة « الناس فاسدون ويجب ابادتهم فعلا « فابتسم الأستاذ الفاضل وقال لتلميذه : عندما نتحدث عن موضوع مثل الفيضان وعما اذا حدث أم لا فهذا ليس مجالا للمناقشة ولا فى وسعنا أن نبحثه وأما اذا كان البشر أشرار يستحقون الهلاك أم لا فهذا موضوع فلسفى دينى ولا نملك نحن سوى التعليق الشخصى الذى لا يرقى الى حكم على حدث تاريخى أو دينى ، وأنا كمدرس جغرافيا أذكر ما قاله علماء الأجناس البشرية بأنهم لاحظوا توقف السلالات الا خط واحد أى استمرار سلالة واحدة كشجرة لاستمرار الجنس البشرى ، وعليه أستطيع أن أقول اننى أعتقد ، وأكرر اننى أعتقد أن هذا الاستمرار أتى عن طريق نوح • واختتم هذا الأستاذ الفاضل بنصيحة غالية لنا : « يجب أن تكونوا متفتحين الفكر بالرغم من ايمانكم بما تلقيتونه من والديكم ومن رجال الدين الأفاضل • وقد كرمنا الله سبحانه وتعالى بالعقل ، فيجب أن نستفيد من نعمة العقل التى ميزنا بها الله سبحانه وتعالى عن سائر المخلوقات الأخرى • والعقل لم ينكر أبدا الوجدان والحدس والشفافية الروحية ولا الاحساس الدينى العميق » •

ويستكمل الدكتور العلامة « سليم حسن » حديثه عن « **قصة هلاك البشرية** » قائلا : « والواقع أنه لا يوجد فى الوثائق المصرية خرافة خاصة بالطوفان [أكرر تحفظى الشخصى على تعليق الدكتور « سليم حسن » فى وصف الطوفان بالخرافة لأن هذا يستتبع انكار قصة نوح ـ عليه السلام ـ تماما] • والمصدر الوحيد الذى تلمح فيه عن بعد اشارة عن الطوفان هى الخرافة الخاصة « بأوزير » أو « حور » جد بنى الانسان ، اذ نرى فيها الاله يطفو على سطح الماء فى صندوق عند ولادته أو عند موته حسب الاله المذكور ان كان « أوزير » أو « حور » » (٣٠٥) •

تعليقى الشخصى :

هناك فارق بين الحقيقة العلمية أو التاريخية والحقيقة الأدبية فالنوع الأول سرد حقائق خاضعة للقياس التاريخى مثل حقيقة الأحداث التاريخية أو الحقائق العلمية المجردة التى يسهل اثباتها ولا يختلف عليها اثنان مثل التمدد والانكماش والجاذبية وما الى ذلك ولكن الأديب يعطينا معنى أو مغزى وراء سردة القصة أو المسرحية أو قصيدته الشعرية فاحساسنا بالفزع من هول فاجعة « دزدمونة » البريئة الرقيقة لم يحدث لأن « عطيل » كان قائد أسمر أحس بالغيرة القاتلة نتيجة تأثره بكلام « اياجو » الشرير وأن هناك شخصا اسمه عطيل أو « اياجو » • ان الحقيقة هنا هى حقيقة شعرية (أدبية) • وأذكر أننى عندما كنت أسرد للسائحين قصة أوزيريس وست ، كان يعلو صوتهم ويقولون « أوه •• نفس قصة قابيل وهابيل » ، وكان تعليقى : « المهم هو المعنى من القصة وليس صحة الأسماء « قابيل أو هابيل » أم « ست قاتل أخيه أوزيريس » • وهنا أود أن أكرر ما سبق قوله بأننى أسرد الأسطورة كما وجدناها فى الكتابات المصرية كمحاولة لتفسير أو تخيل أو فهم حقائق غامضة • وأقول « حقائق » على أساس أن هناك حقيقة الخلق والا ما وجدنا على ظهر الأرض ، أما كيف ؟ فاننى أقول مع ايليا أبو ماضى « لست أدرى ؟ » •

واذا تأملنا ما بين أيدينا من الفكر المصرى القديم فاننا نحس بعظمة أجدادنا الذين قدموا الحكمة التى لا ينكرها أحد وبنوا الأهرامات بأدوات بسيطة ولكن المهم أن خلف هذه الأدوات البسيطة كان هناك العلم والهندسة وعلم المساحة والروافع والنقل واختيار واختبار الزوايا وتفادى الاحتكاك عند نقل الأحجار وأنهم تقدموا وبرعوا فى العلم فقاموا بتحنيط الجثة (ولازال هذا العلم من الأسرار) • وتخيلوا رحلة الشمس ليلا من الغرب الى الشرق استكمالا لحقيقة يرونها بأعينهم وهم يتأملون الشمس منذ طلوعها من الشرق لتنير وتشرق على الكون وحتى نهاية النهار •

أما بالليل حين تختفي الشمس فهناك حقيقة اختفائها عن أنظارهم وتساؤلهم أين تذهب ؟ قطعا قال الكثيرون لسنا نعرف ولكن رجال اللاهوت تركوا لخيالهم العنان وقدموا لنا مثل هذا الكتاب الذى نحن بصـــدده « امى دوات : ما يوجد فى العالم الآخر » وقطعا هذه محاولات من ناحيتهم وليس من حقنا أن ننفعل ونقول « ما هذه الخرافات ؟ » ٠

ويستمر الدكتور سليم حسن فى استقصائه عن مصادر القصة « أول من بحث هذه القصـــة هو الأستاذ « نافيل » ثم ترجمها بعده « ماكس مولر » فالأســتاذ « ارمـان » (٣٦) ٠ أما **«متن القصـــة فهو كالتـــالى :**

« ٠٠٠٠ الاله الذى أوجد نفسه عندما كان ملكا على الآلهة والناس جميعا ٠ وقد دبر له بنو البشر مؤامرة ٠ وقد كان جلالته وقتئذ متقدما فى السن ، وكانت عظامه من فضة ولحمة من ذهب وشعره اللازورد الحقيقى (الظاهر أن هذه كانت أمارات على كبر السن فى الآلهة) ٠ ولكن جلالته قد فطن لما يدبره ضده بنى البشر ، وعند ذلك قال جلالته لمن كانوا فى حاشيته : تعالوا ونادوا الى عينى ، وكذلك « شو » و « تفنوت » و « جب » و « نوت » ومعهم الآباء والأمهات الذين كانوا فى صحبتى عندما كنت لا أزال فى نون (المحيط الأبدى) وكذلك نادوا الهى « نوت » نفسه ودعوه يحضر معه حاشيته ، ويجب عليكم أن تحضروهم سرا حتى لا يراهم بنو الانسان ، فيأخذ قلوبهم الفزع ، ويجب عليكم أن تحضروا معهم الى القصر العظيم حتى يمدونى بنصيحتهم ٠

« من أجل ذلك حضر هؤلاء الآلهة ٠ وهؤلاء حضروا أمامه ولمســوا الأرض بجباههم فى حضرة جلالته ، لأجل أن يقول كلماته فى حضرة والد أكبرهم ســـنا « نـــون » ، ذلك الذى ســـوى بنى البشر وملـــك النـــاس » (٣٠٧) ٠

[نلاحظ من الفقرات السابقة اشارة بأن رع خلق البشر وكما قال « **أتوا للوجود بعينى** » ٠ ونلاحظ مبالغة الكاهن الذى ألف هذه الأسطورة ـ وهو قطعا من كهنة هليوبوليس ـ بأن يجعل « رع » « أعظم من الذى خلقه وأسن من الذين ســوره » ، وفى نفس الوقت نلاحظ الخلط الذى أحدثه لأن أسطورة الخليقة طبقا لمدرسة اللاهوت فى هليوبوليس تختلف فالاله « رع » « **قد خلق نفسه بذاته** » ثم قام بعمليات الخلق الأخرى] ٠

واستكمالا لهذه الأسطورة فقد علق جـلاله « نون » ووجه حديثه للاله « رع » « ابق حيث أنت ، فان الخوف منك سيكون عظيما ، اذا التقت عينك بمن تخيل لك سوءا ٠ فقال جلالـــه « رع » : أنظر ٠ أنهـم

قد هربوا الى الصحراء لأن قلوبهم فى وجل مما قالوا · وعندئذ قالوا لجلالته : أرسل عينك لتذبحهم لك ·· لتذبحهم لك عندما تنزل بصورة « حتحور » (٣٠٨) » ·

اننا نستخلص من الفقرة السابقة أن حتحور عدوانية ، مع أن حتحور التى كانت تصور كأمرأة جميلة وعلى رأسها قرنين وقرص الشمس أو على هيئة بقرة ، فانها تعتبر بالنسبة للمصريين القدماء الهة الحب مثلما كانت أفروديت الهة الحب عند اليونان ، وفينوس الهة الحب عند الرومان · لكن هذه القصة تجعل حتحور تقوم بدور « سخمت » الهة الحرب والانتقام وهى دائما على صورة « لبؤة » وسنرى من تكمله القصة أنها كانت سعيدة بالفتك ببنى البشر · وتحكى قصة هلال الانسانية ما قامت به حتحور : « وهكذا عادت هذه الالهة بعد أن قتلت بنى الانسان فى الصحرء ، وقال جلالة هذا الاله : مرحبا مرحبا ياحتحور · لقد فعلت ما أرسلتك من أجله · فقالت له هذه الالهة : « بحياتك لقد تغلبت على بنى البشر وقلبى فرح لذلك » » ·

[يقول الدكتور سليم حسن « يأتى بعد ذلك قطعة غامضة يمكننا أن نحكم من سياق ما سيأتى أنها كانت تحتوى على ندم « رع » على ما فرط منه وعزمه على انقاذ البقية الباقية من بنى الانسان » (٣٠٩)] ·

التعليق :

كانت حتحور سعيدة بما تقوم به من **عنف** أدى الى فناء معظم البشر ولكن « رع » سيطر عليه شعور الرحمة وشعور الخوف على البشر من أفعال حتحور هذه وظهر عزمه على « **انقاذ** البقية الباقية من بنى الانسان » وتكمله القصة تبين كيف قام « رع » بجعل حتحور تكف عن عملها العنيف وتكف عن سفك الدماء الذى تتلذذ به :

« وقال « رع » : تعالوا نادوا رسلى المسرعين فى العدو حتى يعدوا مثل ظل الجسم · وقد أحضر هؤلاء الرسل ، فقال لهم جلالة هذا الاله : أسرعوا الى الفنتين (أسوان) وأحضروا لى كمية عظيمة من الطفل الأحمر · فأحضر له هذا الطفل الأحمر · ثم ان جلالة هذا الاله العظيم أمر الاله « ذو الذؤابة » الذى فى عين الشمس أن يطحن هذا الطفل الأحمر · ثم أعدت الخادمات شعيرا للجعة ، وأضيف له هذا الطفل المطحون ، فصار **يشبه الدم البشرى** ، ثم جهز ٧٠٠٠ ابريق (هنت) من الجعة ، ثم حضر جلالة الملك « رع » ملك الوجهين القبلى والبحرى وبصحبته هؤلاء الآلهة ليروا هذا الشراب ، وانفلق صبح اليوم الذى كانت ستذبح فيه الاله

بنى الانسان فى وقت ذهابهم الى النهر • وقال جلالة هذا الاله : انها حسنة جدا سأحمى بها بنى الانسان (؟) وقال « رع » : احملوها الآن الى المكان الذى قالت عنه انها ستقتل فيه بنى الانسان • وبكر جلالة « رع » ملك الوجه القبلى والوجه البحرى فى أعماق الليل ليصب هذا الشراب المنوم (؟) والحقول التى •• قد ملئت بالشراب بقوة جلالة هذا الاله • وفى الصباح ذهبت الالهة ووجدتها غطيت بالفيضان ، وكان وجهها جميلا فيه (أى فى الفيضان) فشربت • وكان الشراب لذيذا الى قلبها فسكرت ، ولم تع بنى الانسان » (٣١٠) •

التعـــليق :

أننا نلاحظ أن الاله « رع » الذى غضب من تآمر البشر ضده وكلف حتحور بالانتقام منهم ، ولكن **قلبه تحنن على البشر** وهذه نظرة المصريين للآلهة القديمة وللاله الأعظم بصفة خاصة بأنه يحب البشر وأنه الراعى الصالح وكان الناس يصلون ويتضرعون للاله الأعظم (الخالق) ويتوسلون اليه ويطلبون العون منه • ولذلك نجد الاحساس بطيبة القلب أوضحها مؤلف هذه الأسطورة بأن أنقذ البشر رغم أنه فى البداية كان يود الانتقام منهم عندما أحس بوجود مؤامرة منهم ضده •• وفى بعض النصوص الأخرى لنفس قصة هلاك البشرية كان يذكر بأن البشر سخروا من « رع » • ولكن المدلول واحد • وهو أن الخالق غلبه حبه للناس وأنقذهم من الفناء مثلما تم انقاذ أسرة نوح ــ عليه الســـلام ــ حتى لا يلقى نفس مصير الأشرار الذين غرقوا فى الفيضان ، واستمر البشر من سلالة نوح على الأرض •

امثلة من « الخلط »

« ان **الثعبان هو** صورة الاله فى **بدء الخليقة** ، لكنه لم يعد يتجلى فى تلك الصورة ، لأنه استبدلها ، فالثعبان ينتمى الى الماضى الأسطورى • وينبأ الفصل ١٧٥ من كتاب الموتى بأن العالم سيرجع فى آخر المطاف الى حالة **الفوضى** الشاملة التى كان عليها فى الأصل ، وسينقلب « أتوم » ثعبانا من جديد • حتما كان هذا اعتقادا شائعا **لأنه** يظهر فى تشبيه استخدمه حـــكام أسيوط ابان عصر الاضـــطراب الأول بقولهم انهم مبرزون مثل :

« الثعبـــان العظيم الذى سيبقى حينما يرتد ســـائر البشر الى الطين » (٣١١) •

اننا نجد فى النص السابق تناوب النظام والفوضى حيث أن النظام كان مرتبطا بالخليقة وبالملك كخليقة « رع » على الأرض وبعودة صورة الاله الى الثعبان الأزلى الذى كان قبل بدء الخليقة ستعود الفوضى مرة أخرى • وفى تشبيه حكام أسيوط سيبقون هم دون سائر البشر مثل الثعبان العظيم ــ مبرزون ــ فى حين يعود سائر البشر الى الطين !!؟ فالثعبان العظيم هو الوحيد الموجود عند طرفى الزمان : فى البداية وفى نهاية الزمان • لقد أحس القدماء بمعنى النظام والذى ارتبط بالاستقرار والملكية التى هى امتداد لحكم رع [أتوم] العادل • ولكن عندما زال النظام وعمت الفوضى ــ ابان عصر الاضطراب الأول ــ أحس الناس بأن الفوضى الشاملة ستعود مرة أخرى ويأخذ الاله صورة الثعبان فى حين يرتد سائر البشر الى الطين وواضح أنهم يعنون الفناء • أى أنهم يرددون القول الذى يقوله أهل المتوفى الآن « لا دائم غير وجه الله » •

كما أن هذا النص يتعارض مع الخلود « وحقول أيارو » و « الروستاو » التى تكرر ذكرهما فى الكتب الأخرى المتعلقة بمصير الموتى والحياة الآخرة • وحتى صورة الثعبان الموجود حينما انبثق العالم من المياه • وحينما تبتلعه المياه فى نهاية العالم ، « نجد له صورة أخرى عندما تتحدث متون الأهرام عن الثعبان المسمى « **مانح الصفات** » بوصفه المعبود الأعلى نجده فى أحد التعاويذ عدوا لأتوم ونقرأ فى وصف احدى المواد المستخدمة فى اداء الشعائر : « هذا مخلب أتوم على عنق الثعبان « مانح الصفات » ليضع حدا للاضطراب فى هرمو بوليس » •

« وثمة صورة متأخرة لأتوم تظهره فى هيئة النمس وهو حيوان يقتل الثعبان • وليس لهذا معنى اذا لم يكن أتوم فى صورته الجديدة باعتباره نمسا **قد تحول الى قاتل** صورته السالفة • ولابد أن المقصود بالاضطراب فى هرموبوليس هو عصر الفوضى القديم ، أى زمن المياه الأزلية ، فأتوم وضع نهاية لعصر الثعبان واستهل عصرا جديدا » (٣١٢) •

« والمعتقدات الدينية يمكن أن نشبهها بالأمراض المعدية ، اذ ان تقديس بعض هذ الآلهة المحلية انتشر بين الناس فى أماكن بعيدة عن موطنها الأصلية ، ولا غرابة فى ذلك فمصر لا تشبه فى طبيعتها أى بلد آخر ، اذ أن فى الاستطاعة اجتياز هذا البلد من أقصاها الى أقصاها بسفينة تعبر مياه النيل دون أى عائق • واذا لم تساعد الظروف هذا أو ذاك المعبود من أن ينتقل من موطنه فقد كانت هناك بعض العادات والأفكار الدينية تنتقل من موطنها وتنتشر فى المواطن الأخرى • وهكذا تكون فى مصر كنز لا يفنى من معتقدات دينية تنوعت أفكارها وتعددت

مذاهبها ، فهنـاك من الآلهة ما عبد فى موطن واحد ، وأخرى عبدت فى مواطن مختلفـة • كما كانت هنـاك آلهة اختلفت أوصافها واتحدت فى شكلها ، وكذلك آلهة اتحدت فى اسمها وأتخذت أشكالا مختلفه • وليس فى استطاعتنا أن نتعرف الأسباب التى دفعت المصرى الى هذا الاختلاف المتشابك فى شتى عقائده • ومن الغريب أن الآلهة العظمى لم تنجح من هذا الخلط • حقا ان كل مصرى رأى فى الشمس والقمر والسماء ما يرمز الى آلهة عظمى ، ولكن فى بلد مثل مصر لها امتدادها الطويل لم يستطع انسانها فى كل مكان أن يتخيل نفس الصفات لكل من هذه الآلهة كما تخيلها زميله الذى يسكن منطقة من مصر تبعد عن منطقته • وعلى سبيل المثال : كيف أن هنـاك عقيدة أخرى صـورت الشمس والقمر كنجمين يتجولان فى السماء داخل قارب كبير •• ومن الغريب أنها ـ أى هذه المعتقدات ـ عاشت واستقرت بجانب العقائد المحلية المتوارثة دون أن يشعر أهل هذا المكان بأى تناقض بينهما » (٣١٣) •

ومنبع الخلط والتناقض أحيانا والاختلافات فى التشبيهات ناجم عن اشتمال الديانة المصرية القديمة على كل العقائد المتنوعة التى ظهرت فى أماكن مختلفة • ولم يجمع رجـال اللاهوت المختلفين ، حسب اختـلاف المدارس اللاهوتية المختلفه ، كل الفكر الدينى فى كتاب واحد كما أنهم لم يهملوا أى فكرة أو عقيدة محلية حتى أن الباحثين وصفوا المصريين بالتسامح قبل المعتقدات المختلفة • واختلاف الرموز ناشىء عن اختلاف التصور والخيال فى شرح الظواهر الطبيعية أو فى توضيح ما يتم ـ طبقا للمعتقدات المختلفة ـ فى العالم السفلى أو الحياة الآخرة • ان الصقر مثلا رمز لحورس السماوى والذى كان يعنى الشمس • واتخذت عدة آلهة صورة الصقر • ويقف الدارس أحيانا كثيرة عند ذكر حورس ويتسائل هل « حورس » السابق لقصة أوزيريس وست أم هو حورس بن أوزيريس؟ أم هو حورس البحدتى فى ادفو حيث الشمس المجنحة ؟ وهذا مجرد مثال يواجه الدارس للديانة القديمة •

« ولقد حدث أن اختلطت بعض الأشياء بقصة أوزيريس فى عصور مبكرة لا تمت بصلة ما لها • فمن البديهى مثلا أنه اذا كان الاسم الذى أطلقته القصة على الأخ الشرير لأوزيريس هو « ست » وعلى الابن المظفر له هو « حوريس » ، فذلك يرجع الى الالهين القديمين « ست » سـيد اومبوس و « حوريس » سيد بحيدت ، وخاصـة لأن كليهما كانا من بين الآلهة المحبة للقتال ، ومادام الأمر كذلك فيجب أن يدمجا فى القصة • وكذلك كان الحال مع « العين » التى قدمها حوريس الى أبيه فهى فى الأصل « عين حوريس » أى القمر الذى اعتقد الناس يوما ما أنه عين اله السماء

حوريس • وهكذا لقد حدث لقصة أوزيريس ما يحدث عادة لكل أسطورة شعبية كلما انتشرت بين الناس واستتب بها الأمر كلما استوعبت فيها الكثير من المعتقدات التى تفيض بها قلوب الشعب ، ولو أنها لا تمت بصلة لقصتنا هذه » (٣١٤) •

ولأن الأساطير تتغير باستمرار طبقا لرجال اللاهوت فى أماكن العبادة المختلفة فان الاضافات واردة والتغييرات واردة مما ينتج عنه خلط مستمر فمثلا نفس قصة الصراع بين الخير والشر والمتمثلة فى الصراع بين حورس الابن المنتقم لابيه (ويمثل عنصر الخير) وعمه الشرير ست (ويمثل عنصر الشر) فاننا نجد أحداثا أضيفت فى النسخة التى تركها « بلوتارخ » مثل حادث اعتداء ست على ابن أخيه ـ بالخداع أيضا ـ عندما تظاهر برغبته فى انهاء الخلافات وعزمه فى بيته وعرض عليه أن يكونا كأصدقاء فيمضى عنده الليل •• مثل هذا الحدث اضافة جديدة وغريبة •• وتأتى ايزيس لمساعدة ابنها ولتثبت براءة ابنها أمام مجلس الآلهة •• من هنا عرضت الأساطير بصور متغيرة وزاد الخلط بالطبع •

ومن أمثلة الخلط أيضا ما لحق بأوزيريس من صفات مختلفة ، فالاله أوزوريس ينسب اليه كل التطورات التى تحدث على سطح الأرض طوال العام • فاذا ما أتى الفيضان فأوزيريس هو الماء الجديد الذى يكسب الحقول خضرة • واذا ما جف النبات وفنى فمعنى ذلك أن أوزيريس قد مات • ولكن موته هذا ليس أبديا ، لأنه اذا ما نبتت البذور فى العام الجديد فانما نبتت من جسده الذى لايزال على قيد الحياة ، فقد اعتقدوا أن الحياة تعود اليه كل عام ، وبعودتها تنبت المزروعات التى يعيش بها الانسان والحيوان • وليس أدل على وجود هذه العقيدة عند المصريين من احتفالهم بأحد أعياد أوزيريس وتمثيله (وقد عادت اليه الحياة) ببذور نابتة • وكانوا يصورونه ميتا مستلقيا على الأرض وقد ملأت جسمه حبوب ترتطب بالماء فتنبت وتنمو • وهكذا تعود الحياة الى الاله • ومن أجل الحياة والموت اعتبر أوزيريس بعد ذلك الها للموتى وسيدا لهم • وهذه الصفة هى أبرز الصفات التى عرفت عنه ، ومن أجل ذلك أصبح فى العصور التاريخية عند المصريين الها للموتى » (٣١٥) •

وفى الفقرة السابقة نرى أوزيريس متمثلا بالفيضان الذى يمنح الخير للأرض فتخضر ، وحتى فى بعض الصور نجده مصورا باللون الأخضر رمزا للأرض الخضراء أى الأرض المنزرعة والتى نبت فيها الزرع بعد أن سقاه ماء الفيضان • ومثل دورة الأرض من خضرة الى جفاف فهو أيضا يمثل الجدب والفناء عند موته • ولكن موته ليس أبدا اذ

سرعان ما تدب فيه الحياة مرة أخرى مثلما نجد الأرض الجدباء الجافة تعود الى الأخضرار كل عام · بعودة الحياة الى النبات تنبت النباتات التى يعيش عليها الانسان والحيوان أى أن بعودة الحياة الى النبات تستمر حياة الانسان والحيوان وبذلك تتمثل أهمية بعث أوزيريس فهو الحياة وباعث الحياة عندما يبعث وهو ميت عندما تجف الأرض وتعانى من الجدب · ولارتباط أوزيريس بالحياة والموت أصبح الها للموتى ·

« ويجدر بنا أن نذكر أن أوزيريس اعتبر الها للقمر وذلك لأنه يختفى ثم يعود مرة ثانية الى الحياة ، بل أكثر من ذلك مثل عندهم الشمس الغاربة والمشرقة · ولكن من الملاحظ أن كل هذه الصفات التى برزت فى العصور المتأخرة لم تبلغ ما بلغته الميزة الأولى التى أسلفناها ، فقد كان باستمرار بمثابة « الحبوب الجديدة » طعام الانسان ، ثم « المياه الجديدة » التى تكسب الأرض خصبها ، فهو الذى يكتسب الشباب بمياهه المتجددة · تخرج منه الحياة · بل تعتبر البحار والمحيطات دولتيه · وكان يسمى « الكبير الأخضر » لأن المصريين سموا البحار باسم « الأخضر الكبير » ثم أطلق عليه أيضا « الأسود الكبير » لأن المصريين سموا البحار باسم « الأخضر الكبير » ثم أطلق عليه أيضا « الأسود الكبير » لأن المصريين كانوا يسمون البحيرات المرة باسم « الأسود الكبير » · وكذلك اعتقد المصرى أنه هو الحقول التى تطفو فوق مياه الفيضان اذا ما بدأت المياه تنحسر عن وجه الأرض وتصورها عائمة فوق الماء ثم مثلوا أوزيريس بالأرض الجاثمة فوق صدر عدوه « ست » الذى يحمله ، وفى العصور المتأخرة نجد أوزيريس الذى يحكم دنيا الأموات كأنه نائم تحت الأرض ، والأرض من فوق المياه ينبع من قدميه » (٣١٦) ·

لقد تغيرت التشبيهات لأوزيريس أحيانا كالأرض الجدباء تعود للحياة وأحيانا المياه الجديدة التى تنبت الحبوب الجديدة فتعطى الحياة للناس والحيوانات · ثم ربطوا اسمه بالخضرة وأطلقوا على البحر (وهو ماء أيضا) الأخضر الكبير أما البحيرات المرة المحصورة بين الأرض اليابسة ولا تتحرك الأسود الكبير · ثم صوروه راقدا مستسلما ونائما تحت الأرض ممثلا للموت ثم مرة أخرى المياه [التى تعنى الحياة للنبات] نابعة من قدميه · ان الاختلافات فى تصوير أوزيريس أحيانا مقترنا بالموت وأحيانا مقترنا بالحياة بل هو بعث الحياة ، جعلت القصص والأساطير حول أوزيريس تختلف وتتغير من عصر الى آخر حتى أنه أخذ صورة أخرى فى الكون واعتبروه الها للقمر لأنه يختفى ثم يعود نجد هنا خلط هائل بين ارتباطه بالنبات والخضرة وبين ارتباطه بالقمر · وهناك

مرة صورة الحقول التى تطفو فوق الماء وصورة النائم تحت الأرض · ان محاولات التفسير تختلف ومن ثم تختلط وربما تتناقض أيضا · والسبب هو أنه ليس هناك كتاب جامع لكل الأشياء المرتبطة بالدين ·

« وما أجمل هذه الفقرات ، وهى تلك التى كتبها مصرى عاش فى عصر الدولة الحديثة متحدثا فيها عن بعض هذه الصفات فيقول : « ترقد الأرض قاطبة ، على أوزيريس الميت وتزلزل زلزاها اذا تحرك ، ويجرى النيل من عرق أصابع يديه ، يهب الناس (الحياة) من أنفاسه ، وتنمو فوقه الأشجار والنباتات والحبوب وجميع الثمار · ويجثم فوقه كل ما تشيده يد الانسان من قنوات ومنازل ومعابد وآثار ومقابر وغير ذلك من الأشياء العديدة التى ليس من اليسير تدوينها دون أن يئن أو يتضجر من العبء الذى يحمله » · والمعروف حتى الآن أن موطن أوزيريس كان فى مدينــة « ددو » التى سماهــا اليونــانيون « **بوزيريس** » أى بيت أوزيريس · ومن هذه المدينة انتشرت عبادة هذا الاله الى جميع أطراف البلاد ، وزيــادة على ذلك فان هذه العبـــادة طردت معبودات كثيرة من مواطنها ، ففى ممفيس مثلا اندمج سوكاريس فى أوزيريس ، كما تغلب على الاله الأصلى فى أبيدوس اله الموتى المسمى « أول أهل الغرب » والذى كان يرمز اليه ويعبد على شكل ابن آوى · ويبدو أن هذا حدث ابان عصر الدولة القديمة (أى حوالى ٣٠٠٠ ق·م) ومنذ ذلك العصر أصبحت أبيدوس أهم المدن التى تعتبر المركز الرئيسى لعبادة أوزيريس· وبديهى أن أوزيريس منذ اعتبر ملكا للموتى أصبح يصور على هيئتهم ، بمعنى أنه مادام ميتا فيجب أن يكون مومياء فى اربطتها ، ولكنه ربما عاد ودبت فيه الحياة مرة أخرى لذلك **صبغوا وجهه باللون الأخضر** ، ووضعوا فوق رأسه التاج وفى يديه عصا الحكم والصولجان » (٣١٧) ·

ان ادماج آلهة فى أخرى كانت سببا آخر للخلط ، كما ان انتقال عبادة اله من مكان الى آخر واضفاء صفات الاله السابق على الاله الذى أدمج فيه الاله القديم ، كان سببا آخر للخلط · وبالنسبة لأوزيريس فانه يعتبر من أشهر الآلهة فى الديانة المصرية القديمة وقد احتل مكانة خاصة وأصبح يمثل الديانة الشعبية وأصــبح يمثل بالنسبة للعامة **الأمل** فى البعث وفى الحياة الآخرة ، حتى الملوك والأمراء فى الدولة الحديثة كانوا يقفون أمامه فى يوم المحاكمة فى الآخرة · وأعتقد أن سبب فشل اخناتون فى تثبيت ديانة « آتون » هو أنه أخذ يمجد عظمة الخالق آتون وهو الواحد الأحد ، ولكنه لم يذكر مصير الموتى (المتمثل فى البعث وفى عبادة أوزيريس والتى نجح رجال لاهوت آمون رع فى التوفيق بين رع وأوزيريس) فنقوش تل العمارنة (عاصمة أخناتون)

لا تذكر أبدا فى أى مكان منها شيئا عما كان يشغل بال المصريين عن اعتقادهم فى أوزوريس ومملكته ، ولا .. للمحاكمة التى يتعرض لها الناس بعد موتهم والتى يأملون الخروج منها مبررين » (٣١٨) ولذلك (وبالرغم من جهود الملك [اخناتون] فان غالبية الشعب قد رفضت العقيدة الجديدة وظلت تعبد آلهتها القديمة سرا » (٣١٩) وقد علق أدولف ارمان مؤلف كتابه (ديانة مصر القديمة) (ونحن نجد الآن صعوبة فى سبب فشل العقيدة الجديدة تماما ، اذ يلوح أنه كان يجب قبولها كوسيلة لتحرير آلاف المواطنين فى عصر رائع الازدهار ، ولتنقية الديانة من كل حشو الذى تراكم فيها منذ آلاف السنين . ولكن بجانب الطبقة المتعلمة قامت طبقة الشعب التى لا يمكن أن مجمع شتاتها عقيدة أساسها المنطق . وكان ينقصها أيضا شىء آخر لاتستطيع خير ديانة الاستغناء عنه وهو الناحية التصوفية وناحية ما وراء الطبيعة ، ولذا فقد فضل مجموع الشعب البقاء على عقيدته القديمة » (٣١٩) .

ومن أمثلة الخلط فى القصص أيضا « ولقد وردت فى أقدم المتون الدينية بعض التلميحات لقصة (ايزيس وأوزيريس) لا تتفق مع ما عرفناه عنها . فمثلا نجد أوزيريس ابنا للاله « كب » والاله « ندت »، وأن أخوه « ست » الشرير كان يتعقبه ، وشاركه فى هذه المؤامرة أخ آخر هو « تحوت » وتمكن « ست » من أن يهزم أخيه وقتله ثم رمى به فى النيل فسبحت جثته فى الماء وكان لونها أخضر وأسود ، ومن هنا أتت تسمية البحار « بالأخضر الكبير » وتارة أخرى « بالأسود الكبير » وعندما اختفى أوزوريس حزنت الآلهة بأجمعها وبكت ايزيس وصرخت نفتيس . أما آلهة مدينة بوتو — وهى موطن أوزوريس الأصلى » فقد أخذت تضرب لحومها وأذرعتها ونغشت شعورها » ، والالهان الوحيدان اللذان لم يبكياهما « ست » و « تحوت » . أما الجثة فقد بليت ، ولكن « نوت » أم أزوريس انحنت عليها « فضمت عظامها بعضها الى بعض وأعادت القلب الى الجسم ثم وضعت الرأس فى مكانه . أما ايزيس ونفتيس فقد بحثا فى كل مكان حتى عثرا على الجثة الملقاة فى الماء ، فأمسكت ايزيس بها وأخرجتها وأسرعت الآلهة لمساعدتها ، فرفع رع رأسه وأمروه بأن يستيقظ فاستيقظ أوزوريس واستقبل حياة جديدة ، فهو « الذى هجر النوم وكره التعب » وهكذا لم يتعفن جسد أوزوريس ولم يبل » (٣١٩) .

وظهرت قصصا عديدة منها حمل ايزيس من أوزوريس بعد أن أصبحت طائر حط على جثة زوجها وحملت منه . وفى أخرى ايزيس قطعت أيدى حوريس وقذفت بها فى الماء . وفى قصة أخرى أن « أولاد

حوريس الأربعة وهم : أمستى وجابى ودواموت وكبح سنواف قد انجبهم حوريس من أمه نفسها » (٣٢٠) و « تعتبر النماذج التى وصلتنا فى العصر المتأخر عن حياة أوزوريس ونصيبه منها أقوى وأمتع مما تحدثنا عنه من أساطير مقتضبة من العصور القديمة » (٣٢١) • والفصل الأخير من هذه الأسطورة والذى يتعلق بالكفاح بين حوريس وست قد وصفته لنا قصة كتبت فى العهد المتأخر من عصر الدولة الحديثة غير أن « هذه القصة لا تتحدث عن الكفاح الأصلى الذى أصيب فيه كل منهما بجروح ، وانما تعرض الأمر ـ على نحو ما ورد فى الرواية القديمة ـ كأنه نزاع قانونى ، أو قل أنه قضية أقامها أحدهما ضد الآخر بكل ما يتبع ذلك من اجراءات قانونية ، وبمعنى آخر كان هذا اجراء بعيد عن القوى والخشونة يفهمه المصرى الذى قطع شوطا بعيدا فى التحضر والتمدن • وفى الحق يبدو كل شىء فى هذه القضية وقد طبع بطابع الانسانية المتحضرة » (٣٢٢) وغير ذلك من القصص المختلفة والتى تغيرت باستمرار حسب خيال المؤلف • ومن أمثلة الخلط أيضا أن أصبح « بتاح هو الشمس نفسها » (٣٢٣) •

لقد نتج التعقيد فى الديانة المصرية عن هذا الخلط المستمر وعن استحداث اضافات للقصة القديمة وعن تغير وجهة نظر المؤلف الجديد وعن عرض القصص بمدلول أو مفهوم جديد • فهذا الذى جعل من القصة نزاع قانونى مثلا طمس المغزى الأصلى للقصة وهو قصة الصراع بين الخير والشر • قصة الخيانة والغدر متمثلة فى ست الأخ الشرير الذى خدع أخاه واغتاله ولم يندم على فعلته بل استمر فى متابعة ايزيس حتى لا يعطيها فرصة الانتقام أو اعادة الحياة لأخوها وزوجها ـ أوزيريس ـ ان هذا المدلول الأصلى للقصة هو بيت القصيد فى العقيدة الدينية وهو الذى ظهر بوضوح فى المسرحية المنفية والتى كانت تمثل لتستأثر على مشاعر الناس • لقد أطلق أحد الباحثين على قصة المسرحية المنفية بأنها شبيهة بآلام المسيح والتى انتهت بانتصار حورس ـ الابن البار والمنتقم لأبيه ـ على عمه الشرير • هذا المعنى الدرامى المثير للأشجان يمحى تماما فى تصوير الموضوع العاطفى والمؤثر فى الوجدان الى موضوع صراع قانونى بارد خالى من المشاعر الحارة ومن الأحاسيس الانسانية الجميلة التى تتملك القلب ، تتبعنا لقصة معاناة الانسان من الشر وأفعال الأشرار • كما أن دور « تحوت » ـ اله الحكمة فى القصة الأصلية يساير نظرة الاحترام لاله الحكمة وتصرفاته الناجمة عن طبيعته التى جعلت منه وسيطا حكيما فى القصة الأصلية • أما تغيير دورة فى احدى القصص التالية الى أخ يتستر على جريمة فأمر غير مقبول •

وهناك أيضا خلط يتم فى عمل الموتى فى الآخرة فأحيانا يقوم المتوفى بالعمل فى حقول أيارو وفى أحيان أخرى يتار الى دور الآوشابتى بالقيام بهذا العمل نيابة عن المتوفى · « ولم تظهر فى كتاب الموتى صورة واضحة للحالة الحقيقية التى يتوقع المتوفى « صاحب الصوت الحق » أن يتمتع بها ، على أن أحد الاعتقادات المحببة لدى المصريين كان يقضى بدخول المتوفى مملكة أوزيريس ، حيث الأرض منبسطة تخترقها القنوات ، صورة لمصر نفسها · وثمة يحصل المتوفى على قطعة أرض فى « حقل الغاب » الذى يشـــار اليه أحيـــانا على أنه حقول الفردوس للمصريين حيث يمكن للمتوفى أن يبذر ويحصد ويتكاثر برفقة عائلته · وهذه الصورة هى صورة مثالية لمصر ، فالمصرى يخدم أوزيريس كما كان فى حياته يخدم فرعون الحى · على أن هذا الاعتقاد يتناقض مع تزويد المقبرة بتماثيل الأوشابتى ومع التشديد فى أماكن أخرى من كتاب الموتى على حاجة المتوفى الى تقدمات وقرابين من الأحياء · وليس ثمة مثال أحســن من هــذا يبين الطبيعــة الغير متجانسة لهذه التعاويذ ويوضح عادة المصريين القدماء من اعتناق آراء دينية جديدة دون أن يتخلوا عن عقائدهم القديمة » (٣٢٤) ·

ومثلما كان المجتمع المصرى القديم يتكون من غنى وفقير وصاحب سلطة وتابع وصاحب مكانة خاصة وانسان عادى من عامة الشعب ، فلابد أن هناك اختلافا بين الناس فى الحياة الآخرة ، وقد تصور البعض بأن مقر الموتى كان فى السماء خصوصا أن متون الأهرامات تتحدث عن صعود الملك الى السماء ، وبصحبة من حاشيته من يختارهم · وكان هنـــاك فكرة أن عامة الناس تبقى فى الأرض ، فاختلاف المكان أولا : السماء أم الأرض يحمل فى طياته معنى العمل الذى يقوم به المتوفى فى العالم الآخر · وتخيل البعض أن « النجوم ما هى الا موتى أو أرواح سعيدة وجدت طريقها الى السماء حيث ظلت فى سـماء دائم الى جانب الآلهة · لقد مد اليهم « الاله العظيم ، سيد السماء » (أى الاله رع) ، أو لقد أخذتهم اليها آلهة الســـماء ونظمهم بين « مالا يفنى » من نجوم جسدها ، وقد يتمثل الميت فى شكل « ذلك النجم الوحيد الذى يشرق فى الجانب الشرقى من السماء » والذى يجوب السماء فى صحبة الجبار والشـــعرى اليمانية » (٣٢٥) · وهناك تخيل الموتى يقومون بالزراعة بأنفسهم فى (حقول ايارو) (الجنة) بالقرب من أوزيريس وهناك من تخيل وجود أوشابتى يقومون بالعمل بالنيابة عنهم وهناك من تخيل وجود الموتى فى (روستاو) يعملون أيضـــا · ان عدم تحديد مكان ثابت للموتى ، وعمل تحديد العمل المكلفين به فى الحياة الآخرة أدى أيضا الى خلط وتناقض وعدم وضوح ·

لم توضح الديانة المصرية القديمة كيف خلقت الشياطين وكيف خلق الجان ، ومن الذى خلقهم ، ولماذا خلقهم ؟ هل هم وجدوا بذاتهم قبل الخليقة ؟ ألا يوجد حساب أو نهاية لهم ؟ كيف يجرؤ « أبوفيس » الثعبان الأزلى على مهاجمة « رع » أو بتعبير أدق سفينة « رع » رغم أنه الاله الأعظم ؟ لماذا نجد صور الشر أقوى من قوى الخير فى الخليقة عند قدماء المصريين ؟ لماذا نجد ست ممثلا للشر معظم الأحيان ومعتديا وقاتلا لأخيه الطيب أوزيريس ، ونجده تارة أخرى فى مقدمة مركب الشمس حاميا لرع من أبوفيس ؟ ان هذا الخلط مثير الدهشة .

كما أننا نرى الانسان ضعيفا أمام قوى الشر فيلجأ للسحر والتعاويذ حماية لنفسه من هذه الشرور المستمرة . ان الصراع بين الخير والشر قصة خالدة لا تنتهى ومتجددة .. ولا تظهر لها نهاية . وسبب الخلط الدائم والمستمر هو اختلاف تفسيرات رجال اللاهوت فى أماكن العبادة المختلفة ، ومع محاولات تجميع كل ديانات المقاطعات المختلفة . وكأمثلة على هذا الحشد الكبير من الآلهة المحلية المختلفة وتناقضات التفسيرات فى كثير من الأحيان نجد « بجانب الآلهة الرئيسية عدد عظيم فى كل مكان من الآلهة الأخرى ذات الأهمية النسبية غير أنها كانت تشاطر الاله الأعظم العبادة بصفتها اما زوجة له أو ابنا ، وأحيانا كان لها عبادة مستقلة وسلطان ... مثلا نجد الإلهة « حكت » التى كانت تتقمص ضفدعة لها أهمية عظيمة بصفتها الهة السحر والهة الولادة والبعث . اذ كان يعتقد أنها تحضر ولادة الشمس كل يوم على رأى أحد المذاهب الدينية !! (٣٢٦) .

كما نرى فى ثالوث طيبة « آمون رع » وزوجته « موت ورت » أى الأم العظيمة وتقدس بصفتها زوجة للاله آمون وكذلك نجد « خنسو » (القمر وهو ابن موت وآمون) ونجد فى ثالوث منف الاله « بتاح » وزوجته « سخمت » (اللبؤة فى الشكل) والابن « نفرتوم » (اله القمر أيضا) رغم أن بتاح اله خالق وكذلك فى طيبة أضافوا الاله « رع » الى آمون ليأخذ الصفة الرئيسية لرع ألا وهو أنه اله خالق . أما « رع » فى هليوبوليس فلم يكن له ثالوث بل هو الذى خلق نفسه من ذاته . وهذا الخلط من جانب رجال اللاهوت هو الذى جعل الديانة المصرية القديمة — رغم وجود خالق أعظم فى معظم مدارسها اللاهوتية — لم تكن هيكلا فكريا واحدا يتجمع فى شكل ثابت راسخ ليكون أشبه بنص مقدس . ولم تستطع هذه الديانة أن تصمد أمام الفكر المسيحى عندما غزا البلاد ليحل محل بقايا التفسيرات المختلفة للكون ولخالق الكون وللقيامة والحساب والبعث .

لاشك أن الانسان يحس بضعفه أمام قوى كثيرة أكبر منه وقطعا غامضة بالنسبة له بل ويلتمس منهـا العون لتعينه فى الحياة ، بل انه لابد أنه محتاج لها أكثر فى العالم غير المرئى وغير الملموس له ـ عالم الميتافيزقا حيث لم يذهب أحد اليه وعاد ليخبر البشر عنه أو كما عبر عنه الأدباء « لكى يطمئن قلبهم » حسب قول الضارب على العود عندما قال « ولم يأت أحد من هناك ليحدثنا فى حالهم (الموتى) ويخبرنا مما يحتاجون اليه لتطمئن قلوبنا ؟ قبل أن نذهب نحن كذلك الى المكان الذى ذهبوا اليه » (٣٢٧) لذلك كان « أهم عمل يقوم به الاله نحو أتباعه هو أن يمنحهم أو يحرمهم الأشياء الضرورية للحياة العامة ، أما الملوك فكانوا يطلبون منه الحياة والصحة والثبات والنصر والسعادة ٠ والواقع أن كل الآلهة نشـأت من طينة واحـدة ولا يختلف بعضها عن بعض الا بمعابدها وبالرمز الذى كان يخصص لكل منهـا وبالرسميات التى كانت تعمل لكل منها عند اقامة الشعائر الدينية ، وبالأعياد التى كان يحتفل بها » (٣٢٨) ٠

كما أننا نجد رجال اللاهوت يقومون بعملية دمج مستمرة للآلهة ٠٠ فيحل اله أكثر نفوذا (طبقا لما يصفه عليه رجـال اللاهوت أو كهنته فى معابده) مكان اله آخر والأمثلة كثيرة ومتعددة وكمثال « خنتى امنتى » كان يعتبر اله للموتى ومعنى اسمه الأول بين الذين فى الغرب (وهو اله فصيلة الكلب بينه وبين الاله أنوبيس قرابة عظمـة) توحد فيمـا بعد مع الاله « أوزير » ٠ ويقول الدكتور سليم حسن « والآلهة عنـد قدماء المصريين كائنات معينة معروفة أتخذ كل منها شكلا ثابتا باقيا لا يتغير وقد انفصلت هذه الآلهة عن عالم الأشـباح أو الأرواح التى يخطئها العد ٠ وهذه الأرواح أو الأشباح (الجن) تلعب دورا هاما عظيما فى مظاهرها الديانة المصرية ٠ وتبرز بدورها الهـام فى السحر الذى كان له تأثير خطير جدا فى العقائد الدينية فى كل عصور التاريخ فى البلاد ٠ ومن بين المظاهر العدة المحسوسة التى تتجلى فيها هذه الأرواح والأشباح المقدسة الحيوانات ٠ وهى اما منزلية أليفة تعيش مع الانسان وتقدم له بخدمات عظيمة لا تنقطع ، أو متوحشة ضارية تفتك به فيخاف شرها وبأسها ، وأهم حيوانات النوع الأول وأجدرهـا بالذكر الثور والبقرة ، والتيس ، والكبش ، والظاهر أن الاله كان فى العادة ينتخب ذكر هذه الحيوانات ليتقمصه ٠ وأحيانا كان الاله يتقمص بعض الطيور كالأوزة كما نشـاهد فى حالة « جب » اله الأرض فان روحه تقمصت أوزة ٠ أما أهم حيوانات النوع الثانى فهو الأسد والتمساح وجاموس البحر ، والثعبـان السام ، والأفعى ، وكان الانسان يسعى لاتقاء خطر هذه الحيوانات » (٣٢٩) لذلك كان يستعطفها ويقدم خضوعه ويقرب

اليها القرابين لكى ينجو من مخالبها وشرورها ، بـل كان يجـد أحيانا أن هذا الحيوان أو ذاك فيه قوة سحرية خاصة وسرية • ومن الغريب أن عبادة الحيوانات زادت بصورة ملحوظة فى العصر المتأخر من التاريخ المصرى • وربما يكون ذلك بسبب حالة الفوضى والضـعف والتطاحن والتفكك التى كانت تعانى منها البلاد ، فلم يعد هناك ملك مؤله قوى يحميهم ، وغلب الشك على قدرة حماية الآلهة العظمى لهم • وزيادة تخبط رجال اللاهوت وزيادة الخلط ، فأخذ الانســـان المهزوم نفسيا واجتماعيا وسياسيا أن يستجدى العون من آلهة محلية قريبة منه والذى أصبغ عليها قدرات سحرية أملا فى أن تعينه وتساعده فى مثل تلك الظروف الحالكة • زاد الهوس فى عبـادة بعض الحيوانـات فى أماكن معينة « وكان على الانسان أن ينتخب واحدا من نوع خاص مميز ويضعه فى المعبد حيث يعنى به ويخدم بصفته الحيوان الحقيقى الذى تقمصـه الاله ••• وكان يعتبر مثلا قتل أى حيوان من النـــوع المقدس ضربا من الفسق والعصيان والكفر بالاله • ويعاقب المجرم بالقتل وكذلك كان ينطبق هذا الحـكم على آكلة لحوم هذه الحيوانات فمثلا كان محـرما أكل لحم القطط او الكلاب • ولكننا من جهة أخرى نجد أن القوم كانوا يذبحون الخراف والماعز والثيران • أما البقرة التى كانت تدر اللبن فكان محرما ذبحها » (٣٣٠) •

ومن أمثلة الخلط أيضا هو أنه « كان من المستطاع أن يسحر الاله ويقتنص فى شئ ويقتنص فى شئ محسوس بواسطة التعاويذ ، وبذلك يصبح ولا قوة له ولا حول ، وذلك هو السر فى أننا نجد فى كل معبد مصرى غير الحيوانات المقدسة شيئا سريا يحفظ فى صندوق يكون فى معظم الأحيان تمثالا صغيرا من الحجر أو الفخار • ويعتبر هذا الصندوق المكان الحقيقى للاله وبعبارة أفصح المسكن الذى حبس فيه الاله بقوة السحر فى الزمن القديم أيام تكريس المعبد » (٣٣١) ومن ناحية أخرى كانوا يعتقدون أن الآلهة كانت تستطيع التنقل من جسم الى جسم آخر وان لها « كاوات » (جمع كا) عديدة !! وبالرغم من الاعتقاد بأن الآلهة لا تموت (باستثناء أوزيريس) • كما كان الخلط يستمر فى قصـة الصراع الأبدى بين الخير والشر متمثـلا فى الصراع بين « حـور » و« ست » وكانت تضاف أجزاء وتحذف أجزاء فى هذه الأسطورة التى كانت تشكل ركنا هاما فى العقيدة المصرية القديمة • و « الاله « أوزير » الذى كان يســكن فى جوف الأرض منذ وفاته ، والذى كان يعيش ويحيا هناك رغم موته بقوة سحر قرينة « كا » التى تتقمص أجسام الموتى ، فان حادث وفاته كان له أكبر أهمية لأنه منه نشـــأت قوته وسلطانه ، ولذلك كانت تقـام له محافل عظيمة تمثل كل أطواره فى بلدة العرابة المدفونة » (٣٣٢) •

كان المصرى القديم يعتقد أن الآلهة قوة أبدية وأنه فى حاجة لمساعدة الآلهة وكان يلتمس عطفهم ورضاهم . وربط رجال اللاهوت بين حوادث معينة سببها ظواهر طبيعية وبين الأعياد الخاصة ببعض الآلهة ، وتحولت « هذه الحوادث التى وقعت فى أزمان معنية الى أعياد تشـيد بذكرى الأعمال العظيمة أو الآلام الشـديدة التى تحملها الاله لصلاح المجتمع الانسانى ورفاهيته ، والتى يتوقف عليها نظام الكون ، وشعائر هذه الأعيـاد التى يصحبها كثير من الآلات والطقوس المقدسـة ، والرموز المختلفـة تحتاج كذلك الى تفسير ، فهذه الحوادث التى تكون وليـدة اللحظة التى وقعت فيها تحدث غالبا عند ظهور أمور خارقة للعـادة فتبقى عليها الطقوس الدينية من غير ما تبصر ولا روية ، حتى يبعد أن يتضح أنها غامضة لا تفهم ، ومن ثم تأخذ صبغة سرية غامضة لها مفعول عظيم وتحاط بشىء من الرهبة والتقديس . ومن مثل هذه الأمور جاءت الضرورة لخلق الأساطير الدينية التى يدعى رجال الدين أنها تفسر هذه الأشياء الخارقة للعادة ، وكذلك تفسر لنا صور الآلهة وأخلاقهم بحوادث وقعت فى الأزمنة السحيقة فى القدم ، ثم تناقلها عباد الاله كأنها أسرار مقدسة ، ومن ثم أخذ الانسان يشترك فيها باقامة الشـعائر واتبـاع الطقوس الدينية اللازمة لذلك ، وبخاصة مراعاة قواعد النظافة وطهور الجسـم » (٣٣٣) .

لقد بلغ الخلط حده فى تخيل أن من يعرف مثل هذه الأساطير المتنوعة « يصبح وفى يده قوة سحرية تمكنه من أن يجعل الآلهة تحت سلطانه ويجبرهم على خدمته لقضاء أغراضه السحرية » (٣٣٤) رغم أن الانسان الضعيف يلتمس دائما العون من قوة أقوى منه ، وهى الآلهة فى الديانة المصرية القديمـة . كيف يستطيع الانسـان المحتـاج للعون أن يسيطر على الآلهة بالسحر ؟ ان هذا الدور السخيف الذى لعبه الكهنة من أجل مصلحة مادية شخصية ، وجمعوا النقود الكثيرة مقابل تقديم تلك التعاويذ السحرية ، لابد وأنه هز الثقة فى العقيدة الدينية ، واذا كان من المفروض أن يقوم رجال الكهنوت بالعظـة والشرح والتفسير للناس الأقل ثقافة فى هذه الناحية ، الا أنهم جعلوا من علومهم التى صبغوها بطلاسم وتعاويذ غامضـة وسيلة لجمع الثروة . لقد جمع كهنة آمون ثروات لا حصر لهـا وتمتعوا بنفوذ واسـع ولا أدل على ذلك من وصول كبير كهنتهم ــ حريحور ــ الى حكم البلاد . وهذا النفوذ الواسع هو الذى حدا بأخناتون أن يقوم بثورته العارمة ضد كهنة آمون ، وعلت صيحته وقام فعلا باغلاق المعـابد العديدة التى لا توائم عقيدة التوحيد ولكن بموته عاد نفوذ وسيطرة رجال الكهنوت الذى كان سببا مباشرة فى ضعف البلاد سياسيا وتفتت وحدتها ، وبلغ الضعف والتفتت أوجه

فى الأسرة الحادية والعشرين عندما حكم رئيس الكهنة ـ حريحور ـ من طيبة ، والملك مندس من تانيس (بالشرقية) ·

السحر وتأثيره فى الديانة (٣٣٥)

« لم يعدم السحر القيام بدور هام فى تاريخ الديانة · اذ كان القوم يستعينون به على قضاء حاجاتهم ، سواء أكان ذلك تجيزه الشرائع أم تحرمه ، وكان السحر فى نظر عامة الشعب لا يتصل بالأشباح العدة التى تسكن فى دنيا الأرواح فحسب ، بل كان كذلك متصلا بالمعبودات المحلية وبخاصة الآلهة العظام لأن الفضل فى وصولهم الى السلطان والنصر على الأعداء يرجع الى فنونهم السحرية · وكان فى ركاب هؤلاء الآلهة عدد عظيم من الخدم لا يختلفون فى شىء عن الأشباح المخيفة لا فى طبيعتهم ولا فى أسمائهم ولا فى شكلهم الظاهرى ، اذ هم فى الواقع كانوا مجموعة من الحيوانات المختلفة الأنواع والأشكال الى حد بعيد · وكانت معرفة صفاتها الخاصة وأسمائها وأساطيرها السلاح الرئيسى فى علم السحر ، اذ به يمكن الانسان أن يجبرها ويقهرها على خدمته ، وتأتى بنتائج لحسابه الخاص لها نفس التأثير الذى كان يصل اليه الاله بنفس الطرق · وقد بقى تراث هذه الاعتقادات فى مصر الى يومنا هذا فى استخدام الجن وخدامها · ويرى المطلع على تاريخ الديانة المصرية أنها كانت فى بدايتها مصطبغة بصفة مظلمة قاتمة ، اذ نجد معظم الآلهة تتألف من كائنات خبيثة مؤذية تبعث دائما على الخوف والقلق (٣٣٥) ، فنشاهد بجانب الحيوانات الأليفة مثل الثور والكبش حيوانات أخرى متوحشة مؤذية ، وهى التى كانت تعبد بكل اخلاص وتفان ، كالثعبان والذئب وغيره · ولا غرابة اذا كنا نجد فى صلوات الأموات ودعائهم ، وكذلك فى التعاويذ السحرية التى تستعمل فى الحياة العامة ، ان **دنيا بنى الانسان وكذلك عالم الأرواح كانت آهلة بالقوى الشريرة** ، وهذا الاعتقاد نجده نافذا الى كل أساطير الآلهة ·

« السحر بأشكاله المختلفة يدخل فى كثير من موضوعات الأدب المصرى القديم ·· وهناك مدونات فى السحر الخالص · منها فى المتحف البريطانى **بردية هاريس** فى السحر (نموذج ١٠٠٤٢) **وبردية سولت** فى السحر (١٠٠٥١) التى تحتوى على أناشيد وعلى **تعاويذ** أيضا ·· وهناك أيضا مدونات تتضمن رقيات ضد الأمراض والنوازل مثل **بردية شستر** : المتحف البريطانى (نموذج ١٠٦٨٧) ·· وقد جعلوا لكل يوم من أيام السنة خاصة سحرية تجعله يوم سعد أو يوم نحس ، أو

بين بين - ووضعوا التقاويم لأيام السعد والنحس للرجوع اليها واستشارتها : بردية سـاليية الرابعة • المتحف البريطانى (نمودج ١٠١٨٤) • وتحتوى احدى البرديات : شستر بيتى الثالثة : المتحف البريطانى ١٠٦٨٣) مجموعة من الأحلام مع تأويلاتها (٣٣٦) ، حيث يبدأ كل حلم منها بعبارة :

« اذا رأى انسان نفسه فى حلم » يليها وصف مقتضب للحلم ، ثم عبارة جافة توضح اذا كان الحلم سعيدا أو تعيسا ، وأخيرا تفسير الحلم :

« اذا رأى انسان نفسه فى حلم
يأكل لحم حمار ، جيد ، يعنى ترقيته •
جالسا على شجرة ، جيد ، يعنى زوال كل أمراضه ،
يحدق فى جب عميق ، سىء ، يعنى وضعه فى السجن ،
يأكل بيضة ، سىء ، يعنى تلف ممتلكاته فلا يمكن اصلاحها » (٣٣٦)

ان محاولة تفسير الأحلام هى محاولات للناس قديما وحديثا لمعرفة ما يخبئه القدر لهم • انه تطلع لمعرفة المجهول • فحتى علماء النفس أمثـال « فرويد » وغيره لم يعطونا الا تخمينـات وبنوا تفسيراتهم على الرغبات المكبوتة والأحلام التى تحقق الآمال والتى تتمشى مع « حكمة عامة الناس مثل « الجوعان يحلم بسوق العيش » • ونرى الكثير من الناس حتى المثقفين والمتعلمين الحاصلين على شهادات جامعية ينظرون فى الجرائد فى باب « حظك اليوم » رغم عدم اعتقاده بما هو مكتوب فيها •• ولكن قلق الانسان عموما هو الذى يدفعه الى استقراء المجهول وهذا ما فعله أجدادنا القدماء• « وكانت المشاكل المتنوعة تعالج باستشارة العراف وكانت وظائف الدولة الكبرى ، ولا يستثنى منها وظيفة الملك • تشغل أحيـانا عن طريق الوحى الهابط على أحـد المتنبئين » (٣٣٦) والفارق الآن بخصوص العرافين أن الجهلة لا يزالون يذهبون لهؤلاء النصابين ، ويكسب هؤلاء النصابون من السيدات الحائرات واللاتى يردن أحدا يعطيهن نصـيحة تتمشى من رغباتهن الداخلية نحو عريس أو ثروة • المشكلة هى فى ضعف الناس وفى خوفه من المجهول • وكما يظهر من البرديات القديمة :

« كانت المنازعات بين المتخاصمين على الثروة تحسم عن طريق أحد العرافين : فمثلا كسرة حجر رقم ٥٦٢٤ بالمتحف البريطانى تصف كيف

حكم الملك المؤله امنحتب الأول بملكية مقبرة لصالح عامل بجبانة طيبة يسمى « أمنمؤبى » وتذكر كسرة أخرى (نموذج ٥٦٢٥ بالمتحف البريطانى) خبر نزاع حول سكنى أحد منازل طيبة رجعوا فيها لنفس الملك المعظم كى يفضه • وتروى بردية الأسرة العشرين (نموذج ١٠٣٢٥ بالمتحف البريطانى) حكم آخر » (٣٣٧) •

ويذكر الدكتور « سيد عويس » بأن السحر قد لعب دورا أيضا فى الحياة الآخرة فيقول : « وقد لعب السحر ، فى الحياة الآخرة ، عند المصريين القدماء دورا هاما ، فنجد ، فى ضوء المذهب الأوزيرى ، أن المصرى كان يضع فى المتوفى بردية تحتوى على عدد عظيم من التعاويذ والصيغ الدينية ، وكان الغرض منها تسهيل الطريق للمتوفى حتى يدخل الى جنة « أوزيريس » ولكن يجب على روح المتوفى ، قبل الوصول الى هذه الجنة ، أن يعبر طريقا شاقا تكتنفه الأخطار •• وكان على هذا الروح ، قبل أن يشارك السعداء الآخرين الذين سبقوه الى الجنة ، أن يمر بامتحان قاس أمام اله الآخرة « أوزيريس » وتعنى بذلك أنه كان لابد أن يحاكم أمام محكمة العدل فى الآخرة ، عن كل أعماله فى عالم الدنيا ••• أى أن المصرى القديم كان يشعر بحساب الآخرة بصورة تدل على نموه العقلى وانبثاق فجر الضمير فى صدره • وكانت تحتوى على التعاويذ والصيغ الدينية على ما يقوله المتوفى عند الوصول الى قاعة الصدق عندما يطهر فلان (يعنى المتوفى) من كل الذنوب التى اقترفها ثم يدلى المتوفى بالاعترافات وبعدد الخطايا التى لم يرتكبها » (٣٣٨) •

الفصل الرابع

الادارة والعدالة

تلخيص النظام والفوضى

حيث أني تناولت التاريخ من خلال حياة الشعب لكى أعطى صورة واضحة للحياة اليومية فى الفصل الأول ثم تناولت الوجدان الدينى فى الفصل الثانى ثم محاولات التفسير بالنسبة لرجال الفكر ورجال اللاهوت بخصوص العقيدة وهذا يعنى تناول الأساطير وهذا تناولته فى الفصل الثالث ، وها هو دور القانون والتنظيمات الادارية لأساليب الحكم التى تنظم حياة الناس فى هذا الفصل الخاص بالقواعد والأعراف والعدالة وتنظيم العلاقات · ولكى لا أكرر نفسى فيما تناولته سابقا فاننى أود أن أجمع فى صورة ملخصة للنواحى السياسية والاقتصادية التى مرت بها البلاد لكى تتضح الصورة من كافة النواحى السياسية والاقتصادية والقانونية ـ العام والخاص ـ والاجتماعية من حيث الأسرة والعلاقات بين الأفراد فاننى أعطى تلخيصا لفترات القوة وفترات الضعف باختصار اكتمالا للصورة الكبيرة للحياة فى مصر القديمة :

١ ـ ارتباط النظام بحكم رع فى الدولة القديمة :

الملك الاله كان يمثل الاله رع وكانت مركزية السلطة فاستتب النظام وساعد على ذلك الاستقرار السياسى والاقتصادى وسيادة العدالة · بناء « الأهرامات » دليل حسن التنظيم والادارة · « متون الأهرام » تهتم بالملك فى الحياة الآخرة السماوية (صعود الملك الى السماء) هو ومن يختاره من بلاطه · الشكل الهرمى اشارة للعقيدة الشمسية ·

٢ ـ الفوضى عقب الأسرة السادسة أو فى نهايتها ـ الثورة الاجتماعية الدينية (الشعبية) ثورة الناس على الاقطاع وعلى انفراد الملك بالخلود وتعرضت البلاد لأكبر هزة (كما ظهر هذا فى الفصل الأول) ونتيجة لهذه الثورة الكبرى ظهرت « متون التوابيت » مختلفة عن « متون الأهرام » وبدأ « أوزير » يزداد تواجدا وأهمية

(وهو ما يعنى انتصار الديانة الشعبية) ظهرت كتابات المصلحين الاجتماعيين بخصوص العدالة الاجتماعية مع ظهور كتابات الشك فى الحياة الآخرة • ظهرت تغيرات فى الأساطير (فترة الاضمحلال الأولى) •

٣ ــ الدولة الوسطى عودة النظام مع وجود الاصلاحات الاجتماعية والدينية ويعتبر عصر الأسرة الثانية عشر العصر الذهبى للاستقرار والرفاهية والحريات والديمقراطية الدينية والقضاء على نفوذ الاقطاع • مشروعات الرى الناجحة ــ حق الشعب فى الخلود مع تزايد نفوذ « أوزير » •

٤ ــ الفوضى مرة أخرى فى فترة الاضمحلال الثانية • الصراعات من أجل السلطة وتعرضت البلاد للمرة الأولى للاحتلال الأجنبى واستيلاء الهكسوس على الحكم • فترة أذلال لعزة الوطنية ــ طيبة تستجمع قوتها وعزتها القومية وتقوم بحرب التحرير على يد ثلاثة عظماء « سقنن رع » الذى استشهد فى ساحة الشرف ــ فى أرض المعركة ــ واستكمل ولديه كامس وأحمس حمل راية الكفاح والتحرير ــ نجح « أحمس » فى القضاء على « الهكسوس » •

٥ ــ « أحمس » مؤسس الدولة الحديثة • اعادة النظام للبلاد ــ الاستقرار السياسى والاقتصادى ــ الامبراطورية المصرية الأولى ردا على عدوان الأجانب على البلاد فخرجت مصر لأول مرة خارج حدودها شرقا (كانت الحملات السابقة حملات حدودية مع ليبيا والنوبة) وتحتمس بحملاته المتكررة يقوم بأقصى توسع • زيادة نفوذ « آمون » لأنه اله طيبة عاصمة الامبراطورية كتاب الموتى ــ كتاب الطريقين ــ ما هو فى العالم الآخر وغيرها من الكتب

٦ ــ الانقسام والتفتت بدءا « بالأسرة ٢١ » فكان رئيس الكهنة « حريحور يحكم من طيبة وفى نفس الوقت منديس من تانيس • النوبيين الكوشين ــ الآشوريين ــ الفرس ــ فترة الانهيار الكبير والاحتلال الغاشم للفرس •

٧ ــ فترات صحوة على أيدى الأبناء المخلصين أمثال بستماتيك ــ عصر نهضة على فترات ــ النظام يقيمه الملوك الوطنيون ــ ظهور قوانين مكتوبة أمثال : بوخوريس (الأسرة ٢٤) ــ اسازيس (الأسرة ٢٦) ــ نفرتى الأول (الأسرة ٢٩) القوانين كانت موجوده قبل ذلك بدليل تسجيل مقياس النيل ــ وجود تعداد عام كل سنتين ــ احصاء الثروة ــ حركة الملكية الفردية وانتقالها بين الأفراد •

٨ ـ فترات النفوذ الأجنبى والاحتلال الفارسى البغيض ٠

٩ ـ عودة النظام على فترات متقطعة الأسرة ٣٠ آخر حكم للفراعنة المصريين ٠

١٠ ـ الاحتلال المقدونى ثم الرومانى ٠

هذا تلخيص مختصر لكى تتضح الصورة ولكننى أجد أنه من الضرورى اعطاء نبذة واضحة عن الفترات التى لم أتناولها تفصيليا أثناء عرض الحياة اليومية فى الفصل الأول وفترات الصراع ضد الكهنة والتى لم أتناولها فى الفصل الثالث عند التحدث عن الخلط ودور الكهنة فى ايجاد هذا الخلط نتيجة التغيرات المستمرة فى الأساطير ٠

الملك

« كان للملك وضعا خاصا فى كل مراحل التاريخ المصرى ولا سيما فى عهد الدولة القديمة ٠ فهو ليس بشرا عاديا ، وانما هو ذات مقدسة ، هو اله أو ابن اله أو ممثل للاله على الأرض ، وبعد وفاته ينقل الى زمرة الآلهة فى العالم الآخر ويصبح واحدا منهم وتجرى عبادته فى الهياكل والمعابد ٠ وفكرة تأليه الملوك وان كانت تصدمنا اليوم فانها ليست غريبة أو مستغربة فى التاريخ البشرى بوجه عام ، بل هى عادية وشائعة فى عصور ما قبل الأديان السماوية والأفكار الديمقراطية ٠ وكان تأليه الملوك شيئا طبيعيا فى كل العصور القديمة ٠٠٠ وقد لقبوه بالاله الطيب Neter Nefer ـ نتر نفر ـ ٠ وكنوا له أكبر المحبة والاحترام حتى أنهم ليتجنبوا ذكر اسمه كانوا (يكتفون بالاشارة اليه بأنه ساكن البيت الكبير أو « بر ـ عو » الذى حرفه الاسرائيليون فيما بعد الى (فرعون) ٠ وكان حق الخلود فى الأصل وقفا على الملك خاصة فى ظل عبادة « رع » الباهظة التكاليف والتى لا يقدر عليها سوى الأثرياء [أى تكاليف التحنيط] ، غير أن الملك كان فى امكانه أن يهب الخلود لمن يشاء بأن يسمح له ببناء مقبرة ويساعده على تجهيزها ، أما الشعب فكان محروما حينئذ من حق الخلود الى أن انتشرت عبادة أوزيريس فى أواخر الدولة القديمة فأتاحت حق الخلود للكثيرين لأنها كانت أكثر شعبية من ديانة رع ولا تتطلب مثلها كثيرا من النفقات » (٣٣٩) ٠

كان لهذا الوضع المميز للملك أهميته فى استتبات النظام طوال كل الفترات التى كانت فيها الحكومة تستمد قوتها من قوة نفوذ وسيطرة الملك ٠ وكان الملك رمز العدالة والعون لشعبه ٠ ولم نر فى كل العصور

أى ملك طاغية ، فوضعه الالهى يحتم عليه ألا يطغى فقد كانت الالهة « ماعت » التى تعنى الصدق والحق والعدالة رمزا للحكم أى أن الحكم يقوم على العدالة كمـــا كانت الالهة « سشـــات » ترعى الادارة والاله « تحوت » اله الحكمة يرعى القانون . فالعدالة والادارة والقانون كانوا متمثلين فى آلهة خاصة ترعاهم وتطبقهم . ونجد الملوك يقومون بالتصدى لحكام الأقاليم عندما طغوا وتسلطوا . ففى أثناء حكم الأسرة الرابعة (الدولة القديمة ـ عصر بناة الأهرام) ظهرت وظيفة « الوزير » وكان المقصود بها تقليص سلطة حكام الأقاليم . ونرى فى كل التوجيهات الموجهة من الملك للوزير ، التأكيد على معنى العدالة فى الحكم وعلى حفظ حقوق الناس وعلى ضرورة الاستماع لشكواهم وحلها .

« أن لقب « فرعون » لم يستعمل فى أى وقت من التاريخ كلقب حقيقى رسمى للملك . فعندما اكتمل البروتوكول الرسمى ، تألف من خمسة أسماء . فأطلق على رمسيس الثانى : حورس ـ « الثور الظافر محبوب ماعت » ، « السيدتان » ، « الذى يحمى مصر ويخضع الأراضى الأجنبية » ، « حورس الذهبى » ـ « الغنى فى السنين ، والعظيم فى الانتصارات » ، ملك مصر العليا والسفلى (حرفيا : الشخص المنتمى « للنبات » و « للنحلة ») ، وسيد الأرضين ـ « رع قوى بالنسبة الى ماعت ، مختار رع وسيد التيجان ـ « رع هو الذى أنجبه (رمسيس) . محبوب آمون » ... لم تكن هيئة فرعون أقل فخامة ، اذ تجعله شاراته فى مصاف الآلهة . فكان يضـــع ، كالآلهة ، ذنب حيوان متصلا بخرامه ويتدلى من وسطه . ويضع لحية مستعارة كانت هى نفسها الها ، ويحمل صولجان مزينا برأس حيوان الاله ست . وكانت رعيته تنشـــد التراتيل لتاجه المشبع بقوة خارقة . وفى وسط جبهته أفعى مقدسة تقذف اللهب المدمر للمتمردين » (٣٤٠) .

لقد اتخذ نظام الحكم فى مصر الفرعونية صورة الملكية المطلقة وذلك بسبب ألوهية الملك ونجد فى « نصوص الأهرام » أن الملك يصعد الى السماء . ورغم الســلطة المطلقة للملك فقد كانت عليـــه قيود . « وأول قيد على سلطة الملك ينبع بالذات من صفته الالهية . فالمفروض فى الآلهة العدل . ولما كان فرعون الها وممثلا للآلهة فى حكم مصر وجب أن يكون عادلا . فسياسة أمور الرعية بالعدل كان من أهم الواجبات الملقاة على عاتق فرعون . ولهذا جرت العادة فى الطقوس الدينية بأن يقدم الملك كل يوم تمثال الآلهة ماعت ، رمز العدل والحق ، قربانا الى آلهة السماء تعبيرا عن حرصه على مراعاة العدل فى قيامه بوظيفته نيابة عنهم . ولقد كان نصح الملك للوزير بمراعاة العدل يشكل أحد البنود الرئيسية

فى الخطاب الذي كان يوجه اليه بمناسبة تعيينه : « انظر : عندما يأتى شاكى من مصر العليا أو السفلى عليك أن تتأكد من أن كل شىء يتم طبقا للقانون ٠٠ أن كل امرىء يحصل على حقه ٠٠ أن ما يحبه الاله هو أن يتحقق العدل ، ان ما يمقته الاله هو أن يحابى جانب (أكثر من الجانب الآخر) ٠ كذلك فان من الممكن أن نجد فيما كان يتبع من شعائر جنازية عند جثة الملك نوعا من الرقابة الشعبية على سلوكه وتصرفاته أثناء حياته » (٣٤١) ٠

« فقد ذكر « ديودور الصقلى » أن عادة المصريين كانت تجرى فى حالة وفاة أحد ملوكهم بأن يوضع ، فى آخر أيام الحداد ، النعش الذى يضم رفاقه أمام مدخل القبر ٠ وأن تشكل محكمة تنظر فيما قدم المتوفى من أعمال فى هذه الدنيا ٠ وأباحوا لمن شاء أن يتهمه ، أما الكهنه فتؤنبه معددة مناقبة والوف الناس التى اجتمعت لتشييعه تنصت اليها وتشترك فى تأبينه اذا كان المتوفى قد قضى حقا حياة مجيدة ٠ أما اذا كانت حياته على العكس وضيعة ٠ تصايحت الجماهير » (٣٤١) ٠

هكذا نجد أن الملك لم يكن مستبدا مطلق اليدين لأنه كان يرعى شئون رعيته طبقا لمقاييس العدل وتطبيقا لمبادىء العدالة ٠ والملك نفسه يؤكد على الوزير اتباعه القانون واعطاء كل ذى صاحب حق حقه وألا ينحاز الى جانب على حساب الآخر فان الآلهة تمقت الانحياز وتحب العدل ٠ والملك نفسه يخضع لنوع من الرقابة الشعبية ولا يفلت من المحاسبة بموته ، بل تتم نوع من المحاكمة وهو نفسه فى النعش معرض للاتهام واستنكار الجماهير لأى عمل سىء قام به أثناء حكمه ٠ ويضيف « ديودور » الى ما سبق القول : « بأن كثير من الملوك حرم حق الدفن الرسمى الذى تخوله لهم الشرائع نتيجة لاعتراض الشعب ٠ ولهذا كان من يخلفونهم على العرش يقيمون العدل خوفا من العار الذى يلحق بأجسادهم بعد الموت ، ومن اللعنة الأبدية كذلك ٠ فالحرمان من الدفن طبقا للطقوس المرعية وما كان يستتبعه ذلك من لعنة أبدية كان يشكل جزءا يهدد الملك الذى ينحرف عن الجادة ويسقط فى حمأة البغى والفساد » (٣٤٢) ٠ وليس عجيبا بعد ذلك أن يقول « ديودور الصقلى » فى وصف ملوك مصر من واقع المعلومات التى ترامت اليه أنهم : « لم يكونوا يعيشون على نمط الحكام المستبدين فى البلاد الأخرى فيعملون ما يشاؤون تبعا لأهوائهم غير خاضعين لرقابة ما ٠ فقد رسمت لهم القوانين حدود تصرفاتهم ، لا فى حياتهم العامة ، فحسب ، بل فى حياتهم الخاصة وأسلوب معيشتهم اليومية كذلك ٠ فقد كانت ساعات النهار والليل مرتبة بحيث كان على الملك أن يعمل فى الوقت المخصص بالضبط

ما يفرضـــه القانون لا ما تدفعــه اليه نفسه ·· وأن الملك لم يكن فى قدرته ان يقضى فى المخاصمات · أو يصرف ما يعن له من الأمور أو يقضى بعقوبة أحد من الناس مدفوعا بكيد له أو غيظ منه أو بأى دافع ظالم آخر ، بل عليه أن يتصرف وفق ما تنص عليه القوانين فى كل حالة » (٣٤٢) ·

وبالاضافة الى تطبيق العدالة طبقا للقوانين المرعية وطبقا لخضوع الملوك للالهة « ماعت » اله الحق والصدق والعدالة · وبالاضـافة الى الخوف من اللعنات التى تلاحق جسد المتوفى نتيجـة الرقابة الشعبية فكان هناك نفوذ الكهنة الذين كانوا يشكلون الرأى العام · لذلك كان الملك يعمل على استرضائهم · وكان الملك يقوم بواجباته كرأس الجهاز التنفيذى · فهو رب الوحدة وراعيها وحاكم القطرين وصاحب التاجين الذى يدير الأمور من قصره الكبير بما فيه خير الجميع وبما يحقق الصالح العام · وكان للملك نائبين أحدهمـا فى الجنوب والآخر فى الشـمال : « احتفظت عاصمة مصر العليا « نخن » بأهميتها كعاصمة جنوبية للبلاد وكان على رأسها موظف ملكى كبير يحمل لقب أمير من بين ألقابه وكان يعد بمثابة نائب الملك ويمارس سلطاته باسم الفرعون على جميع المقاطعات البعيدة ، وهو الوحيد الذى يحمل تكريما خاصـا من بين كل موظفى الدولة · يليه موظف ملكى آخر قد يكون على نفس مستواه أو أقل قليلا هو حاكم بوزيريس فى مصر السفلى بالدلتا · كما تدل الأختام على وجود حكام لمدن الدلتا يعينهم الفرعون ولهم سلطات ادارية على مدنهم » (٣٤٣) ·

العـدل والنظـام

« كان الكامن يرفع فى نهاية شـعائر الخدمة اليومية فى المعبد تمثالا صغيرا للربة « ماعت » فى حضرة التمثال المقدس · كان يؤكد بهذا العمل **توطيد العدل والنظام** من جديد » (٣٤٤) ان هذا يعنى أن العدل والنظام كانا مرتبطين ارتباطا وثيقا بالدين لدرجة أنهما أصبحا من الشعائر الدينية اليومية ، فيرفع الكاهن تمثال الالهة « ماعت » والتى تعنى الحق والصـــدق والعدالة · ونلاحظ بأن المصريين درجـوا على تقديسهم للقـانون والعدالة والادارة فكان الاله « تحوت » اله القانون · و « ماعت » الهة العدالة وستشات الهة الادارة · وكان « الاله حورس هو الملك الحى الذى آل اليه عرش « جب » أى ملك الأرض ، والقوة والسلطان ، وهما المهمة الخاصة لأتوم ، لقد أسس **الخالق** الملكية على أول أرض برزت من جوف لجة الماء ، وكتبت قوانينها على لوحة معدنية (أى خالدة بقلم « بتاح ــ تاتنن » الاله الأعلى ·· ثم يعود النص ·· للحديث عن فكرة **حورس** ، الذى اتخذ من قوى الدنيا أفرادا لحاشيته ،

وهم يدينون له بالطاعة المطلقة ، ولأوزيريس الآن أن يقر عينا ، فلقد استقر القانون والنظام استقرارا تاما وباتت الدنيا تنعم بالسلام » (٣٤٥)٠

لقد كان الملك الاله فى الدولة القديمة هو صورة لرع فى عدالته ومحافظته على النظام ، وكانت لهذه النظرة فائدتها بالنسبة لكل الشعب فما يقوم به الملك هو محافظة على النظام والعدالة وتطبيق القوانين ٠ وعندما نازعه حكام الأقاليم السلطة أوجد وظيفة الوزير والتى بها استطاع أن يقلص نفوذ حكام الأقاليم ٠ « وتعتبر الملكية أعظم تجسيد للسلطان الدنيوى الذى لا يمكن مقارنته من حيث المجد الا بسلطان (رع) ٠ ولما كان أوزيريس ملكا ، فقد آل اليه ما كان للخالق (رع) من جلال قبلى أن يفارق الأرض ، فهو سيد كل ما هو حى ، سواء كان حكومة ، أم نظاما كونيـا (ماعت) » (٣٤٦) ٠ ان فكرة الملكية كسلطة دنيوية مرتبطة بالخليقة تكررت فى مراكز العبادة المختلفة ، وان كانت مدرسة منف اللاهوتية وضعت بتاح تارة وتاتنن تارة أو بتاح ــ تاتنن على أنه الخالق الأعظم ، فاننا نجد فى مدرسة « أون » اللاهوتية (هليوبوليس) قد وضعت رع كخالق أعظم ٠ وفيما بعد أصبحت طيبة عاصمة البلاد والامبراطورية فوضعت آمون بعد أن أضافت اليه قدرات رع وأسمته آمون رع فى مقام الخالق الأعظم ٠ ان الاسم تغير حسب المكان وحسب رجال لاهوت كل مركز دينى أو عاصمة ، ولكن المهم هو الفكرة الرئيسية بوجود الخالق الأعظم ويأتى « الملك » بصفته « صـا ــ رع » أى « ابن الشمس » وهو اسمه وقت الولادة مما يضفى عليه الصفة الالهية [هناك اسمان للملك منذ الأسرة الرابعة فما بعد ذلك : اسم الولادة (١) « صا ــ رع » ــ ابن الشمس ــ واسم التتويج (٢) « نسوتى ــ بيتى » ــ النبات والنحلة ــ أى حاكم القطرين ــ الشمال والجنوب أو مصر السفلى ومصر العليا ٠ وهذان الاسمان كانا يوضعا داخل خرطوشتين] وكان هناك (٣) اللقب الحورى ٠ وهذا اللقب كان ينقش داخل مستطيل يمثل واجهة القصر الملكى وعلى قمته صورة صقر وهو الطائر الذى يرمز للاله « حور » ٠ ويجب ألا يخلط القارىء بين حورس هذا أى الصقر الأصلى الذى طار محلقا عند بدء الزمان وبين حورس ابن ايزيس ووريث أوزيريس المذكور فى قصة الصراع بين حورس وعمه ست ٠ وان كانت القصص مزجتهما فى واحد ٠ وفى عهد الملك « سنفرو » مؤسس الأسرة الرابعة ظهر لقب جديد للملك وهو لقب (حور القاهر) (٤) « حور ــ نب » وذلك اشـارة الى أن حور تغلب فى شـجاره مع عدوه ست ٠ وهناك أخيرا (٥) اللقب النبت ويعنى أيضا التاجان الأبيض والأحمر ــ الجنوب والشمال ــ ويمثلهم العقاب والنصل أى (النسر) و (الصل) وكل منهما يرتكز على سـلة رمزا للملكية ٠ هذان الحيوانان همـا رمزان لمعبودى مدينة « نخب » فى الوجه القبلى و « بوتو » فى الوجه البحرى

المهم هو أن الحكومة والملك هم **نظاما كونيا يتبعون العدالة** المتمثلة في ماعت • وحتى أوزيريس الذى كان يعتبر اله الموتى والاله فى الآخرة (وقد رأينا كيف أن رجال اللاهوت أدمجوه مع رع فى نصوص التوابيت وفى كتاب الموتى) هو أيضا كان يعتبر ملكا أرضـيا • ورغم التشويش والتداخل ووجود تناقضات فى التفسيرات أحيانا أخرى فالثابت هو أن الملك ومعه الحكومة يسـيرون على منـوال سلطان الشمس • « وكان أوزيريس « كا » (أى القرين) لحورس باعتباره والده ومصدر حظه ، بيد أن حورس أثنـاء الطقوس يلف ذراعيـه حول جسد أوزيريس أثناء الطقوس • وبذا يقـوم بدور « الكا » لوالده • أى أن كليهما « كـا » للآخر أو سبطا لهـا • ولذا نرى فى مقبرة « تـوت ـ عنخ ـ آمون • أوزيريس يعانق الملك الراحـل » (٣٤٧) بينما فى موضع آخر « إن حورس لم يبتعد عنك لأنك كاه » ولمـا كان الملك مصدر الرخاء لشعبه عده المصريون « كاهم » • وبوجه عام اعتبر المصرى الكاوات موزعة لكل الخير والثروة • وحينما كانت الكاوات تؤدى مهمتها • يصبح كل شيء حسنا ، سواء كان المقصود السعادة المادية أو القيمة المعنوية • وكما عبر المصرى ، كانت الخطيئة « أمرا تمقته الكا » وتصـور بعض التماثيـل كاوات أصحابها فى هيئة شابة مثالية فى أوج القوة البدنية والجمال • لذا كانت الكا منبع تلك القيم التى رغب فيها المصرى أيما رغبة ومانحه لها • لقد توحدت معتقدات أجيـال كثيرة فى هذا **الرمز القوى للعاطفة الانسانية [الكا]** • فكان جزء منه مستمدا من روح الاسلاف وآخر يعبر عن المثالية وثالث يمنح الخير » (٣٤٨) •

ومما سبق نلاحظ صلة الملك (ومعه النظام والادارة والحكومة والعدالة) **صلة مباشره بالنظام الكونى** أى بالاله وأن تعددت أسـمائه حسب سيطرة رجال اللاهوت والمحاولات المستمرة لرجال اللاهوت فى ايجاد حلول وتفسيرات للخلط الذى يحدث من تفسير لآخر والاشارة من آن لآخر مثلا بأن رع وأوزيريس هما روحان توءمان أو هما واحد مثل « أوزيريس الأمس ورع المستقبل » وغير ذلك من محاولات التوفيق والتى توقع فى الخلط مرة أخـرى ولكن المهم هو تأكيـد معنى « **صلة النظام الأرضى بالنظام الكونى** • وقد أفاد هذا كثيرا فى حفظ النظـام والقضاء على الفوضى وطالما كان الفرعون وحكومتـه أقوياء كلما كان الاسـتقرار واستتباب الأمن •

« كان الفرعون يوجه اهتمامه الى تنظيم البـلاد والى نمو شـعبه والى نشر العدالة والسلام ويتولى بنفسه الادارة ، واختيار كبار الموظفين الأكفاء لادارة شئون الحكومة والجهاز الادارى للدولة ، ويكافيء المجدين

منهم ، وفوق ذلك يجد الفرعون وقتا لديه للاهتمام بالعلوم وتأليف الكتب • كما نلاحظ أن الأمراء أولاد الملوك يتمرسون على الاشغال منذ صغرهم ، وكانوا يبدأون السلم الادارى من أوله وينتقلون فى مختلف الوظائف الى أن يصلوا الى الوظائف الادارية الهامة مما يجعلهم أكثر ادراكا لحال البلاد ومشاكلها وبالتالى يصبحون مؤهلين للحكم أو للمعاونة فيه » (٣٤٩) اننا نستطيع أن نرى نجاح المصرى كحاكم عادل وكادارى متميز حسن التنظيم والادارة وكموظف كفء يعرف كيف يدير كافة الأمور فى البلاد • لقد قدس النظام وقدس الادارة وقدس العدالة بنسبتهم الى الآلهة والآلهات — كما سبق — ووجد فى النظام والادارة والعدالة ملاذه وحمايته من اختلال الأمن أو اختلال النظام أو سوء الادارة أو غياب العدالة • لقد عانى الناس كثيرا فى فترات الفوضى والانقسامات والمؤامرات والدسائس فأصبحوا يتمسكون بالقيم الادارية والتنظيمية التى تساعدهم فى حياة الاستقرار وفى سيادة العدالة السياسية والعدالة الاجتماعية وفى السعادة التى توفرها سيادة القانون وسيادة الأخلاقيات والمبادىء وما يصبو اليه الناس دائما وهو وجود الضمير الحى (ان أصواتنا الآن تعلو لتأكيد أهمية الضمير الحى فى ازدهار المجتمع وخيره) •

« وفى الدولة القديمة أصبحت مؤسسات الدولة واضحة المعالم ، محددة المهام سواء فى البلاط أو فى الحكومة أو فى الجهاز الادارى أو المجالس الاستشارية • ووجد منصب الوزير فى وقت لاحق من هذه الدولة •••• ومع قيام الوحدة بين الشمال والجنوب وجد نظام المركزية السياسية والادارية كما ظهر فى الأسرتين الأولى والثانية • ومع ترسيخ الوحدة فى الدولة القديمة زادت سلطة الملك وبالتالى زادت أهمية البلاد والعاملين فيه واختصاصاتهم • وكانت أملاك البلاط الملكى واسعة وزاد اتساعها مع ضم أملاك ملك الشمال أو مصر السفلى الى أملاك ملك الجنوب أو مصر العليا ، مما أدى الى زيادة العاملين فيه وهؤلاء تختلف أعمالهم من دينية الى مدنية الى قضائية الى عسكرية (٣٥٠) • لقد كانت السلطة المركزية عنوانا لقوة البلاد ولسيطرة الحكومة على كافة الأعمال وعلى كافة الموظفين سواء أكانوا دينين أو مدنيين أو قضائيين أو عسكريين • وسلطة الملك القوة تعنى القبضة الحديدة على زمام الأمور مما لا يتيح فرصة التفكك والانقسامات والذى يتلوه قطعا ضعف البلاد ، وهو ما حدث عقب الأسرة السادسة أثناء الثورة الاجتماعية وما حدث أثناء عصر الاضمحلال الثانى بعد الأسرة الثانية عشرة وتعرض البلاد للغزو الأجنبى القادم من الشرق وهم الهكسوس ثم ما حدث أثناء انقسام السلطة فى الأسرة الواحدة والعشرين حينما حكم الملك سندس من تانيس فى الشمال

وحكم « حريحور » كبير كهنة آمون من طيبـة فى الجنوب بالاضافة الى فترات الضعف التى تسببت فى وقوع البلاد فى براثن الاحتلال الأجنبى البغيض وبوجه خاص الاحتلال الفارسى ٠

أما عن سلطة الملك فيما أنه « يرأس الدولة فله وحـدة السلطتين التنفيذيتين والقضائيـة بمعاونة كثير من الموظفين ٠ ولكن الملاحظ أن سلطته فى اختيار هؤلاء المعاونين ليست مطلقـة ٠ بل أنه مضطر الى الالتزام بالنظام القانونى الذى يتمثل فى الاختيار للوظائف الكبرى طبقا لقاعدة الأقدميـة أو الأسبقية » (٣٥١) هكذا نجد العدالة والذكاء فى اختيار الموظف الكفء الذى لديه خبرة تفيده فى تقلد مهام منصبه ٠٠ الاختيار لم يكن طبقا للأهواء ـ حتى لو كانت أهواء أكبر رأس وأكبر سلطة فى الدولة ـ والمتأمل للالتزام بالنظام القانونى الذى كان متبعا فى عصر الفراعنة يدرك الأخطاء التى ارتكب فى حق البلاد عندما كانت تسند المهام الكبرى والخطيرة لمن كانوا يطلقون عليهم أهل الثقة والذين كانت تنقصهم الخبرة والحنكة والتحلى بفنون الادارة الناجحة ٠٠ مع أن حفظ النظام وتسير أمور الدولة بصـورة سلسلة لابد وأن تعتمد على الادارى الناجح ٠

ونستطيع أن نستشف كيفية الاختيار للوظائف العامة من قراءة ما كتبه كبـار الموظفين عن هذا الموضـوع فمن « مصادر التاريخ الهامة السيرة الذاتية التى كتبها ثلاثة من كبار الموظفين فى تلك الدولة يمكن الخروج بالكثير من الاستنتاجات وأهمها **أن الاختيار للوظائف العامة لم يكن وراثيا** وأنه لم يكن محصـورا فى طبقة معينة بل أنه كان مفتوحـا لجميع المصريين ماداموا يلمون بالقراءة والكتابة ، وأن هناك سلما اداريا كاملا ومتدرجا يبدأ من وظيفة كاتب وهو يعين بقرار ملكى ، وكل ترقية تمنح له أو كل وظيفة ينتقل اليها تكون بقرار ملكى الا اذا كانت وظيفة من نفس درجتـه ٠ وهو يبدأ كاتبـا فى احدى الادارات الملكية فى أحد الأقاليم ثم يستمر فى الخدمات الادارية فى ذات الاقليم ثم ينتقل الى الادارة المركزية للأقاليم حيث تتبعه الادارات الأصغر فى هذا الاقليم وبعد أن يمر على الادارات المختلفة ويرتقى فى السلم الادارى يمنح رتبة شرفية هى : **الحق فى حمل العصا** » (٣٥٢) ٠

ان دراستنا لهذه النواحى الادارية والتى تدل على مدى تقدمهم فى الادارة كفن وعمل وتنفيذ نعـرف أن الفيصل هو فى الكفاءة ٠ لم تكن الوظائف وراثية ، بل كان الاختيار لها يخضع لقواعد معينة ومؤهلات معينة ، ولابد من الكفاءة الخاصة التى يتم على أساسها الاختيار ٠ كما أن الوظائف الهامة هذه لم تكن قصرا على طبقة معينـة بـل كانت مفتوحه

لجميع المصريين ذوى الكفاءة الخاصة · كما أن نظام الادارة ذاته كان منظما وفيه **سلم ادارى** كامل ومتدرج · وتحت الاشراف الكامل للملك شخصيا بدليل صدور قرار ملكى بالتعيين وبالترقية ، وهو ما يعنى قوة السلطة الادارية والتى كانت مخولة للملك ، فهو مصدر السلطات · ووجود الترقيات يعنى المتابعة ويعنى أيضا تقدير الكفاءة ، ولابد أن يسلك الموظف السلم الادارى من كاتب الى كاتب ملكى ثم يمنح وظائف أعلى · وكانت وظيفة المستشار هى أعلى وظيفة فى الدولة · « ونظرا للنظام المركزى فقد بلغت سلطاته البلاد كلها منذ الأسرة الثالثة · ومن أبرز أمثلة هذه الوظيفة الجليلة هو ايمحتب مستشار الملك زوسر صاحب الهرم المدرج فى سقارة · والمستشار هو رئيس المجلس الأعلى للحكومة أو مجلس العشرة الكبار دون أن يكون عضوا فيه · وهو يحمل تفويضـــا من الملك لممارسة الســلطة التنفيذية ويظهر ذلك من خاتمه الملكى (٣٥٣) ·

ويتميز التنظيم الادارى على مبدأ أساسى وهو عدم أحقية المستشار فى قيادة الجيش حيث أنه كان مختصا بالسلطة المدنية · ويلاحظ أن وجود هذا المبدأ الأساسى للتنظيم الادارى يعنى أنه « منذ الأسرة الثالثة يتضمن الفصل الكامل بين السلطة المدنية وقيادة الجيش » (٣٥٣) ويأتى المجلس الأعلى للحكومة على رأس الادارة الحكومية من الناحية التنفيذية · وكان هذا المجلس يسمى مجلس العشرة الكبار من الجنوب · « وقد احتفظ هذا المجلس بتسميته من قبل وحدة الشمال والجنوب ، وان اختلف تشـــكيله واختلف مهـــامه ، فقد كان هذا المجلس قبل وحدة الشمال والجنوب يتشكل من كبار الاقطاعيين وأعضاء الأسر الثرية فى مملكة الجنوب فى الدولة مثل كبير المهندسين الملكيين ورئيس الأشغال العامة ورئيس البوليس وحاكم المقاطعة الحدودية الغربية ورئيس ادارة الضرائب وبعض قادة الجيش وبعض الكتاب الملكيين · وأحيانا أحـد الأبناء الملكيين شريطة أن يكون دخوله طبقا للنظام القانونى أى **مرورا بالوظائف الأدنى** ·· ومهمة هذا المجلس هو **رئاسة الجهاز الادارى للدولة** وتأكيد تنفيذ القرارات والأوامر الملكية · وليس لهذا المجلس اختصاص تشريعى حيث أن هذا الاختصــــاص من حق الملك ولكن على المستشار ومجلس العشرة الكبار من الجنوب أن يتأكدوا من **تنفيذ** التشريعـات الصـــادرة من الملك ··· ومع الأسرة الرابعة تأكد نفوذ هذا المجلس ودوره كمجلس أعلى للحكومة وأصبحت لأعضائه مراكز سامية حتى أن بعض الفقهاء يرى أن أعضاء هذا المجلس أصبحوا يكونون طبقة جديدة من النبلاء الاداريين حلت محل طبقة النبلاء الاقطاعيين الســـابقة على الوحدة ·· ومنذ الأسرة الخامسة أضيفت الى مهام هذا المجلس بعض الاختصاصات القضائية » (٣٥٤) ·

كم أثبت المصرى القديم بأنه كان اداريا ممتاز يحدد اختصاصات الوظائف ودورها وتدرجها بما يكفل حسن الادارة وقيامها بالدور المنوط بها ، كما كان يحدد قواعد اختيار الموظفين الأكفاء الذين أصقلتهم الخبرة والممارسة ولا يتم ترقيتهم الا بنـاء على مرسـوم ملـكى والذى يعنى عدالة الاختيـار دون وجود أهواء شخصية ٠ **فحتى الأمراء لابد وأن يمروا عبر السلم الوظيفى ليكتسبوا الخبرة** اللازمة وليس كشكل وديكور وظيفى ٠ لابد أن يكون شاغل المركز جديرا به حتى يستطيع النجاح فى المراكز التى يشغلها ٠ لم يكن اختيار العشرة الكبار عشوائيا بل جمع المهيمنين على المناصب الهامة والمختلفة فكبير المهندسين ورئيس الأشغال العامة ورئيس البوليس وغيرهم مجتمعين فى مجلس قيـادى هام يعنى الكفاءات المختلفة فى المجـالات المتعددة والنتيجة قطعـا ستفيد الادارة لأنها **ادارة عالمة واعية دارسة متمرسة** ٠

كان الملك حريصا على وحدة السلطة أمام حكام الأقاليم التى زادت شوكتهم ، وظهرت خطورتهم بأن أكسـبوا انفسهم سـلطات الملك فى مقاطعاتهم ، فأنشأ الملك وظيفة **الوزير** ومنحه سلطات واسـعة لكى تحد من سلطة حكام الأقاليم [عند تنـاول وظيفة الوزير سأعطى صـورة تفصيلية عن المهام المنوط بها] ٠ وقد تنبـه الملك بأن بعض المناصب كان يتصرف شاغلوها بحرية أكثر من اختصاصات المنصب ولم يكن غافلا عن ذلك ، بل كان يقوم باجراء التغيير المناسب « فمن المناصب الهامة فى الدولة القديمة منصب نائب الملك لمصر العليا فى « **نخن** » العاصمة القديمة للجنوب ، وكان له مركز متميز ويحمل لقب أميرى ٠ وظل هذا المنصب موجودا طوال حكم الأسرتين الثالثة والرابعة ٠ ولكن مع نهاية الأسرة الخامسة تم ضم هذا المنصب أيضـا الى الوزير وأصـبح حاكم مصر العليا أحد كبار الموظفين ولكنه ليس نائبا للملك » (٣٥٥) ٠ لقد كان الملك حريصا على تغيير الاختصاصات حتى لا يجد من يزيد عنه فى السلطة ٠٠ فأخذ يزيد من سلطات واختصـاصات الوزير بذا لم يعط فرصـة زيادة نفوذ نائب الملك بل استبدله بأحد كبار الموظفين بعد نقل اختصاصاته الى الوزير الذى هو أيضا موظفا تحت سيطرة ونفوذ الملك ونصب عين الملك ٠

« وكان نائب الملك للجنوب فى « نخن » يحمل التفويض الملكى ، ولكنه لم يكن عضوا فى مجلس العشرة الكبار » (٣٥٥) وهذا يؤكد توزيع الاختصاصات بصورة لا تترك فرصـة انفراد أى نائب ملكى أو حاكم اقليمى بسلطة تستقل عن نفوذ الملك ٠ ولكن بعد أن تعرضت البـلاد لفترة اضطرابات طويلة بسبب قيـام الثورة الاجتماعية وبسبب تزايد

نفوذ الاقطاع وبسبب الحروب الأهلية والفتن والصراعات على السلطة مما أدى الى ضعف سلطة الملك وبالتالى ضعف السيطرة المركزية الادارية ، تأثرت النظم القانونية السائدة وتأثرت الكثير من النواحى الادارية وتأثر ابستقرار النظام والادارة « وبفضل جهود ملوك الدولة الوسطى (من حوالى ٢٠٦٠ الى ١٧٨٥ ق ٠ م ٠) تم اعادة توحيد البلاد بعد القضاء على الحروب الأهلية ٠ وأبرز ملوك الأسرة الحادية عشرة هو منتوحتب الثانى الذى تمكن من لم شمل البلاد واعادة وحدتها فى ظل حكومة قوية ٠ وحوالى عام ٢٠٠٠ ق ٠ م تمكن (أمنمحات الأول) من تأسيس أسرة قوية وهى الأسرة الثانية عشرة ٠٠ وكان أمنمحات الأول اداريا من الطراز الأول ، ويتمتع بعقلية رجل الأعمال ٠ وكان أول ما واجهه عدد كبير من الأعداء تمكن من القضاء عليهم ، كما قضى تماما على سيطرة الأمراء المحليين واستقلالهم بأقاليمهم ٠ وقد استخدم فى سبيل ذلك العنف تارة والحيلة تارة ، حتى أخضع أمراء الأقاليم لسلطانه ، كما أنه طهر أطراف البلاد من البدو والقبائل الليبية ، وأدب العصاة النوبيين ، وساد فى عهده الأمن والنظام » (٣٥٦) ولقد أسس الملك أمنمحات الأول أسرة قوية وأتى بعده ملوك عظام أمثال سنوسرت الأول وسنوسرت الثالث وتم بسط نفوذ مصر على النوبة حتى الشلال الثانى ٠ ويعلق معظم المؤرخين بأن عصر الأسرة الثانية كان العصر الذهبى لمصر من ناحية الاستقرار وتنفيذ المشروعات الهامة مثل توصيل النيل بالبحر الأحمر على يد سنوسرت الثالث ، كما كان لهذه الأسرة السيطرة التامة على الواحات وسيناء والمناطق الصحراوية ٠

وبانتهاء الأسرة الثانية عشرة دخلت مصر فى عصر فوضى وظلام مرة ثانية وتعرضت البلاد لحكم أجنبى ــ الهكسوس ــ وتم تخليص البلاد منهم على يد « سقنن رع » ومن بعده ابناه « كامس » و « أحمس » مؤسس الأسرة الثامنة عشرة أى مؤسس الدولة الحديثة وفيها خرجت الجيوش المصرية عبر الحدود الى الشرق وكونت أول امبراطورية مصرية والتى حققت أقصى اتساع لها أيام تحتمس الثالث ٠ ولقد عاد الاعتزاز القومى عندما تم تخليص تراب الوطن من براثن الأعداء وتعتبر معركة « شاروهين » بفلسطين هى المؤشر بزيادة قوة مصر العسكرية وقدرة جيشها على القضاء على كل جحافل الأعداء ٠ يقابل هذا عودة النظام فى الداخل ٠ وقد تحدث الدكتور « ناصر الأنصارى » عن دور الملك فى الدولتين الوسطى والحديثة فقال :

« كان الملك يباشر سلطانه الى أبعد الحدود ، ووجد فيه الناس رجلا يخدم مصالح البلاد ٠ واستطاع ملوك الأسرة الثانية عشرة أن

يضعوا حدودا للفوضى السابقة ، مما قضى على المنازعات الداخلية ، وزاد احساس الشعب بالأمن ، ومن الأسباب التى أدت الى تدعيم نفوذ البيت المالك فى ذلك العصر الأخذ بمبدأ تركيز الادارة فى يد الملك ، فقد أدرك الملوك أن القضاء على نفوذ حكام الأقاليم هو أضمن السبل لضمان ثبات العرش ۰۰۰ وقد استن ملوك هذه الدولة سنة جديدة ، هى الاشتراك فى الحكم ، فكان ولى العهد يشارك فى الملك ، للتدريب عليه ، مما ساعد الملوك على الاحتفاظ بعروشهم الموروثة دون مشاكل وبكفاءة عالية ۰ كما عنى الملوك باعادة تنظيم البلاد فى هذه الفترة على أساس قوى ، وكان من أثر ذلك أن أخذت البلاد المجاورة تحسب حسابا لمصر وتقدر قوة شخصية ملوكها ۰ وأهم ما يميز ملوك هذه الدولة هو **اصلاح البلاد** ، وتنظيم وسائل الرى والزراعة ، واستثمار المحاجر ، وتقوية الصلات التجارية بين مصر وجيرانها » (٣٥٧) ۰

لقد كان الناس يحبون ملوكهم الذين يحافظون على النظام لأن وجود النظام معناه عدم وجود فوضى ۰ ولولا محاولات حكام الأقاليم للاستحواذ على سلطة ينافسون بها الملك لسعدت مصر طوال تاريخها الماضى فالثورة الاجتماعية الأولى كان سببها طغيان رجال الاقطاع وفترة الاضمحلال التى تبعث الأسرة الثانية عشرة كان سببها التفتت الداخلى وسنرى عند تناول الفترة التالية للدولة الحديثة زيادة نفوذ الكهنة بصورة انقسمت فيه البلاد الى قسمين : ملك شرعى يحكم الشمال من تانيس ورئيس كهنة يحكم الجنوب من طيبة !! لم نلاحظ على مر العصور القديمة طغيان ملك أو خروجه عن العدالة والحق والصدق المتمثلة فى « ماعت » والتى كان الكاهن يرفعها فى نهاية كل خدمة يومية فى المعبد تعبيرا عن وجود العدل مع وجود النظام المتمثل بالملك ۰ واذا تتبعنا تحليل رجل القانون مثل الدكتور « ناصر الأنصارى » فنجده يقول : « كما اهتم ملوك الدولة الوسطى **باثراء العدالة** وكان من حق كل مصرى غنيا كان أو فقيرا أن يخاطب الملك فى شكوى مكتوبة ضد أى استغلال للسلطة وقد وجدت شكاوى من عهد الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة ۰ بل وصل الأمر بالملوك فى الدولة الحديثة أن يرسلوا الرسل لجميع أنحاء البلاد لجمع هذه الشكاوى والتحقيق فيها وابلاغه بالنتيجة ۰۰۰ ومع الدولة الحديثة استقر الأمر لصالح الفرعون بعد القضاء على الاقطاع وتنظيم البلاد من الداخل ، وعادت للفرعون صلاحياته الواسعة ولكن فى ظل **نظام ادارى** رفيع ودقيق تحت الرئاسة المباشرة للوزير » (٣٥٨) ۰

هكذا كانت الادارة الناجحة فى حكم البلاد وعلى رأسها الملك ومن يعينه من مساعدين سواء أكانوا وزراء أم حكام أقاليم أو كبار الموظفين

فى سائر النواحى أمثال كبار المهندسين وكبار العسكريين وما الى ذلك ٠ إننا نستطيع أن نستخلص بأنه من السمات القومية التى نضيفها على كبار المسئولين هو « **المصرى حاكما عادلا ، واداريا ناجحا ، ومخططا بارعا وقاضيا محايدا ، ومنظما لدولاب العمل** » وعند التحدث عن التشريع سنجده **مشرعا عبقريا** بشهادة الاغريق بالنصوص التشريعية التى تركها لنا « بوخوريس » وهو مؤسس الأسرة الرابعة والعشرين فى مصر حوالى سنة ٧٤٠ ق٠م٠ » (٣٥٩) ومن بعده (أمازيس) الذى حكم البلاد حوالى ٥٦٧ ق٠م٠ حتى الملوك فى بداية الأسرة الأولى كانوا يهتمون بمركزية الدولة وقوتها ٠ « ولاشك أن ملك مثل « مينا » حكم مدة تقرب من ستين عاما علاوة على **قوته وحكمته** قد جاز من العوامل التى سهلت له الطريق لاستمرار الوحدة ، وكان من أهم ما اتخذه من قرارات عملية : **مركزية الدولة** والقضاء على نفوذ طبقة كبار الاقطاعيين خاصة فى مصر العليا ٠ ولذلك فان أهم مؤسسات الدولة وتسييرها وبما حواه من عدد كبير من العاملين فى مختلف المجالات ٠ فالبلاط الفرعونى هو بمثابة الحكومة بجميع عناصرها ، وان كانت هذه العناصر لم يكن قد اتضحت معالمها بعد ٠٠٠ فالفرعون على رأس الجهاز التنفيذى باعتباره رب الوحدة وراعيها وحاكم القطرين وصاحب التاجين الذى يدير الأمور من قصره الكبير بما فيه **خير الجميع** وبما يحقق الصالح العام » (٣٦٠) ٠

ومن قراءة ما تركه الموظفون من كتابات على جدران مقابرهم تظهر مدى تقديرهم وحبهم لملوكهم فنجد « **أننى** » المسن يعلن موت « توثموزيس الثانى » وولاية خلفه فى الكلمات التالية : « **صعد الى السماء وأصبح متحدا بالآلهة وأخذ مكانة ابنه كملك على الأرضين** » (٣٦١) وفى نص آخر كتب « اننى » الموظف الهام الذى أشرف من قبل على الأبنية الفخمة فى الكرنك « **ذهب الملك** يستريح من الحياة ، **وصعد الى السماء بعد أن أكل سنيه فى هناء** » (٣٦٢) ٠ « **وكانت مصر ــ بسبب** طبيعتها الجغرافية ــ من الدول المحتاجة **لنظام** ادارى دقيق ٠٠٠ توفر السيطرة اللازمة على كل البلاد ٠٠٠ وفى الفترات التى كانت فيها سلطة الملوك المركزية قوية ، فقد نعمت البلاد بنظام ادارى فعال » (٣٦٣) ٠

« وفى ظل الأسرة الثامنة عشرة ٠٠٠ كانت ممارسة السلطة الرسمية أساسها **النزاهة** ، وهدفها تحقيق **المصلحة والعدالة** ٠٠٠ وهذه السلطة المدنية كان رأسها **الوزير** ٠٠٠ وفى منتصف عهد الأسرة الثامنة عشرة (١٤٥٠ ق٠م تقريبا) كان منصب الوزير يشغله « رخميرع » ٠ ومعظم فترة وزارته كانت أيام الملك تحتمس الثالث ...

ورغم ما أصاب ·· هيكله الجنازى من تلف ·· الا أنها مازالت من المصادر الثرية للمعلومات ، فبعض النصوص تتكلم عن **وظيفة الوزير** (٣٦٤) » ولم يحتفظ النظام الملكى ببقائه فى طيبة الا بفضل الوزير ··· وقد تنامت سلطة الوزير حتى أصبحت موازية لسلطة العرش · وربما يكون ذلك الوقت هو الذى أرسيت فيه **اختصاصات الوزير** ومسئولياته » (٣٦٥) ويذكر رخميرع ما أوصاه به الملك تحتمس الثالث فقال : « فتح جلالته فاه ونطق بكلامه : « **يجب أن تعمل وفق ما أقوله لك ·· وبذلك تستريح ماعت** (ربة القانون والنظام) فى مكانها » ·· وقد عملت حسب أوامره ·· والآن صرت قلب الاله (يقصد الملك) فليعش فى رخاء وصحة ·· وأصبحت عينى الملك وأذنيه ··· كنت فى الحقيقة ربان الملك الخصوصى ·· لم أعرف طعم النوم ليلا ونهارا ·· رفعت ماعت (القانون) الى عنان السماء ، وجعلت جمالها يعم البلاد ، حتى استقرت فى أنوف الناس ··· كنسمة الشمال عندما تزيح الشر من القلب والجسد ·· وكنت أقضى بين الناس كبيرهم وصغيرهم ·· **أنقذت الضعيف من القوى ·· وأوقفت الشرير** ·· وأوقفت الشرير عند حده ·· وأخضعت الظالم الجشع على الفور ·· **وواسيت الأرملة التى فقدت زوجها ·· وملكت الوارث من تركة أبيه .. ووهبت** الخبز للجوعى ·· والماء للعطشى ·· واللحوم والثياب والزيت للمساكين ·· ولم أصم أذنى عن سماع المحتاجين وللحقيقة لم أقبل من مخلوق رشوة » (٣٦٦) ·

الوزير

« ان وظيفة الوزير التى أنشأها الفرعون لكبح جماح حكام الأقاليم أصبحت وراثية يتولاها الابن عن الأب مما جعل نفوذ الملك صفرا (٣٦٧) » هكذا أوضح العلامة سليم حسن الهدف من انشاء وظيفة الوزير هو كبح حكام الأقاليم الذى تزايد نفوذهم وأراد الملك أن يوقفهم بتعيين موظف كبير له سلطات واسعة وان كان ظاهريا بأنه يقلل من نفوذ الملك ولكن الملك صاحب سلطة تعيين الوزير يحتفظ لنفسه بالتعيين وبالتالى بالخلع وبذلك يضمن لنفسه السيطرة على مراكز القوى المتمثلة فى حكام الأقاليم ·· وكان هذا التعيين فى عهد الأسرة الرابعة وكانوا أيضا من أفراد الأسرة المالكة فقد أوضح المؤلف هذا فى الجزء الثانى من موسوعته قائلا : « لقد كان أهم مظاهر التجديد فى الحكومة المصرية فى عهد الأسرة الرابعة هو انشاء وظيفة « **وزير** » · وقد كان يشغلها دائما أحد أولاد الملك الذى كان فى الوقت نفسه كاهنا للاله « **تحوت** » ·

والاله « تحوت » والالهة « **معات** » آلهة العدل والالهة « **سشات** » الهة الادارة كانوا الآلهة الرسميين الذين كان فى يدهم السلطة الحكومية وقد كان أهمهم « **تحوت** » اله القـــانون ، فكان الوزير كاهنه ، وفى الوقت نفســـه رئيس الحكومة • والوزراء المعروفون فى عهد الأسرة الرابعة هم « كانفر » و « نفرامعات » وهما ابن « سنفرو » وحفيده على التوالى ، ثم « حميون » بن « نفرمعات » ثم « نى كاو رع » بن خفرع ، الخ » (٣٦٨) ••• « والواقـــع أن الوزير كان الرئيس الأعلى للادارة المصرية ، وكان لابد له أن يدرس كل الأعمال الهامة فى البلاد يساعده فى عمله رئيس البعوث ، وهو الذى يحمل أوامره ويضـــع أمامه كل التقارير الخاصة بمصـالح المقاطعات ، وكذلك كان يشرف الوزير على السجلات الملكية التى كانت تحفظ فيها الأوراق الهامة كالمراسيم الملكية والعقود والوصايا » (٣٦٨) •

ونلاحظ أن عملية تنظيم الادارات كانت لها قدسيتها بدليل تخصيص الهة لكل ادارة • فالعدالة لها آلهة خاصة بها ترعاها وتهتم بها ، والادارة لها الهة تختص بها وترعاها ، والقانون له اله يرعاه ويهتم به • فاسناد هذه الأعمـال التنظيمية الى آلهـة تختص بها تحمل معنى ومؤشرا هاما الا وهو قدسية هذه الأعمال وأهميتها القصوى • فالتنظيم المحدد لكافة الاختصاصات • يتطلب من القائم عليها مراعاة قوانينها ، بل ان الموظف المسئول القائم على هذه الأعمال الادارية والتنظيمية كان يعتبر كاهنـا للاله أو الآلهة •• كاهنا للاله تحوت اله القانون ، أو للاله « ماعت » آلهة الحق والصـــدق والعدالة ، أو الالهة « سشات » الهة الادارة وأحيانا يشار اليها كالهة الكتابة • كما أن الاله « تحوت » اله القانون هو فى الوقت نفســـه اله الحكمة وهناك صـــورتان للاله « تحوت » فنراه فى الأشمونين حيث مركز عبادته على هيئة القرد ــ بأبون ــ والأشـمونين تقع بالقرب من ملوى بمحافظة المنيا • والصورة الثانيـة له هى شكل الطائر أبيس ويظهر بهذه الصورة فى جميع صور المحاكمة فى الحياة الآخرة عندما يوضع القلب فى جانب من جوانب الميزان والريشة أو الآلهة ماعت فى الجانب الآخر • وأمام الميزان يقف « تحوت » يسجل ما تسفر عنه نتيجة الميزان •

« ومن أعمال الوزير أنه كان **رئيس القضـــاة** ، ولذلك كان هو الرئيس لمحكمة الستة العليا ــ ولما كان الوزير بحكم وظيفته يقوم بالأمور القضائية ، فانه كان يجب أن ينسب الى الالهة الحاميين للعدالة ، فكان يلقب أحيانا أعظم الخمسة القائمين على بيت « اتحوت » اله القانون ، وكان كذلك يدعى كاهن آلهة العدل « معات » ، وذلك منذ ختام الأسرة

الخامسة . وأخيرا كان فى يد الوزير ادارة مصلحتين من أهم مصالح الدولة وهما الخزانة ، ووزارة الزراعة » (٣٦٩) .

وبعد الثورة الاجتماعية وملحقاتها فى عصر الاضمحلال الأول حيث كانت الفوضى منتشرة ، تمكن ملوك الدولة الوسطى من القضاء على معظم الفتن والدسائس « أخذ الفرعون يتدخل فعلا فى شئون حكام المقاطعات الخاصة كلما سنحت له الفرصة ، فمن ذلك ان الفرعون استطاع أن يحفظ لنفسه حق تولية كبار الموظفين فى المقاطعات وعزلهم .. وفى ظل هذه السلطة استعادت الحكومة المركزية ونفوذها القديم الذى كان قد انمحى منذ زمن بعيد . وقد وضع الفرعون على رأس هذه السلطة المركزية **وزيرا** كان فى الواقع **يساعد الفرعون** الأيمن ، وممثله فى كل شئون البلاد المالية والقضائية والحربية الخ .. ولاشك فى أن ادارة الوزير للبلاد بما فيها من أنظمة حازمة ، كان نموذجا صالحا لكل الأنظمة الرئيسية ، مما جعل البلاد بأجمعها تسير على **نظام ادارة واحد** حازم ، يشمل الأمور المالية والقضائية والحربية أيضا (٣٧٠) .

وكانت نتيجة كتابات المصلحين الاجتماعيين ظهور العدالة الاجتماعية ، وفى قصة الفلاح الفصيح اتضح معنى وجود موظفين على مستوى المسئولية ليساعدوا الملك فى اقرار وتطبيق العدالة . وكان الوزير الأعظم فى تلك الفترة هو لسان حال الفرعون ويمكننا أن نلمس ذلك من الخطاب الذى يوجهه الملك للوزير عند احضاره فيقول له : « تبصر فى **وظيفة الوزير** ، وكن يقظا بكل مهامها ... انظر ! انها الركن الركين لكل البلاد .. واعلم أن الوزارة ليست حلوة المذاق بل انها مرة .. فالوزير هو النحاس الذى يسور حول ذهب بيت سيده ، وأعلم أن الوزارة لا تعنى اظهار احترام الناس للأمراء والمستشارين ، وليس الغرض منها أن ينتخب الوزير لنفسه عبيدا من الشعب . وأعلم أنه عندما يأتى اليك سائل متظلم من الوجه القبلى ، أو من الوجه البحرى . أو من أى بقعة من الدولة ، فعليك أن تطمئنه الى أن المعاملة التى عومل بها كانت وفق القانون ، وأن كل شىء قد تم حسب العرف فتعطى كل ذى حق حقه » (٣٧١) .

هكذا نجد أن الملك يؤكد على ضرورة تنفيذ العدالة واعطاء كل ذى حق حقه ، واستشهد الملك بحكم خاطىء صدر من وزير يسمى « خيتى » فيحذر الوزير من الوقوع فى مثل هذا الحكم الظالم الذى أصدره الوزير ضد بعض من عشيرته حتى لا يقال أنه حابى أقاربه قائلا : « وأعلم أن ذلك يعد تخطيا للعدالة فلا تنسى أن **تحكم بالعدل** ، لأن التميز يعد

طغيانا على الاله ... ولا تغضبين على رجل أخطأ ، بل أغضب على من يجب الغضب عليه ... وأعلم أن الخوف من الأمير ياتى من اقامته للعدل ... ولا تتوانى قط فى اقامة العدل والقانون الذى تعرفه » (٣٧٢) ونجد أن وزيرا مشهورا مثل « رخ – مى – رع » الذى عاصر « تحتمس الثالث » يتفاخر بانجازه للأعمال وطهارة يده فيقول :

« وقد مجدت « ماعت » (العدالة) حتى عنان السماء ... وقد قضيت بين الفقير والغنى بالقسطاس المستقيم ، وخلصت الضعيف من القوى ، ووقفت فى وجه غضب الأحمق ، وسحقت الجشع فى ساعته ، وقمعت حنق المهتاج فى وقته ، وكفكفت البكاء .. وحميت الارمل التى لا زوج لها ، ونصبت الابن الوارث مكان والده ، وأعنت الرجل المسن مانحا اياه عصاى .. وكرهت الظلم ولم أرتكبه .. وكنت مبرءا أمام الله .. وجعلت الحزبين يخرجان من عندى متصالحين ولم أشوه العدالة من أجل رشوة » (٣٧٣) وقد أظهر هذا الوزير العادل بالمناظر التى تركها على جدران مقبرته بأنه حاكم شفيق لا يحيد عن الحق وأنه يستمع لشكاوى المتظلمين المساكين . وبجوار هذا المنظر كتب : « ان الوزير « رخ مى رع » يخرج الى عالم الدنيا عند مطلع الفجر ليؤدى شعائره اليومية وليستمع الى تظلمات الأهلين وشكاوى الوجه القبلى والوجه البحرى دون أن يصد صغيرا أو كبيرا ، ومغيثا البائس ومخففا عبء من أثقل كاهله ومجازيا مقترف الشر » (٣٧٤) .

ومن النص السابق يلفت نظرنا ذهاب الوزير لأداء فروضه الدينية قبل أن يبدأ القيام بعمله الرسمى وهذا يجعلنا نعتقد أن الصلاة فى المعابد لم تكن مجرد تأدية فرض وحسب ، بل كانت رادعا خلقيا يظهر أثره عند الفصل فى المظالم والشكاوى بالعدل .. وهكذا كان ينظر المصرى الى الصلاة بأنها وسيلة تلهمه الصواب فى الحياة الدنيا لينال بها الجزاء الأوفى فى الآخرة .. فالحياة الآخرة والحياة الدنيا تؤلف وحدة فى نظر المصرى . الواقع أن الوزير كان لابد أن يكون واقفا على سير الأمور فى البلاد وكانت « تصل اليه التقارير عن عمل كل الموظفين المسئولين أمامه ، وهو الذى كان يفصل فى الأمور الحكومية كلها . وعلى ذلك كان هو **قاضى القضاة** ، اذ كانت ترسل اليه كل الأحكام التى تصدرها المحاكم المحلية المختلفة .. ثم يؤتى أمامه بأصحاب المظالم والشكايات والمذنبين فيفصل فى أمورهم » (٣٧٥) .

كان الوزير على الدوام اليد اليمنى للملك فى ادارة شئون البلاد . « وفى البداية كان هذا المنصب محصورا ، على ما يبدو ، فى أفراد أسرة الملك الحاكم . وفيما بعد أصبح من يشغلونه أشخاصا لا تربطهم بالأسرة

الممالكة رابطة قرابة • وفى عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى لم يكن الملك يستعين الا بوزير واحد • أما فى الدولة الحديثة فقد جرت العادة بالاستعانة بوزيرين • تتوزع الاختصاصات بينهما على أساس اقليمى فأحدهما ــ وهو المقيم فى طيبة ــ يشرف على المنطقة الممتدة من أقصى الجنوب الى آخر حدود أسيوط شمالا • أما الثانى ، وكان يقيم فى هليوبوليس ، فيشرف على الوجه البحرى ومصر الوسطى حتى أسيوط •• وقد كان منصب الوزير منصبا له وزنه وخطره • يتضح ذلك من ألقاب الوزير ونعوته ، ففى الدولة القديمة جرت عادة الناس بأن يضيفوا الى اسمه عبارة « له الحياة والصحة والسعادة » ، وهى عبارة لم تكن تضاف الا لأسماء الملوك والأمراء » (٣٧٦) •

يتضح من كل ما تقدم بأن الوزير كانت له اختصاصات عديدة متنوعة • ورغم هذه الاختصاصات وتنوعها فان من الممكن حصرها فى بنود ثلاثة : **اختصاصات ادارية ، اختصاصات قضائية** ، وأخيرا **اختصاصات تشريعية** • فالوزير هو رئيس الجهاز الادارى بأجمعه ، فهو الذى يصدر أوامره الى الموظفين ويتلقى منهم التقارير فى كل شأن من شئون البلاد • وكانت للوزير ــ بوصفه رئيس الجهاز الادارى ــ سلطة تعيين الموظفين وترقيتهم وتأديبهم عند الاقتضاء •• **كما كان يعد الوزير كبير القضاة** وهو بصفته هذه يرأس محكمة عليا تختص بالفصل فى القضايا الهامة • ويفخر الوزراء فى نقوش مقابرهم بأنهم كانوا يحكمون بين الناس بالعدل • وعند التحدث عن دير المدينة كانت المحكمة الخاصة التى عرفت « بالقنب » تحل المنازعات بين أهلها وكانت المحكمة تتكون من موظفى القرية • « وكان بوسع المحكمة حسم كل القضايا المدنية كما كان بوسعها اقرار القضايا الجنائية الصغيرة ، أما القضايا الكبرى التى يحكم فيها بالاعدام فكانت تحال الى محكمة الوزير فى طيبة » (٣٧٧) •

كان الوزير على رأس الادارة المركزية ويشرف على المحفوظات الملكية حيث تحفظ المراسيم الملكية والعقود والوصايا والمستندات الهامة • وكان الوزير مفوض من الملك فى اختصاصاته التنفيذية وبالتالى له الحق فى استخدام الخاتم الملكى • وكما لاحظنا أضيف للوزير اختصاص قضائى حيث أصبح القاضى الأعلى ورئيس المحكمة العليا أو محكمة القضاة الست ــ ومع الأسرة السادسة زادت مسئوليات الوزير واختصاصاته حيث انتقلت اليه سلطات مجلس العشرة الكبار فى الجنوب ، وأصبح قاضيا وحيدا فى بعض حالات الاستئناف •

الجهاز الادارى المركزى للدولة (٣٧٨)

« يضم الجهاز الادارى المركزى للدولة مجموعة من الادارات الكبيرة التى يوكل اليها جميع المهام الادارية فى الدولة نذكر منها :

(أ) **بيت الملك** : تتخذ الادارة المركزية للبلاد مقرا لها بجانب مقر الملك لهذا تسمى بيت الملك وكان لهـا فروع اقليمية فى كل مقاطعة وهى من الادارات الرئيسية التى كانت تتبع المستشار فى الأسرة الثالثة وتتبع الوزير منذ الأسرة الرابعة وهى مسئولة عن الخدمات الادارية للدولة وتضم ادارات ذات أهمية منهـا الرسائل الملكية وهى المسئولة عن بريد الملك كما أنها **همزة الوصل** بين الادارات وتؤكد نقل الأوامر الملكية وهناك ادارة السجلات الخاصة بالحفظ أو الأرشيف وادارة خاصة بالأختام الملكية ·

(ب) **الادارة المالية** : وهى المختصـــة بالاشراف على البيت الأبيض أو الخزانة العامة للدولة وخزائن الغلال والمخازن العمومية والتموين ·

(ج) **ادارة العبادة الملكيـة** : وهذه الادارة تسمى البيت الأحمر وهى مسئولة عن العبادة الملكية ومواردها ومصاريفهـا بالاضـافة الى اختصاصها من النواحى الخاصـة بالمراسم الجنائزية الملكية ·

(د) **ادارة الأشغال العامة** : مهمتها الأساسية هى البناء والتشييد لكل ما يتعلق بذلك من تنظيـم الأيدى العـاملة والتزويـد بالأدوات الأساسـيـة ومن أكبر موظفيها مهندس الملك ومدير الانشـاءات البحرية ومدير الترسانة البحرية ·

(هـ) **ادارة الضرائب** : وهذه الادارة ازدادت أهميتها من الأسرة السادسة حيث أصبحت الضرائب تقدر على الدخـــل وتخضع لها الأموال العقارية والأموال المنقولة حسب الاحصاء العام للثروة الذى يعد كل سنتين مع التعداد العام للشعب ·

(و) **ادارة المياه** : وكانت تختص بمياه النيل والترع والبحيرات وكان عليها متابعة الفيضان وحسابه بكل دقة وتسجيله فى كل عـام على الحجر المعروف باسم « حجر باليرمو » من سنة الى سنة ·

(ز) **الجيش** : تطور الجيش الوطنى خاصة خلال الأسرة الثالثة وأصبح هناك جيش برى وأسطول بالاضافة الى بعض قوات عسكرية من

المرتزقة وكانت قيادة الجيش البرى والأسطول قيادة موحدة ولم تكن وراثية ، الا أنه مع الأسرة السادسة بدأ الملوك يجعلون القيادة داخل الأسرة الملكية من أجل الرقابة المباشرة على الجيش . ومع نهاية الأسرة السادسة بدأ الجيش الملكى الوطنى يتناقص فى عدده وعدته وزاد الاعتماد على المرتزقة الذين تزايد أيضا نفوذهم . كما تزايدت جيوش أمراء الاقطاع » (٣٧٨) .

الهيئات القضائية (٣٧٩)

« لم تعرف مصر ، فى العصر الفرعونى ، نظام استقلال القضاء عن السلطة التنفيذية . فكثير من الحكام كانوا يتمتعون باختصاصات قضائية الى جانب سلطاتهم الادارية . فالملك ، وهو الرئيس الأعلى للسلطة التنفيذية ، كان فى ذات الوقت ينبوع العدل والمرجع الأخير للقضاء – ورغم أن الملك لم يكن ، فى الأعم الأغلب ، يباشر بنفسه نظر الدعاوى والفصل فيها ، كان يباشر نوعا من النشاط القضائى . فقد كان يأمر فى بعض الأحيان بتشكيل محكمة خاصة لنظر قضايا ذات أهمية بالغة . وفى أحيان أخرى تكتفى المحكمة من ادانة المتهمين ، ثم ترفع الى الملك الذى يقرر العقوبة المناسبة .

« كذلك كان الوزير يجمع – الى جانب اختصاصاته الادارية المتنوعة – اختصاصات قضائية . فقد كان الوزير دائما « كبير القضاة » وتطالعنا فى النقوش الموجودة بمقابر بعض الوزراء نصوص تشير الى اختصاصهم القضائى [ففى قبور وزراء الأسرة السادسة نقرأ عبارات مثل : « كنت أقضى بين الطرفين على نحو يرضيهما » . « لقد قضيت بين الطرفين على نحو يهدئهما » . كذلك جاء فى نقوش مقبرة أحد وزراء الدولة الوسطى أنه كان يصدق على مستندات الحدود فيفصل بذلك بين مالك الأرض وجاره » . وان كلماته كانت تؤلف بين الأخوة فيعودون الى بيتهم فى سلام] .

« وهناك من الشواهد ما يدل على وجود عدة محاكم عليا فى عصر الدولة القديمة . ففيما يتعلق بالوجه القبلى نجد ست محاكم أو بيوت كبيرة تصدر الأحكام . وكان كل واحد من « كبار عشرة الوجه القبلى » يعتبر أيضا « مستشارا فى وزن الأقوال السرية الخاصة بالبيت الكبير » أى عضوا فى احدى المحاكم الست . وكان رئيس هؤلاء العظماء وحده هو الذى له حق الجلوس فيها جميعا بوصفه « مستشارا فى وزن الأقوال

السرية الخاصة بالبيوت الستة الكبيرة » • « والى جانب هذه المحاكم ، التى كانت تتكون من عدد من القضاة ، كان هناك أيضا قضاة منفردون لم يكونوا على ما يبدو ينتمون الى أية محكمة •

« وقد طرأت على التنظيم القضائى تغيرات هامة خلال عصر الدولة الوسطى والحديثة • فمحاكم الدولة الحديثة تختلف عن محاكم الدولة القديمة سواء من حيث تشكيلها أو من حيث تسميتها • فبينما كان البيت الكبير يتكون بصفة دائمة من عدد من كبار الموظفين أصبح « القنبت » بمثابة محكمة مكونة من أعضاء غير دائمين • فكان هؤلاء الأعضاء يجتمعون على هيئة « محكمة العدل الكبرى » فى اليوم المحدد عند بوابة أحد المعابد • وقد احتفظ الوزير باختصاصه القضائى خلال كل عصور التاريخ الفرعونى • وظلت محكمته هى المحكمة العليا فى البلاد • كذلك كانت هناك مجالس محلية تتمتع باختصاص قضائى وكانت تفصل فى القضايا البسيطة •

« وذكر « ديودور الصقلى » أن عادة المصريين كانت تجرى بتنصيب أفضل الرجال من أحسن المدن قضاة عموميين • فكانوا ينتقون من كل من هليوبوليس وطيبة ومنف عشرة قضاة • ويجتمع هؤلاء الثلاثون وينتخبون من بينهم أفضلهم رئيسا للقضاة ، ثم ترسل المدينة قاضيا آخر ليشغل مكانه •

« وقد عرف التنظيم القضائى فى العصر الفرعونى نظام استئناف الأحكام الصادرة من احدى المحاكم أو أحد القضاة أمام محكمة أعلى • وكانت هناك قواعد خاصة بمواعيد الاستئناف • ففى القضايا التى تثور بين الأفراد وبيت المال كان من اللازم استئناف الحكم خلال مدة معينة هى ثلاثة أيام بالنسبة لسكان العاصمة وشهرين بالنسبة لغيرهم •

« كذلك عرفت مصر نظام المحاكم الاستثنائية التى لا تخضع فى كيفية تشكيلها واجراءاتها للقواعد العادية • فقد لجأ الفراعنة ـ فى بعض الأحيان ـ الى تشكيل محاكم خاصة للفصل فى الدعاوى ذات الخطورة الجسيمة • وغالبا ما كانت هذه الدعاوى تتعلق بمؤامرات لقلب نظام الحكم • وقد حفظ لنا التاريخ ذكرى قضيتين لجأ فيهما الفرعون الى تشكيل مثل هذه المحكمة الخاصة •

« أما القضية الأولى فيرجع تاريخها الى الأسرة السادسة وتتعلق • بمؤامرة دبرها ضد الملك بيبى حريم قصره • واختار الملك لتحقيق القضية والفصل فيها أحد خلصائه وهو المدعو (أونى) •

« وأما القضية الثانية فترجع الى عصر الدولة الحديثة • وتتعلق أيضا بمؤامرة دبرت ضد رمسيس الثالث بواسطة بعض حريمه وبعض الأشخاص الآخرين • فقد تآمرت احدى المحظيات وتسمى « تى » ، وكان لها ابن يسمى (بنتو رع) ، مع سيدات أخرى من الحريم ، «على اثارة العداوة ضد مولاهن » بهدف وضع (بنتو رع) على العرش • ولم يشأ رمسيس الثالث أن يترك أمر الفصل فى هذه المؤامر للمحاكم العادية • ولهذا اختار عددا من الأشخاص الموثوق بهم ليكونوا محكمة خاصة ومنحهم سلطات مطلقة ليحكموا بحياة أو موت المجرمين » (٣٨٠) •

طابع القضاء (٣٨١)

« كل الشواهد تشير الى أن القضاء كان فى جوهره مدنيا • فلم يكن الكهنة هم الذين يتولون الفصل فى القضايا المختلفة وانما كان يقوم بذلك الموظفون الاداريون وعلى رأسهم الوزير • لكن هذا لا يمنع من أن الكهنة كانوا يدخلون أحيانا فى تشكيل المحاكم لا سيما المحكمة العليا • فقد كانت هذه المحكمة تتكون من كبار الموظفين وكان الكهنة يشكلون قطاعا هاما من قطاعاتهم • فوجودهم كأعضاء فى المحكمة ليس فيه ما يبرر أسباغ الطابع الدينى على القضاء •• كذلك كانت الاجراءات المتبعة أمام المحاكم تخلو من الطابع الدينى » (٣٨١) ويشير المؤلف كتاب (صناع الخلود) (٣٨٢) بأن قرية دير المدينة ــ الواقعة غرب الأقصر فى الضفة الغربية ــ كانت لها محكمتها الخاصة التى عرفت « بالقنب » من أجل حل أى منازعات بين أهلها • « وقد تكونت المحكمة من موظفى القرية (الذين ربما تم انتدابهم للخدمة فى المحكمة) ورؤساء العمل ونوابهم والكتبة بالاضافة الى أعضاء معينين من بين أهل القرية العاديين الذين ربما كان يتم اختيارهم للخدمة فى المحكمة اما لعلو مراكزهم أو وضعهم الاجتماعى فى القرية » (٣٨٢) •

ويبدو أن النزاعات كانت حول عدم دفع ثمن البضائع أو الخدمات، وهناك قضية خاصة بأحد العمال ويدعى « منا » وقد رفعها ضد رئيس الشرطة نفسه والذى يدعى « منتموس » وكان هناك مماطلة فى سداد الديون لفترات طويلة بالرغم من صدور حكم قضائى • وكانت المحكمة ــ فيما يبدو ــ تعقد فىالأمسيات •

« وكان بوسع المحكمة حسم كل القضايا المدنية كما كان بوسعها اقرار القضايا الجنائية الصغيرة ، اما القضايا الكبرى التى يحكم فيها بالاعدام فكانت تحال الى محكمة الوزير فى طيبة » (٣٨٢) •

اجراءات الدعوى (٣٨٣)

« تختلف الاجراءات فى الدعـاوى الجنائيـة عنها فى الدعاوى المدنية ٠٠٠ ففى الدعاوى الجنائية تبدأ الاجراءات بالحكم المختص بوقوع الجريمة بواسطة أحد تابعيه أو بواسطة أحد الأفراد العاديين ٠ فيقوم الحاكم باجراء تحقيق بنفسه أو بواسطة من يندبه لذلك وعندما يتبين جدية البلاغ يقبض على المتهم أو المتهمين ٠ وتنعقد المحكمة لنظر القضية ٠ ويتولى القضاة استجواب المتهم – وقد كان من الشائع تعذيب المتهمين لحملهم على الاعتراف ٠ وكان التعذيب يتخذ صورة ضرب المتهم بالعصـا على ظهره أو كفيه أو قدميه » (٣٨٣) ٠

وأشار الدكتور « زناتى » الى عدم التفرقة بين سلطة الاتهام وسلطة القضاء ٠ فالقاضى هو الذى كان يوجه الاتهام وهو الذى يفصل فيه ، كما أنه ليس هناك ما يدل على وجود نظام المحاماة فى العصر الفرعونى ٠ « وفى الدعاوى المدنية تبدأ الاجراءات بشكوى من المدعى ٠ ويوم نظر الدعوى يجلس أعضاء المحكمة على حين يقف أمامهم المدعى والمدعى عليه ٠ ويبدأ المدعى بشرح دعواه ٠ ثم تعلن المحكمة أنها قد سمعت ٠ ويطلب الى المدعى عليـه أن يبدى وجوه دفاعـه ٠ ثم تنطق المحكمة بالحكم ٠ وعندئذ يتجه الطرف الذى كسب الدعوى الى الطرف الآخر ويردد الحكم الذى صدر لصالحه ٠ فيعلن الطرف الخاسر : « سـأفعله حقـا أنى سأفعله ، سأفعله » معبرا بذلك عن قبوله الحكم ومبديا استعداده لتنفيذه » (٣٨٤) ٠

وكان الخصوم يتقدمون بطلباتهم ووجوه دفاعهم فى صورة مذكرات مكتوبة ٠ وكانت المرافعة الكتابية هى الطابع الغالب على نظام التقاضى المصرى ، ويقول « ديودور الصقلى » أن العادة جرت بأن يكتب المدعى شكواه بالتفصيل مبينا كيف حدثت الواقعة ومبلغ الضرر . فيأخذ المدعى عليه عريضة خصمه ، فيرد على كل نقطة فيها دافعا بأنه لم يرتكب هذا الأمر ، أو أنه ارتكبه ولكن لا اثم فيه ، أو أنه أثم حقا ولكنه يستحق عقوبة مخففة ٠ وبعد ذلك يفند المدعى أقوال خصمه مستندا الى نصوص القانون ، ثم يدفع المدعى عليه الاتهام مرة أخرى ٠ وقد امتدح ديودور الصقلى ما جرت به عـادة المصريين من الاعتماد أساسا على المذكرات المكتوبة دون المرافعات الشفوية كما امتدح عاداتهم فى عدم الأخذ بنظام المحاماة بقوله : « هذه اذن الطريقـة التى اتبعها المصريون فى جميع محاكماتهم ٠ معتقدين أن الخصوم يلقون بمرافعاتهم كثيفا على الحق ، وذلك أن براعة الخطباء ، وسحر بياناتهم ، ودموع الذين يستهدفون

للخطر من المتهمين « تدفع الكثيرين الى التغاضى عن صرامة القانون وقسوة الحق · ومهما يكن من شيء فالملاحظ أنه كثيرا ما تخدع براعة المحامين رجلا من أفاضل القضاة ، اما بخدعة ، أو بسحر بيان ، أو باثارة مشاعر الرحمة فيهم · ومن ناحية أخرى فقد رأى المصريون أنه اذا قدم المتقاضــون عرائضهم كتابة كانت المحاكمة دقيقة ، اذ تكون الحقائق المجردة فقط محل النظر · وبالأخذ بهذا النظام على الخصوص لا تكون اليد العليا للموهوب دون الخامل ، ولا للمحنك دون الغر ، ولا الكاذب الجرىء دون الصادق الحى الطـبع بل يلقى الجميع العـدل على قـدم المساواة · لأن الوقت سيفسح على هذا النحو للخصوم لفحص حجج خصومهم ، وللقضاء للموازنة بين جانبى الخصومة » (٣٨٥) ·

ضمانات العـدالة

« كان احقاق الحق ومراعاة العدل من أوجب واجبات فرعون نحو الرعية · وينبع هذا الواجب ، فى المفهوم المصرى القديم ، من طبيعة فرعون الالهية ·فالآلهة الكبرى تأمر بالعدل · ومن ثم فان فرعون ، وهو الاله الذى يعيش على الأرض ، لابد أن يكون عادلا · وقد جرت العادة بأن يبدأ فرعون نشاطه اليومى بالقيام ببعض الطقوس الدينية ، ومن بينها تقديم تمثال الآلهة (ماعت) ، التى ارتبط اسمها بالحق والعدل ، فى صورة قربان الى الاله الأكبر تعبيرا عن حرصة على القيام بواجبه فى تحقيق العدل بين الناس ··· ومن الطبيعى ، والعدل واجب على الملك أن يفرض النزاهة على موظفيه وفى مقدمتهم الوزير · فالوزير ، بصفته رئيس الموظفين وكبير القضاة ، من واجبه انقاذ العدل ورفع الظلم واعطاء كل ذى حق حقه · وقد جرت عادة الفراعنة ، عندما يختارون لأنفسهم وزيرا بأن يوجهوا اليه خطـــابا فى جمع حاشـــد من الأمراء والموظفين يضمنونه ما يشاءون من نصائح وتوجيهات » (٣٨٦) ·

والحقيقة ان العدالة كانت سائدة فى كل العصور الفرعونية ، وقد أشاد بذلك كل الباحثين الذين تناولوا دراسة العقيدة وأثرها فى سيادة الأخلاق وتأتى العدالة على قمة الأخلاق السامية وعلى قمة النظام الذى حافظ عليه الملوك فى فترات القوة والسيادة ـ وحتى فى فترات الضعف كان الناس تتفاخر بأنهم لم يجوروا على ممتلكات الآخرين وذلك فى الاعتراف الانكارى الذى كانوا يرددونه يوم المحاكمـة فى الحيـاة الآخرة · وكان الوزير والقـاضى وكبار الموظفين يفتخرون على جدران مقابرهم بمراعاة العدالة والعطف على الضـعفاء والمسـاكين « وقد نص

القـانون على جزاء ، يتسم بالشـدة ، **للقـاضى المرتشى** • ففى قـانون « حور محب » •• كانت **عقوبة** مثل هذا ـ حسب القانون ـ **الموت** • وقد روى لنا التاريخ خبر قاضيين فرطا فى الأمانة الملقاة على عاتقهما وخصعا لتأثير المتهمين فى احـدى القضـايا فلقيا جزاهما شر جزاء • وتفصيل القول فى ذلك أنه بعد أن شكلت الدائرة الأولى لمحاكمة المتهمين فى قضية مؤامرة الحريم التى وقعت فى عهد رمسيس الثالث وبعد أن أوشك التحقيق على الانتهاء قبض على اثنين من أعضائها الست فقد • تبين أن نساء الحريم عقدن معهما أواصر الصداقة وقمن بزيارتهما مع أحد كبار المذنبين • وقاموا « بعمل بيت للجعة » أى استمتعوا بمجلس شراب • وكان عملهما هذا خيانة للثقة التى أولاهما اياها الملك « ففقدوا آيات العطف الجميل التى كان يسبغها عليهمـا الملك » عندما عينهما قاضين واطبقت عليهما جريمتهما وصـدرت عليهما العقوبة بصلم آذانهما وجدع أنفيهما » (٣٨٧) •

مصـــادر القـــانون (٣٨٨)

« النظم القانونية التى كانت مطبقة فى العصر الفرعونى لم تنشأ من العـدم وانمـا هى اسـتمرار لنظم كانت معروفة فى عصر ما قبـل الأسرات » (٣٨٨) ••• « وتدلنا دراسـة المجتمعات القبليـة على أن **العرف** هو المصدر الرئيسى للقواعد القانونية فيها •• وليس من شك فى أن العرف لم تعدله ، خلال العصر الفرعونى ، نفس الأهمية التى كانت له فى العصور السابقة » (٣٨٩) أى أن العرف كان البداية منذ فترات ما قبل عصر الأسرات ثم أصبحت التشريعات تحدد النظم القانونية وكانت « **السلطة التشريعية** ، أى سلطة اصدار قواعد عامة ملزمة ، حقا لفرعون • فكان الفرعون سـلطة اصدار ما نسمية الآن بالقوانين أو التشريعات ••• وغالبية هذه التشريعات تتعلق بتقرير اعفاءات للمعابد والكهنة من بعض الأعباء التى كان يتحمل بها سائر المواطنين » (٣٨٩) وقد « لجأ بعض الملوك ، فى عصور مختلفة ، الى اصدار قوانين تتناول تنظيم عديد من المسائل ••• من هؤلاء حور محب (آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة) الذى تولى العرش وقد ساد البلاد غير قليل من الاضطراب بسبب ثورة اخناتون الدينية • فأصـدر قانونا أراد به **اقرار النظام واشاعة العدل** بين النـاس • وقد تضـمن هذا القـانون مجموعتين من الأحكام تتعلق المجموعة الأولى منها بمسائل جنائية • فقد أورد القانون أفعالا معينة اعتبرها أفعالا غير مشروعة • وحدد العقاب الذى يتعرض له مرتكبوها • من هذه الأفعـال : اختلاس الأموال المحصلة على سبيل

الضرائب أو الاعتداء عليها ، استغلال الموظفين المكلفين بجباية الضرائب الرشوة من جانب المكلفين بدفعها · وتتميز العقوبات المقررة لهذه الجرائم بقسوتها البالغة » (٣٩٠) ·

« كذلك روى لنا « ديودور الصقلى » ما ترامى الى علمه من أنباء عن نشاط تشريعى قام به بعض ملوك مصر فى عصورها المختلفة · فذكر ما كان يحكى من أنه بعد أن توطدت الحياة فى مصر فى العصر القديم كان مينيس (الملك مينا) أول من أقنع الشعب **بالامتثال لقوانين مكتوبة أدعى أنه قد أوحى له بها من قبل الاله** · وثانى المشرعين هو ساسوخيس (ويرى البعض أنه الفرعـون « سـيب ـ سيس ـ كان » من الأسرة الرابعة) الذى أضاف الى القوانين القائمة قوانين جديدة وثالث المشرعين هو سيسو سيس (هو على الأرجح « سنوسرت الثالث » ، أو أوسرتسن من فراعنة الأسرة الثانية عشرة) الذى سن تشريع الطبقة المحاربة · ورابعهم هو الملك « بوخوريس » الذى نظم جميع شـئون الملك وشرع بالتفصيل أصول المعاملات الخاصة ، وخامسهم « أمازيس » الذى نظم أصول حكومة الأقاليم وقواعد الادارة المصرية » (٣٩١) ·

وهنـاك شـواهد على تسجيل القوانين والاحتفـاظ بملفاتهـا فى المحـاكم ·

الحقوق والواجبـات فى الأسرة

« وقد انعكس ما تمتعت به المرأة المصرية ، فى العصر الفرعونى ، من مكانة اجتماعية رفيعة على وضعها القانونى · فاعترف لها القانون بحقوق تكاد تكون مساوية لحقوق الرجل » (٣٩٢) ·

ولأن البحث ليس بحثا قانونيا صرف بل هو يلقى ضوء على الحياة اليومية المدنيـة فاننى سأكتفى بتلخيص نقاط تؤدى هذا الدور دون اللجوء الى وضع كل فقرة بين قوسين (٣٩٣) :

- الابن كان ينظر اليه باعتبـاره صاحب الحق الشرعى فى خلافـة أبيـه ·
- التزام الابن بتقديم القرابين لروح أبيه ·
- القراية كانت تستند فى المقام الأول على النسب من جهة الأب ·

- الابن كان يخلف أباه سواء فى منصبه أو ثروته • والملوك وأفراد الشعب فى هذا سواء • فالقاعدة العامة فى تولى العرش هى أن يخلف أحد أبناءه •

- يذهب بعض الباحثين الى أن تعدد الزوجـات لم يكن معروفا فى الدولة القديمة •

- الزواج بأكثر من واحدة ليس محرما قانونا ، وان كانت الأغلبية ، من الناحية العلمية ، تقتصر على زوجة واحدة •

- تتمتع الزوجة العظيمة بمكانة ممتازة لا فى علاقتها بالزوج فحسب وانما فى علاقتها بالزوجات الأخريات أيضا •

- الزواج يلقى على عاتق الزوج واجبات مالية معينة نحو زوجته •

- الزوجة بالمعنى الصحيح هى المرأة التى تكون طرفا فى زواج دائم أو عـادى • أما المرأة التى تكون طرفـا فى زواج مؤقت فلا تعد زوجة حقيقية •

- عرف المصريون القدامى نظـام التسرى • ويتمثل هذا النظام فى اتخاذ الرجل ، الى جانب زوجتـه أو زوجاته ، عدد من النسـاء لا تربطه بهن رابطة زواج •

- ان القانون المصرى القديم لم يكن ــ فى اعتقاد المؤلف ــ يقر للأب أو غيره من الأقارب بالحق فى تزويج الفتاة من شخص لا تريده •

ويستند المؤلف أولا « الى الحرية التى كان يتمتع بها الشباب من الجنسين فى لقاء بعضهم البعض مما يتيح لهم فرص التعارف ونشوء علاقات الصـداقة المتبادلة • ومن الطبيعى الاعتقاد بأن هذه العلاقات كانت تنتهى ، فى الأعم الأغلب من الحالات بالزواج » (٣٩٤) •

ويستند المؤلف فضلا عن ذلك الى « ما تدلنا عليـه قصة الأمير احورى • ففى هذه القصة نجد الفرعون وقد عزم على أن يزوج ابنته من ابن لأحد قواد جيشـه وأن يزوج ابنه من ابنة قائد آخر ، ولكن الأميرة كانت تحب أخاها وتريد الزواج منه وكانت أمها تشجعهـا على ذلك • وعندما عرف فرعون برغبة ابنته عدل عن مشروعه السـابق وزوجها من أخيها » (٣٩٤) •

- كانت المرأة تتمتع بأهلية عقد زواجها ، وتظهر الوثائق بوجودها طرفا فى العقد .

- « هناك من الشواهد ما يدل على أن الزواج ، فى مصر الفرعونية ، كان يقترن بمدفوعات مالية من قبل الزوج وأخرى من قبل الزوجة . فوثائق الزواج التى بين أيدينا تشير الى أن الزوج كان يدفع لزوجته . بمناسبة الزواج ، قدرا من المال وهو ما يمكن أن نصفه بالصداق أو المهر . كما تشير الى أن الزوجة كانت تأتى الى زوجها بقدر من المال وهو ما يمكن أن نسميه بالبائنة » (٣٥٩) .

وعلى ذلك فان من الممكن القول بأن المدفوعات الرئيسية التى تقدم بمناسبة الزواج تتكون من الصداق الذى يدفع من قبل الزوج . والبائنة التى تقدم من قبل الزوجه .

- تتضمن بعض وثائق الزواج التى ترجع الى العصر الصاوى النص على قدر من المال يدفعه الزوج الى المرأة بمناسبة الزواج .

- هناك من الدلائل ما يشير الى الزواج المصرى كان يقترن ببائنة تأتى بها الزوجة الى زوجها . والبائنة هى عبارة عن قدر من المال يعطيه الأب . أو من يقوم مقامه ، الى ابنته بمناسبة زواجها :

« يدل على ذلك أولا ما جاء فى قصة الأميره (أحورى) من أن الملك عندما وافق على زواج ابنه من ابنته قال « لتحمل أحورى الى بيت (نينوفركا بتاح) هذه الليلة نفسها . وليحمل معها كل أنواع الهدايا الجميلة » . ومن أن الأميرة قالت « لقد ذهبوا بى كزوجة الى بيت (نينوفركا بتاح) . وأمر فرعون باحضار بائنة عظيمة من « الذهب والفضة قدمها الى كل أفراد البيت الملكى » (٣٩٦) .

- بعض الوثائق الخاصة بالزواج ، والتى ترجع الى العصر الفرعونى المتأخر ، تشير فى وضوح الى نصيب تقرره الزوجة لزوجته أو يقرره أبوها نيابة عنها .

- « لعبت الكتابة فى مصر الفرعونية دورا بالغ الأهمية . ففيما يتعلق بالادارات الحكومية يمكن القول بأن كل شىء مهما كان بسيطا كان يتم بطريق الكتابة ... ولم يقترن جنون الكتابة على الدواوين الحكومية بل كان الأفراد كذلك مولعين أشد الولع بتدوين

ما يبرمونه من عقود مهما كانت ضئيلة القيمــة ، وقد وصلتنــا وثائق تتضمن عقودا على جانب من التفاهة · منها مثلا عقد ايجار جارية مدة يومين » (٣٩٧) ·

- ان المرأة لم تكن تكتسب صفة الزوجة بالمعنى الدقيق الا اذا كان الرجل قد أبرم معها عقد زواج يتضمن تنظيم العــلاقات المــالية بينهما ·
- القــانون المصرى القديم كان يفرق بين الزوجــة بالمعنى الصحيح وبين المرأة التى تربطهــا بالرجل رابطة مشروعة دون أن ترقى الى مرتبة الزوجة ·

« ولعل فى هــذا ما يفسر لنــا حرص بعض وثائق الزواج التى انتقلت الينا من العصر الفرعونى المتأخر على ذكر عبارات مثل « هذه المرأة قد أعجبته كزوجة ، كامرأة معطاة قلبا ، كزوجة منذ تاريخ العقد » أو « هذه المرأة قد أعجبته كزوجة · كامرأة فى مركز الشريكة ، **كأم مانحة أولادهما حقوق الأسرة** ، كزوجة منذ تاريخ العقد « أو « اتخذتنى امرأة لك فى هذا اليوم ، أعطيتنى **كيت** من الفضــة وذلك عند اتخــاذك لى **زوجة متمتعة بسلطة ربة البيت** » (٣٩٨) ·

- ذهب بعض الباحثين أن الزواج **ذا طابع دينى** مستندين الى الدور الهــام الذى لعبته الديانة فى حيــاة قدامى المصريين ·· وذهب آخرون الى أنه **مدنيا** استنادا الى عدم وجود ما يدل على ذلك · وفى رأيهم أن الزواج لم يكن يتطلب أية اجراءات دينية ·

يعرض المؤلف نص خطاب أرسله أرمل الى زوجته المتوفاة ينطوى على تصوير واقعى للحياة الزوجية فى العصر الفرعونى المتأخر ، ويلقى ضوءا على بعض جوانب هذه الحياة ويوضح العلاقة بين الزوجين فيما يتصل بالوفاء ثم بالمعاشرة الزوجية ، ثم بمكان اقامة الزوجين فيقول الأرمل : « لقد اتخذتك زوجة عندما كنت فى سن الشباب · لقد كنت معك ، ثم صعدت كل الدرجات لكننى لم أتخل عنك · لم أتســبب فى تعاسة لقلبك وعندما كنت أشغل كل وظائف فرعون العليا ··· كل رجل كان يأتى للحديث معى عنك ، لم أكن اقبل نصائحه بخصوصك ، كنت اقول على العكس « اتصرف تبعا لقلبك ·· » انظرى ، عندما عهد الى بتدريب ضــباط جيش فرعــون ، وجود عرباته ، كنت أبعث بهم يسجدون على بطونهم أمامك ، حاملين الأشــياء الجميلة من كل نوع

ليضعوها أمامك . لم أخف عنك شيئا من مكاسبى الى هذا اليوم من حياتى .. لم يعثر على مطلقا وأنا أفعل ما يهينك على نحو ما يفعل الفلاح الذى يدخل بيت غيره ... عطورى . الكعك والثياب لم أكن أجعلها تحمل الى مسكن آخر ، كنت أقول على العكس : « الزوجة هناك » لأننى لم أكن أريد أن أحزنك ... عندما عدت الى ممفيس ، طلبت أجازة من فرعون . كنت أذهب الى حيث تقيمن (الى قبرك) وكنت أنتحب مع قومى فى مواجهتك » (٣٩٩) .

● « روى لنا « ديودور الصقلى » أن المصريين . فى زمنه . كانوا يعاقبون الزوجة الزانية بجدع أنفها اعتقادا منهم بأن المرأة التى تزين للمعصية الجامحة يجب أن تحرم أكبر مقومات جمالها » (٤٠٠) .

● « القيد الوحيد الذى كان يرد على حرية الرجل .. هو عدم الاتصال بزوجة آخر » (٤٠٠) فواجب الوفاء فى الزواج كان ، كقاعدة عامة . واجب الزوجة أكثر منه واجب الزوج .

● القاعدة العامة هى انتقال الزوجة للاقامة مع زوجها فى بيته .

الآثار المالية المرتبة على الزواج

● هناك الكثير من الشواهد التى تدلنا على أن الزوج ، فى مصر الفرعونية . كان ملزما بالانفاق على زوجته . فمن النصائح التى يوجهها (بتاح حوتب) الى الزوج نصحه اياه بأن يملأ بطن زوجته وأن يغطى ظهرها ، وبعبارة أخرى أن ينفق عليها .

● « كانت المرأة المصرية تتمتع بأهلية مالية كاملة . فهناك شواهد عديدة ترجع الى عصور التاريخ الفرعونى المختلفة تدل على أن المرأة كانت تتمتع بأهلية وجوب . فكان لها حق اكتساب أموال خاصة سواء عن طريق **الميراث** أو **الوصية** ، أم عن طريق التصرفات النافذة أثناء الحياة سواء كانت بعوض كالشراء أم بغير عوض كالهبة . كذلك هناك شواهد عديدة على أن المرأة كانت تتمتع بأهلية أداء كاملة » (٤٠١) .

● « جرت عادة الأزواج بتحرير وثيقة تتضمن بيان ما سيكون عليه علاقاتهما المالية • وفي هذه الوثيقة يتفق الزوجان أحيانا على تحديد مصير المكاسب التي يحققانها أثناء الزواج • والظاهر أن المكاسب المحققة أثناء الزواج كانت تعد مملوكة ملكية مشتركة بين الزوجين طبقا لنسبة معينة • فاذا انحل الزواج بسبب الطلاق أو وفاة أحد الزوجين قسمت هذه المكاسب بين الزوجين أو بين الزوج الباقي على قيد الحياة وورثه الزوج الآخر طبقا لتلك النسبة • ويبدو أن نصيب الزوجة في هذه المكاسب هو الثلث ونصيب الزوج الثلثان • وهناك عدة وثائق تنص على التزام الزوج باعطاء الزوجة نصيبها في المكاسب اذا خانها أو طلقها » (٤٠٢) •

العلاقة بين الوالدين والأولاد

● « الرجل يكتسب بالزواج الحق في أن ينسب لنفسه الأولاد الذين يولدون من زوجته • فالأولاد الذين يولدون للرجل من امرأة تربطه بها رابطة زواج صحيح قانونا يعتبرون أولاده الشرعيين »(٤٠٢) •

● « وللأب على أولاده حق الطاعة والاحترام • وقد اهتم حكماء مصر القديمة بحث الأولاد على مراعاة واجبهم في هذا الخصوص • وفي هذا يقول بتاح حوتب مثلا : « الابن الذي يسمع هو كأحد أتباع حورس ، انه لسعيد بعد أن يكون قد سمع • يصبح عظيما • يصير ذا مكانة ، يعلم أبناءه نفس الدرس » ويقول أيضا : « افعل ما يقوله له سيدك • انه لمضاعف الخير أمر والدنا ، الذي من لحمه خرجنا • ليدخل ما يقوله لنا في قلبنا ، حتى نقوم من أجله بأكثر مما أمر به زيادة مرضاته . حقا ان الابن الطيب لهو احدى عطايا الرب ، (الابن الذي يفعل أحسن مما طلب اليه » (٤٠٣) •

وقد قارن « هيردوت » بين سلوك الأولاد تجاه آبائهم ومن يكبرونهم سنا وبين اليونانيين فشبهه بأهل المصريين يشبهون أهل سبرطة فقط في سلوكهم حيث ان الصغار يفسحون الطريق للكبار ويتنحون جانبا ويتركون مقاعدهم للكبار اذا أقبلوا عليهم • « وقد أمر القانون للأب بالحق في أن يؤدب ولده اذا أخل بما عليه من واجب في احترام أبيه وطاعته • وقد أشار بتاح حوتب في نصائحه الى حق التأديب الذي للأب على ولده حيث يقول « اذا كنت رجلا حكيما فنشىء ابنا يرضى عنه

الرب • اذا جعل مسلكة مطابقا لنهجك ، وشـغل نفسك بأمورك كما ينبغى ، فاصنع له كل ما تقدر عليه من خير ، هو ابنك ، المرتبط به ، الذى أنجبته بنفسك • لا تبتعد بقلبك عنه ••• (لكن) اذا سلك مسلك الشر وخالف ارادتك ، اذا رفض كل نصيحة (اليه) ، اذا تحرك فمه بسىء الكلام ، اضربه من ثم على فمه » (٤٠٤) •

- كان على الأبناء واجب دفن الأب وتقديم قوابين لروحه •

- كانت حقوق الأم وواجباتها نحو أولادها تكاد تكون مماثلة لحقوق الأب وواجباته •

- كانت للزوجة حرية الانفصال عن زوجهـا كما كانت للزوج حرية الانفصال عن زوجته •

- ذكر بتاح حتب ، فى بعض نصائحـه ، أن حسن معـاملة الزوجة ماديا ومعنويا هو الذى يصنع الاستقرار فى البيت •

- كان كل من الزوجين يتمتع بكافة الحرية فى الانفصال عن زوجة •

- زنـا الزوجة كان يعد جريمـة خطيرة تستنتج جزاءا قاسيا ومن البديهى انه كان يشكل أحد أسباب الطلاق الأساسية •

- لمـا كان أحد الأهداف الرئيسية من الزواج هو الحصول على ذرية ، فان من المحتمل أن عقم الزوجة كان أحد الأسباب الشائعة للطلاق من قبل الزوج •

- لم يكن القانون المصرى القديم يمنع الزوج الذى صار أرملا بوفاة زوجته من عقد زواج جديد •

- ليس من شك فى أن الحق فى حضانة صغار الأولاد ورعايتهم كان يؤول الى الزوج الباقى على قيد الحيـاة دون تفرقة بين الزوج والزوجـة •

- جرت عادة الأزواج المصريين منذ القـدم على أن يوصـوا لزوجاتهم بمقدار هام من أموالهم فى وصاياهم التى يتركونها •

ملكيـة الأفراد (٤٠٥)

« هناك من الشواهد العديدة على وجود الملكيـة الخاصة فى مصر منذ عصر الدولة القديمة ، واستمرارها خـلال العصور التالية • ولم تكن الملكية الخاصة مقصورة على المنقولات وانما كانت تشـمل أيضا العقارات سواء كانت بيوتا أم أراضى زراعية » •

- كانت هناك أوقاف دينية وأوقاف أهليـة •

- كانت هناك قواعد للوراثة : « فالأولاد كانـوا يأتون فى المرتبـة الأولى • وأولاد المتوفى كان يفضـلون على غيرهم من أقاربه فى الحصول على تركته • وهناك ما يشير الى أنه فى حالة عدم وجود أولاد للميت كان الميراث يؤول الى اخوته . وكانت الأموال تقتسم بين الأولاد على قدم المسـاواة بغض النظر عن جنسهم • ومعنى هذا أن القانـون المصرى القديم كان يعترف للبنت بحـق ميراث مساو تماما لحق الابن » (٤٠٦) •

- كانت الوصية تتخذ شكلا كتابيـا معينا [تحديد التاريخ ـ ذكر اسم الموصى والموصى اليه ثم بيان الأشياء الموصى بها] •

- كان للوصى الحق فى تعديل وصيته أو حتى الغائها واحلال أخرى محلهـا •

- « يتميز البيع عن المقايضة بتحديد قيمة ما يعطى مقابـل الشىء المبيع فى صورة مقدار من المعدن التى يجـرى العرف باستعمالها كمعايير لقيم الأشياء المختلفة •• ففى عصر الدولة القديمة كانت قيمة الشىء المبيع تقدر بعدد من « الشعت » •• الشعت هى عبارة عن وحدة وزن ومن ثم فان الشعت قد يكون شعت نحاس أو ذهب أو فضة • ففى عقد بيع الدار الذى وجد منقوشـا على نصب من الحجر والذى يرجع الى عصر الدولة القديمة ينص على أن المشترى أخذ الدار وأعطى فى مقابلها ١٠ شعت » (٤٠٧) •

- وقد عرف المصريون فى العصر الفرعونى ، **ايجار** الأشياء كما عرفوا ايجار الأشخاص .

- كما عرف المصريون التبني بوصفه وسـيلة الى خلق رابطة بنوة مصطنعة بين شخصين يصبح أحدهما بمقتضاه ابنا للآخر . « ان

التبنى كان يتم بمقتضى اتفاق بين الشخص الراغب فى التبنى والشخص المراد تبنيه • ويفترض هذا الاتفاق أن يكون كل من الطرفين متمتعا بأهلية الأداء » (٤٠٨) •

الجرائم والعقوبات (٤٠٩)

« لو اننا استعرضنا الأفعال المختلفة التى عاقب المشرع المصرى على أرتكابها لوجدنا أنها تنتمى الى مجالات متنوعة • فقد عاقب على التآمر والثورة على الملك ، كما عاقب على الاخلال بنظام الجيش وسلامته ، وعلى اخلال الموظفين بواجباتهم ، وعلى الاعتداء على المقدسات ، وعلى المساس بالعدالة ، كما عاقب على القتل والسرقة والزنا والاغتصاب »(٤٠٩) •

١ ـ التآمر والثورة على الملك

كان التآمر على الملك أو الثورة عليه يعد أكبر الجرائم خطورة وأشدها عقابا • فقد كانت **العقوبة** المقررة لهذه الجريمة هى **الموت** أيا كان وضع الجانى الاجتماعى • ومما يدلنا على أن الملوك لم تكن تأخذهم بالثائرين عليهم رحمة ما جاء فى نصائح أحد الملوك لابنه حيث يقول : « لا تقتل فان ذلك لن يكون ذا فائدة لك ، بل عاقب بالضرب والحبس فان ذلك يقيم دعائم هذه البلاد ، اللهم الا من يثور عليك وتتضح لك مقاصده » (٤١٠) ويدلنا ذلك أيضا خبر المؤامرة التى تعرض لها رمسيس الثالث • والتى صدر الحكم فيها بموت عدد من المتآمرين •

٢ ـ الجرائم العسكرية

« روى « ديودور الصقلى » أن القانون المصرى كان يعاقب على بعض الجرائم العسكرية مثل الفرار من الجندية أو عصيان أوامر القواد أو افشاء الأسرار للأعداء ••• وقد لاحظ « ديودور الصقلى » أن القانون المصرى لم يكن على خلاف شرائع البلاد الأخرى ، يعاقب على جريمتى الفرار من الجندية أو عصيان أوامر القادة بالموت وانما بعقوبة أخرى هى **فقدان الاعتبار** • بحيث اذا محا الفار من الجندية أو العاص عاره فيما بعد بأعمال بطولية رد اليه اعتباره ••• وعلق ديودور الصقلى على موقف القانون المصرى فى هذا الخصوص بقوله ان المشرع جعل عقوبة فقدان

الاعتبار أشد من عقوبة الموت حتى يعود الناس **النظر الى العار باعتباره أعظم الشرور** • فضلا عن أن المشرع رأى أن الذين يقضى فيهم بالموت لا يفيدون الحياة العامة بشىء . بينما الذين يفقدون اعتبارهم قد يكونون مصدر خير وثير لحرصهم على استرداد اعتبارهم •• أما افشاء الأسرار للأعداء فكان جزاؤه انتزاع لسان مرتكب الجريمة » (٤١٠) •

هنا نجد ان المشرع المصرى اختلف عن شرائع البلاد الأخرى فى توقيع العقوبة الخاصة بالفرار من الجندية أو عصيان أوامر القائد وهو توقيع عقوبة تمس الكيان الشخصى وتمس كرامته الشخصية ، وفى نفس الوقت تعطيه فرصة للتكفير عن خطأه وايضا للاستفادة منه اذا محا عن نفسه العار ، وأفاق من خطأه وقام بعمل بطولى •• ان الحكمة من هذا التشريع حكمة نفسية وهى تشبه اعطاء المخطىء فرصة للتكفير عن خطأه ومنحه الفرصة للعودة الى المشاركة فى الحياة العامة بهمة ونشاط وفخر بل التخلص من سقطته بالهروب أو بالعصيان • وحتى فى وقتنا الحالى نسمع بأن الموت أهون على الجانى من تركه يتعذب فى السجن فترة المؤبد بما يعاوده من تأنيب ضمير والاحساس بالذل من فقدانه الحرية والكيان النفسى وهو خلف الأسوار • وهكذا نجد أن المشرع المصرى بعيد النظر فى تشريعاته وليست تشريعات ناجمة عن حالة انفعالية من قبل المشرع • وفى الصعيد نجد التعبير القاسى « لازم أغسل العار بأماه » دليل التوتر النفسى خلف الاحساس بالعار • وحتى فى معاقبة من أفشى الأسرار بقطع لسانه فهى دليل وصمة العار ووضعه فى المجتمع فاقد القدرة على التخاطب مع الناس وهو ما يعنى أيضا عزله عن المجتمع جزاء ارتكابه لجريمة ارتكبها فى حق المجتمع •

٣ ـ الجرائم الدينية (٤١١)

« الجرائم الدينية هى تلك الأفعال التى تنطوى على انتهاك المقدسات • فتدنيس المعابد وانتهاك حرمة القبور وايذاء أو قتل الحيوانات المقدسة افعال تقع تحت طائلة العقاب . فنهب المقابر ، لا سيما مقابر الملوك والأمراء ، كان يعد نظرا لما ينطوى عليه من انتهاك لحرمتها وامتهان لقداستها جرما خطيرا يستتبع عقاب الموت لفاعله • فقد جاء على لسان أمير طيبة ، فى قضية نهب القبور الملكية التى وقعت حوادثها فى عهد الملك رمسيس التاسع (حوالى سنة ١١٠٠ ق.م.) وهو يصف هذه الوقائع « **انها جرائم كبيرة تستحق عقاب الموت وعقاب** الخازوق وكل عقاب آخر » •

٤ ـ الجرائم الماسة بالعدالة (٤١١)

تضـمن القانون المصرى جزاء لبعض الأفعـال التى تنطوى على مساس العدالة . « فقد جعل مثلا من **خروج القاضى على ما تقضيه وظيفته من نزاهة واستقامة** جريمة عاقب عليها بمنتهى الشدة . فقد رأينا من قبل كيف كان قانون حور محب يعـاقب **القاضى المرتشى بالموت** . كما رأينا الجزاء الذى وقع على القاضيين اللذين سمحا لبعض النساء المتهمات فى قضية المؤامرة ضد « رمسيس الثالث » بزيارتهما واستمتعا معهن بمجالس شراب والذى تمثل فى صلم آذانهما وجدع أنفيهما .

« كذلك كان القانون المصرى يعاقب على البـلاغ الكاذب والشهادة الزور . والقاعدة فى البـلاغ الكاذب أن يوقع على المبلغ نفس العقوبة التى كان يتعرض لهـا المبلغ ضده لو ثبتت صحة الاتهام . كذلك كان القانون المصرى يعاقب بشدة على شهادة الزور . فقد كان **شاهد الزور يعاقب بالنفى** الى النوبة أو بالوضع على الخشب . فالشاهد كان يقسم يمينا بحياة الملك أو الآلهة ومن ثم فان **الكذب فى اليمين** كان يعد انتهاكا لحرمة الملك أو الآلهة . بل لقـد ذكر « ديودور الصقلى » **ان الموت كان عقوبة اليمين الكاذبة** ، وترجع شـدة الجزاء عليها الى أنها تنطوى فى الواقع على جريمتين كبيرتين هما **الكفر بالله وخرق أعظم ضمان للثقة بين النـاس** » (٤١٢) .

ان نتيجة البـلاغ الكاذب قد تنطوى على حرمان الشخص المفترى عليه من حق من حقوقه بل ربما يزج به ظلما فى قضية خطيرة قد تتعرض فيها أسرته أو مستقبله أو حيـاته للخطر .. اذن فى هذا اعتداء على الآخرين ظلما ، كما أن الشهادة الزور غالبا ما تؤدى الى كوارث تحيق بالناس والشاهد الزور ليس لديه ضمير أو وازع دينى أو خلقى . انه شيطان فى جسم بشر . كيف يطمئن الانسان على نفسه وعلى لقمة عيشه أو مستقبله ومستقبل عائله وهنـاك عضو وأعضاء فاسدون فى المجتمع يبيعون ضـمائرهم ـ التى لا تسـوى شـيئا بعد أن فقدوا معنى الحق والصدق والعدالة ـ لقـاء مبلغا من المال . ونلاحظ أن المشرع الحالى يشترط حسن السمعة والخلق للشاهد ولا يأخذ بشـهادة من وصموا بأى وصمة تفقدهم كيانهـم البشرى كأناس صـادقين يرعون الله فى شـهادتهم .

٥ ـ جرائم الموظفين (٤١٢)

« عاقب المشرع المصرى القديم على بعض الأفعال التى تنطوى على اخلال جسيم من قبل الموظفين بواجبات وظيفتهم . فالوظيفة تلقى على عاتق صاحبها واجب القيام بأعبائها فى أمانة واستقامة . فاذا جنح الموظف الى استغلال وظيفته **للاثراء غير المشروع سواء بقبول رشوة** أو ممارسة ابتزاز أو ارتكاب اختلاس أو تزوير وقع تحت طائلة العقاب . ولم يكن عقاب مثل هذا الموظف ، فى القانون المصرى القديم ، هينا لينا بل كان شديدا رادعا . فقد نص مثلا قانون حور محب على مجازاة الموظفين المكلفين بجباية الضرائب الذين يقبلون الرشوة من جانب المكلفين بدفعها . كما نص على **عقوبة الموت للقاضى المرتشى** . كذلك عاقب قانون « حور محب » على اختلاس الموظفين المكلفين بجباية الضريبة شيئا من أموالها . كما عاقب على ابتزاز الموظفين أموال الناس بالباطل . فقضى بتوقيع عقوبة الجلد مائة جلدة وشد الجلد فى خمسة مواضع على الجندى الذى يستولى دون وجه حق على جلود مملوكة لأحد الفلاحين .. كذلك عاقب المشرع المصرى على ما قد يرتكبه موظف من تزوير أو عبث فى السجلات أو المستندات التى فى عهدته وكان عقابه على تلك الأفعال صارما . فقد روى « ديودور الصقلى » أن الكتبة (يعنى الموظفين) العموميين الذين يزورون فى متون السجلات أو يمحون شيئا من نصوصها ، أو يبرزون عقودا مغشوشة كانوا يعاقبون **بقطع اليدين كليهما** » (٤١٣) .

اذا كانت الملكية فى مصر القديمة تعنى النظام والعدالة فلا بد أن تسود العدالة فى كل شىء فى المجتمع . ولا يمكن أن تسود العدالة وهناك تعدى على حقوق الآخرين ولا يمكن أن تسود العدالة مع وجود فساد وخصوصا من القائمين على تنفيذ العدالة أى الموظفين المسئولين . وقد رأينا المغزى من قصة « الفلاح الفصيح » وهو تنبيه المسئول عن الحكم (والعدالة طبعا لأن « **ماعت** » الهة الحق والصدق والعدالة كانت النبراس التى يهتدى اليه أسلوب الحكم بل انها أصبحت جزءا من الطقوس الدينية عندما يرفعها الكاهن فى الخدمة اليومية التى كانت تقام فى المعابد) بأن الموظفين المنحرفين وبالا على المجتمع .. ورأينا كيف عوقب الموظف المنحرف .. وهاهو ذا المشرع المصرى القديم يحافظ على العدالة بمعاقبة من تسول له نفسه بأن يختلس أو يرتشى (خصوصا القاضى الذى يصدر الأحكام) أو الجندى المنوط به حماية الناس وليس سلبهم . كما عاقب المزورين لأنهم غير أمناء فى تأدية واجباتهم الوظيفية . أما العقوبات لجرائم الموظفين فكانت رادعة فالموت وقطع اليدين هو الجزاء المناسب للفاسدين غير الأمناء وأعداء العدالة والحق .

٦ - القتـــل (٤١٣)

« وروى « ديودور الصقلى » أن الموت كان عقوبة كل من يقتـــل عمدا رجلا حرا كان أم عبدا . ومعنى هذا أن القانون المصرى كان يعاقب على القتل العمد بقتل القاتل بغض النظر عن كون القتيل حرا أم عبدا وفى هذا يختلف القانون المصرى عن كثير من الشرائع القديمة التى كانت تفرق فى الجزاء على القتل تبعا لحالة القتيل الاجتماعيـــة وكونه حـــرا أم عبدا ٠ فبينما كان القصاص هو جزاء قتل الحر كان التعويض هو ، على العكس ، جزاء قتل العبد » (٤١٣) ٠

هل هناك عدالة أفضل من تلك التى لا تفرق فى العقاب بين الحر والعبد ؟ اننا نؤمن بأن العقاب من جنس العمل ونردد حاليا « من أزهق نفسا تزهق نفسه » و « من قتل يقتل » ولا نحدد فى أمثالنا الشعبية نوع القاتل أو القتيل ٠٠ القتيل انسان اذن يجب أن ينال القاتل عقوبة تتساوى مع جسامة جرمه وهذه هى عدالة المصريين قديمـــا وحديثا ٠

وكلنا نعلم الظلم الذى ذاقه أجدادنا على يد الحكام الرومان الذين كانـــوا يفرقون فى المعاملة وفى العقاب بين المواطن الرومانى والمواطن المصرى العادى ٠٠ وتاريخهم ملىء بالظـــلم الذى حاق بالشعب بسبب عدم تطبيق القوانين بعدالة . والباحثون فى قانون حامورابى لاحظوا بأن العقوبة تختلف طبقا للمركز الاجتماعى !! فى حين أن عظمة المشرع المصرى تظهر فى عدالته المطلقة دون تفريق بين المجرمين طبقا لمركزهم الاجتماعى أو نفوذهم . وهنا يجدر بنا أن نسجل سمة قومية فى عدالة التشريع والتطبيق ٠

« وقد فسر « ديودور الصقلى » مساواة المشرع المصرى فى الجزاء على القتل العمد بين الأحرار والعبيد بأن ذلك كان لغرضين : أولهما ردع الناس كلهم عن الاثم بعقوبة لا تختلف باختـــلاف حظوظهم فى الحياة ، بل تبعا لنياتهم فى أعمالهم . وثانيهما تعويد الناس على أن الأولى بهم الامتناع تماما عن الاعتداء على الآخرين » (٤١٤) ٠

ان العقوبة هى خير رادع للانســـــان حتى لا يرتكب الأثم . وكلما كان الأثم عظيما تكون العقوبة أكبر ٠ والردع يحمل فى طيـــاته فلسفة هامة وهى اجبار الناس على الامتناع عن الاعتـــداء على الآخرين بما فى ذلك المحافظـــة على الاحساس بالأمان فى المجتمع ٠ وقد علق ديدور بأن الردع يتم بعقوبة لا تختلف باختلاف حظوظهم فى الحياة ٠

« وقد أشار ديودور الصقلى الى ظرفين من شأن أحدهما أن يؤدى الى تخفيف الجزاء على القتل العمد وهو أن يكون **القاتل أبان للقتيل** . فالأب الذى يقتل ابنه لم تكن توقع عليه عقوبة الموت وانما كانت توقع عليه عقوبة من نوع خاص . وهى أن يحمل الأب القاتل جثة ابنه القتيل ثلاثة أيام وثلاث ليال سويا تحت اشراف حرس رسميين . وفسر ديودور عدم مجازاة المصريين الأب القاتل بعقوبة الموت والاكتفاء بالنسبة له بهذا الجزاء بقوله : « فلم ير المصريون انه من العدل أن يحرموا الحياة أولئك الذين منوا بها على أولادهم ، بل رأوا العدل فى أن يصرفوهم عن مثل هذه الجرائم بعقوبة تبعث الألم والتوبة » . فعدم مجازاة الأب القاتل بالموت مرجعه الى أن الأب هو الذى يمنح الابن الحياة بانجابه اياه . فليس من العدل أن يحكم على الأب بالموت بسبب قتله ابنه »(٤١٥) . ان توقيع عقوبة حمل الأب القاتل لجثة ابنه القتيل عقوبة قاسية نفسيا . فربما قتل الأب تحت انفعال طارىء ولكنه بحمله لجثة ابنه القتيل ثلاثة أيام بلياليهم تعذيب ما بعده تعذيب فهو يقف أمام جرمه مما يعنى وخز الضمير . لأن مانح الحياة عندما أنجب ابنه لا يمكن أن يستريح نفسيا أو روحيا . انه فى مشهد محاكمة لنفسه ولفعله البغيض وسيتألم دون أن يرتاح نفسيا . والمشرع يدرك معنى شعور الأب ومعنى وقوف الانسان أمام نفسه بعد أن يهدأ الانفعال الذى جعله يقوم بهذا العمل المجافى المطبيعة البشرية فالأب هو العطاء وهو المربى وهو الراعى وهو المانح فكيف يتحول الى قاتل ابنه ؟ انه لشىء فظيع وفظيع جدا على الأب بالذات .

« أما الظرف الثانى الذى أشار اليه « ديودور الصقلى » فمن شأنه أن يؤدى ، على العكس ، **الى تشديد الجزاء** على القتل العمد . ويتمثل هذا الظرف فى كون **القاتل** ابنا للقتيل . فقتل الابن أباه لم يكن يستتبع موت الابن فحسب وانما **يسبق الموت تعذيب** . كما كانت عقوبته تتخذ صورة **الاحراق** . ويصف « ديودور الصقلى » الجزاء الذين يتهدد الابن القاتل بقوله : « ان من تثبت ادانتهم بهذه التهمة تغتصب من أجسامهم بقضيب مسنون قطع بحجم الأصبع . ويشوون أحياء على فراش من قتاد » . ويفسر ديودور قسوة هذه العقوبة بقوله : « لقد رأوا أن أبشع جرائم الانسان أن يقضى بالقوة على حياة من منحوه الحياة » (٤١٦) .

انه لشىء مؤلم حقا أن يسلب الابن من أبيه الحياة وهو الذى أنجبه أى أعطاه الحياة . لذلك كانت قسوة العقاب من نفس نوع العمل القاسى .

٧ ــ الزنا والاغتصاب (٤١٧)

« رأينا من قبل أن الزواج كان يفرض على الزوجة واجب الاقتصار على زوجها فى علاقاتها الجنسية . وكان القانون ، على ما يبدو ، ينص **على عقوبة الموت للزوجة الزانية** . ومع ذلك فقد أشـــار ديودور الصقلى الى أن جزاء الزوجة الزانية طبقا للقانون المصرى هو جدع أنفها . ومن المحتمل أن العقاب على زنا الزوجة كان محلا لتطور . فكان فى بادىء الأمر قتل المرأة ثم اكتفى فيما بعد بجدع أنفها . وذكر ديودور ، فى معرض تفسير عقوبة جدع الأنف ، أن المصريين كانوا يعتقدون أن التى تتزين للمعصية الجامحة يجب أن تحرم أكبر مقومات الجمال »(٤١٧) .

هناك قصـة « التمســاح المسحور » وفيما زوجة رئيس الكتبة أحبت شابا جميلا رصيق وكانوا يتقابلون سرا ويستمتعون بهناء الخلوة . ولاحظ رئيس الخدم ذلك وأبلغ سيده بأن الشـــاب كان يســـتحم فى البركة عندما يخيم الظلام فصنع رئيس الكهنة تمساحا صغير الحجم من الشمع وقرأ عليه تعويذة سحرية . وتمكن بذلك من القبض على الشاب وكانت عقوبة المرأة الموت حرقا والشاب مات غرقا عندما غاص به التمساح فى الماء ومن القصة هذه نعرف بمعاقبة الزوجة بالموت حرقا فى حين يذكر ديودور عقوبة جدع الأنف .

« ومن ناحية أخرى هناك من الشـواهد ما يدل على أن الموت كان جزاء الرجل الذى يزنى بامرأة متزوجة . فقد جاء مثـلا فى نصـــــائح بتاح حتب : « اذا أردت أن تطيل صداقتك فى بيت تزوره ســيدا كنت أم أخا أم صديقا فاحذر من الاقتراب من النساء فى أى مكان تدخله . فهو مكان غير لائق لمثل هذا العمل . وليس من الحكمة أن تفرط فى الملذات فقد انحرف ألف رجل عن جادة الصواب بسبب ذلك . أنها **لحظة قصيرة كالحلم والموت جزاء الاستمتاع بها** . كذلك يحذر الحكيم آنى الرجل من الاتصال بزوجة آخر بقوله « ان المرأة التى غاب عنها زوجها تقول لك كل يوم « انى حسناء » . وليس هناك من يشـــهدها وهى تحاول ايقاعك فى فخها ، انها جريمة يســتحق صـــاحبها الموت عندما يعرف الناس أمرها » (٤١٨) .

بهذا يظهر كلام بتاح حتب أن اللذة لفترة قصيرة جزائها الموت أى أن العقوبة هى الموت والحكيم آنى يحذر الرجل من الاتصال بزوجة رجل آخر لأن محاولتها للايقـاع به جريمة وجزاءهـا الموت . ولكن « ديودور الصقلى » ذكر عقوبة أخرى وهى الجلد فيقول : « ان جزاء الرجل الذى يزنى بأمرأة يرضاها هو جلده مائة جلدة » .

« كذلك عاقب القانون على اغتصاب المرأة الحرة أى على ايقاعها رغما عن ارادتها . وكان الجزاء عليه يتمثل فى **خصاء الجانى** . وفسر « ديودور الصقلى » تشدد القانون المصرى فى مجازاة المغتصب بقوله انه « بارتكابه جريمة واحدة يقترف ثلاثا من أشنع الآثام : انتهاك الحرمة والزنا وخلط الأنساب » (٤١٩) .

ان توقيع هذه العقوبات الرادعة كان يعنى المحافظة على الأخلاق والمحافظة على سلامة المجتمع واحترام وتقديس الروابط الأسرية . وكان ولا يزال المجتمع المصرى مجتمعا قائما على الأخلاق والعلاقات الاجتماعية السويـــة .

٨ ـ السرقـــة (٤١٩)

« كان الجزاء على السرقة يتمثل فى الزام السارق دفع ضعف أو ثلاثة أمثال قيمة الشيء المسروق الى المسروق منه ، فضلا عن تعويضه عن الضرر الذى أصابه بسبب حرمانه من الشيء المسروق » (٤١٩) .

وفى دير المدينة ذكر المؤلف جميز متهمة من طبقة رفيعة اتهمت بالسرقة وصدر ضدها حكم ، وعلق بقوله « وهذا يدل على أن المركز الاجتماعى لم يكن بالضرورة وسيلة للافلات من العدالة » (٤٢٠) وعلق أيضـــا : « كان هدف القـــانون المعلن هو العدل والمســـاواة وعدم التحيز » (٤٢١) .

الحركة التشريعيـــة (٤٢٢)

« يجب التفرقة بين وجود نظام قانونى مصرى ووجود تقنيـــات ووصولها الى معلوماتنا قد أصبح أكثر وضوحا . فالنظام القانونى المصرى وجد منذ أقدم العصور ولعل هناك تقنيات ولكنها لم تصلنا . وقد يؤكد ذلك قول أحد الحكماء فى أحد النصوص المعثور عليها على احدى البرديات من زمن الثورة الاجتماعية التى قامت قبل الدول الوسطى يقول : « دار العدالة قد خربت .. وسلبت وثائق الملكية ومجموعات القوانين طرحت بالميادين العمومية لتطأها الأقدام » .. وهذا دليل على وجود مجموعات للقوانين ومدونات منـــذ عهد الدولة الوسطى ، ولابد أن دولة تسجل مقياس نهرها وفيضانه بهذه الدقة ودولة تجرى تعدادا عاما وثيقا كل

عام ، ودولة تحصى ثرواتها العقارية والمنقولة مع بيان أصحابها وبيان حركة الملكية بنظام متناهى فى الدقة ، ودولة بمثل هذه النظم لا تكون نظمها القانونية مدونة . فلابد اذن أن تكون النظم القانونية مدونة ولم يعثر عليها بعد ، أو أنها قد اختفت مع ما اختفى من آثار كثيرة تحت أى ظروف » (٤٢٢) ٠

مما سبق يتبين أنه كان قوانين يتم تطبيقها مثل قانون حور محب فى الدولة الحديثة ومن أمثلة الأحكام العديدة التى صدرت فى مختلف المناسبات والظروف ٠ وحدد الدكتور الأنصارى **حركة التدوين** المتيقنة فى النظام القانونى المصرى بأنها « بدأت مع الملك **بوخوريس** الذى قام بحركة تشريعية لتدوين النظم القانونية السائدة قبله بعد ادخال بعض التعديلات الاصلاحية عليها ٠٠ وتمتاز هذه الحقبة التاريخية عن الدورات السابقة بالحركة التشريعية ولذلك يعتبرها البعض وبحق **مرحلة تجميع وتقنين** فقد وجـد فى هذه الحقبـة فقط تقنين الملك « بوخوريس » من الأسرة الرابعة والعشرين وتقنين الملك « أمازيس » من الأسرة السادسة والعشرين ودارا الأول ذلك الملك الفـارس الذى اهتم بتجميع القوانين المصرية عندما حكم مصر ٠ كما قام الملك « نفـرتى الأول » من الأسرة التاسعة والعشرين بتجميع وتنقيح القوانين التى صدرت فى عهود أسلافه بوخوريس وأمازيس ودوارا فأصبحت **قانونا مدنيا** ظل مطبقا فى مصر الى ما بعد وصول البطالمة للحكم ٠

« وكانت النواة الأولى للحركة التشريعية والتقنينية تلك ، مجموعة الملك بوخوريس التى صدرت فى عهد الأسرة الرابعة والعشرين ٠ فهى قد اعتبرت أساسا لما صـدر بعدها من تقنيات ٠٠٠ أما الملك أمازيس قد روى فى سنة ٥٥٤ ق٠م٠ دعا الى انعقاد جمعية وطنيـة وكل اليها مراجعة جميع القوانين وتنقيحها ، وقد استمر انعقاد الجمعية من السنة الخامسة من عهد أمازيس الى السنة التاسـعة عشرة أى حوالى خمسـة عشرة سنة ولعلها المرة الأولى التى **يشرك فيها الفرعون شعبه** فى سلطته التشريعية وقد يكون وراء ذلك أن أمازيس كان ابنـا من أبنـاء الشعب وليس سليـل أسرة ملكيـة ٠ ويعتبر تقنين أمازيس مكملا لتقنين « بوخوريس » وهو تقنين مصرى صميم لم يتأثر بقوانين الاغريق رغـم ازدياد نفوذهم فى عهده واستيطانهم فى الدلتا .

« أما الملك « دارا » فقـد جمع أكبر علماء القانون فى مصر ووكل اليهم جمع ما صدر من قوانين الى عهده وكان ذلك فى سنة ٥١٩ ق٠م٠ وكانت هذه اللجنة مكونة من رجال الجيش والكهنة والكتبة واستغرق

عملها حوالى ثلاثة عشر عاما قامت فيها بتجميع كل القوانين المصرية السابقة . ثم جاءت مجموعة « نفرتى » المشار اليها آنفا .

« وهذه المجموعات القانونية قد بلغت درجة من الرقى أثار الاعجاب ولقد أشاد بذلك مؤرخو الاغريق الذين زاروا البلاد المصرية **فاعتبروا المصريين أساتذة العالم فى علم القانون** ومنهم « هيرودوت » و « ديودور الصقلى » (٤٢٣) .

أليس فى هذا فخر لنا واضافة الى السمات القومية ، فها نحن نجد المؤرخون يعترفون بأن المصريين أساتذة العالم فى القانون . لذلك نستطيع القول **بأن المصرى مشرعا عادلا باحثا مدققا يتبع ميزان العدالة فى قوانينه التى يسنها** . وبذلك ينظم العلاقات بين الناس ويحدد حقوق وواجبات الناس ويعطى كل ذى حق حقه طالما أن رايه الحق وميزان العدالة يرتفعان عاليا ويوقفان أى ظلم يقع على عاتق الناس . ان العدالة هى مرفأ الأمان لجميع أفراد الشعب . فالمجرم يجب أن ينال الجزاء الرادع والسارق يعاقب ويؤخذ منه ما سلبه . والزانى والزانية ينالا عقابهما حتى نضمن اقامة دعائم المجتمع السليم المبنى على الروابط الأسرية القوية والتى تحافظ على الأنساب وتعطى الجو العاطفى الدافىء للأطفال وللنشىء . والقاضى المرتشى هو خائن للأمانة فلا مكان له فى مجتمع الأخلاق ولا يستحق الا الموت ولذلك كانت عقوبة القاضى المرتشى غير الأمين **الموت** . والموظفون الفاسدون من مختلسين ومزورين ومن غشاشين ومبتزين مكانهم بعيدا عن الواجب الوظيفى المقدس . فالموظف الأمين الذى يقوم بدوره فى المجتمع خير قيام هو الجدير بالاحترام أما المنحرفون فلا يستحقوا الاحترام بتاتا بل يستحقون النبذ والعقاب الملائم والرادع لجرائمهم النكراء . هكذا كانت العدالة فى أرض الوطن منذ أقدم العصور وهكذا كان واضعى القوانين يتميزون برجاحة العقل والنزاهة وعدم التحيز ولا يحابون أحد من المقربين لذلك استحقوا أن يكونوا أساتذة العالم فى علم القانون .

دور الكهنة فى الصراعات المختلفة

لعب الكهنة أدوارا عديدة ذلك أن منهم العلماء والمهندسين والأطباء والصيادلة والمؤرخون والحكماء « فمانيتون » الكاهن المصرى « الذى عاش فى عهد الملك بطليموس الثانى (القرن الثالث قبل الميلاد) قسم تاريخ مصر الفرعونية الى ثلاثين أسرة ، وهو التقسيم المصطلح عليه الآن

بين العلماء والمتخصصين » (٤٢٤) • « وكان غالبية الأطباء والصيادلة فى مصر القديمة من طائفة الكهنة الذين تلقوا تعليما دينيا قبل دراستهم للعلوم الطبية وكانوا يزاولون مهنهم بواسطة تفوههم ببعض الادعية والجمل الدينية والتى كانوا يتلونها قبل بداية فحصهم للمرض وذلك فى حالة الأطباء أو قبل وأثناء تحضيرهم للأدوية الشافية فى حالة الصيادلة وذلك لكي تحمى المرضى من الأرواح الشريرة • وكان ذلك يعتبر نوعا من العلاج الايحائى » (٤٢٥) وفى كتاب أسرار الهرم الأكبر يتحدث المؤلف عن بناء الهرم فيقول : « فالتصميم يضطلع به كبار الكهنة من المهندسين والعلماء المتخصصين فى كافة الفروع • وبالرغم من أن مبدأ عدم التخصص الدقيق لم يكن معروفا فى الأزمنة القديمة الا أنه كان هناك نوع من التخصص الرئيسى بين فروع العلم الكبرى كالفلك والهندسة والطب •• فلا شك أن الكاهن أو العالم الذى قام بالحسابات الفلكية اللازمة لبناء الهرم كرصد النجوم وحركة الشمس فى الشروق والغروب لتوجيه الهرم نحو الجهات الأصلية أو اختيار الزوايا المتعامدة مع أجرام سماوية معينة كالنجم القطبى أو الشعرى اليمانية هو غير الكاهن أو المهندس الذى وضع تصميم البناء ذاته واختار الزوايا الداخلية والخارجية المطلوبة وعمل حساب الضغط على الفراغات الداخلية كالغرف والسراديب ، وهذا غير الكاهن الذى تخصص فى تصميم السراديب السرية والآبار الخفية وكيفية اغلاق الممرات والأبواب والحجرات وغير ذلك من أساليب التحصين والتمويه • وهؤلاء جميعا غير ذلك الفريق الآخر من كبار الكهنة الذين شغلوا أنفسهم بفلسفة الهرم النظرية مثل تكريسه للآلهة وضمان قداسته ووضع التعاويذ والصيغ المقدسة الواجب استخدامها فى شتى مراحل البناء » (٤٢٦) •

اننا نجد الكهنة فى الحياة اليومية للناس وذلك لتدين المصرى القديم ، ونجدهم في باب العقيدة لانهم يقومون بعمل الطقوس الدينية سواء اليومية أو الجنائزية في المعابد والمقابر والبيوت (فالأطباء كهنة أيضا) وفى باب الأساطير لأنهم هم الذين حاولوا ايجاد التفسيرات وهم الذين كتبوا الأساطير المختلفة مما أوجد الخلط وتداخل العلم (بخصوص الظواهر العلمية الواضحة مثل غروب الشمس مثلا) مع الخيال مع محاولات الاستنتاج والتأويل مع شطحات التفسير الذى انزلق بها الى الخرافات والخزعبلات • وفى هذا الفصل « الادارة والعدالة » نجد دورهم في الصراعات العديدة ، سواء أكانت بين الكهنة بعضهم بعضا مثل صراع بين كهنة « بتاح » وكهنة « منف » أو بين كهنة « ايزيس » وكهنة « خنوم » فى الفنتين وفيله ، أو بين الكهنة والملك ومحاولاتهم الوصول الى السلطة أو مؤازرة الملك أحيانا ضد حكام الأقاليم • وهناك

دورهم فى كتابة المتون المختلفة : متون الأهـرام ــ متون التوابيت ــ كتاب الموتى ــ كتاب ما هو موجود فى العالم الآخر ــ كتاب الكهوف ــ كتاب البوابات ــ كتاب الليل والنهار وغير ذلك من الكتب الدينيه الخاصة بالحياة الآخرة . وهناك دورهم فى جمع الثروات وزيادة نفوذ آلهتهم مثل كهنة آمون فى طيبة وزيادة نفوذهم الى أن اعتلى كبير كهنة آمون ــ « حريحور » ــ كرسى العرش فى الأسرة الحادية والعشرين وأصبح كاهن طيبة يحكم الجنوب والملك مندس يحكم الشمال من تانيس . وسبق ذلك فى الأسرة الخامسة « استولى (أوسركاف) على العرش وأسس الأسرة الخامسة بعد أن كان كبير الكهنة للاله (رع) معبود عين شمس ... وأصبح ملوك الأسرة الخامسة يعتبرون أنفسهم أبناء (رع) وقرنوا أنفسهم بأسمه » (٤٢٧) ورغم دورهم السلبى فى أحيان كثيرة الا أنهم لهم دورهم الايجابى فى أحيان كثيرة ، وسوف أتناول الدور الايجابى بعد تناول الصراعات أولا .

« عرف المصريون الله وعبدوه قبل العصور التاريخية بزمن سحيق منذ أن كانوا قبائل متفرقة فى الوادى ، بيد أن كل قبيلة عرفت الله بصورة تلائم طبيعة عقليتها وبيئتها وأعطته اسما يتفق مع مدلولات لغتها ولهجتها ... والكهنة عملوا ــ **لأغراض سياسية أو اجتماعيه أو شخصية** ــ على تقديم بعض الأسماء على البعض الآخر ، وابتكار صفات مميزة يلصقونها بكل منها لتكون أساسا للتمييز والتفضيل حتى بدت كأنها ليست أسماء الله الواحد بل أسماء آلهة عديدة وعلى هذا الاعتبار **بدأت كل فئة من أولئك الكهنة فى مختلف أنحاء البلاد** تدعو لالهها وترفعه فوق غيره من الآلهة ... وهكذا **عمل الكهنة على تعقيد الديانة المصرية** وتجريدها من بساطتها الأولى وما كانت تنطوى عليه من الايمان بالله الواحد ايمانا نقيا نابعا من الشعور والوجدان . وقد نجم عن ذلك قيام التنافس والتنازع بين كهنة الآلهة العديدين » (٤٢٨) .

ويحكى الأستاذ « محمد العزب موسى » فى كتابه « أسرار الهرم الأكبر » سر علمى خطير كان السبب فى الصراع بين كهنة بتاح (اله منف) وكهنة (أون) أى كهنة « رع » . ولأهمية الاكتشاف العلمى الذى وصل اليه كهنة « رع » والذى يدل على قوة الملاحظة والتفسير فانني أورده هنا لسببين : **أولا اظهار أثر الصراع بين الكهنة** [كهنة « بتاح » وكهنة « رع »] بعضهم مع بعض وفى نفس الوقت الصراع بين الملك (خوفو) وكهنة بتاح . وعرض هذا الصراع يظهر أن المصرى القديم متمثلا فى كهنة « رع » هم العلماء الذين قاموا بعمل التقويم الشمس الذى نفتخر نحن المصريون بأننا أول من وضع التقويم الشمسى فى العالم .

وثانيا القاء الضوء على أحداث تاريخية تخص اغلاق خوفو للمعابد النجمية بعد أن « أدرك خوفو فجأة تلك الحقيقة الأليمة المزلزلة وهى أن الحيوانات النجمية المقدسة التى استقرت عبادتها فى النفوس أجيالا وقرونا لا حول لها ولا قوة ، ولا علاقة لها البتة بارتفاع النيل وانخفاضه ، وما هى الا آلهة مزيفة ، أما رع فهو الاله الحقيقى المتحكم فى النيل ... ان حابى يطيع « رع » صاغرا ! » (٤٢٩) .

اكتشاف التقـويم الشمسى

هناك بعض الحقائق التى كانت موجودة قبل اكتشـــاف التقويم الشمسى فى عهد خوفو :

١ ــ « ان خوفو كرس نفسه للاله خنوم وهو الاله الكبش المسئول عن منابع النيل (عند الشلال الأول) سواء اتقاء لغضبه أو جلبا لرضوانه »(٤٣٠) .

٢ ــ « حدثت فى عصر خوفو ظاهرة فلكية هامة هى اقتران شـــروق الشـمس والنجم سـيروس ، وهى ظـاهرة تتكرر كل ١٤٦٠ عاما »(٤٣٠) .

٣ ــ « ان علماء عصر خوفو وبناة هرمه لابد أنهم رصدوا هذه الظاهرة لأن زاوية ميل الهرم حددت عن قصد بحيث تسقط عليها أشعة سيروس عمودية ، وفى نفس الوقت فان الهرم .. يعد ساعة شمسية من الطراز الأول أى أن الهرم يرصـد بدقة بالغـة رع (الشمس) وسيروس (الشـعرى) ونجم الشـمال (النجم القطبى). وهى دقة لم تأت صدفة » (٤٣٠) .

٤ ــ « ان خوفو تفنن فى تحصين هرمه واخفاء قبره الحقيقى وهناك تراث ــ لا يمكن تجاهله علميا ــ يذهب الى أن خوفو دفن فى قبر تحيط به مياه النيل تحت الهضبة المقام عليها هرمه »(٤٣٠) .

« لعب النيل منذ فجر الحضارة المصرية أهم الأدوار قاطبة فى حياة مصر والمصريين ، فلولا النيـل ما كانت مصر سـوى جزء لا يتميز عن الصحراء المحيطة به . فمصر كما قال « هيردوت » بحق هبة النيل ... وكان المصريون بحكم خبرتهم الطويلة يحددون المنسـوب المبارك للنيل

فى ذروة الفيضان **بستة عشر** ذراعا ، اذا ارتفع عنها **هدد** ، واذا قل عنها **أضر** ، وعلى قدر منسوب الفيضان كانت الحكومة تحدد الضرائب طول العام » (٤٣١) ولم يكن قدماء المصريون يعتقدون بأن سبب الفيضان هو هطول الأمطار على هضبة الحبشة ولكنهم كانوا يعتقدون بأنه ينبع عند الشلال الأول ، وكان النيل « بالنسبة لهم اله يحكمه ما وراء الطبيعة وليس نهرا تحكمه الطبيعة ، وهم لا يدرون سببا لرضاه وغضبه ، ووفاءه وغدره سوى رضا الآلهة أو استيائهم ٠ وكان عليهم أن يحددوا مقدمه بطريقة أخرى غير ملاحظة حركة الشمس » (٤٣٢) ٠

« ولم تكن النجوم أيضا بالنسبة لهم مجرد أجرام سماوية وانما هى آلهة طوطمية يقدسونها ويعبدونها وقد استقرت عبادتها فى نفوس القوم قرونا طويلة منذ عهد ما قبل الأسرات وأصبحت من التقاليد الدينية الراسخة وقد لاحظوا أيضا أن ٣٦٥ يوما تمر قبل أن تتخذ النجوم نفس وضعها فى قبة السماء ، وهى الفترة التى يقع خلالها فيضان النيل فى المتوسط ، وخلصوا من ذلك الى أن **ظهور الحيوان السماوى** الذى يرمز اليه الكبش خنوم يكون دليلا على فيضان النيل ٠٠ ولقد فهم المصريون قبل عهد خوفو أن فيضان النيل **ظاهرة نجمية** وربطوها بالسنة الكوكبية ، وكان هذا خطأ كبير فالحقيقة أن فيضان النيل ظاهرة شمسية » (٤٣٣) ٠

« واكتشف علماء عصر خوفو سر **السنة الشمسية** ووضعوا أول تقويم شمسى فى التاريخ وكان ذلك بأن ربطوا بين حركة الشمس وحركة النجم سوتيس ٠٠ والنجم سوتيس أو سيروس (الشعرى اليمانية) هو ألمع النجوم فى السماء ، وهو نجم ايزيس ٠ وقد ورد اسمه لأول مرة فى « نصوص الأهرام » بالأسرة الخامسة ، ولكن ثمة نص فرعونى متأخر يصفه بأنه **حامل الفيضان** أى أن ظهوره يقترن بفيضان النيل » (٤٣٤) ٠

« أول تـوت »

« لاحظ كهنة أون (عين شمس) ذات يوم أن النجم سوتيس اشرق فى نفس اللحظة التى أشرقت فيها الشمس ثم سرعان ما غطت أشعة الشمس على النجم واختفى تحت ضيائها ، حدث ذلك بالصدفة فى اليوم الذى بلغ فيه فيضان النيل أقصى ارتفاعه عند مقياس أون وهو يوم أول « توت » الذى يؤرخون به بداية السنة المدنية الجديدة ٠ وفى

العام التالى ، وفى نفس اليــوم ونفس المكان ، لاحظ الكهنة أيضا نفس النجم سوتيس أشرق مرة أخرى قرب شروق الشمس ، فأعتقدوا أنه لابد أن يكون النجم المتحكم فى الفيضان ، وقاسوا الفترة التى مرت بين اقتران الشروقين فوجدوها تبلغ أيضـــا ٣٦٥ يوما ، ولكنهم لاحظوا حينئــذ بســهولة وجود فــارق زمنى بين دورة سوتيس (سيروس) السنوية ودورة رع الســـنوية مقداره **ست ساعات** أى حوالى ربع يوم (وفى حين أنهم لم يلحظوا من قبل هذا الفــارق بين الســنة النجمية والسنة الشمسية عندما لم يضعوا رع فى الحسبان » (٤٣٥) ٠

ومما يدل على ادراك الكهنة بهذا الفارق هو أنه وجدت « سجلات بردية تحوى مواعيد بعض المناسبات الدينية طبقا للتقويم المدنى الناقص وأمامها تصحيح لها طبقا للتقويم الفلكى الدقيق » (٤٣٦) ٠

اقتران الشروقين فى عصر خوفو

« كيف عرفنا أن كهنة أو علماء خوفو فعلوا ذلك حقا ؟ كيف عرفنا أن ظاهرة اقتران الشروقين حدثت فى عصر خوفو وفطن اليها الكهنة ووضعوا على أساسها تقويمهم الشمسى الدقيق ؟

« للاجابة على ذلك نقول : ان التقويم المدنى الناقص كان يصحح مساره تلقائيا كلما مرت حقبة زمنية معينة هى ١٤٦٠ عاما فمن الطبيعى أن يقترن شروق الشمس وشروق سيروس مرة أخرى تلقائيا فى فجر أول توت بعد اختزال ســنة كاملة من الفروق (أى بعد ٣٦٥ × ٤ = ١٤٦٠ عاما) فهنا يعتدل التقويم المدنى مرة أخــرى ويكون على الكهنة اعداد ســجلات جديدة وقد فطن المصريون الى هذه الحقبــة الزمنيــة الطويلة ٠٠٠ وأشار الى ذلك المؤرخ « هيردوت » حين ذكر أن الكهنــة المصريين أخبروه بأن كل ١٤٦١ ســـنة مدنيـــة تعادل ١٤٦٠ ســنة شمسية » (٤٣٧) ٠

وحدث صراع كبير بين كهنة « آمون وأخناتون » وقام بينهــم ألد الخصام الذى اشــتد وبلغ الذروة عنــدما صمم الملك على أن يتخذ من « **آتون** » الها واحدا للامبراطورية المصرية ويقضى على عبادة « آمون » ٠ وقد نتج عن ذلك المجهود الذى بذل لمحو كل الآثــار الدالة على وجود « آمون » (ذلك الاله الحديث العهد) أن اتخذت اجــراءات غايــة فى التطرف ٠ اذ نجد الملك قد غير اسمه من « أمنحتب » (يعنى « آمون »

مرتاح أو راضى) الى « اخناتون » (يعنى « آتون » راضى) » (٤٣٨) ٠
بل قام اخناتون بمحو اسم آمون أينما وجد كذلك عوملت الآلهة الأخرى نفس معاملة آمون وأغلقت معابدها ٠

أما عن دور الكهنة الايجـــابى فنذكر منهم ما قاموا به فى نقل الآثار الهامة فى خبيئة الأقصر ونقل المومياوات فى خبيئة الدير البحرى وفى مقبرة أمنوفيس الثانى عندما أحسوا بوجود خطر خارجى يهدد الدولة ٠ كما أنهم نجحوا فى جعل الاسكندر « ابن آمون » وبذلك كسبوه لجانب البلاد فحررها من الفرس الذين كانوا يحتلون البلاد تسعة أعوام قبل مقدم الاسكندر عام ٣٣٢ ق٠م٠ ونلاحظ أن الشعب المصرى القديم كان « شعبا عمليا غير ميال للاهوت الفلسفى ، فانهـم لم يحاولوا قط استنباط علاقة منتظمة لآلهتهم المختلفة » (٤٣٩) ٠

وبذلك نجد أنه كان للكهنة دور هام فى تثبيت العدالة فى معظم الأحيان عندما كان هناك الكهنة الورعين الذين كانوا خلف النظام أو العدالة ونشر العدل وكان هناك كهنة ساعدوا فى نشر الفوضى عندما جعلوا من السحر الذى يضمنوه فى تعاويذهم وفى كتاب الموتى وغيرهم من النصوص كوسيلة كسب للعيش حتى ولو كانت هذه التعاويذ تعنى خداع أوزيريس !! أى أنهم يمارسون الخداع حتى فى الحياة الآخرة يوم الحساب ٠ والكهنة أولا وأخيرا بشر يخطئون ٠ ولكن لا يمكن أن ينس التاريخ أبدا الأعمال العظيمة التى كانـوا فيها مثالا للأخلاقيات السامية والقائمين على خدمة المعابد واقامة الشعائر الدينية والجنائزية ٠

« ولم يكتف الكهنة فى عهد الدولة الحديثة بالثراء الذى انهال عليهم من كل أنحاء الامبراطورية ، وانما راحوا كذلك يتاجرون بالدين ٠ وذلك أنهم راحوا يصورون للناس أن الطريق الى جنة أوزوريس محفوف بالعقبات والعراقيل وملء بالأرواح الشريرة التى تتربص بأرواح الناس لتهلكها ، ثم أوهم الكهنة الناس بأن فى استطاعتهم أن ينقذوا أرواح موتاهم من تلك المخاطر التى تعترض طريقهم الى الجنة بكتابة الأحجبة والتعاويذ التى تنطوى على قوة سـحرية تهزم الأعداء السفليين وتقود أرواح الأموات سالمة الى الجنة » (٤٤٠) ٠

ان تخويف البسطاء من الأرواح الشريرة يجعلهم يلجأون للكهنة من أجل الحصول على الحماية المتمثلة فى الأحجبة والتعاويذ ٠٠ وزاد من فساد بعض الكهنة أنهم أوهموا الناس « أن فى استطاعتهم منع الروح من الادلاء بالاعتراف (أمام محكمة أوزيريس) وكبت كل صوت خارج

من القلب فلا يسمعه أوزيريس !! فكانوا يضعون على موضع القلب من جثة المتوفى تمثال جعران صغير يكتبون عليه (أى قلبى لا تكن شاهدا ضدى) وراح الكهنة يبيعون للناس لفافات من البردى تتضمن بعض التعاويذ الواردة فى (كتاب الموتى) موهمين اياهم أنهم تضمن لهم غفران ذنوبهم ودخول الجنة بغير حساب • ثم تفننوا فى سلب الباب العامة • فوضعوا كتابا سموه (كتاب الدار السفلى) وكتابا آخر سموه (كتاب الأبواب) شرحوا فيهاالمسالك التى ينبغى أن تسير فيها الروح الى الجنة كى تتجنب الأهوال المتربصة لها ••••• ومن ثم سمم الكهنة فى هذا العهد عقول البسطاء بهذه الخرافات السحرية •• مما أدى الى ضعف الوازع الدينى والرادع التى تتضمنه مبادىء الدين الأصلية » (٥٤٠) • « وقد فتح الكهنة بأيديهم الباب الى انحطاط الديانة بعد أن عملوا على تعقيدها وخلطها بالخرافات والخزعبلات بدلا من أن يكونوا قادة الشعب ويعلموه ويعظوه ويلقنونه مبادىء الدين الحقيقى ويبتعدوا به عن الضلالات والأباطيل » (٤٤١) •

الكهنة المتفقهون

ويناقش « المان » دور الكهنة فى الحفاظ على القديم والحديث فيقول :

« الخطوط الرئيسية لديانة ما • تتحول وتتشكل مادام هناك عرق ينبض فى قلوب الشعب • وتشترك الديانات كلها فى عدم استطاعتها التخلى عما وصل اليها من تقاليد قديمة ••• يبدو أن الديانة المصرية امتازت بين الديانات القديمة فى الجمع بين الحديث والقديم ••• ونحن نلاحظ باعجاب كيف استطاع هذا الشعب أن يجمع بمهارة فائقة ويوفق بين الحديث والقديم والغارق فى القدم ، واستطاع أيضا أن يصل الى هدفه هذا بأن **أكسب هذه العقائد القديمة قدسيتها** دون أن يستعمل المنطق فى مناقشتها • ويجدر بنا هنا أن نذكر أن أولئك الذين أقدموا على هذا التوفيق كانوا **علماء الكهنة المتفقين** الذين عرفوا كل شىء وفهموا كل شىء • واستطاعوا أن يحافظوا على معتقدات شعبهم طوال آلاف السنين ، كما حرصوا على الابقاء عما وصل اليهم من أجدادهم • وكان من الطبيعى على شعب زراعى مثل الشعب المصرى أن يتمسك بكل هذه العقائد ، ولكن الابقاء عليها بكل ما تحويها من دقائق بسيطة مختلفة لم يكن الا كنتيجة **التفقه** أولئك الكهنة فى علوم الكهنوت • ولعل من الأسباب الأولى التى دفعت الكهنة الى هذه السياسة أنهم لمسوا طبيعة

المصرى التى تدفعه باستمرار ألاينسى شيئا مطلقا ٠٠ ان كل مرحلة من مراحل تاريخه الطويل قد انتخبت له معتقدات دينية جديدة عاشت بجانب القديم دون أن تؤثر عليها » (٤٤٢) ٠

والمعروف أن المصرى متدينا بطبعه وسليقته لذلك فان تأثير رجال الدين على المواطن المصرى العادى يعنى الحفاظ على النظام فى مجتمع تسود فيه الأخلاق ويسود فيه الاستقرار الاجتماعى (الأسرة) ويسود فيه النظام عندما تسود فيه العدالة الاجتماعية ٠ هكذا كان دور الكهنة العظيم فى فترات القوة والاستقرار والسلام ٠ ألم تدعم الأساطير فكرة أن مصر هى العالم الذى نظمه الاله الخالق الأول وسار الملوك على نهج حورس العادل القوى ٠ وقامت الحضارة المصرية المدنية الأخلاقية فى المحافظة على شخصية المصريين الحضارية أكثر مما تركت الحياة السياسية أثرها على الناس ٠ ولا ننسى فضل الكهنة فى ترسيخ الفكر الدينى ومحاولتهم تفسير ما يحدث منذ غروب الشمس بل وما يحدث فى الحياة الآخرة ٠٠ وكل هذا رسخ فكرة البعث الخلود والحساب فى الحياة الآخرة ٠٠ وهذا بالطبع انعكس على السلوك الطيب للمواطنين الراغبين فى تحقيق السعادة فى الحياة الآخرة حيث أن الأعمال الطيبة هى رصيدهم يوم المحاكمة أمام ميزان العدل ٠

دور الكهنة فى خدمة الاله والموتى

« كان الكهنة الذين يقومون بخدمة الآلهة أو الملوك أو الملكات يسمون كهنة ال « **حم ـ نتر** » ومعناها **خادم الاله** ٠ أما الكهنة المكلفون بالاشراف على الطقوس والقرابين الخاصة بغير الآلهة والملوك فكانوا يسمون كهنة ال « **حم ـ كا** » أى **خدمة الكا** ٠ وكانت الخدمة الدينية الخاصة بكل من الملوك والأشخاص العاديين تستلزم خدمات نوع ثالث من الكهنة الذين يسمون كهنة ال « **وعب** » أو **المطهرين** ٠ وكان الكثيرون من **كهنة ال** « **وعب** » يقومون على خدمة الملك أثناء حياته ٠ وكان هذا اللقب من الألقاب التى كثيرا ما نجدها بين **ألقاب الأطباء** ٠٠٠ وكان لكل من كهنة ال « **حم ـ نتر** » وال « **وعب** » درجات مختلفة ٠ فعندما يبدأون حياتهم فى تلك الوظيفة كانوا يلقبون باللقب وحده ، ولكنا نرى أن بعضهم كان يصل فيما بعد الى درجة مفتش أو مشرف ٠ وكان الكهنة يتلون صلواتهم وابتهالاتهم بطريقة معينة مصحوبة بحركات خاصة أو بالجسم ٠٠ كما كان من حق النساء شغل وظائف معينة فى الكهنوت الخاص بالعقيدة الدينية المتعلقة بالأهرامات » (٤٤٣) ٠

« وكانت بعض وظائف الكهنة وراثية **فى بعض** الأسر ٠٠ وكان الملوك يوقفون ضـــياعا كثيرا على ما أقاموه **من أهرامات ومعـــابد حتى يستطيع** الكهنة تقديم القرابين الى أبد الآبدين » (٤٤٤) ٠

ويحدد الدكتور « سليم حسن » وظيفـة **بعض** الكهنة مع ذكر ألقابهم (٤٤٥) :

١ ـ « خر حب » = الكهنة المرتلون ٠

٢ ـ « حنك نيسوت » = يقدمون القربان ـ وليسوا من أولاد الملك ٠

٣ ـ « حنكونيسوت » = كبير كهنة ـ وهو من الشخصيات العظيمة من رجال القصر الملكى ٠

٤ ـ « الكهنة المطهرون » ـ وعب ـ اقامة الشعائر ـ وهم من رجال القصر وعظماء رجال **الدين** وينتخبون من الموظفين ٠

٥ ـ « حم كا » أى خدام الروح المادية [الكا] ـ اقامة الشعائر **فى** القصر **وفى معابد** الأهرام وفى معابد الشمس ٠ وهم **ليسوا** طائفة قائمة بذاتها ٠

[ويلاحظ اختلاط الألقاب الكهنوتية بالألقاب الأخرى الحكومية] ٠

« وكان الكاهن « **المرتل** » **فى** عهد الدولة القديمة يقوم بتـلاوة الصلوات وتقديم القربان للمتوفى ٠ وقد أصبحت وظيفته فى **العهود** المتأخرة هى **المحنط** ٠ وقد بقى الكاهن « **المرتل** » يؤدى وظيفته **الكهنونية** فى منف ٠ أما فى طيبة فأصبح « المحنط » » (٤٤٦) ٠

« الكاهن « **وحمو** » وهو قد حل محل الكاهن المرتل **فى العصر الفرعونى** المتأخر فى الوجه القبلى ٠ وكانت وظيفة موحدة بوظيفة الكاهن المرتل فى الوجه البحرى ولم يكن **له** علاقة ما بالتحنيط ، **وكان الجسم** بعد التحنيط يسلم للدفن وللمحافظة على بقائه سليما **بعد** تقديم **القرابين** واقامة الشعائر » (٤٤٧) ٠

أما فى جبانة طيبة فكانت مهام وألقاب الكهنة كالآتى :

١ ـ « الكاهن « **بر ـ ون** » = المتعهد أو الحانوتى ٠ وكان يقوم **بعمل** كل الترتيبات للتحنيط **والدفن** ٠

٢ ـ **الكاتب** وكان يعمل الاشارة ٠

٣ ـ **المرتل** (= **خرى حبت**) وكانت وظيفته قطع الجسم أى يقطع فتحة فى الجنب لاخراج جوف المتوفى ٠ وكانت له وظيفة أخرى وهى تحنيط الجسم وفى هذه الحالة كان يسمى محنط ٠

٤ ـ الكاهن « **وحمو** » وكانت وظيفته صب الماء (سقاء) وترتيل الصلوات » (٤٤٨) ٠

٠٠٠٠٠٠٠٠٠

ويوضح كتاب الديانة المصرية عمل وأسماء بعض الكهنة كالتالى :

١ ـ كاهن الخدمة (٤٤٩) ٠

٢ ـ الكاهن المرتل (٤٤٩) ٠

٣ ـ « خدم القرين » (٤٥٠) ٠

٤ ـ « **وعب** » = المتطهر (٤٥١) ٠

الطبقة الأولى « خدم الاله » (٤٥١) ٠

الطبقة الثانية « الكهنة المتطهرون » (٤٥١) ٠

المتطهرون يقدمون الخدمة الدينية فى بعض الهياكل الخاصة باله الشمس « رع » ٠

٠٠٠٠٠٠٠٠٠

« فى الكهنوت المصرى كان المؤدى الرئيسى للخدمة هو « خادم الاله » ٠ وكانت ترتل التعاويذ بواسطة « الكاهن المرتل » أى « القائم على كتاب احتفالات الأعياد » وطبقة الكهنة المسمون « سم Sem-priests كانوا يوجدون بين كهنوت آلهة معينين فقط ، ويبدو أنهم أقل نوعيات الكهنة أهمية وهم صامتون تماما ، وكان من واجبهم حمل وتقديم القرابين ورفع أذرعهم فى وضع محدد » (٤٥٢) ٠

وكان هناك الكاهن الذى يدعى « **سجم مش** » أى الخادم فى بيت الحق أما مستر جيمس فقد قام بتقسيم كهنة المعابد الى فئتين فيقول :

« كان كهنة المعابد فى مصر يندرجون تحت فئتين كهنوتيتين » الفئة الأولى فئة الأنبياء (العرافون الذين يتلقون وحى الاله) وهؤلاء

« **حمو ـ نتر** » أى « **خدام الآلهة** » . والفئة الثانية هى فئة الكهنة وكانوا يسمون « **وعبو** » أو « **الكهنة المطهرون** » .

وكان الملك من الوجهة النظرية هو كبير كهنة أى معبد ولكن من الوجهة العملية كان « **النبى الأول** » أى كبير العرافين هو الذين يمارس هذه المهمة . وكانت الوظائف الكهنوتية الكبيرة يشغلها كبار الموظفين المدنيين فى معظم المعابد ، حتى بداية الأسرة الثامنة عشرة » (٤٥٣) .

....

واذا كان بعض الكهنة أساء لنفسه وللكهنوت بتصرفات لا تليق بقدسية هذه الوظيفة التى تتعلق بوجدان الناس الدينى فان الغالبية العظمى أدوا واجبهم . والأساطير التى كتبوها لم تسىء الى الخالق الأعظم ـ نترعا ـ بل هو المنظم للكون وهو الرحيم المجيب لتوسلات عباده والكل يهابه بما فيهم المخلوقات الشيطانية . « ويدب الخوف فى قلوب المخلوقات الشيطانية حينما يصل الى علمها أن الصقر مسلح بسلطان **سيد الكون** الجديد ، فيسمحون له بالمرور عبر الضروب المظلمة دون عائق حتى يصل الى أعمق الأعماق حيث يقبع أوزيريس بلا حراك » (٤٥٤) .

ويعود الفضل لرجال الدين فى مصر القديمة فى تنشئة الناس على أخلاق وتعاليم الدين فظهر التدين فى كل أنحاء مصر وها هو **هيرودوت** يعترف بما لمسه فى شعب مصر فيقول : « أنه لم ير على وجه الأرض شعبا متدينا كشعب مصر ، وأن لسان المصريين عفيف ، فهم لا يسبون أحدا ، ولا يلعنون شيئا ، بل يكتفون فى لحظات الغضب بالابتهال الى الآلهة وهم يشفقون على الحيوان ، والطير ، ويحرمون الاعتداء أو الجور عليهما . وشباب مصر يوقرون فى اجلال وود كبار السن ، ويفسحون لهم الطريق ، ويهمون وقوفا لهم فى الأماكن العامة .. ويؤكد هيرودوت أن المصريين هم عباقرة الدنيا فى العمارة والبناء ، وأن لهم فى علوم الهندسة والفلك والحساب والتقويم باعا طويلا ، وأن مصر وفادة وكريمة مع الغريب » (٤٥٥) .

الفصـل الخامس

« نتاج الفكر المصرى القديم »

يرتبط تاريخ الانسان بكل ما تأثر به من ظروف بيئية وجغرافية وتاريخية واقتصادية وسياسية ولا تتكامل صـــورة الانسان وحضارته الا بتناول ما أنتجه عقله من فكر وفلسفة وعلوم وقوانين وأساليب الحياة التى يحياها • ونجد الكثيرون من العلماء يتحدثون عن العلم وعلاقته بالمجتمع لأن المجتمع يسعى الى حل المشكلات والمثقفين ، فهم الذين قاموا بالبحوث العلمية وبالبحوث الخاصـــة بالأصـــول النظـرية للتطبيقات الهندسية والرياضية ، وكذلك ببحوثهم فى علم الكيمياء (كلمة الكيمياء أتت من لفظة « كيمت » الهيروغليفية التى كانت تعنى « الأرض السوداء ») « فتاريخ العلم ــ وليس تاريخ العروش والتيجان والحروب والمؤامرات هو التاريخ الحقيقى للانسان وصلب قصة الحضارة فى تطورها الصاعد دوما • بل ان فلسفة العلم •• تؤكد على أهمية تاريخ العلم • فقد تعاظم شأن العلم وتشابكت علاقاته وأصبح أكثر شمولية للموقف الانســانى أكثر من أى منشط آخر •• ولا يتكشف كل هذا الا فى ضوء تطوره التاريخى عبر تفاعله مع البنيات الحضارية والاجتماعية » (٤٥٦) •

واذا اختلف الباحثون فى تحديد وقت ظهور الانسان على الأرض فانهم لا يختلفون فى أن الانسان فكر وابتكر ووجد ما يســاعده فى معيشته على الأرض • فعندما استخدم الانسان الأول حجر الصوان لقدح الشرر وتوليد النار ، فانه قد نجح فى اكتشاف طريقة عمل النار التى ساعدته فى الانارة وساعدته فى طهى الطعام وفى غلى المياه ، وشى اللحم لكى يملأ به معدته وتمده بالطـاقة والحيوية • ويقول العـالم كراوثر « بدأت تتحدد ملامح الانسان ككائن عاقل متمدين عندما عرف الأجداد كيف يدفنون موتاهم ، وبطرق مختلفة ، وتنوع أساليب الدفن يؤكد أن وراءها أفكار معينة وتحمل مغزى عند أصـــحابها • هكذا بدأت طقوس الدفن » (٤٥٧) وواجه الانسان ــ صاحب العقل المبتكر ــ المشـــكلات المعيشية المحيطة به • فلابد أن يدافع عن نفسه ضد الحيوانات المتوحشة فابتكر الأسلحة البدائية التى يستطيع بها أن يصد هجوم الحيوانات

البرية التى تشكل خطرا على حياته . وكان عليه أن يبحث عن الطعام فابتكر الأسلحة والأدوات التى تساعده فى الصيد ثم التى تساعده على طهى الطعام . « ومن خلال ادراك **أهمية التجمع والتعاون** فى الصيد وجمع الثمار ، تكونت أشكال من **الحياة الانسانية المستقرة** ، كان هدفها ايجاد نوع من الاكتفاء الذاتى ، وتأمين نظام ثابت لانتاج الطعام يقوم على استئناس الحيوان وزراعة المحاصيل ، هذه الحياة المستقرة كانت حافزا هاما **على الخلق والابتكار** من أجل مواجهة المشكلات المتلاحقة ، فعرف الانسان كيف يضع الأوانى الفخارية والخزفية من الطين والصلصال ، **وابتكر عجلة الفخار** . وعرف كيف يستخلص أنواعا معينة من المعادن من خاماتها ويحولها الى أدوات مفيدة . وكما تدلنا أول سجلات تاريخية عن هذه الأنشطة الابتكارية ، أنها بدأت منذ حوالى خمسة آلاف عام ، وأنها ارتبطت فى الغالب بنمو الحياة الحضارية فى المدينة .. والمدينة هى أقوى حافز على **الخلق والابداع** فى الرياضيات والكتابة » (٤٥٨) .

وكما يعرف الجميع « فالحاجة أم الاختراع » فحاجة قدماء المصريين الى ترويض فيضان النيل الجامح دفعهم الى بناء الأسوار التى تمنع المياه الجامحة الى اغراق الحقول كما أن حاجتهم الى هذه المياه فى حقولهم التى تبعد قليلا عن مجرى النهر ، حفزتهم الى شق القنوات واقامة السدود لتحويل مياه الفيضان المحملة بالغرين الى أراض جديدة لزيادة الأراضى الزراعية المنتجة للحبوب . وما لبثت القنوات والسدود أن تضخمت وأصبحت أكثر تعقيدا ، واحتاجت من أجل بنائها **لأيد ماهرة وتقنية** أكثر تطورا . « ومن خلال خبرتهم الطويلة التى اكتسبوها من الانشاءات المائية توصل المصريون القدماء **للمبادىء الأساسية للهندسة** ، الأمر الذى مكنهم من تصميم وبناء أهراماتهم العظيمة ، التى كانت ولا تزال دليلا حيا على نبوغهم وعبقريتهم » (٤٥٩) تعلم المصرى من البيئة الزراعية ، فصنع الأساطين على شكل النخيل والبردى ، وبنى العقود والأقباء من اللبن . « وتطور الفن المعمارى لملاءمة جميع الاحتياجات والرغبات التى يحتاجها المصرى - عبر العصور - فى كل النواحى الدينية والمدنية ، فأقيمت المساكن ودور العبادة والمقابر متأثرة بالظروف الجغرافية والجيولوجية الى جانب النواحى الاجتماعية والتاريخية » (٤٦٠) .

وتناول الدكتور كمال الدين سامح تطور العمارة المصرية منذ أقدم العصور حتى العصر الحديث . فأوضح أن « **العمارة** » كانت تعبر عن الخلفية الحضارية للفنون بجميع أنواعها وقد كانت هناك عدة عوامل أثرت على تطور العمارة فى تلك البقاع سواء أكانت تأثيرات جغرافية (الأرض السوداء على شواطىء النيل) - وقد صنع من هذه الأرض

السوداء . والتى كانت تسمى « كيمى » باللغة المصرية القديمة والتى منها جاءت كلمة « الكيمياء » ، الطوب اللبن والفخار ـ أو تأثيرات جيولوجية ذلك أن المصادر والموارد الطبيعية لكل اقليم ، تحدد سمات الطابع المعمارى له « فمصر غنية بأحجارها الجيرية والرملية ، كذلك يوجد بها الألبستر والجرانيت ، والتى كانت تستخدم ليس فى العمائر فحسب ، بل فى صناعة التحف الزخرفية والأوانى حيث أن مصر فقيرة فى المعادن الأولية » (٤٦١) ٠ أما العوامل المناخية حيث الدفء وحيث السماء الزرقاء الغير ملبدة بالغيوم فكانت لها أكبر الأثر على بساطة **التصميم المعمارى** ٠ أما العوامل الدينية فقد « لعبت دورها فى نشاط العمارة ، حيث دفعت المصريين الى الاهتمام بتشييد دور العبادة ، والى العناية بعمارة المقابر باعتبارها بيوتا خالدة ٠ فى حين بنيت القصور والمساكن من الطوب النى والمحروق ، باعتبارها بيوتا **للدنيا الزائلة** وان كانوا قد اعتنوا بزخرفة أسقفها ، وأعلى جدرانها ، وأحيانا أرضيتها بما يبعث روح البهجة عليها » (٤٦٢) ٠

وهنا نرى جانب من عظمة أجدادنا الذين خلفوا لنا أعظم الآثار فى العالم القديم وهى الأهرام والتى تدل على العبقرية المصرية والتى جعلت حضارتنا القديمة **حضارة مدنية** قام بها الشعب من مهندسين وعمال ومن علماء وعاملين ومن مفكرين ومنفذين ومن فنانين ونحاتين ومساعدين ٠ ان هؤلاء هم صناع الحضارة الفعلية وليس الجالسين على أريكة الحكم ٠ **فالشخصية المصرية الخالدة** تظهر فى أعمال العمارة والنحت والفن والرسم والصناعة والزراعة والابتكار والتصميم والتنفيذ وكما تتغنى أم كلثوم بكلمات شاعر النيل حافظ ابراهيم « وبناة الأهرام فى سابق الدهر كفونى الكلام عند التحدى » فان بناة الأهرام هم خلاصة الفكر والعمل فطبقة المثقفين هم الذين تعلموا وفكروا وهذه الطبقة تشتمل على العلماء والكهنة والمهندسين وعلماء الفلك ومعهم العمال من أبناء الشعب الذين نقلوا الحجارة الى أعلى بعد أن قطعوها وجعلوها ملساء ٠ وظهر من هذا العمل دور أناس آخرين اشتركوا فى هذه المعجزة المعمارية وهم المخططون والاداريون والمنفذون ، بالاضافة الى العاملين فى الخدمات المساعدين مثل الأطباء الذين يسهرون على صحة وراحة العاملين ٠٠ والذين كانوا يتقنون الاسعافات وعمل الجبيرة للعظام المكسورة ومثل المشرفين على أعمال التغذية والاقامة وخلافه ٠ ألا يظهر بناء الهرم على سبيل المثال كيف كان المصرى اداريا ناجحا ومهندسا ناجحا وعالما فذا عبقريا وعاملا مجد ملتزم مخلصا ؟ كما يظهر الشخصية المصرية كشخصية تعاونية تتقن معنى **العمل الجماعى** والالتزام بالواجبات المنوطة به ٠ وعندما كان يسألنى بعض الأجانب ـ أثناء اصطحابى لهم كمرشد

سياحى ـ عن كيفية معـاملة الملـوك للعبيد الذين قاموا ببناء الأهرام (وكان منهم من يشير الى فيلم الوصايا العشر الذى يدعى أن العبرانيين هم العبيد الذين بنوا الأهرامات مثلما بكى « بيجن » وهو يشاهد الهرم وكرر كـلاما مغلوطا عندما قال « لقد بنـاه أجداده » !!) وكان ردى ببساطة أن مصر لم تعرف نظام العبيد الذين يباعون فى الأسواق ٠٠ وحتى أسرى الحرب ـ والذين كانوا يخدمون فى المعابد وكان هذا أيام الدولة الحديثة أى عصر الامبراطورية ـ لم يبـاعوا أو يشتروا فى الأسواق ولكن بدلا من قتلهم كانوا يخدمون فى المعابد ٠٠ وأن العبيد لا يمكن أن يكونوا بناة أهرام فالعـامل المصرى البسيط كان الحافز الدينى القوى هو الذى يدفعه للقيام بعمله وهو سعيد ولذلك كان عمله متقن وفنيا ٠٠ وعندما كانت تزيد استفزازات بعض السائحين المغرضين فكنت أسألهم سؤالا ذو معنى « لماذا كانت تظهر عبقرية العبرانين خارج فلسطين ولم نرى لهم أيه روائع أو أى أهرامات داخل فلسطين ؟ ـ ربما يستثنى فقط « معبد سليمان » كما كانوا يقولون ٠

ويتحدث العالم كراوثر عن تقدم المصريين القدماء فى مجالات العلم المختلفة فيقول « حوالى عام ٢٠٠٠ ق٠م أرسيت قواعد العلم والفنون العملية المصرية ، وكانت نقطة البداية الطبيعية هى عمليات **قياس ومسح الأراضى الزراعية** ، وما يتصل بها من اختراعات حتى يمكن التخطيط للنظام الزراعى القائم على التحكم فى مياه الفيضان ، فقد كانت ميـاه الفيضـان تمحو كل عام العلامات التى تميز حدود الأراضى الزراعيـة وتفصل بعضها عن بعض ٠ ولم يكن الفلاحون فى أعقاب الفيضان يعرفون أين تنتهى حقولهم وأين تبدأ حقول جيرانهم ، من أجل ذلك كان مسح الأراضى الزراعية عملية مطلوبة بالحاح شديد لتحديد بدايات ونهايات الحقول منعا للنزاع بين الفلاحين بعد انحسار المياه ٠ ومن مسح الأراضى انتقل المصريون بشكل تلقائى الى علم الهندسة ٠ ثم استخدمت هذه الهندسة ذات الأصول الزراعية فى بناء السدود للتحكم فى مياه الفيضان وأسهمت فيما بعد فى بناء الأهرامات » (٤٦٣) ٠

وقد تناول الدكتور « محمد أنور شكرى » العمارة فى مصر القديمة بتفصيل أكثر ويقول « كان للعمائر الدينية والجنازية أكبر الشأن فى العمارة المصرية ٠ وكانت منذ الدولة القديمة على الأقل على أوثق صلة بفنون **النحت والنقش والتصوير** ، اذ كانت تحلى جدرانها المناظر المختلفة منقوشة أو مصورة ، كما كانت تحتوى على كثير من التماثيل ، حتى ليمكن القول بأنه لم يكن يخلو معبد مصرى من نقوش وتماثيل ، ولم يكن لمصرى قادر أن يرضى بقبر لا تحلى جدرانه صور ومناظر تمثل ما يرجو

أن تحظى به فى حياته الثانيــة ٠٠٠٠ وكانت أعمال البنــاء والنقش والتصوير تؤدى معا فى المعابد والمقابر بحيث كان البناءون كلما انتهوا من بناء جزء عمل النقاشون أو المصورون على نقش المناظر فى جدرانه أو تصويرها عليها ٠ وفى المعابد والمقابر المنحوتة فى الصـــخر كان النحاتون يعملون جنبــا الى جنب مــع غــيرهم من البنائين والنقاشين والمصورين » (٤٦٤) وان الفقرة التى تحدد الصلة الوثيقة بين العمارة والنحت والنقش والتصوير وارتباط هذه الفنون بالعمارة الدينية لتؤكد على سمة قوية فى الشخصية المصرية ألا وهى ارتباط الحياة اليومية بكل فنونها وبكل حرفها بالرباط الروحى المتمثل بالاعتقاد فى الحياة الآخرة ٠ فالحياة والموت والحياة الآخرة هم صورتان لعملة واحدة فالموت لا يشكل نهاية للحياة على الأرض بل هو البداية للحياة الأخرى بعد البعث ٠ ونفس المناظر الخاصة بالحياة اليومية يتوقع أن يجدها المصرى القديم فى « حقول أيارو » أو فى « روستاو » (أى فى الجنة فى الحياة الآخرة) ٠

« والنصوص المصرية القديمة تنم عن ترتيب ذهنى منطقى دقيق ، يــدل على أن العقلية المصرية القديمة كانت علمية ولم تكن غيبية ، وهى قد بدأت بالغيب الأكبر ـ ما وراء الموت ـ فحلته حلا قبله منطقها ، ولم تجعله غيبا محجبا بل مصيرا واضحا معروف البداية والنهاية ٠ وقد أعد المصرى القديم لهذه النهاية ما هى بحاجة اليه ، فقد حسب أن الميت يعود الى الحيـــاة بعد فترة طويلة أو قصـــيرة فى العـــالم الآخر » (٥٦٤) ونفس « الحضــارة المصرية القديمة قامت على الأسس الثلاثة الصحيحة التى بدونها لا تستقيم حضارة تكتب لها الحياة ، وهى العلم والفن والعمل » (٤٦٥) ، وفعلا نجد أن العقلية المصرية لم تكن غيبية بل كانت تعمل الفكر فى كل مناحى الحياة بل دونوا ملاحظاتهم بخصوص النجوم وحركة الشمس والقمر ، وبتغير الفصـــول وبموعد الفيضان بعد ظهور نجم سيروس بشهرين ، وقاموا بوضع أسس الهندسة والحساب والفلك ، وعرفوا التشريح عندما قاموا بعملية التحنيط ، ولاحظوا الدورة الدموية ، وتركوا لنا الفكر العلمى والدينى والتعليمى وأدب الحكمة ، وتركوا لنا الفنون التى يتميزون بها من رسم ونحت وتصوير وشعر ونثر ٠ ان العقلية التى تقف خلف التخطيط والفروض والاستنتاج والملاحظة هى عقلية علمية ٠ واذا كان بعض الدارسون الذين يسخرون من أساطيرهم ويعتبرونها خرافات وشطحات ، فماذا يا ترى سيقولون عنا نحن الموجودين فى عصر العلم والفضاء والذرة والالكترونات ونحن نردد الكثير مما قالوه بخصــوص الخالق والروح والبعث ويوم الحساب والحياة الأخرى ؟ ٠

« وقد اجتهد المصريون القدماء فى علم **الحساب** من أجل تقدير محاصيلهم وتوزيعها على الناس فالدولة كلها بجميع ما فيها كانت فى ذلك الوقت ملكا للملك ، الملكية الخاصة لم يكن مسموحا بها ، وكان الملك ومستشاروه من الكهنة هم الذين يقدرون نصيب كل فرد فى المحصول ... فعمليات الضرب والقسمة كانت تتم عن طريق التضاعف المتكرر .. واستخدم المصريون طريقة مبتكرة ، ساعدتهم كثيرا فى الكشف عن منهج جديد لحساب **مساحة الدائرة** ، وقد حققوا ذلك برسم الدائرة داخل مربع بحيث يكون محيطها مماسا لأضلاعه الأربعة ، يمكن حساب مساحتها بسهولة ، وبطرحها من مساحة المربع ، توصلوا الى مساحة الدائرة بطريقة تقريبية .. وبجانب الرياضيات والهندسة التطبيقية ، برع المصريون فى علوم أخرى ، فى مقدمتها علم الفلك فقد كان لديهم أدق تقويم عرفه العالم القديم . وكانت السنة عندهم ٣٦٥ يوما كما هى عندنا اليوم تقريبا . وساعدتهم معارفهم الفلكية على بناء الهرم الأكبر فى مواجهة الشمال بدرجة دقة لا يتجاوز الخطأ فيها جزءا من عشرين جزءا من الدرجة » (٤٦٦) .

ان التقدم العلمى فى مصر القديمة شمل الفروع العلمية التى استفاد منها القدماء فى حياتهم اليومية فعلم الحساب يفيدهم فى تقدير المحاصيل . والأعداد الرقمية (٤٦٧) تبدأ بواحد وحتى تسعة باضافة اشارة الواحد المماثلة الواحد العربية مثل ( ) لرقم ستة مثلا ثم هناك علامة عشرة ( ) وتضاعف حتى تسعون فالأربعون مثلا ( ) ثم علامة المائة ( ) وعلامة الألف ( ) والعشرة آلاف ( ) والضفدعة هى علامة المائة ألف أما علامة المليون فهو انسان جالس ورافع كلتا يديه ( ) وهناك الأعداد الترتيبية أيضا وهناك الكسور للاستفادة منها فى المكاييل وتعتبر عين « أوجات » (عين حورس) هى وحدة مكاييل الحبوب (٤٦٨) وهناك النصف والربع والثمن وواحد على ستة عشر وواحد على اثنين وثلاثين وواحد على أربعة وستون . وفى المساحات فالمصريون هم الذين أوضحوا أن المثلث ذو الثلاث أضلاع كالآتى أى [٣ ـ ٤ ـ ٥] فاذا كان (أ ب) الضلع القائم ثلاثة أمتار مثلا والقاعدى (ب جـ) أربعة أمتار فلابد أن

الضلع (أ ج) هو خمسة أمتار • وحساباتهم الدقيقة فى الزوايا يشهد عليها الأهرامات الضخمة التى صمدت لما يقرب من أربعة آلاف وسبعمائة عام • والتقويم المصرى الذى لايزال يستخدمه الفلاحون بصفة خاصة والذى نقله « يوليوس قيصر » عام ٤٤ ق٠م الى روما هو خير شاهد على براعة المصريين فى الفلك وفى الاستفادة منه •

« وتعتبر علوم الفراعنة الطبية والصيدلية فى نظر أبناء هذا القرن علوما متقدمة (٤٦٩) وحقيقية وليست قطعا متناثرة من المعلومات كما يحلو لبعض المؤرخين القدماء الأوربيين اضفاء هذه الصفة عليهم • ونرى ذلك فى فكر البعض الذى نادى بأنها غير متوارثة منذ عهود طويلة بالغة القدم وكانت تدرس فى مدارس خاصة مثل تلك المدرسة الخاصة بالعشابين ـ الصيادلة فى مدينة أون (هليوبوليس عند الاغريق وعين شمس حاليا) ومدرسة للطب تجاورها وذلك قبل عهد الأسرات ••• ولقد ذكر « هيرودت » بأن المدارس كانت تخرج أفواجا من المتخصصين فى كل مجالات العلوم ومنها النواحى الطبية مثل الأطباء والجراحين وأطباء الجيش والبيطريين وأطباء الأسنان والعيون والمعالجين الروحيين وتخصص التحنيط وكذلك العشابين الصيادلة وهذا كان لاثبات ـ ضمن الاثباتات الأخرى المتعددة ـ وجود تخصصات مهنية وبخاصة فى النواحى الطبية منذ الأيام الأولى للحضارة المصرية القديمة •••• والصيدلة فى مصر القديمة كانت تعتبر من العلوم الرئيسية المهمة فى حياة شعب تلك الأيام تساندها تلك البرديات الطبية المكتشفة فى القرن الماضى ••• وكان من الطبيعى أن يكون تطور الصيدلة يسبق تطور الجراحة وبالتالى يسبق الطب ، وذلك بسبب المعتقدات الدينية بخلود الروح التى تحكم هذا التطور وكذلك بسبب تقديس الجسد الانسانى وأهمية الحفاظ عليه ••• واستطاع الجراحون (أثناء تحنيطهم الجثث) أن يحصلوا على معلومات فى غاية الأهمية بالنسبة الى تركيب وتشريح أحشاء الجسد الداخلية والتى مهدت الطريق لهم الى جرأتهم فى اجراء العمليات الجراحيه المختلفة » (٤٧٠) •

هكذا نجد أن التقدم العلمى كان يسير جنبا الى جنب مع العقيدة الدينية ومع الفكر المصرى القائم على الملاحظة والتجريب والاستنتاج لقد تأمل المصرى القديم الكون والطبيعة المحيطة به وقام بدراسة حركة الشمس الظاهرية التى نتج عنها تتبع الفصول بتتابعها من شتاء الى ربيع الى صيف الى خريف بل وطبق هذا على زراعة النباتات وتحديد موعد المحاصيل وقام بدراسة النجوم فقدم للعالم مبادىء علم الفلك وحدد العلاقة بين ظهور نجم سيروس ومجىء الفيضان بعده بشهرين وحدد نجوم الشمال الخالدة والتى حدد بمقتضاها اتجاه كل مداخل

الأهرامات نحو الشمال لكى يعيش الملك مع نجوم الشمال الخالدة ٠ أما ملاحظته للطبيعة حوله فقد استفاد منها فى دراسة الأعشاب والتى قامت عليها مهنة الصيادلة ٠ « ولقد كان لقدماء المصريين تميزهم الخاص فى علم **الجراحة** فاستخدموا الضمادات والأربطة الضاغطة الخاصة بالتجبير واستطاعوا تجبير كسور الأطراف باستخدام دعامات خشبية تشد الى الجزء المكسور بأربطة ضاغطة ٠ واستخدموا وسائل خاصة للتعامل مع الجروح لتحقيق أفضل علاج لها ٠٠٠ ومارسوا علاج الأسنان بشكل موسع ٠ والأمثلة على ذلك كثيرة ٠ فقد صنعوا الأسنان الصناعية ذات الكبارى لتعبر فوق السن المخلوع ٠ وعالجوا الخراج الكامن تحت الضرس ، بعمل ثقب فى عظمة الفك ٠ واشتملت أدويتهم على زيت الخروع ومواد أخرى متنوعة تتضمن عناصر علاجية ٠ وعالجوا أمراض العيون بافرازات المرارة التى يستخلص منها الكورتيزون ، واستخدموا دم الخفاش وكبده الغنى بفيتامين أ ٠٠٠ وقد ترك المصريون القدماء أوصافا دقيقة لأمثلة فعلية من الرياضيات والطب منقوشة على الحجارة أو مكتوبة على ورق البردى » (٤٧١) ٠

ان كل الأمثلة السابقة تبين كيف أن المصرى بنى حضارته على العلم والابتكار وقوة الملاحظة والاستنتاج والتجريب فى مجال الكيمياء والصيدلة وعلى المشاهدة فى الطب والعلاج وعلى الاستفادة من البيئة الطبيعية باستخلاص الأعشاب النافعة ٠ لقد تطورت حياته البدائية التى كانت تقوم على القنص وجمع الثمار وأصبحت حياة مستقرة تزرع وتروى وتجمع المحاصيل ٠ وعندما عرف كيف يحفظ المخزون وكيف يستأنس الحيوان ويربيه داخل بيوته أو فى مكان خاص أصبح آمنا على غذائه ٠ وتعلم الحساب والهندسة التى تساعده فى تطوير حياته ٠ بل انعكست براعته الحسابية على « علم الجبر » و « حساب المثلثات » ٠ « ولقد صاحب العلاج فى بداياته الأولى التعاويذ السحرية والأعشاب الطبية الى أن أمكن التعرف على المعرفة الصحيحة للأمراض والتى أثبتت أن المرض هو شيء محسوس نتج عن تغيير جسمانى فى أعضاء الجسم » (٤٧٢) ٠

« وكان فى اعتقاد المصريين القدماء كذلك بأن الاله « تحوت » قد نظم ـ حسب ما ورد فى المخطوطات والبرديات العلمية الفرعونية ـ اجتماعا للعلماء والكهنة تم فى أحد المعابد والذى نتج عنه تكوين مدرسة جامعة للعلوم ٠ وعزا الناس اليه فضل **اختراع الكتابة** المصرية ولغتها وكذلك الرياضيات والحساب والفلك والموسيقى والدين والرقص والرسم والنقش والرياضة وكذلك العلوم خاصة الطب والصيدلة والكيمياء وغيرهم » وبالاضافة الى اهتمامهم بالعلاج والعلوم والطب والصيدلة فان القدماء استخدموا أدوات الزينة وزيوت الشعر والكريمات والدهانات

للوجه والشعر وكذلك لجلد البدن كله . كما استعملوا أنواعا مختلفة من العطور . « وقد أمكن للعلم الحديث التعرف على العديد من الأمراض التى كان يعانى منها المصريين القدماء وذلك بفحص العديد من التماثيل والرسومات الحائطية والمحفورة ومن هذه الأمراض شلل الأطفال وأمراض الكساح والعيون مثل التراكوما (الرمد الحبيبى) والرمد الصديدى والبلهارسيا .. هذا المرض اللعين الذى يعانى منه الكثيرون حتى الآن . وكذلك هناك أمراض الأسنان واللثة مثل التسوس والخراريج والتى كانت تعالج بواسطة أطباء أسنان مهرة .... وتحوى البرديات الطبية المكتشفة العديد من الوصفات لعلاج مختلف أمراض الرئة والكبد والمعدة والمثانة ولمختلف الأعراض المرضية للرأس وفروتها مثل تلك الوصفات لعلاج سقوط الشعر أو الشعر الرمادى . وكذلك لعلاج الروماتيزم والالتهابات المفصلية وأخرى لعلاج أمراض النساء » (٤٧٣) .

لقد امتد النجاح العلمى الذى حققه المصرى القديم عبر العصور وقد نقل عنهم الاغريق . وتعتبر جامعة الاسكندرية التى أنشأها « بطلميوس الثانى » امتدادا للفكر المصرى والاغريقى . ونجد كثير من العلماء يشيرون الى ما حققه المصريون من تقدم علمى « وقد كان المصرى أول من اخترع التفريخ الصناعى كما ذكر ذلك لنا « ديدور » وكان المصرى يتبع فى حلب البقرة طريقة فنية اذ كان لا يحلب حلمة حلمة بل كان يحلب حلمتين أو ثلاثا أو أربعة ويجتهد فى ألا يترك حلمة واحدة دون أن يبتز لبنها لأنه كان فى ذلك شل للعضو الذى لا يحلب وتقليل من انتاج اللبن » (٤٧٤) .

هذا هو المصرى عبر العصور المختلفة : **مبتكرا صانعا ماهرا فنانا حرفيا متخصصا طبيبا نطاسيا عالما فى كل فروع العلم من طب وصيدلية وحساب ومساحة وكيمياء وعمارة وفنانا فى النحت والنقش والتصوير** ــ وهو ما سأتناوله لتتناول صورة المصرى بما أبدعه من علوم وفنون . ومن يدرس الحياة المدنية فى مصر القديمة سيرى الجذور الأصيلة للحضارة المصرية وهذا هو سر عظمة الحضارة المصرية . لم تكن حضارة سياسية تنتهى بانزواء حكام معينين بل كانت حضارة الشعب .. حضارة مدنية .. لذلك لم يتفكك البناء المتماسك لحياته وثقافته . وهذا التماسك الاجتماعى هو الذى ساعد المجتمع المصرى فى الدفاع عن كيانه مما مكنه من الاستمرار . وهذا هو أحد المقومات الرئيسية للشخصية المصرية : البناء المتماسك لحياته الأسرية ولثقافته وقدرته على الابتكار والانتاج والتقدم باستمرار . ولو تذكرنا ما فعله السلطان سليم الأول عام ١٥١٧ عندما أخذ كبار الحرفيين ونقلهم للقسطنطينية فاننا ندرك أن

المستعمر أحس بسر تقدم المصريين فيما يعملونه فى حين أن القسطنطينية ــ أو اسنانبول كما أطلق عليها ــ كانت متخلفة عنهم • هذه الاستمرارية الحضارية والنظام الاجتماعى المصرى تتمثل أول ما تتمثل فى الحياة المدنية •

ويقول د• « أحمد زايد » يمكن القول ان الحضارة المصرية كانت حضارة حرفية ، حيث اشتهرت الصناعات اليدوية وازدهرت • ولعل ما نجده من نقوش منحوتة على جدران المقابر والمعابد خير دليل على أن المصرى القديم قد صنع الحضارة بيده وبأدوات غاية فى البساطة • وقد شكل الحرفيون فى المجتمع المصرى القديم جزءا لا بأس به من سكان المجتمع انتشروا فى القرى والمدن يقدمون للمجتمع ما تحتاجه الحياة الاقتصادية من أدوات للزراعة والعمل ، وما يحتاجه العمران من اعداد مواد البناء والبناء نفسه • وما يحتاجه المعاش المنزلى من أدوات للطعام والشراب • وهكذا وجد فى المجتمع المصرى القديم النجارون والحدادون والبناءون وصناع الطوب اللبن والنساجون وصناع الفخار والخزافون والزجاجون والنحاتون والصباغون والمخططون • وكان هؤلاء يورثون الحرف التى يعملون بها الى أبنائهم فقد كان « خير سبيل لبلوغ الكفاية هو التفرغ للمهنة يرثها الانسان أبا عن جد » • وقد كان هذا يعكس فلسفة خاصة من الانفصال بين الحباة المدنية والحياة السياسية ••• الشئون السياسية كانت حكرا على الفراعنة •• والشئون الدينية •• كانت حكرا على الكهنة » (٤٧٥) •

ان هذه الاستمرارية للحياة المدنية هى التى حافظت على قوة المجتمع المصرى • فعندما تعرضت مصر لفترات الضعف أو الاحتلال الأجنبى أو التمزق السياسى ، بقيت الحضارة مستمرة لوجود الترابط بين العاملين من أبناء الشعب وانتظامهم داخل طوائف حرفية وهى احدى السمات المميزة للمدينة المصرية وحتى فى الريف كان الثالوث الدائم الذى يجمع بين النيل والأرض السوداء والفلاح هو المحافظ على خيرات البلاد لأهلها وحتى للديدان الأجانب ــ المستعمرون ــ والطفيليون • لقد نهب الغزاة ثرواتنا ولكن الفلاح العظيم استمر يحافظ على مثلث الانتاج واستمرت الأراضى خضراء الا فى فترات فاض فيها الكيل فهرب الزراع من ظلم وبطش المتجبرين • والريف المصرى خير شاهد على هذه الاستمرارية من الحضارة المدنية [الحرف ــ الزراعة ــ الأسرة المترابطة ــ الأخلاق ــ التدين] •

« فالحياة المدنية هى نتاج القبول الارادى والتجمع الطوعى ، فالأفراد يعيشون فى أسر ويترابطون فى جماعات قرابية •• محاولين أن

يؤكدوا من خلال عاداتهم وتقاليدهم ورموزهم الأخلاقية والمعنوية والدينية **روح الجماعة** بما تعكسه من تضامن وتحقق وأمن مشترك وتوق للعدالة والفرح بالحياة ، والتأمل فى الكون » (٤٧٦) كانت الحياة المدنية هى نتاج الفكر المصرى فى سبيل تكوين مجتمع مستمر ومستقر وقد تحقق هذا الاستقرار نتيجة الابتكارات التى ساعدت الناس فى معيشتهم بسبب التقدم العلمى الذى أحرزوه ـ كما أوضحت عاليه ٠ أما التقدم فى الفنون فتشهد عليه جدران المقابر التى امتلأت بالرسوم وبالنحت الغائر والنحت البارز وتشهد عليه التماثيل العديدة والمنتشرة حاليا فى كل بقاع العالم ٠ فيكفينا فخرا أن كل المتاحف كانت تتهافت على اقتناء الأعمال الفنية التى عملها المصرى القديم ٠ وعلى سبيل المثال اكتشف الفرنسيون حجر رشيد فى مصر عام ١٧٩٩ ونقلوه للاسكندرية لكى يأخذوه معهم الى باريس ولكن الانجليز الذين وقعوا مع الفرنسيين المعاهدة التى نصت على نقل الجنود الفرنسيين على ظهر المراكب البريطانية اشترطت أخذ حجر رشيد ٠ والآن نجد حجر رشيد فى المتحف البريطانى فى لندن رغم أن الفرنسيين هم الذين اكتشفوه ، واكتشفوه فى مصر ٠ والمسلات المصرية هى سفيرات لنا فى أعظم الميادين سواء فى الأستانة أو باريس أو لندن أو أى بقعة أخرى من العالم ٠ أليس هذا اعترافا بعظمة النحات والفنان اللذان صنعا هذه التحف الفنية ؟

وقبل أن أتنـاول فن الرسـم والنحت عند القدماء من واقع الكتب المتخصصة أريد أن أنوه بما لاحظته كمرشد سياحى زار المقابر والمتاحف ٠ ففى الدور الثانى من المتحف المصرى فى الصالة التى تعلو المدخل الرئيسى هناك تابوت ضخم وعلى احدى جوانبه نرى فلاحا ربط عجـلا صـغيرا ـ ابن البقرة ـ فى ساق البقرة لكى تراه فتدر الحلمات لبنا طالما ترى رضيعها أمامها ويستغل الفلاح هذه العاطفة ويقوم بحلب البقرة ، وقد عبر الفنان عما يجيش داخل البقرة التى ترى ابنها أمامها ولكنه لا يرضع من ثدييها فيبين « الدموع » تنزل من عين الأم ٠ لقد عبر الفنان عن هذه الأحاسيس والأمومة بالدمع الذى يخرجه من عين البقرة !! وفى مقبرة « بتاح حتب » فى سقارة هناك تعبير بليغ عن أثر الخوف على الحيوان ، فعلى الحائط الأيسر لداخل الحجرة الرئيسية الخاصة بصاحب المقبرة ـ بتاح حتب ـ نجد الأسد على وشك مهاجمة البقرة ورد فعل البقرة ظهر فى البراز الخارج منها من فتحة الشرج وحتى الأرض ٠ لقد عبر الفنان المصرى بصدق عن تلك المشاعر ٠

ومن كتاب « فن الرسم عند قدماء المصريين » (٤٧٧) اقتطف بعض الفقرات التى تلقى ضوء على هذا الفن بقلم أستاذ للفنون القديمة بمعهد

دترويت للفنون وهو « وليم هـ • بيك » : « وقد نشأ الفن المصرى القديم منذ بداياته الأولى على أساس مفهوم كونى يتمثل فى بعدين مستقيمين متقاطعين : الخط الأول يمتد مع تدفق النيل الأزلى فى مجراه من الجنوب الى الشمال ، ويتقاطع مع الخط الثانى الذى يمتد عبر السماء مع رحلة الشمس اليومية من الشرق الى الغرب ••• وكان الاحســـاس المصرى بالطبيعة التكعيبية للفراغ متجسما فى فن العمارة وهندسة بناء المعابد ، التى كانت تعتبر نموذجا فلسفيا لعملية بزوغ الكون عند خلقه ••• وكان تطور فن الرسم المصرى الثنائى الأبعاد ملازما خطوة بخطوة لتطور الكتابة الهيروجليفية •• ويهمنا الآن أن نشير الى أن الكون المصرى عبارة عن عالم تتألق فيه الآلهة ، خلقه اله أكبر هو خالق كل شيء ، اله كلى الوجود فى جميع الأماكن وفى كل الأوقات ، مرتبط تماما بدورة الحياة والموت وعودة الحياة مرة أخرى بالبعث ، ومرتبط أيضا بفكرة التجدد المتمثل فى دورة اليوم ، ودورة السنة » (٤٧٨) •

« وقد ظل الفنان المصرى القديم ملتزما باستبعاد رؤيته الشخصية لعالم الفراغ المحيط بالكائنات أو الأشياء الموجودة التى تراها عينه فى لحظة معينة ، وهى لحظة عابرة بالقطع وزائله ، وظل فى الوقت نفسه متمسكا بالتعبير عما يتصوره من الشكل الذى تكون عليه الحقيقة الخالدة • ولم تكن هذه الرؤية العميقة للفن شيئا خاصا بالفنان أو نابعا من وحيه والهامه ، بل كانت جزءا لا يتجزأ من قانون ثابت غير قابل للتغيير يتعلق بفكرة الخلق التى اعتنقتها الدولة المصرية • ليس من المهم أن يعبر الفنان عن رؤيته الشخصية للحقيقة ، بل لابد أن يعبر الفنان عن مطابقة موضوع فنه للقانون الذى يحكم الحقيقة الخالدة المتمثلة فى فكرة الخلق » (٤٧٩) •

« وعن طريق هذه الرؤية غير المنظورية للحقيقة ، جاهد الفنـــان المصرى ليجعل نفسه منسجما مع الكون الذى يحس به ويتصوره موجودا وخالدا • ولذلك فان قدرة الفنان على الابداع كانت ممتزجة تماما فى قدرته على التعبير عن الأوضاع الطبيعية لمظاهر الجزئيات والكليات ، وغالبا ما يكون ذلك بتصوير المظهر الجانبى « البروفيل Profile » • وهى القاعدة المتبعة دائما عند تصـــوير الحيوانات والطيور • غير أن تصوير « البروفيل » أو المظهر الجانبى لم يكن قاعدة مطلقة ، فقد تقتضى ضرورة الايضاح أن يقوم الفنان بتصوير المظهر الأمامى Frontal ، وهو يلجأ الى هذه الطريقة عادة حين يكون المظهر الأمامى أكثر ملاءمة وأكثر قدرة على التعبير عن الحقيقة ••• أما بالنسبة لرسم التكوين الفنى للجسم البشرى ، فان الفنان يستعمل الطريقتين معا ، فهو يرسم الرأس بطريقة « البروفيل » ويرسم الأكتاف حسب مظهرها الأمامى ، ويرسم الأرداف والسيقان من زاوية جانبية • كل هذا بالاضافة الى التزام الفنان بتطبيق

القوانين والقواعد الصارمة التى تحدد النسب الفنية بين أعضاء الجسم البشرى وأجزائه المختلفة ، والتزامه أيضا بابراز الأوضاع الصحيحة لكل جزء من أجزاء الجسم البشرى على حده ، سواء بالنسبة لتصوير « الحركة » التى يقوم بها أى جزء أو عضو من الجسم البشرى ، أو بتصوير هذه الأجزاء والأعضاء جميعا فى حالة « الثبات » كما يبدو جليا فى التماثيل » (٤٨٠) ٠

« ومن الملاحظ أن فن الرسم عند قدماء المصريين لم يعرف التجريد ، لسبب بسيط هو حرص هذا الفنان على التعبير عن مكونات الطبيعة طبقا لحقيقتها الخالدة التى يتصورها العقل الواعى ٠٠ ومن المؤكد أن « الكاتب » المصرى القديم بحكم طبيعة عمله كان يستطيع أن يصبح رساما ، بينما قد لايستطيع الرسام القادر على رسم وتصميم العناصر البشرية أو الحيوانية أو النباتية أن يصبح كاتبا ٠ وطبقا لطبيعة نظام التخصص الحرفى الذى كان سائدا بمصر القديمة ، فان من المؤكد وجود حرفيين متخصصين فى رسم الخطوط الخارجية العامة للأشكال ووضع تصميمات لرسوم الأشكال المطلوب تصويرها » (٤٨١) ٠

« ولم يكن فن الرسم Drawing يعتبر فنا مستقلا قائما بذاته لدى قدماء المصريين طبقا لمفهوم فن الرسم المستقل الذى نعرفه فى عالم اليوم ٠ بل كان يعتبر ـ فى الغالب ـ عملا تحضيريا لفنون أخرى هى التصوير والنحت والعمارة ٠٠٠ ويجب النظر اليه باعتباره الفن الأب الذى تتولد منه هذه الفنون الأخرى ٠ ومن المعروف أن المصريين القدماء قد رسموا الاسكتشات على الأسطح الصخرية وعلى الأسطح الخارجية للأوانى وذلك فى زمن ما قبل التاريخ وقبل اتحاد الوجهين القبلى والبحرى ونشأة الدولة المصرية ، حتى بدأ الانبعاث الحقيقى لفنون التصوير والنحت والعمارة » (٤٨٢) ان هذه اللمسة الفنية التى يصبغها المصرى حتى فى عصور ما قبل التاريخ على الأوانى التى يستعملها وعلى احساسه بالفن لهى سمة مميزة للشخصية المصرية ٠ فحتى التمائم فنجد فيها تلك اللمسة الفنية فمثلا فى الصالة الخاصة بمقبرة توت عنخ آمون فى المتحف المصرى نجد عدم تباين فى الألوان بين تميمة « الواس » و « العنخ » فلم يكتف المصرى القديم بوضع تميمة من أجل الحماية من الأرواح الشريرة بل يتفنن فى عرضها وكأنها قطعة فنية تارة يعطيها ألوانا متباينا وأحيانا يغطيها بشريحة ذهب خفيفة ٠والآن تجد المصرى مولع بالديكور الفنى فى المحلات والشقق وحتى فى أماكن العبادة ٠ وكانت هناك بعض المبادىء والقواعد الثابتة تحكم التعبير التشكيلى للفنانين المصريين طوال التاريخ الفرعونى كله ، فكانت المثلثات كرمز لسلاسل الجبال وشكل خطوط متموجة للمياه

وأشكال زخرفية للطيور · ومن الأعمال التشكيلية المحفوظة على جدران المقابر والمعابد يتبين لنا منذ الوهلة الأولى أن الفنان المصرى قد أصبح قادرا على التعبير عن أى شكل أو موضوع يطلب منه ·

« كان الفنان يصور المتوفى صاحب المقبرة ومعه زوجته فى أوضاع رسمية وفى أوضاع غير رسمية ، ويصور القرابين والأطعمة التى تقدم على موائد القرابين والتى تعطينا قائمة تفصيلية بمختنف أنواع المآكل والأطعمة التى كانت سائدة فى ذلك العصر ويصـــور مختلف أنواع وأشكال الأنشطة الانسانية سواء فى البيت أو فى الحقل أو فى المرعى أو حتى فى الفيافى والبرارى ، الأمر الذى نستخلص منه بســـهولة صورة حقيقية وواضحة عن الحياة اليومية لقدماء المصريين فى ذلك الزمن » (٤٨٣) ·

« ومن المعروف أن الفن المصرى القديم مجرد تماما من قواعد « المنظور » · ومن المعروف أيضا أن الفنان المصرى القديم كان يعبر عن أجزاء الموضوع ··· وقد تبدو هذه الأجزاء فى وضع « **البروفيل** » الغالب عليها ، كما لو كانت رسوما أو صورا بسيطة ساذجة ، مع أنها فى حقيقة أمرها عبارة عن وصف كامل لهذه الأجزاء والجزئيات التى يتكون منها المنظر المراد التعبير عنه ··· كان الفنان المصرى يعبر « **عما يعرفه** » عن الموضوع أكثر مما يعبر « **عما يراه** » ، من هذا الموضوع فى لحظة ما » (٤٨٤) ·

ويســـتخلص المؤلف وليم بيك من التزام الفنان المصرى القديم بالخطوط التى تحدد الموضوع بأكمله والالتزام بقواعد صارمة وملزمة معروفة سلفا بأن هذا هو السبب فى **ثبات الفن المصرى قرابة ثلاثة آلاف عام** · وقد أشار المؤلف أيضا الى التزام الفنان المصرى بقانون النسب وكانت وحدة القياس المستعملة هى « الذراع القصير ٥ أى حوالى ٤٥ر٧سم وكل « ذراع قصير » كانت مقسمة الى ٦ أكف [أى عرض اليد ست مرات] · وكل « كف » كان مقسما الى أربع أصابع [كل أصبع منها يساوى نحو ١ر٨٧ سم] · والشكل الذى يمثل الجسم البشرى واقفا يتكون من ١٨ مربعا ، أما الشكل الذى يمثل الجسم البشرى جالســـا فيتكون ارتفاعه من ١٤ مربعا · وكانت المواد المستخدمة هى لون أو صبغة موضوعة فى دواة وأداة لنقل اللون أو الصـــبغة الى السـطح المســتخدم للرسم وسطح مهيأ للرسم مكون من مادة ما · وكانت الكتابة المصرية القديمة فى حد ذاتها شكلا من أشكال الرسم ·

« كان لابد للفنان المصرى القديم الذى يقوم بنحت الحجر ، أن يكون على دراية واسعة بفن الرسم ، لأن كل عمل من أعمال النحت الغائر أو البارز أو الكامل ، كان يقوم على رسم للخطوط الأساسية ·· وبالنسبة لنحت اللوحات الحائطية ، كانت تستخدم احدى طريقتين :

الطريقة الأولى : هى استخدام النحت البارز ٠٠ وفيها تبرز الأشكال وتعلو عن مستوى سطح اللوحة ٠ وتتطلب هذه الطريقة ازالة مساحات كبيرة من سطح اللوحة لابراز الأشكال المطلوبة ، الأمر الذى كان يتطلب جهدا كبيرا ، ويستغرق وقتا طويلا ٠

والطريقة الثانية : هى استخدام النحت الغائر ٠ وفيها يتم نحت الأشكال فى عمق مستوى سطح اللوحة الحائطية وبذلك يصبح مستوى السطح أعلى من مستوى الأشكال المنحوتة الغائرة فيه ٠ وبطبيعة الحال فقد كان النحات يقوم بنحت الشكل الغائر بطريقة تؤدى الى ابراز مكوناته وتحدد معالمه » (٤٨٥) ٠

« أما بالنسبة للنحت الكامل الثلاثى الأبعاد فان الأمر يختلف اختلافا بينا عن النحت البارز ، سواء من ناحية المراحل الفنية التى تجرى أثناء العمل ، أو من ناحية الطريقة التنفيذية التى يجربها الفنان حتى يكتمل النحت بصفة نهائية ويصبح فى هيئته الكاملة ٠ هذا وقد أمكن تحديد المراحل الفنية التى تجرى أثناء العمل ، أو من ناحية الطريقة التنفيذية التى يجربها الفنان حتى يكتمل النحت بصفة نهائية ويصبح فى هيئته الكاملة ٠

« هذا وقد أمكن تحديد المراحل الفنية التى تمر بها أعمال النحت الكامل الثلاثى الأبعاد ، من خلال دراسة الأعمال والنماذج التى لم يكتمل فيها النحت بصفة نهائية ٠ وقد تبين أن رسم الخطوط الأساسية كان دليلا لارشاد أزميل النحات أثناء مراحل النحت ٠ وكلما تقدم النحات فى تشكيل الحجر ، فانه يحتاج الى رسم خطوط أساسية جديدة للمرحلة التالية وهكذا » (٤٨٦) ٠

« ومن الملاحظ بصفة عامة أن ملامح الأفراد والشخصيات التى نحتت لها التماثيل مطابقة تماما لملامحهم المصورة على الجدران بالنحت البارز ٠٠٠ وبالرغم من أن الفنان المصرى ـ كفرد ـ قد احتل مركزه الطبقى أو مكانته الرفيعة فى نفس حقله الفنى ، الا أن جميع هؤلاء الفنانين مهما ارتفع قدرهم ، يشتركون مع الحرفيين فى تنفيذ الأعمال الفنية ، وهى أعمال بطبيعتها مخصصة لخدمة الدولة والعقيدة المصرية » (٤٨٧) ٠

سنوهى « ابن الجميزة » (٤٨٨)

« هى قصة من روائع الأدب المصرى القديم الرفيع ، المعبر عن العواطف والآمال والتى تمتاز بجمال الأسلوب وطلاوة العبارة ٠ وجدت مكتوبة على

مدرج من البردى طويل محفوظ بمتحف برلين بألمانيا ، وكذلك على بعض قطع أخرى من مدارج البردى • وقد ترجمهـــا علمـاء الآثار الى الألمانية والانجليزية والفرنسية • ان هذه القصة دليل على أن **أساس القصة** فى الأدب وضع فى مصر القديمة ، فقد كانت هذه القصة متداولة بين الشعب وكانت كذلك تدرس فى المدارس المصرية •

« كان « **سنوهى** » ومعناه « ابن الجميزة » أميرا ، وقامت الحرب بين مصر وليبيا فى الدولة الوســـطى فى عهد الملك « **أمنمحيت** » الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة الذى انتعشت فى عهده الفنون والآداب . فأرسل الملك ابنه وولى عهده « **سنوسرت** » الأول على رأس جيش كبير لمحاربة الليبيين فى غرب الدلتا ، وكان الأمير « **سنوهى** » بين قواد هذا الجيش الذى حارب وانتصر وغنم غنائم كثيرة من أسرى الحرب بعد أن شتت شمل الأعداء » •

« ولما كان الملك « **أمنمحيت** » طاعنا فى السن فقد توفى فى : « اليوم السابع ، من الشهر الثالث من فصل الفيضان ، وذهب الى السماء ، والتحق برع (اله الشمس) ، فخيم الحزن على القصر ، وختمت البوابات، ولبست مصر الحداد حزنا عليه ، وتشـاور رجـال البـلاد وهم وجوم فيما يفعلونه • واتفقوا على أن يرسلوا رسولا أمينا ليخبر ولى عهده سرا بوفاة والده ، ويظهر أنه كان بين « **سنوهى** » وولى العهد نزاع وعــداء (لم تذكره القصة) ، وبينما كان « سنوسرت » ولى العهد يحادث الأمير ، اذا بالرسول يصل مسرعا ويطلب مقابلة ولى العهد منفردا ليسر اليه أمرا ، فأمر ولى العهد كل من كان معه بالانصراف فانصرفوا الا « **سنوهى** » فانه اختفى فى احدى زوايا الغرفة • وسأل « **سنوسرت** » الرســـول مستفسرا ، فأخبره وهو ينتفض اضطرابا بوفاة والده الملك « **أمنمحيت** » فوجم ولى العهد وحزن حزنا شـديدا ولم يسمع هذا الحديث طبعا سـوى « **سنوهى** » الذى كان مختفيا بالمكان ، وخاف على نفســـه من الملك الجـــديد •

ولما خرج ولى العهد مع الرسول انتهز « **سنوهى** » هذه الفرصة وعول على الهرب وولى وجهه شطر الجنوب ونام بأحد الحقول الى أن أصبح الصباح فعبر النهر ومنه سار فى الصحراء شمالا حتى وصل الى سيناء ، ولما أعياه التعب ، وقتله الظمأ ، وصمت فمه عن الكلام قال : « الآن بدأت أتذوق طعم الموت » ولكنه جاهد وتجلد شأن من بلغ به اليأس مبلغه الى أن بوغت بصوت رجل وخوار بقرة ففرح بوصوله الى مكان عامر ، وحدث أن تقابل مع أحد البدو فأحسن لقاءه وأكرم وفادته ، وقدم له ماء ليشرب ولبنا ساخنا • وكان هذا الرجل رئيسا لاحدى القبائل ، وعرف أن

« سنوهى » مصرى فزاد فى اكرامه ۰ ولما استراح « سنوهى » من عناء سفره الطويل ترك الرجل وتنقل بين قبيلة وأخرى حتى وصل الى أرض عاموره وحط رحاله هناك ۰

ومر على ذلك ما يقرب من العام أرسل بعدها « عمونيش » رئيس قبيلة « تونو العليا » الى « سنوهى » رسالة قال له فيها : « تعال وأقم معى وأسمع اللغة المصرية بيننا » ، فذهب « سنوهى » اليه فسأله رئيس القبيلة « أخبرنى لماذا فررت الى هذه البلاد ؟ وهل لذلك من سبب ؟ » فأجابه « سنوهى » : « انى فررت من بلاد ليبيا رأسا الى هنا ولم أرتكب خطأ ، ومادبرت دسيسة ، ومافكرت فى مؤامرة ، وحقا لاأستطيع التعبير عن السبب الذى هربت من أجله ، فقد كنت مطيعا « لحوريس » (لقب الملك) « أمنمحيت » الأول ومخلصا أمينا له » ۰

ثم سكت « سنوهى » برهة تكلم بعدها قائلا :

« اعلم الآن أن « سنوسرت » الأول ابن الملك المتوفى تولى العرش ، وأنه أمير عادل ، يعرف كيف يحمى سيفه ، هو محارب ماهر ليس له نظير ، وهو يكتسح سكان النوبة أمامه ، ويقطع دابر اللصوص ، ويسحق رأس كل من يعارضه ، فهو حقا بطل ذو بطش ، واذا تصدى له أعدائه فهو يفترسهم كالأسد ، وهو محبوب من الأرض جميعا ، وتطيعه رعاياه باخلاص وفرح ، وهو يمد فى حدود بلاده جنوبا ، ومع ذلك لا يود أن يغزو البدو ، فاذا حضر الى هنا، فأخبروه بأنى أقيم بينكم ۰

وبعد أن سمع رئيس القبيلة حديث « سنوهى » رد عليه قائلا : « رغبتى أن تعيش مصر بسلام ، وأما أنت فعلى الرحب والسعة مادمت قائما بيننا كما ترغب » ۰ ثم تزوج « سنوهى » ابنة هذا الرئيس وجعله رئيسا لاحدى القبائل ومنحه أرضا بها عنب وتين ونبيذ ولبن وعسل وزيتون وقمح وشعير وقطيع كبير من الماشية المختلفة ۰ وصار « سنوهى » كأمير البلاد محترما مبجلا ۰ وكان يقتات يوميا على اللحوم المطبوخة والطيور المشوية التى كان يصطادها بنفسه أو يحضرها له عبيده ، وكان يقدم له الزبد واللبن وكل ما كانت تشتهيه نفسه ۰

ومرت السـنون وكرت الأعوام وأعقب « سنوهى » أطفالا شبوا وترعرعوا ۰ ولما كبروا كان لكل منهم قبيلة يرأسها ، وكانت كل القبائل التى تجوب الفيافى تمر « بسنوهى » فكان يكرم وفادتهم ويقدم لهم الطعام والمياه ۰ وكان اذا غبن رجل أو سرق يعوض له « سنوهى » ما فقده بعد أن يثأر له ممن ظلمه ۰

وكم من مرات حاولت البلاد المتاخمة لأرض مولاه الذى أكرمه غزوها فكان « **سنوهى** » الذى عين قائدا لجيشه فى البلاد يردها خائبة على أعقابها ، فقد كان « **سنوهى** » عالما بشئون الحرب والدفاع عن الأراضى ، وكان يستولى على غنائم عديدة من أسرى وعبيد وحيوان • واشتهر فى ساحة الوغى بشجاعته وأنه يعرف كيف يستخدم حسامه وقوسه ، وكان يقسم فرقه بكل دهاء حتى يحصر العدو ويقضى عليه ، فأحبه الرئيس جدا ورقاه ورفعه الى أعلى منزلة فى بلاده وحباه برعايته • وقد نشأ عن حب سيد البلاد « **لسنوهى** » ترقيته واعطائه هذه المرتبة ، أن دبت الغيرة فى قلب أحد سكان البادية وكان مشهورا بشدة بطشه بين أبناء جلدته حتى أنه كان يذبح كل من يقف فى وجهه معارضا •

فقال هذا الرجل « لابد من منازلة « **سنوهى** » فانه لم يرنى بعد ورغب فى ذبح « **سنوهى** » حتى يحل محله ويستولى على أراضيه وأملاكه • وفعلا تحدى الرجل البطل « **سنوهى** » وقلق الحاكم لذلك وتحدث مع « **سنوهى** » فى الأمر • فرد عليه « **سنوهى** » قائلا :

« أنا لا أعرف هذا الرجل ، انه ليس من درجتى ، ولا أهتم بهذا الطراز من المغالين • ولم أرتكب خطأ ضده ، فاذا كان لصا يود استلاب أمتعتى وأملاكى فخير لى أن يحترس ويعرف كيف يقدر نفسه أمامه ، هل يظن أنى عجل صغير وأنه ثور محارب ؟ فاذا أراد منازلتى فدعه يفكر فى رغبته • هل سنتناسى الآلهة ؟ **وماذا قدر الله سيكون** •

وبعد أن فاه « **سنوهى** » بتلك الكلمـــات عاد الى خيمته واستراح قليلا ، ثم أحضر قوسه ونشابه وأعدهما لمنازلة خصمه • وعندما حل الفجر هرع الناس جماعات فى المكان المعد للنزال حتى أن كثيرين من سكان القبائل المجاورة جاءوا ليشهدوا المبارزة بين بطل البدو وبطلنا المصرى « **سنوهى** » • وبينما الناس فى ضوضاء وجلبه ، ويفكر الكل فى المصير ، اذا بالمحارب البدوى يتقدم فيصمتون جميعا يتهامسون فيما بينهم : « هل يستطيع انسان ما أن يتغلب على هذا البطل ، انظر انه يحمل ترسا وحربة وفأسا ومعه عدد كبير من النبال • وهنا أقبل « **سنوهى** » بكل شجاعة مخترقا الصفوف والكل معجب بشهامته وشجاعته ووقف وجها لوجه أمام غريمه •

وكان رجال قبيلة الحاكم الأكبر يرجون « **لسنوهى** » النصر وهم فى هرج ومرج ، بينما كانت النساء تتصايح خوفا وشفقة عليه ، فما كان من عدوه الا أن بادره باحدى نباله فتلقاها « **سنوهى** » برزانة وصدها

بترسه فوقعت الى جانبه على الأرض دون أن يصيبه بأذى ، ثم حرك العدو فأسه نحو « **سنوهي** » الذى كان أسرع منه فصوب نحو صدره سهما بخفة وسرعة فائقة أصابت من العدو مقتلا فى رقبته فسقط على الأرض جثة هامدة بعد صيحة عالية ٠

ولما تم النصر لبطلنا « **سنوهي** » صاح صيحة الفرح والانتصـــار شاكرا الاله « **منتو** » (اله الحرب عند قدماء المصريين) وتبدل الحال بين الناس الى فرح عظيم فصاحوا وصفقوا وهتفوا بحياة « **سنوهي** » **لأنه** أراحهم من شرور ذلك الطاغية وآثامه واستراحت نفس الحاكم الأكبر وضم « **سنوهي** » الى صدره وقلبه وقبله بحنان وفرح ٠

وبعد أن تم النصر « **لسنوهي** » ذهب رأسا الى منزل عدوه وهدمه واستولى عليه وعلى كل ما يملكه من ضياع وحيوان وضمها الى ممتلكاته وأصبح فى يسر وغنى ٠ وطالت أيام الغربة الطويلة وسارعت الشيخوخة الخطى الى « **سنوهي** » وهو بعيد عن مصر ٠ ودب **الحنين الى الوطن** فى قلبه وتخيل مصر العزيزة بلاده وأرضـــها الخضراء النضرة ، وسماها الزرقاء والصافية ، وخاف أن تدركه المنية وهو بعيد عنها ، وتمنى لو مات ودفن فى أرض بلده ففكر كثيرا فى الأمر حتى هداه تفكيره الى أن يرسل مع رسول أمين خطابا الى فرعون ٠ فكتب رسالة وعنوانها باسم صاحب الجلالة ابن الشمس « **سنوسرت** » ملك مصر قال فيها : « فررت من مصر ومازال اسمى يردد فى القصر ، وحينمـــا فررت قاسيت ألم الجوع والعطش ٠ وأما الآن فانى أجود على الغير ، كنت عاريا عندما فررت ولكن الآن ألبس الكتان ٠ كنت فقيرا أثناء فرارى والآن أصبحت مالكا للأراضى والمنازل وألتمس من جلالتكم السماح لى بالعودة الى مسقط رأسى مصر المحبوبة التى أحبها ، حتى اذا ما أدركنى الموت ، أحنـــط وأدفن بأرض الأبدية ، فأرجـــو الســـماح لى بالعـــودة الى الوطـــن ، **وقــد قـدمت القرابين للآلهة حتى تحقق رغبتى وتجيب دعائى لأن** قلبى مملوء بالحزن لغربتى البعيدة عن أرض الوطن ، هل تجيب جلالتكم طلبى ٠٠ وتسمح لى بالعودة مرة ثانية الى بلادى العزيزة حتى أعيش بين رعاياك الذين يحبونك ؟ انى أحى الملكة من قلبى وأرجو أن أرى أولادكم فترد الحياة الى جسدى فرحا ٠ وآسفاه ! استولى على الكبر ، وخارت قواى وأصبحت فى دور اليأس وثقلت عيناى وضعف ذراعاى ولا أقوى على السير ، واضطرب قلبى وقربت من الوفاة ٠ **ما اسعد من يموت فى وطنه** ٠ ويوم دفنى ليس بعيد ، وقبل وفاتى هل يسمح لى برؤية مولاتى الملكة لأسمع أحاديثها عن أطفالها ٠ حتى يسر قلبى للنهاية ؟ » ٠

ووصل الرسول الى مصر وتشرف بمقابلة الملك « **سنوسرت** » **الأول** وسلم الرسالة لجلالته ، فلما قرأها تأثر لها وسر منه ، وفى الحال عفا عنه وأرسل اليه الهدايا مع خطابات منه ومن أبنائه الأمراء وكتب له ما يأتى : « أمر ملكى من حوريس « خبر كا رع » ابن الشمس «سنوسرت» : ماذا فعلت وماذا عمل ضدك حتى فررت الى البلاد الأجنبية البعيدة دون ذنب اقترفته ؟ انى أعلم أنك لم تطعن على ، ولم تخالفنى ، فلا تقلق كثيرا على الأمر ، والملكة مسرورة فى وسط أبنائها • اترك كل ممتلكاتك وعد الى الوطن ، وعند العودة ستقيم معى فى القصر ، وستكون صـــديقى المقرب ، ولا تنسى أنك تكبر يوما بعد يوم ، وقوتك تخور ، وقد قربت من القبر • وأعدك بأنك ستعطى دفنة طيبة وستحنط ، وستنوح عليك الحزانى فى يوم الجنازة • وسيكون لك تابوت مغطى بالذهب ، وستقدم القرابين على روحك ، **وستنحر الضحايا** على باب قبرك **وتوزع لحومها على الفقراء** ، وسيشيد لك هرم تدفن فيه بجانب الأمراء • ولا يجب أن تموت فى تلك البلاد النائية ، ولايسمح أبدا للبدو أن يكفنوك بجلد غنم » •

وعندما عاد الرسول الى « **سنوهى** » سلمه رسالة مولاه الملك ففضها وقرأها • ولما انتهى من قراءتها فرح وفاضت دموعه حنانا وعطفا ثم ألقى بنفسه على الأرض وقفز صائحا : « هل من المحتمل أن مثل هذا الخطاب الرقيق يأتى الى شخص خائن هرب من وطنه الى بلاد الغربة ؟ » •

وأرسل الى الملك رسالة قال فيها :

« أيهـا الاله القوى ، من أنا حتى تغمرنى بهذا العطف ، فلم تكن رغبتى الفرار من أرض مصر ، وكان كحلم من خوف استولى على نفسى ولكنى كما أمرتم سأترك كل ما أملك ، وسيرثنى ورثتى هنا ، أسأل لجلالتكم العمر الطويل » •

وبعد أن أرســل ((**سنوهى**)) الخطاب الى الملك ، أقام حفلة قسم فيها ثروته بين أبنائه وعين أكبرهم رئيسا مكانه ، وودعهم بحزن وألم عائدا الى أرض الوطن العزيز ، وقابله عند الحدود قائد كبير ثم وصل الى شاطىء النهر حيث وجدا مركبا راسية محملة بالهدايا وكم كان فرح ((**سنوهى**)) عظيما لما وجد نفسه بين أبناء جلدته وهم يجدفون ويغنون بنغماتهم المطربة • فكان يحادثهم وكأنه أحدهم والسرور باد عليه ، الى أن مرت الليلة الأولى وأصبح الصباح ، واذا بالقصر قد بدت واجهتــه ، فلما اقترب الى باب القصر ، وجد الأطفال فى مدخله ينتظرونه مع النبلاء الذين قادوه الى الملك وهو لا يدرى ، فالذهول مستولى عليه وكأنه فى حلم لذيذ •

فلما دخل على الملك وجده جالسا على عرشه فى « القاعة المزينة بالذهب والفضة ولم يعرفه الملك بادىء الأمر ، الا أنه وجه اليه بعض كلمات بلطف وعطف ، غير أن « **سنوهى** » ارتج عليه القول ولم يستطع جوابا ، وأغمى عليه من شدة الفرح وقفلت عيناه • وخارت قواه وكأنه يموت •

وأمر فرعون مصر النبلاء قائلا : « ساعدوه على النهوض حتى نتحادث مليا فرفعه رجال البلاط وقال له جلالة الملك : ها قد عدت الينا ثانية ، لقد كبرت يا « **سنوهى** » لم لا تتكلم ؟ هل أصبحت مخادعا مثل البدو ؟ قل لنا اسمك ، ماذا يسبب لك الخوف ؟

فقال « **سنوهى** » لقد وهنت قواى ، وليس لدى ما أقوله ، ولم أفعل شيئا استحق عليه **عقاب الآلهة** ، انى مغمى على ، وقلبى يشعر بالضعف ، انى فى حضرة جلالتكم وحياتى بين يديكم ، فافعل بى ما تريد » •

ثم التفت جلالة الملك « **سنوسرت** » الى الملكة قائلا لها :

« هذا هو « **سنوهى** » جاءنا اليوم بدويا »

فعجبت الملكة لمرآه وقالت وهى محوطة بأبنائها « حقا انه ليس هو »

فقال الملك : « كلا انه « **سنوهى** » فقد غيرته الغربة »

ثم قص عليهم « **سنوهى** » قصة هربه وما لاقاه من ألم ، وحدثهم عن حياته وعن زواجه من ابنة الحاكم • ففرح به الأطفال وصاحوا وغنوا أمام الملك وشكروه **وتوسلوا الى الآلهة** أن يتم عليه الصحة والعافية والسعادة واعتذروا للملك عن هفوة « **سنوهى** » والتمسوا العفو عنه •

فقال الملك : « **ياسنوهى** لا ترتعد فى حضرتى ، لأنك ستكون صديقى ورئيسا بين موظفى البلاد وأحد رجاله » •

وقاده الى الغرفة الخاصة المعدة له وحياه الأطفال بالفرح والسرور ، وأعطى له مسكن ليقيم به داخل القصر ، وقدم له أفخر الطعام والفواكه فأكل وشرب ، ثم ارتدى الملابس الملكية وتعطر بالروائح الذكية وخرج ليتحدث الى رجال البلاط ، وعاد اليه شبابه وحلق لحيته ووضع على رأسه شعرا مستعارا « شأن النبلاء فى مصر الفرعونية » •

ولما حل المساء عاد الى منزله ونام على السرير ذى فراش وثير لم يشعر به جسده فى الصحراء التى فر اليها · وكم كان سروره عظيما حينما كانت تتجمع الأطفال حوله ·

وأمر جلالة الملك « **سنوسرت** » بتشييد هرم « **لسنوهى** » وعمل التماثيل المزينة بالذهب له وأحاطه بعنايته حتى أن الكاتب المصرى القديم الذى كتب هذه القصة قال أن الملك شمله بعطفه حتى يوم الوفاة فدفن باحتفال مهيب » ·

[تمت القصـــة]

ما نستخلصه من هذه القصة « سنوهى » :ــ

١ ــ شجاعة « سنوهى » فى مواجهة التحدى ولم يهرب من الموقف خوفا على حياته وهو فى غربة ويدعم موقفه ــ بالاضافة الى شجاعته وثقته بنفسه وبقدرته على النزال ــ انه يعتمد على **الله** فى قوله : « هل ستنساى الآلهة ؟ وما **قدر الله سيكون** ·

٢ ــ « **الحنين الى الوطن** » وهذه سمة مشتركة بين المصريين عموما · وحتى المهاجرون تجدهم ينظمون رحلات جماعية للحضور الى مصر أيام الأعياد أو فى الأجازات الصيفية ، ونفس الشىء بالنسبة للعاملين فى البلاد العربية فانهم حريصين أن يعودوا لأرض الوطن فى أقرب وقت ممكن · وبالنسبة لسنوهى الذى لم ينسى أرضها الخضراء النضرة وسمائها الزرقاء الصافية فانه يتمنى أن يدفن فى بلده · حتى فى رد الملك اليه فقد وعده بأن يقيم معه فى قصره وأن يجهز له اجراءات دفن تليق به كأمير مصر ، لا أن يسمح « للبدو أن يكفنوه بجلد غنم » · كما وعده **بتقديم القرابين على روحه** ·

٣ ــ نلاحظ روح **التدين** المتأصلة فى الوجدان المصرى ، فيقول سنوهى « قدمت القرابين للآلهة حتى **تحقق رغبتى وتجيب دعائى** » ورغبته ودعائه ينصب على معنى حب الوطن والحنين الى العودة اليه فكرر « **ما أسعد من يموت فى وطنه** » ·

٤ ــ التســـــامح صلة متأصلة بين المصريين · لقد تأثر الملك بالخطاب وعاتبه عن سبب هروبه من البلاد ، وكان يمكن أن يشك فى

اخلاصه ويرفض طلبه فى العودة لأرض الوطن • ولكن نفس الملك الذى يحمل لقب الهى « حورس » و « ابن الشمس » حثه أن يترك ممتلكاته خارج مصر ، ويسرع بالعودة وهو مطمئن تماما لاستقباله كأمير وباقامته فى القصر الملكى كصديق للملك وبالوعد باعطائه حقه فى جنازة ملائمة له ••

٥ ـ حرص المصرى على التمسك بالأخلاق والسلوك الحسن نجده فى دفاع « سنوهى » عن نفسه فيما فعله عند هروبه الفجائى الذى لم يعرف هو نفسه سببا له فيقول : « لم أفعل شيئا أستحق عليه عقاب الآلهة » •

٦ ـ المشاركة الوجدانية لدى المصريين تظهر بوضوح فى فرح الأطفال وصياحهم وغنائهم ، بل شكروا الملك وتوسلوا الى الآلهة لكى تمنح « سنوهى » الصحة والعافية • بالاضافة الى ذلك اعتذروا للملك عن هفوة « سنوهى » والتمسوا له العفو عنه •

٧ ـ الكرم المصرى يتمثل فى قيام الملك بتشييد هرم « لسنوهى » وعمل تماثيل له ، وقربه كصديق وأعطاه مكانا فى قصره ليقيم معه وشمله بعطفه حتى يوم الوفاة • هكذا كانت المشاعر الودية والطيبة التى تسود المجتمع [قديما وحديثا] فى تعاملهم سويا ، أليس فى هذا دليل بأن المجتمع المصرى مجتمع حب وتسامح وكرم والمشاركة الوجدانية •

٢ ـ البحار الغريق

« كتبت هذه القصة بالهيراطيقى وهى من أجمل القصص موضوعا وخيالا على مدرج بردى محفوظ بمتحف « لننجراد » رقم ١١١٥ وترجمها كثيرا من علماء الآثار أمثال الأستاذة « جولنشيف » و « جاردنر » و « زيته » و « ارمان » •

وهى عبارة عن قصة موظف مصرى كبير (من منطقة الفنتين) سافر بتكليف من فرعون الى الأقاليم الجنوبية على رأس بعثة بحرية لم ينجح فيها وعاد الى بلاده (مصر) بعد سفر شاق طويل لاقى فيه أهوالا وشدائد ، وكان فشله سببا فى حيرته وارتباكه ولم يدر كيف يتقدم لمقابلة الملك « الا أن أحد أصدقائه هون عليه الأمر وشجعه على أن يذهب للقصر ويفضى الى الملك بما لاقاه •

وهذه القصة تشبه قصة « **السندباد البحرى** » من أساطير ألف ليلة وليلة أو قصة « روبنسون كروزو » الانجليزية ، وها هى القصة كما يرويها البحار المصرى نفسه :

« قال التابع المحترم ، ليوفق قلبك يا مولاى ، انظر لقد عدنا الى الوطن وأخذت المطرقة ، ودق الوتد وربط حبل المركب على الشاطىء وشكرنا الاله وعانق الصديق صديقه وأتتنا الأوامر بوصولنا للسلامة ولم نفقد واحدا من جنودنا بعد أن وصلنا حدود « ووات » لقد وصلنا « سنموت » (وموقعها الآن البيجا بالقرب من الفنتين) أنظر لقد وصلنا بالسلامة الى أرض الوطن ٠ استمع لى يامولاى فلست مبالغا ٠ اغتسل وصب الماء على أصابعك ، ثم أجب (أى قص الحكاية على الملك) وقلبك معك أجب بدون تردد ولا وجل ، فم (أى لسـان) الانسان ينجيه ، وقد تكون كلماته سببا فى تورطه ، فأفعل (أى قص الحكاية كما توحيه رغبة قلبك ، انه من المتعب أن أقصها عليك » ٠

قصة البحار

« ومع ذلك سأقص عليك ما حل بى أنا نفسى :

« بينما كنت ذاهبا الى مناجم مولاى فرعون ، ركبت البحر الكبير (كما كان يسمى البحر الأحمر فى النصوص المصرية القـديمة) فى مركب طولها ١٥٠ ذراعا (٧٥ مترا) وعرضها ٤٠ ذراعا (٢٠ مترا) وكان معى فيها ١٥٠ بحارا من نخبـة رجـال مصر الذين رأوا السماء والأرض (أى محنكين فى السباحة) ، وقلوبهم أقوى من قلوب السباع ، وتنبأوا بالعاصفة قبل هبوبها والشر قبل وقوعه واشتدت الريح بينما كنا فى البحر قبل أن نشرف على البر ، وكانت الأمواج تثب ثمـانية أذرع (٤ أمتار) وأمسكت بفرع خشبى ، وتهشمت السفينة ولم أجد أحدا ممن كانوا معى فيها وحملتنى أمواج البحر الى شاطىء الجزيرة ، حيث قضيت ثلاثة أيام وليس معى سوى قلبى ، وأظللت نفسى ورقدت ونمت فى مكان خفى من الغابة ، ولما أفقت طفقت أن أبحث عن شىء لفمى (أسد به رمقى) ، فوجدت فيها تينا وعنبـا وخضرا وسفرجلا فاخرا وجميزا وخيـارا ورأيت بها كذلك سـمكا وطيـورا ، وليس ثمة شىء الا ويوجد بها منه فأشبعت نفسى **وأوقدت نارا قربانا للآلهة** ٠

ثم سمعت صوتا مرتفعا ، ظننته موجة من أمواج البحر ، واهتزت الأشجار وزلزت الأرض ، فكشفت وجهى (رفعتـه) ، فوجدت أفعى تسـعى طولها ٣٠ ذراعا (١٥ مترا) ولحيتها كانت أطول من ذراعين

(متر واحدا) وجسدها مغطى بالذهب ولون صدرها أزرق كاللازورد وذيلها كان أمامها . وفتحت فمها نحوى ، فسجدت أمامها وقالت لى : « ما الذى جاء بك الى هنا أيا مسكين ؟ ما الذى جاء بك الى هنا أيا مسكين؟ أخبرنى ما الذى جاء بك الى هذه الجزيرة بدون تأخير ؟ والا سأجعلك تعرف قدر نفسك (سأريك من أنت) ستصير شعلة من النار ، وتصبح كمن لم يكن اذا لم تقص على شيئا لم أسمعه من قبل » وكنت أمامها كمن لا يعرف نفسه .

ووضعتنى فى فمها ، وحملتنى الى جحرها ، ثم وضعتنى على الأرض ولم يصبنى سوء ثم فتحت فمها فسجدت أمامها على بطنى وقالت لى : « ما الذى جاء بك الى هنا أيها الطبيب ؟ » « ما الذى جاء بك الى هنا أيها الطبيب ؟ » « ما الذى جاء بك الى هذه الجزيرة التى تقع شواطئها على البحر ؟ » .

ثم أجبت هكذا لها ، وقد مددت ذراعى : « أرسلت فى بعثة الى مناجم فرعون فى مركب طولها ١٥٠ ذراعا وعرضها ٤٠ ذراعا وكان بها ١٥٠ بحارا من نخبة رجال مصر الذين رأوا السماء والأرض وقلوبهم أقوى من قلوب السباع وتنبأوا بالعاصفة قبل هبوبها ، والشر قبل وقوعه وكان لكل منهم قلب وذراع أقوى من أخيه ، وبينما كنا فى وسط البحر هبت الأمواج ثمانية أذرع وكسرت السفينة قبل أن نصل الى البر ، فأمسكت بفرع خشبى ولم ينج أحد سواى ودفعتنى الأمواج الى هذه الجزيرة .

فأجابتنى الأفعى بينما كنت ساجدا على بطنى أمامها . (« لا تخف ! لا تخف أيها الصغير ، ولا تجعل وجهك يعبس ، لقد أتيت الى ، وها هو الاله قد سبب لك الحياة ، لأنه أرسلك الى جزيرة الروح (القرين) التى لا ينقصها شىء . انها مملوءة بالخيرات ، والآن ستقضى شهرا بعد شهر حتى تمر عليك أربعة شهور فى هذه الجزيرة ، ثم ستأتى مركب من بلادك وعليها بحارة تعرفهم فتبرح معهم الى الوطن وتموت هناك . وما أسر ما وقع لك فهو يذهب الهموم ، ودعنى اذن أخبرك بما فى هذه الجزيرة ، فانى كنت هنا مع أخواتى ، وحولى أولادى، كنا حوالى ٧٧ حية ولا أذكر لك ابنة صغيرة وقع عليها نجم من السماء فاحرقها . أما اذا كنت صابرا جدا ، فانك ستعود الى بلادك وستضم أطفالك ومستقبل زوجتك ، وأكثر القول اجمالا أنك ستعود الى وطنك وسترى أطفالك وستعيش بين اخوانك ») .

فانحنيت أمامها على بطنها ، حتى وصلت الى الأرض وقلت لها :

« سأقص سر قوتك على فرعون وسأجعله يعرف قدر عظمتك ، وسأقص عليه ما وقع لى ومما أراه الآن ، وسأشكرك فى المدينة أمام جميع الموظفين ، وسأذبح لك ثيرانا قربانا لك ، وسأذبح لك طيورا ، وسأحضر لك سفنا محملة بالعطور وخيرات مصر عما يقدم لاله يحب الناس فى أرض لا يعرفها الناس بالمرة ٠

فابتسمت الحية لما قلته ، وقالت لى : « ليس عندك عطور كثيرة وليس عندك الا عطور المعبد ، أما أنا فانى حاكمة « بونت » (الصومال) فالعطور كلها فى هذه الجزيرة ولكنك عندما تبرح هذه الجزيرة للعودة الى وطنك فانك لن تعود ترى هذه الجزيرة ثانية فستتحول الى فيضان »٠

وبعد ذلك لاحت المركب الذى خبرتنى عنه الأفعى وتسلقت شجرة عالية لأرى من عليها وعدت اليها لأخبرها بما رأيت ولكنى وجدت أنها تعرف ذلك ٠

ثم قالت لى : « اذهب بالسلامة ، اذهب بالسلامه أيها الصغير الى منزلك ، وانظر لأولادى واجعل لاسمى سمعة طيبة فى بلدك وهذا كل ما أرجوه منك » ٠

فسجدت أمامها وحنيت ذراعى وأعطتنى هدايا من الزهور وكل الأشياء الجميلة ، وحملت المركب وسجدت شكرا لها ٠ ثم قالت : « انظر ! ستصل الى وطنك فى شهرين وستضم أولادك **ثم ترى مكان دفنك** » ٠

وبعد ذلك ذهبت الى الشاطىء وناديت البحارة وقدمت فروض العبادة الى اله هذه الجزيرة ٠ وسرنا شمالا وجهتنا قصر فرعون ووصلت الى الوطن ، ودخلت على فرعون وقدمت له الهدايا التى أحضرتها من الجزيرة ولقيت منه كل عطف ورضا ، ثم شكرنى أمام الموظفين جميعا ورقيت الى خادم محترم ٠

ثم قال لى : « لا تكن متفوقا على أيها الصديق ولا تكن كمن يعطى الماء فجرا لطائر يذبحه فى الصباح الباكر » ٠

انتهت القصة من بدايتها الى نهايتها كما وجدت وكتبها بأنامله الكاتب « أمنى بن أمنى » ٠

« له الحياة والسعادة والصحة » (٤٩٠) ٠

التعليق :

١ ـ تقديم النار كقربان للآلهة وتقديم فروض العبادة لآلهة الجزيرة التى كانت كريمة معه وحافظت عليه ، فان **الاله** سبب له الحياة ٠

٢ ـ وجود التنبؤ بالمستقبل وتحديد ما سيحدث له حتى يحين موعد عودته سالما الى أرض الوطن ، رغم أنه فى جزيرة مليئة بالخيرات ٠

٣ ـ الاهتمام باستمرار العودة للوطن ٠ فالحنين للوطن هو « **سمة قومية** » ٠

٤ ـ ولا يفوت المصرى القديم أن يطمئن على مكان الدفن ، فيوم الوفاة هو البداية للحياة الآخرة والتى يحرص كل المصريين على أن تكون خالدة فى الجنة ٠

٥ ـ العطف من الفرعون كان يتوقعه دائما الناس ، وهذا يدل الصلة الطيبة بين الشعب والفرعون (الحاكم العادل العطوف) ٠

٣ ـ التمساح المسحور (٤٩١)

جلس الملك « خوفو » (بانى هرم الجيزة الأكبر) على عرشه ذات يوم فى القاعة الذهبية وطلب الى أبنائه أن يقصوا عليه بعض أساطير السحرة الأولين ، فقام « خفرع » وطلب الى والده أن يصغى اليه وقال له :

« دعنى أحدثك عن قصة تمساح الشمع المسحور »

فقال الملك « خوفو » : « حدثنا عن تلك القصة »

وابتدأ « خفرع » الحديث بأن قال : « ذهب أحد الفراعنة ذات مرة لزيارة معبد « بتاح » (اله منف) ورافقه فى معيشة رجال البلاط والمستشارون والخدم ، وتصادف أن أظهر الملك رغبته فى زيارة دار رئيس الكتبة التى كان خلفها حديقة جميلة مزدحمة بالأشجار المختلفة وعرائس العنب ، والأزهار المتنوعة الجميلة ، وبها كذلك منزل صيفى وتركة صناعية كبرى ٠

وكان بين الذين يتابعون هذا الجمع شـاب جميل رشيق خفيف الروح أحبته زوجة الكاتب ، وكانت تحنو عليـه وترسل اليه الهدايا الجميلة من حين الى آخر ٠

وكانا يجتمعان سرا ساعات طويلة يتذوقون فيهـا هناء الخلوة فى هذه الحديقة حيث يستحم الشـاب بعد ذلك فى البركة عنـدما يخيم الظـلام ٠

ولاحظ ذلك رئيس الخدم ذات مرة وذهب الى سـيده وأسر اليه بكل ما رآه فأمر الكاتب قائلا : « أحضر صندوق السحر الخاص » ٠

ولما جاء بالصندوق صنع تمسـاحا صغير الحجم من الشمع وقرأ عليه تعويذة سحرية لرئيس الخدم وقال له : « عندما ترى الشاب ينزل البحيرة ليغتسل ضع هذا التمساح فى الماء » ٠

وفى اليوم التالى كان الكاتب فى حضرة فرعون ، فانتهزت زوجته الفرصة وذهبت الى الحديقة واجتمعت بالشاب طول اليوم الى أن قرب الماء ٠ ثم عادت الزوجة الى منزلهـا ونزل الشاب الى البحيرة ليغتسل كعادته دون أن يعلم أن هناك عينا ترقبه ٠

فما ان نزل الى الماء حتى جـاء رئيس الخدم سرا ووضـع التمثال الشمعى المسحور بهدوء فى الماء دون أن يشعر الشـاب ٠ ولما وضـع التمساح فى الماء تبدل بقوة السحر وأصبح تمساحا حقيقيا كبيرا انقض على الشاب وقبض عليه بغتة ٠

ومرت سـبعة أيام قص الكاتب خلالهـا هذه القصة الغريبة على مسامع فرعون ولما أتت به الزوجة من عدم الوفاء لزوجهـا ورجا جلالته أن يذهب معه الى الحديقة ٠

فأجاب الملك رجـاءه وذهب معه ٠ ولما وقف الاثنان أمام البركة فى الحديقة ، تمتم الكاتب بعض تعاويذ سـحرية ، وأمر التمساح أن يخرج من الماء ٠ فما ان سمع الأمر حتى ظهر على وجه الماء ثم صعد الى شاطىء البحيرة وهو قابض بفكيه على الشاب ٠

وقال الكاتب : « ان هذا التمساح ينفذ كل ما آمره به حالا » ٠

فقال فرعون : « مره بالعودة حالا الى الماء » ٠

ولكن الكاتب أراد قبل أن يأمره بالعودة الى الماء أن يرى لجلالة فرعون مهارته فى السحر وقبض على التمساح بيده فعاد تمساحا شمعيا صغيرا كما كان من قبل ، فعجب فرعون كثيرا لذلك وسأل الكاتب عن السر فأخبره به ، وكان كل ذلك والشاب واقف وقد تبدى عليه الخزى، مترقبا ما سيحل به من عقاب ٠

وقال فرعون للتمساح : « اقبض على هذا المجرم الآثم » ٠

فتحول التمساح حالا وعادت اليه الحياة وقبض على الشاب وقفز الى الماء وغاص به ٠

ثم أمر فرعون بعد ذلك بالقبض على المرأة الخائنة ، وربطت الى جذع شجرة فى شمال الحديقة ، وأشعلت النار فيها كى تموت حرقا جزاء عدم وفائها ، ونفذ الأمر وماتت وأمر كذلك بالقاء ممتلكاتها فى النيـــل ٠

وبعد أن انتهى « خفرع » من سرد القصة سر والده الملك « خوفو » وأمر باعداد قرابين لتقدم على روح فرعون (٤٩٢) ٠

التعليق :

نلاحظ أنه كانت هناك عقوبة للخيانة الزوجية وذلك من أجل ضمان طهارة العلاقات الزوجية وحمايتها ٠ وتم معاقبة المجرم بالموت وتم حرق الزوجة الخائنة ٠

٤ ـ الحليـة الخضراء (٤٩٣)

وبعد أن صـــمت « خفرع » برهة وقف ثانية وقال لوالده الملك « خوفو » سأروى لك قصة عجيبة وقعت فى أيام المرحوم والدكم الملك « سنفرو » ٠

« شعر الملك « سنفرو » ذات يوم بتعب وسأم ، وفكر فى مكان جميل يسرى عنه ما به من كآبة ، فأمر باستدعاء رئيس الكتبة أمامه وقال له :

« انى أشتاق لبعض التسلية ولا أستطيع أن أجدها هنا فى هذا المكان فقال الكاتب : « تستطيع جلالتكم الذهاب الى بركة القصر ، وتركب قاربا ، يجدف به عدد من أجمل فتيات القصر ، فان ذلك سيبعث فى نفسك السرور حينما تراهن مجدفات ، وسيسر قلبك ، وينشرح صدرك لرؤية الطيور والمروج الخضراء التى على شواطىء البحيرة ، وسأذهب بنفسى مع جلالتكم » ٠

فسر الملك لهذه الفكرة وأمر باحضار قارب له عشرون مجدافا من خشب (سبك) الأبنوس مزينة بمقابض ذهبية وأمر أيضـا باحضار عشرين فتاة من عذارى القصر الجميلات ذوات الصدور النامية ونزلوا الى البحيرة ٠

وبعد أن تحرك القارب سرى الغم عن صدر جلالة الملك عند رؤيته لهن ، وكن أثناء التجديف يغنين بصوت حنون ٠ وبينما كان القارب فى سيره اذا ارتفع مجداف الفتاة التى كان بيدها الدفة ووصـل الى شعرها وقطع حلية جميلة خضراء كانت تتحلى بها وسقطت الى الماء ٠

فوقفت الفتاة عن التجديف بغتة وصمتت الفتيات جميعـا عن الغنـاء ٠

فقال له « سنفرو » : « لا تقفى دعونا نذهب بعيدا جدا » ٠

فردت الفتيات : « ان التى تدير الدفة قد رفعت مجدافها » ٠

فقال « سنفرو » : « لماذا رفعت مجدافك ؟ » ٠

فأجابته : « يحزننى أنى فقدت حليتى الخضراء وسقطت فى الماء » ٠

فقال « سنفرو » : أفضل جدا أن تعود الى حليتى من أن أعطى غيرهـا » ٠

فقال الملك لرئيس الكتبة : « انى متمتع جدا بهذه النزهة البديعة، ونشط بدنى لرؤية هؤلاء الفتيات مجدفات فى البحيرة شمالا وجنوبا ، والآن قد فقدت احداهن حليتها الخضراء وسقطت فى الماء ، وهى تصر على عدم قبول غيرها وتريدها بالذات » ٠

وفى الحال تمتم رئيس الكتبة تعويذة سحرية فانشقت مياه البحيرة الى ممرات نزل فيها وبحث عن الحلية التى فقدتها الفتاة وأحضرها اليها، ثم جلس وتمتم تعويذة أخرى فعادت المياه الى حالتها الأول ٠

فسر الملك جدا ، ولما عاد الى القصر بعد تلك النزهة البديعة فى القارب على وجه البحيرة الهادئة مع الفتيات الجميلات ، أمر **بصرف الهدايا لرئيس الكتبة نظرا لما أتاه من العمل الخارق** ٠

ثم صمت « خفرع » بعد انتهاء القصة وأمر بعدهـا جلالة الملك « خوفو » **بتقديم قرابين على روح** والده الملك « سنفرو » ورئيس كتبته ٠

التعليق :

١ ـ ترينا هذه القصة كيفية الاستمتاع بالحياة فى وســط الطبيعة حيـث الزهور والطيور فى مكان فســيح على البحيرة وضرورة **الاسترخاء** فى هذا الجو الشاعرى الجميل ٠

٢ ـ تقدير قدماء المصريين للجمال سواء أكان هذا الجمال مبعثه المناظر الطبيعية أو الجمال الأنثوى الرقيق ٠٠ وليس فيه أى معنى جنسى مبتذل ٠

٣ ـ الانصات لصوت الغناء الرقيق الذى تقوم به الفتيـات بصوت حنون مما يضفى على هذا الجو الهادىء رومانسية رائعة ٠

٤ ـ كانت المرأة تتحلى وتتزين ٠٠ ونفس الحلية الخضراء لها معنى رمزى لأنها مطابقة للون الأخضر ـ لون الخضرة الممتدة على طول الوادى الخصيب ٠ والمصرى القـديم كان يعشق لونين بالذات الأخضر الممثل للنباتات والأزرق الممثل للسماء الصافية الممتدة على طول الأفـق ٠ والعـارفين بتـأثير الألوان يقولون أن هذين اللونين بالذات يريحون الأعصاب ٠٠ ألسنا جميعا نسعى للاسترخاء والتمتـع بمناظر الطبيعـة بين الخضرة والماء والسماء والوجـه الحسن ؟

٥ ـ اظهار قدرة رئيس الكتبـة على الاتيـان بحليـة الفتاة بقدرته على السحر ٠٠ وهنا يقصد قدرته العملية التى تأتى بالخوارق ٠

٦ ـ مكافأة الفرعون للعالم لما أتاه من عمـل خارق ، ويلاحظ اهتمام الفرعون بتلبية طلب الفتاة التى أصرت على احضار حليتها بالذات رغم أن الملك وعد بأن يحضر لها غيرها ٠

٧ ـ لم ينس الملك « خوفو » أن يقـدم القرابين على روح والده الملك « سنفرو » ورئيس الكهنة • ولم يشغله اهتمامه ببهجته الشخصية فى أنه أسرى عن نفسه بعد أن كان يحس بالتعب والسأم • أليس هذا **الشعور العائلى** الجميل سمة من سمات الشخصية المصرية ؟

٥ ـ الساحر « ددى » (٤٩٤)

وبعد ذلك وقف أحـد أبنـائه « حـور ددف » وقال لوالده الملك « خوفو » : « **سمعت جلالتكم قصصا عجيبة من أفعال السحرة فى الأيام** الخيالية ولكننى أستطيع أن أحضر أمام جلالتكم سـاحرا **يأتى بالخوارق** وهو يعيش هنا فى المملكة •

فقال له الملك « خوفو » : « من هو يا بنى ؟ » •

فأجاب الأمير : « ان اسمه « ددى » وهو رجل طاعن فى السن فقد تخطى العشرة بعد المائة الآن ، **وهو يأكل يوميا فخذ عجل وخمسمائة** رغيف من الخبز ويشرب مائه انـاء من الجعة ويستطيع قطع رأس أى مخلوق ثم يعيده الى مكانه (يمكنه أن يذل الأسد فيتبعه ، وهو يعرف مكان سر الاله « تحوت » **الذى طالما رغبتم جلالتكم معرفتـه حتى تصمموا** غرف هرمكم » • فرد الملك : « اذهب الآن يا حور ددف » وأحضر لى هذا الرجـل » •

فخرج الأمير وركب قاربا وسـار به نحو الجنوب حتى وصل الى مدينة « ددسنفرو » حيث منزل الساحر « ددى » • وصعد الى الشاطىء وحمل فى محفته الى أن وصل الى مكان السـاحر الذى كان راقدا أمام منزله ، ولما اسـتيقظ « ددى » ورأى الأمير **أراد الوقوف احتراما** الا أن الأمير رجاه أن لا يقف اجلالا لكبر سنه وحياه قائلا له : « يرغب والدى الملك « خوفو » فى أن يمجدك **وسيبنى لك قبرا بين قومك** » •

فدعا « ددى » الى الأمير قائلا له : « **العظمة لك ولينصر قرينك فوق كل قوة شريرة** وليتبع ظلك طريق الجنان » •

وساعده الأمير على الوقوف وأمسك بذراعه حتى وصلا الى القارب فركبا وركب مساعدوه ومعهم كتبه السـحرية قاربا آخر الى أن وصلوا الى القصر ، وصعد الأمير الى والده الملك « خوفو » وقال له :

« لقد أحضرت معى الساحر « ددى » لك الحياة والسعادة والصحة » .

ففرح الملك وقال : « دع الرجل يدخل فى حضرتى » .

فدخل الساحر « ددى » ووقف فى خشوع ثم حيا الملك .

فقال الملك : « لما لم أرك من قبل ؟ » .

فأجاب الساحر : « من يطلب يحضر » .

فقال الملك : « خبرت أنك تستطيع قطع رأس أى مخلوق وتعيده اليه ثانيا ؟ » .

فرد الساحر : « حقا ذلك يا مولاى » .

قال الملك : « أحضروا سجينا لقطع رأسه واعادته اليه ثانيا » .

فقال الساحر : « ولكنى لا أفضل رأس انسان بل طائر أو حيوان فى مثل هذه الحالات » .

فأحضرت بطة فقطع الساحر « ددى » رأسها وألقى بها على يمناه ، وألقى بالبطة على يساره وتمتم « ددى » بكلمات سحرية فعاد الرأس الى جسدها ووقفت البطة مرفرفة صائحة بصوت عال ، وعمل مثل ذلك فى أوزة

ثم أمر جلالة الملك « خوفو » باحضار بقرة فقطع الساحر رأسها ثم أعاد اليها الحياة وأمرها بأن تتبعه فسارت خلفه .

فدهش الملك لما رآه وأعجب بالرجل كثيرا وقال له :

« علمت بأنك تملك وتعرف مخبأ سر الاله تحوتى ؟ » .

فقال الساحر : « لا أملك ذلك ، ولكنى أعلم أين مخبأه . انه فى حجرة فى معبد الشمس بمدينة « أون » (هليوبوليس) حيث تحفظ الأسرار فى صندوق ومن يحضره الى جلالتكم شخص له أهمية » .

فقال الملك : « أتمنى لو أعرف من يوصله الى » .

سكت الساحر « ددى » برهة وقال انه تنبأ بأن السيدة « روددت » زوجة أحد كهنة معبد « رع » ستعقب ثلاثة أطفال .. وسيصير الابن

الأكبر أكبر الكهنة فى معبـــد الشمس « أون » وسيملك هذا السر ، **وسيجلس بقوته هو وأخوته يوما ما على العرش ويحكمون مصر » ٠**

فحزن الملك « خوفو » لذلك واضطرب عند سماعه هذه النبوءة التى فاه بها الساحر ٠

ثم استمر « ددى » فى حديثه قائلا : « بماذا تفكر أيها الملك ٠ ان ابنك سيتولى العرش بعدك ثم يليه ابنه فى الحكم وبعد ذلك يخرج العرش من أيديهم ويعتلى أحد هؤلاء الأطفال العرش » ٠

الا أن الملك « خوفو » صمت مدة ثم تكلم متسائلا :

« متى يولد هؤلاء الأطفال ؟ » ٠

فأجاب الساحر « ددى » : « سأزور رع فى ذلك الوقت » ٠

بعد ذلك أنعم الملك « خوفو » على الساحر « ددى » وأسكنه فى بيت ابنه « حور ددف » وأمر له بصرف فخذ ثور وألف رغيف من الخبز ومائة اناء من الجعة ومائة حزمة من البصل يوميا » ٠

التعليق :

١ ــ اظهار قدرة الساحر على الاتيان بالخوارق (كان يعتبر هذا تقدما علميا أيضا متمثلا فى السحر فكان الأطباء والصيادلة يقدمون بالعلاج المادى بالاضافة الى ترديد التمائم السحرية) وقدرة هذا الساحر هى قطع رأس أى مخلوق واعادتها الى مكانها ٠ كذلك كان لديه القدرة على أن يذل الأسد ويتبعه أى يمكنه ترويض الأسد ٠

٢ ــ الفرعـون كان يريد أن يعرف سر الاله تحوت ــ اله الحكمـه والمعرفة ــ حتى يستطيع الملك الاستفادة منه فى تصميم غرف الهرم ٠

٣ ــ احترام النـاس للأمراء بالوقوف ٠ ولكن الأمير رفض أن يجعله يقف ٠ واحترم سنه ٠

٤ ــ طلب الأمير من الساحر بأدب وبتقدير بأن يذهب معه الى والده الملك « خوفو » ووعده بتمجيده وبنـاء قبر له بين قومه ــ عندما يحقق هذه الزيارة ويجيب الملك الى طلبه ٠

٥ — الدعوة للأمير لها معنى هام وهو انتصار « **القرين** » على قوى الشر (والقرين هى الروح الملموس الذى يصاحب الميت فى قبره ، فى حين أن « **البا** » هى الروح التى تصعد الى السماء فور حدوث الوفاة • أما « **ظل** » الانسان فهو جزء من مكونات الانسان وقد دعا له أن **يتبع ظله طريق الجنان** •

٦ — سلوك الأمير الخلقى (وهو سمة قومية) بمســاعدته شـخصيا للرجل المسن ولم يترك هذه المسألة لأى من أتباعه • بل أخذه معه فى قاربه فى حين أخذ المساعدين — ومعهم الكتب — قارب آخــر •

٧ — لما اقترح الملك احضار سجين لقطع رقبته رفض الساحر أن يجرى تجربته على انسان قد يفقد حياته فى حالة فشل التجربة ، بل طلب اجراء تجربته على طائر أو حيوان •

٨ — أجرى الساحر التجربة على البطة ثم الأوزة ثم البقرة أى على طائر وحيوان ولكن ليس على رأس انسان •

٩ — رغم قدرة الرجل السحرية الا أنه لم يتفاخر كذبا بمعرفته بمخبأ سر الاله تحوتى • بل قال بأن من يحضره الى جلالته « **شخص له أهميته** » •

١٠ — **النبوءة** هى المغزى الأصــلى من القصــة وهى أن ملوك الأسرة الخامســة ســيكونون أولاد كهنة رع • والابن الأكبر هو الذى سيملك هذا السر وسيجلس بقوته هو وأخوته على عرش مصر (وهم الملوك الثلاثة الذين تركوا أهراماتهم الثلاثة فى أبى صير بالقرب من سقارة) •

١١ — عندما لاحظ الساحر بأن الملك حزن لذلك طمأنه بأن ابنه وحفيده سيتبعونه على العرش ، وذلك لكى يخفف عنه أثر هذا الخبر

١٢ — لم يحدد الساحر الوقت بالضبط ، بل وعد بزيارة « رع » لمعرفة الوقت •

١٣ — قام الفرعون بمكافأة الساحر تقديرا لعلمه ولقدرته الخارقة على الاتيان بالأعمال الخارقة ، رغم أن الملك قد أحس بالحزن فى قلبــه •

« قصة الفلاح الفصيح » (٤٩٦)

ان سبب شهرة هذه القصة حتى بين طبقات أنصاف المتعلمين حتى يومنا هذا يرجع الى أن موضوعها موضوع خالد وهو فساد طائفة من الموظفين والمفروض فى الموظف أن يكون منصفا ويتصف بالكفاية والأمانة والكفاءة وبانصاف الحق . ويرجع كتابة هذه القصة الى عهد الدولة الوسطى . ويقول عنها العلامة « سليم حسن » تحت عنوان « **العدالة الاجتماعية وتعميم المسئولية الخلقية فى عهد الدولة الوسطى** » :

« لم ينشأ هذا النظام الحكومى الدقيق ، ولم تظهر تلك الصفات والأخلاق الكريمة التى كان يتخذها حكام الدولة الوسطى نبراسا يسيرون على ضوئه من تلقاء نفسها ، بل ترجع الى عوامل اصلاح اجتماعية كانت قد بدأت ترسم خطتها منذ أن قلبت الأوضاع الاجتماعية على أثر سقوط الدولة القديمة ، وانهيار الملكية الضعيفة البغيضة ، وقيام حكم أمراء الاقطاع واستئثارهم بالسلطة . وقد قام بحملة الاصلاح هذه **كتاب اجتماعيون** قد فصلنا الكلام فيما قام به كل منهم ، فبعضهم كان متشائما ، وآخر كان متفائلا بعض الشىء . وقد رأينا بعض أولئك المتفائلين فى المستقبل ، وأن الملك العادل الذى يتوقع مجيئه قد يكون عاجزا عن أداء رسالته دون أن يساعده طائفة من الموظفين العدول . ولابد أن القارىء قد أدرك فى **قصة الفلاح الفصيح أن الغرض** منها هو المساعدة على **انشاء طائفة من الموظفين المتصفين بالكفاية والأمانة** حتى يقوم على أكتافهم بناء طبقات العهد الجديد الذى تسود فيه **العدالة الاجتماعيه** . والآن لا يسعنا الا أن نتساءل عما اذا كانت تلك المقالات الاجتماعية التى وضعها أعلام الفكر فى هذا العصر قد أصبحت هى الحقيقة المعبرة عن القوى الاجتماعية التى كانت تجيش فى صدور الشعب فى ذلك العهد ؟ والواقع أن هذه المقالات الاجتماعية كان لها أثر عظيم فى نفوس الشعب المصرى فى ذلك العهد ، وفى العهود التى تلت لدرجة أنها كانت تتخذ بمثابة نموذج أدبى يحتذى حذوه فى عهد الدولة الحديثة ، اذ قد عثر على بعض شظيات فى عهد الدولة الحديثة كتب عليها أجزاء من « قصة الفلاح الفصيح » . غير أن لدينا أسئلة أخرى ، وهى هل هذه الوثائق التى عثرنا عليها حتى الآن ، وهى الخاصة بكشف النقاب عن حالة قدماء المصريين الاجتماعية والحكومية فى العهد الاقطاعى ، تدل على أن تلك الحملة الكتابية المقدسة التى قامت فى سبيل ارجاع العدالة الاجتماعية قد أدت الى النتيجة التى كان ينشدها الكتاب ؟ » (٥٩٦) .

ونأتى الى مضمون القصة والتى أطلق عليها علماء الآثار « شكاوى » الفلاح وكتبت بتعابير غاية فى الرشاقة والبلاغه والفصاحة ، فهى تحتوى

على تسع خطب فى ثوب شكاو من أبدع وأروع ما قيل بسبب **حادث ظلم** وقع له • ومحور هذه الخطب **مدح العدل وذم دناءة الموظفين** •

« شكاوى الفلاح الفصيح » (٤٩٧)

« وقد وقعت حوادث هذه القصـــة فى عهد الملك « نب كاو رع » أحد ملوك هراكليوبوليس (أهناس المدينة الحالية) ويحمل لقب « خيتى » وقد حكم البلاد فى نهاية الألف الثالثة قبل الميلاد • وتتلخص القصة فى أن فلاحا من مقاطعة الفيوم من اقليم وادى النطرون كان يسكن ببلدة تســـمى حقل النطرون • واتفق أن هذا الفلاح وجد مخازن غلاله تكاد تكون خاوية ، فحمل حميره محصولات قريته واتجه نحو أهناس طلبـا للمبادلة بالغلال وقد كان عليه أن يمر فى طريقه الى العاصمة بمنزل « تحوتى نخت » أحد موظفى « رنزى » الذى كان المدير العظيم لبيت المـال • وقد راقت هذه الحمير فى عين « تحـــوتى نخت » **فدبر حيلة** للاستيلاء عليها عنوة هو وأتباعه ، فاتخذ من أكل أحد الحمير بضع سيقان من القمح سببا لضرب الفلاح ضربا مبرحا واغتصاب حميره • وقد مكث بباب « تحوتى نخت » أربعة أيام يرجو فيها ارجاع حميره ولكن بدون جدوى • ولما علم هذا الفلاح بشهرة عدالة « رنزى » المدير العظيم لبيت الملك • ولى وجهة شطر المدينة **ليشكو** اليه ما حاق به ، ولحسن حظ الفلاح صادف المدير العظيم لبيت المال وهو يتأهب لركوب قاربه فأخذ يقص عليه ما أصابه بلغة فصيحة مما استرعى سمعه فأرسل أحد خدمه ليسمع قصـــة الفلاح • ولما عاد وأخبر « رنزى » بسرقة « تحـوتى نخت » للحمير ، عرض المدير العظيم لبيت المال الموضـــوع أمام زملائه من الموظفين وقد حذق المؤلف فى جعل جوابهم يتفق مع ما يحدث فى مثل هذه الأحـوال ، وهو **تحامل الموظف على الفقير فى الدوائر الحكومية مهما كان الحق فى جانبه** ، ولذلك نرى أن زملاء المدير الكبير لبيت المال قد انحازوا الى جانب « تحوتى نخت » وأجابوا « رنزى » بفتور عظيم بأن المسألة ربما كانت تنحصر فى موضوع فلاح قد دفع ما عليه من الضرائب خطأ لرئيس غير رئيسه ، وأن « تحوتى نخت » قد استولى بحق على ما يستحقه من الضرائب • ثم تساءلوا فى غضب : هل سيعاقب « تحوتى نخت » من أجل قليل من النطرون وقليل من الملح ؟ فليطلب اليه أن يعيدها وهو لا يتأخر » • ويلاحظ أنه من خصائص هذه الطبقة أنهم **يتجاهلون الحمير التى هى بيت القصيد والتى يسبب ضياعها موت هذا الفلاح واسرته جوعا** • وعندما سمع الفلاح بذلك تقدم الى « رنزى » وأخذ يقص عليه شكايته بفصاحة ولباقة :

الشكوى الأولى :

« عندئذ أتى هذا الفلاح ليقدم ظلامته الى مدير البيت العظيم « رنزى » ابن « مرو » فقال : « يا مدير البيت العظيم ، يا سيدى ، يا عظيم العظماء ، يا حاكما على ما قد فنى وما لم يفنى (أى حاكما على كل شىء) ! واذا ذهبت الى بحر العدل وسحت عليه فى نسيم عليل ، فان الهواء لن يمزق شراعك وقاربك لن يتباطأ ، ولن يحدث لساريتك أى ضرر ، ومرساك لن يكسر ، ولن يغوص (قاربك) حينما ترسو على الأرض . ولن يحملك التيار بعيدا ، ولن تذوق أضرار النهر ، ولن ترى وجها مرناعا . والسمك القفاز سيأتى اليك وستصل (يدك) الى أسمن طائر . انك أب لليتيم ، وزوج للأرملة ، وأخ المهجورة ، ومئزر لذلك الذى لا أم له (أى أنك لباس للطفل الفقير الذى ليس له أم تصنع له لباسا) . دعنى أجعل اسمك فى هذه الأرض فوق كل **قانون عادل** ، فتكون حاكما خلوا من الشره وشريفا بعيدا عن الدنايا **ومهلكا للكذب ومقيما للعدل** ، رجلا يلبى نداء المستغيث انى أتكلم ، فهل لك أن تسمع ؟ أقم العدل أنت يأيها الممدوح الذى يمدح من الممدوحين . اكشف عنى الضرر انظر الى ان حملى ثقيل « اختبرنى ، انى ضعت » .

مقدمة الشكوى الثانية :

وقد اتفق أن هذا الفلاح قد ألقى هذه الخطبة فى عهد الملك « نب كاو رع » .

وقد ذهب المدير العظيم للبيت « رنزى » بن « مرو » أمام جلالته وقال : « سيدى لقد عثرت على أحد هؤلاء الفلاحين ، وفى الحق انه فصيح ، وهو رجل قد سرق متاعه ، وانظر انه قد حضر ليتظلم لى من أجل ذلك » .

عندئذ قال جلالته : « بقدر ما تحب أن ترانى فى صحة ، دعه يتباطأ هنا دون أن تجيب عن أى شىء قد يقوله . ولأجل أن تجعله يستمر فى الكلام لزم الصمت . ثم أمر بأن يؤتى لنا بذلك مكتوبا حتى نسمعه ولكن مد **زوجته وأطفاله بالمئونة** ، ثم انظر لابد أن يأتى أحد الفلاحين الى مصر وذلك بسبب فقر بيته . وزيادة على ذلك مد هذا الفلاح نفسه . فلابد من أن تأمر باعطائه الطعام دون أن يعلم أنك أنت أعطيته اياه » . وعلى ذلك أعطى عشرة أرغفة وابريقين من الجعة كل يوم . وقد تعود رب البيت العظيم « رنزى » بن « مرو » أن يعطى تلك الأشياء أحد

أصدقائه وكان هذا يعطيها اياه (الى الفلاح) • ثم ان المدير العظيم للبيت « رنزى » بن « مرو » أرسل الى شيخ بلده « سخت حموه » ليضع الطعام لزوج ذلك الفلاح ومقداره ثلاثة مكاييل من القمح كل يوم •

الشكوى الثانية :

ثم ان هذا الفلاح قد أتى ليتظلم له مرة ثانية وقال : « يأيها المدير العظيم للبيت الملكى ، يا سيدى ، يا عظيم العظماء ، يا أغنى الأغنياء ، يا من عظماؤه لهم واحد أعظم منهم ، يا من أغنياؤه لهم واحد أغنى منهم • أنت يا ساكن السماء ، ومثقال ميزان الأرض ، ويا خيط الميزان الذى يحمل الثقل ، يأيها السكان **لا تنحرف** • يا مثقال الميزان لا تتحول ، ويا خيط الميزان **لا تتذبذب** • ان السيد العظيم يأخذ (فقط) مما ليس له مالك وينهب واحد (فقط) • ان أودك فى بيتك ، قدحا من الجعة وثلاثة رغفان • وما الذى يمكن أن تصرفه لاطعام عملائك ؟ على أن الانسان سيموت مع خدمه ، وهل سيكون رجلا « مخلدا » ؟ •

أليس من الخير ـ ميزان يميل وثقل ينحرف ورجل مستقيم يصير معوجا ؟ تأمل **ان العدل يفلت من تحتك** وذلك لأنه أقصى عن مكانه فالحكام يشـــاغبون ، وقاعدة الكلام تنحـاز الى جانب ، والقضـــاة يتخاطفون ما اغتصبه (؟) ومعنى ذلك أن محرف الكـلام عن دقته يخرجـه عن معناه (؟) فمانح النفس يتلاشى على الأرض ، وذلك الذى يأخذ راحته يجعل الناس يلهثون ، والمحكم متلف ، ومبيد الحاجات يأمر بصنعها ، والبلدة فيضان لنفسها والمنصب مشاغب •••

ثم قال المدير العظيم للبيت « رنزى » بن « مرو » ، هل تعتقد فى قلبك أن ممتلكاتك أمر أهم من أن يقصيك خادمى ؟ » [قاطع « رنزى » الفلاح بسؤال خشن : أيهما أهم لديك المتاع الذى تدعيه أو الضرب بالعصا اذا استمررت فى شكايتك ؟ غير أن الفلاح لم يعره اهتماما] •

وقال هذا الفلاح : ان كيال أكوام الغلال يعمل لمصلحته الشخصية وذلك الذى يجب عليه أن يقدم حســابه تاما يجور على متـــاع غيره ، **وذلك الذى يجب عليه أن يحكم بمقتضى القانون يأمر بالسرقة • فمن ذا الذى يكبح الباطل ؟** وذلك الذى يجب عليه أن يقضى على الفقر يعمل بالعـكس • ويسير الانســـان الى الأمام فى الطريق المســتقيم بواسطة منحنيات • وآخر ينال الشهرة بالأضرار فهل تجد لنفسك هنا أى شىء ؟ [قد يقصـد بها : هل تجـد نفســك ينطبق عليها هنـا وصف من هذه

الأوصاف ؟] « **ان اصلاح الخطأ قصير ولكن الضرر طويل** [ان الضرر يستمر مدة طويلة فى حين أن اصلاحه لا يحتاج الا الى فترة قصيرة ، فانصاف الفلاح يتوقف على اصغاء « رنزى » الى شكايته مدة قصيرة] والعمل الطيب يعود ثانية الى مكانه بالأمس ٠ والواقع أن الحكمة تقول : « **عامل الناس بما تحب أن تعامل به** » ، وكذلك كشكر انسان على ما يعمله ، وكمنع شيء قبل تشكيله مع أن الأمر قد أعطى للصانع ٠

يتمنى الشر للأمير : ليت لحظة تخرب ، فتجعل كرمك رأسا على عقب ، وتفتك بطيورك وتودى بدواجنك المائية ٠ فالمبصر قد غشى بصره والمستمع قد صم ، وذلك الذى كان يجب أن يكون مرشدا أصبح مضللا ٠

« تأمل انك قوى شديد البأس ، وانك نشيط الساعد وقلبك مفترس ٠ **وقد تخطتك الرحمة** ، ما مقدار حزن الرجل الفقير الذى قضى عليه بجوارك ؟ ومثلك كرسول التمساح بل انك تفوق « ربة الوباء » (هى الالهة سخمت) فاذا كنت لا تملك شيئا فهى لا تملك شيئا كذلك ، واذا كانت لا تدين بشيء فكذلك أنت لا تدين بشيء ، واذا كنت لا ترتكبها فهى ترتكبها كذلك ٠ وذلك الذى يملك خبزا يجب أن يكون رحيما ، وان كان المجرم فظا ٠ على أن السرقات أمر طبيعى لمن لا متاع له وكذلك خطف المجرمين لأمتعة الغير ٠ حقا انه عمل مشين الا أنه لا مندوحة عنه ٠ ويجب على الانسان ألا يصوب اللوم اليه لأنه يبحث لنفسه [ان الانسان يعذر المحتاج اذا سرق ولكنه لا يعذر رجلا غنيا كالمدير العظيم للبيت] على أنك قد غصصت بخبزك وسكرت بجعتك ، انك غنى ٠ ان وجه مدير السكان متجه الى الأمام (ومع ذلك ؟) فان القارب يتجه كما يشاء ٠ فالملك فى داخل قصره ، والدفة فى يدك ، ومع ذلك فان المشاغبات منتشرة فى جوارك ٠ ان عمل الشاكى طويل **والفصل فيه يسير ببطء** ، ويتساءل الناس ما معنى ذلك الرجل الذى هناك [حرفيا : يتساءل الناس : من هو ذلك الرجل الذى يتلكأ مع المدير العظيم للبيت الملكى] ٠ كن معينا حتى تظهر قيمتك واضـــحة ، تأمل أن مســـكنك قد أصبح موبوءا ٠ **اجعل لسانك يتجه الى الحق ، ولا تضل** ٠ وان لسان الرجل قد يكون **سبب تلفه** ٠

« لا تقل الكذب ٠ **واحترس من الموظفين** ٠ ان قول الكذب نباتهم ، ومن المحتمل أن يكون خفيفا فى قلوبهم ٠ وأنت يا أكثر الناس علما ، هلا تريد أن تعرف شيئا عن أحوالى (؟) وأنت يا من تقضى حـوائج الماء تأمل فانى أملك مجرى ماء من غير سفينة ، وأنت يا مرشد كل غارق الى البر نج من غرقت سفينته ، نجنى (؟) ٠٠٠٠ » ٠

الشكوى الثالثة :

ثم حضر هذا الفلاح مرة ثالثة ليشكو فقال : **يأيها المدير العظيم** للبيت ، يا سيدى . انك « رع » رب السماء فى صحبة حاشيتك . ان أقوام بنى الانسان منك لأنك كالفيضان . وأنت كاله النيل الذى يخلق المراعى الخضراء ويمد الأرض القاحلة . **ضيق الخناق على السرقة . وارحم الفقير** . ولا تكون كالسيل ضد الشاكى ، **واحذر من قرب الآخرة** . ارغب فى أن تعكش طويلا كما يقول المثال : **ان اقامة العدل** هو « نفس الأنف » عاقب من يستحق العقاب وليس هناك شىء يماثل الاستقامة . هل الميزان يتحول ؟ وهل يميل لسانه الى جهة ؟ **هل يظهر « تحوت »** تساهلا ؟

فاذا كان الأمر كذلك فيمكنك أن ترتكب أضرارا . واجعل نفسك معادلا لهذه الثلاثة ، فاذا أظهرت الثلاثة تساهلا فكن متساهلا . **ولا تجب على الخير بالشر** . ولا تضعن شيئا مكان آخر (ورد ذكر هذه الحكمة فى تعاليم « نتاح حتب ») كيف ينمو الكلام أكثر من عشب خبيث ـ أكثر مما يتفق مع من يشمه ! فلا تجيبن عليه وعلى ذلك تروى المتاعب وينمو عليها غطاء وقد كان لديه ثلاث فرص تحمله على أن يعمل (؟) قد الدفة على حسب الشراع [هل معنى ذلك : أرشد السفينة كما يتطلب الريح ، أى اعترف بشكايتى والا فاننى سأستمر فى الكلام كالفيضان] .

وصد الفيضان على حسب ما يقتضــه العدل . واحترس من أن تصطدم على الشاطىء مع حبل السكان . **وان أصدق وزن للبلاد هو اقامة العـدل . ولا تكذبن وأنت عظيـم** . ولا تكونن خفيفا وأنت رزين . ولا تقولن الكذب ، فانك الميزان ولا تنكمش ، فانك الاستقامة . انظر انك على مستوى واحد مع الميزان فاذا انقلب انقلبت أيضا . لا تحيدن بل أدر السكان واقبض على حبل الدفة . **لا تغتصبن بل اعمـل ضـد المغتصب** . وذلك العظيم ليس عظيما مادام جشعا . **ان لسانك هو ثقل الميزان . وقلبك هو ما يوزن به ، وشفتاك هما ذراعاه** . فاذا سترت وجهك أمام الشرس فمن ذا الذى يكبح الشر ؟ .

« تأمل أنك غسال يائس . وشخص جشع لاتلاف صاحبه ، يهجر شريكه من أجل عميله .

« تأمل أنك نوتى تعبر بمن معه الأجر ، ورجل مستقيم فى معاملته ولكن تلك الاستقامة أصبحت مذبذبة .

« تأمل أنك رئيس مخابز لا يسمح لأحد خلو (مفلس) أن يمر اهمالا (؟) .

« تأمل أنك صقر لعامة القوم يعيش على أحقر الطيور .

« تأمل أنك مورد سروره الذبح ، اذ لا يوقع عليه التقطيع .

« تأمل أنك راع لا .... وليس عليك أن تدفع . ولذلك يجب عليك أن تظهر شراهة أقل من تمساح جشع ، والأمان قد انتزع من كل مساكن البلاد قاطبة . أنت يأيها السامع ، **انك لا تصغى . ولماذا لا تصغى ؟** واليوم قد كبحت جماح المتوحشين ، وتقهقر التمساح وما الفائدة التي تعود عليك ، وقد وجد سر الصدق وسقط ظهر الكذب على الأرض . ولكن لا تتجهز [يظهر أن الفلاح يحذر « رنزى » **من الثقة** النامة بالمستقبل ، فمن يعرف ما تكون عليه نتيجة ظلمه] للغد **قبل أن** يأتى ، **لأن الانسان لا يعلم المتاعب التي ستواجهه** » (٤٩٨) .

وقد قال الفلاح هذا الكلام الى المدير العظيم للبيت « رنزى » بن « مرو » عند مدخل قاعة المحكمة ، ثم أمر حاجبين أن يتعهداه بسياط وقد أثخناه ضربا بالسياط فى كل أجزاء جسمه .

عندئذ قال هذا الفلاح : « ان ابن « مرو » **لا يزال مستمرا فى غيه** وان حواسه قد عميت عما ينظر ، وصمت عما يسمع ، **وقد ضل عما** ينسب اليه . **انظر ان مثلك كمثل بلد لا عميد لها [العميد هنا هو شيخ البلد]** ، أو كطائفة لا رئيس لها . أو كسفينة لا ربان لها ، **أو كعصابة أشقياء** لا مرشد لها .

انظر **انك حاكم يسرق** وعميد قرية يقبل (الرشوة) **ومفتش اقليم** كان يجب عليه أن يقطع دابر التخريب لكنه أصبح نموذجا للجرم » .

الشكوى الرابعة :

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح ليشكو للمرة الرابعة ووجده خارجا من معبد « أرسافيس » [اله منطقة أهناس] ، **فقال له : « أنت أيها الممدوح ،** ليت « أرسافيس » الذى تخرج من معبده يمدحك . لقد قضى على الخير **وليس له اندماج حقا** . وقد ألقى الكذب على الأرض . **هل أحضر قارب التعدية** الى البر ؟ بماذا اذن يمكن الانسان أن يعبر ؟ **على أن هذا العمل** لابد أن ينفذ كرها (؟) وهل عبور النهر بالنعال طريقة حسنة ؟ لا .

ومن ذا الذى يتمنى أن ينام الآن حتى مطلع الفجر ؟ لقد قضى على السير ليلا ، والسياحة نهارا ، والسماح للانسان أن يتعهد قضيته الحقة . انظر انه لا فائدة لمن يقول لك : **ان الرحمة قد تخطتك فما أعظم حزن الرجل الفقير الذى قد خرب بسببك »** .

« انظر انك صياد يشفي غليله ، وانسان منغمس فى ارضاء ملاذه فيصيد جاموس البحر ، ويخترق (نبله) الثور الوحشى ، ويضرب السمك ، ويرمى شباكه للطيور . على أنه لا يوجد انسان متسرع فى كلامه يخلو من العثار . [أى أن تسرع « رنزى » يجعله ظالما] وليس هناك شخص خفيف القلب يقدر أن يكون حازما فى كبح شهواته . كن صبورا حتى يمكنك أن تصل الى العدل . اكبح جماح اختيارك حتى أن الشخص الذى تعود أن يدخل بسكون يمكنه أن يكون سعيدا . على أنه لايوجد انسان طائش يجيد عملا ، ولامتسرع تطلب مساعدته . اجعل عينيك تتأملان ، وعلم قلبك . ولا تكونن شديدا بمقدار قوتك خوف أن يحيق بك المكروه ... الذى يأكل هو الذى يتذوق ، والذى يخاطب يجيب ، والنائم يرى الحلم [ثلاثة أحوال للعلة والمعلول ، فكما أن المعلول يتبع العلة في هذه الأحوال الثلاثة **فكذلك يكون القاضى المتهم نموذجا للمجرم]** أما القاضى الذى تجب معاقبته فانه يكون نموذجا للمجرم . تأمل أيها الأحمق فانك قد ضربت . تأمل أيها المغفل فانك سئلت ، وأنت يا نازح الماء ، تأمل فانك قد دفنت . وأنت يا مدير السكان لا تجعل قاربك يرتطم . وأنت يا معطى الحياة لا تود بأحد ، ويا مخربا لا تسببن خراب أحد . ويأيها الفتى لا تكونن كحرارة الشمس . ويأيتها الحمى لا تجعلن التمساح يفترس . والآن هل سأقضى طول اليوم فى الشكوى الرابعة ؟ » (٤٩٩) .

الشكوى الخامسة :

ثم أتى هذا الفلاح يشكو للمرة الخامسة وقال : يأيها المدير العظيم للبيت يا سيدى ... لا تحرمن رجلا رقيق الحال من أملاكه ، ولا ضعيفا تعرفه ، **فان أملاك الرجل الفقير بمثابة النفس له** ومن يغتصبها يكتم أنفه [الأنف هى مركز الحياة] لقد نصبت لتسمع الشكاوى وتفصل بين المتخاصمين وتضرب على يد السرقة ولكن تأمل فان ما تفعله هو أنك تنحاز الى اللص . والانسان يضع أمله فيك ولكنك أصبحت معتديا . لقد نصبت سدا للفقير لتحفظه من الغرق ولكن تأمل فانك تياره السريع » .

الشكوى الثامنـة :

وبعد ذلك أتى هذا الفلاح ليشكو مرة ثامنة فقال : « يأيها المدير العظيم للبيت الملكى ، يا سيدى : ان الناس يتحملون السقوط بسبب الطمع ، والرجـل المغتال يعوزه النجاح ولكنــه ينجح فى الخيبة · انك جشـع وذلك لا يتفق معك ، انك تسرق وذلك لا يليق بك · أنت يا من يسمح للانسان بأن تشرف على قضيته الحقة ذلك لأن ما يقيم أودك فى بيتك ، ولأن جوفك قد ملىء ، ولأن مكيال القمح قد طفح ، فاذا هز طفح يضاع على الأرض ·

« آه أنت يا من يجب عليه أن يقبض على اللص ويا من يبعد الحكام وقد نصبوا ليدرءوا الســوء ، وهم حمى للمعوز · والحكام قد نصبوا ليقضوا على الكذب · وليس الخوف منك هو الذى يجعلنى أشكو اليك · انك لا تبصر ما فى قلبى · وانه لانســان صامت من يجعله يرتد دائمــا عن توبيخك ، ولا يخاف ممن يطالبه بحقوق ، وان أخاه لا يؤتى به اليك من قارعة الطريق : [هنا يفاخر الفلاح بأن مثيله لا يوجــد فى أى ركن من أركان الطريق] ·

« انك تملك قطعة أرضك فى الريف · ومكافأتك فى ضــياع الملك وخبزك فى المخبز والحكام يعطونك ، ومع ذلك تغتصب ، هل أنت لص ؟ هل يؤتى لك بجنود لتصاحبك عند تقسـيم قطع الأرض ؟ [هل تأخذ معك جنودا لتساعدك على السرقة عندما تقسم قطع الأرض ؟] « أقم العدل لرب العدل ، الذى أصبحت عدالته موجودة · [ربما يقصد برب العدل اله الشمس « رع » الذى يعيش بالعدل] أنت يأيها القلم ، وأنت يأيتها البردية ، ويأيتها الدواة ، ويا « تحوت » ابتعدوا عن عمل السوء ، وعندما يكون الحق حقا فهو اذن حق لأن العمــل أبدى ، ويذهب مع من يعمله الى القبر · وسيدفن ·وتطويه الأرض أما اسمه فلن يمحى من الأرض بل سـيذكر بسبب الحق وهكذا عدل الله فى كلمته ، هل هو ميزان ؟ انه لا يميل ، هل هو لسان الميزان ؟ انه لا يحيد الى جانب (لا يزن غشا) واذا حضرت أو حضر غيرى فأجبه ولا تجيبن كانسان يخاطب رجلا صامتا أو كانســان يهاجم من لا يمكنــه أن يدافع ، انك لا تظهر الرحمة ، انك لا ترق ، انك لا تغنى (؟) ولا تعطنى مكافأة على تلك الخطب التى تخرج من « فم رع » نفسه . انطق بالعدل واقم العدل لانه عظيم وكبير ويعيش طويلا ، والاعتماد عليه يؤدى الى العمر الطويل المحترم ، هل الميزان يحيد ؟ فاذا كان الأمر كذلك فان ذلك يكون بسبب كفتيه اللتين تحملان الأشياء [الثقل والأشياء التى توزن] ولا يجوز بخس فى العدل ، وان

العمل الحقير لا يصل الى المدينة على أن أصغر الأشياء (؟) ستصل الى الريف » (٥٠٠) .

ثم يأتى بعد ذلك الشكوى التاسعة وهى لا تخرج عن هذه المعانى .

ونرى من هذه الشكاوى الفصيحة أنها تصف لنا ما آلت اليه البلاد فى تلك الفترة الصعبة من تاريخ البلاد ، كما وصفتها كل الوثائق الأدبية التى وصلت الينا من هذا العصر » (٥٠٠) .

التعليق : اننى وجدت أن أنقل نص الشكاوى تفصيليا من كتاب « مصر القديمة » ففيها ما يهم القارىء أن يعرفه عن فحوى الشكاوى ومعنى العدالة والتذكرة بيوم الحساب [حيث الميزان العادل الذى لا يميل لأى جانب] وفى هذا ما يشبه ما ينطق به فلاح اليوم الطيب الذى ينتظر العدالة من رب العدل [الله جل جلاله] بقوله « الله فوق الظالم ، و « لك يوم يا ظالم » و « حسبى الله ونعم النصير » . اننى كلما أقرأ نصوص الشكاوى وأتأملها أقول ان « فلاحنا الفصيح » حى بيننا .. انه لسان حالنا كلنا عندما نتعرض للظلم وخصوصا من الموظفين المنحرفين الفاسدين . اننى أسجل هنا **سمة هامة من السمات المصرية وهو أن المصرى لا يسكت على الظلم بل يشكو ويشكو** .. يشكو الظالم لمن هو أعلى منه ، وحتى لو لم ينصفه صاحب السلطة يشكوه لله « الذى يمهل ولا يهمل » ، لقد كان قدماء المصريين يقدسون « ماعت » اله الحق والصدق والعدالة لأنهم يرون أن تحقيق العدالة الاجتماعية هى الأمان والضمان لهم فى الحياة وحتى فى عصرنا الآن نجد على مدخل المحاكم « العدل أساس الحكم » حتى ولو لم يقم بها بعض المنحرفين . لو عرف الناس جميعا معنى العدالة وطبقوها لما احتجنا للمحاكم ولكن طالما يوجد أناس منحرفون ــ وما أكثرهم ــ فلا بد من السعى الى اقامة العدالة . اننا نجد الفلاح الذى تعرض لحادث ظلم وقع له **يمتدح العدل ويذم دناءة الموظفين المنحطين** . ويا ليت هناك وسيلة للتعرف على الموظفين الأمناء الجديرين بتحمل أمانة ومسئولية الوظيفة . فالموظف مثل القاضى العادل اذا ما حسنت النية واحترم ذاته وأحس بقيمة الانسان داخله فلن يقلد الكلب الذى يلعق العظمة عندما يأخذ رشوة ويحيد عن الحق وينسى قول الشاعر :

«أقبل على النفس واستكمل فضائلها ... فأنت بالنفس لا بالجسم انسان»

ان الفلاح المظلوم لجأ الى المدير العظيم لبيت المال عندما علم « بشهرة عدالة « رنزى » هذا » ٠ ونجد « رنزى » العادل يعرض موضوع الشكوى أولا على زملائه الموظفين ليرى مدى عدالتهم فى تناولهم مثل تلك المظالم ٠ ويظهر من ردودهم انحيازهم الى جانب الظالم «تحوتى نخت» ويحاولون ايجاد تبرير لأفعاله بعيدة عن الحقيقة ٠ فالموضوع هو الاستيلاء على الحمير أى ممتلكات الفلاح التى بدونها سيتضور هو وعائلته جوعا ، وباستخفاف يتناولون الموضوع كأنه مجرد « أخذ قليل من النطرون وقليل من الملح » ويتساءلون باستنكار اذا ما كان يجب معاقبة « تحوتى نخت » على هذا العمل ؟ والأكثر من ذلك انهم حاولوا ايجاد سبب لتصرفه بأنه ربما الموضوع موضوع دفع ضرائب خطأ !!! لقد حذق المؤلف أن يظهر « **تحامل الموظف على الفقير فى الدوائر الحكومية** » الذين يهتمون بأشياء فرعية ويتركون بيت القصيد وهى موضوع سرقة الحمير ٠

وفى الشكوى الأولى نجد الفلاح يذكر الصفات الواجب وجودها فى الحاكم العادل : فيخاطبه « انك أب لليتيم ، وزوج للأرملة ، وأخ المهجورة ، ومئزر لذلك الذى لا أم له » ويرى أن الحاكم العادل يخلو من الشره والكذب وأنه لابد أن يلبى نداء المستغيث ٠ وفى الشكوى الثانية يخاطبه باصطلاح تعنى العدالة « مثقال ميزان الأرض ، وخيط الميزان » ثم تساءل بذكاء عن تخاذل منفذى القانون وأخذ يردد أمامه الحكم المتداولة وقتها مثل « عامل الناس بما تحب أن تعامل به » واستنكر أن تكون أفعال الضمير تحمى الظالم فيقول « وذلك الذى يجب أن يحكم بمقتضى القانون يأمر بالسرقة » ٠ « فمن ذا الذى يكبح الباطل ؟ » و « ذلك الذى يجب عليه أن يقضى على الفقر يعمل بالعكس » ومن ضيقه تمنى الشر للأمير ، ولم يكتف بذلك بل أعطاه درسا فى الأخلاق « ذلك الذى يملك خبزا يجب أن يكون رحيما واذا كانت السرقة ضرورة للمجرم فهى ليست كذلك بالنسبة للأغنياء خصوصا القائمين على تنفيذ العدل ولكنهم لا يفعلون ٠ ونتيجة **لبطء العدالة وتراخى المسئولين** الذين يمسكون الدفة فى أيديهم فان المشاغبات منتشرة ٠

وفى الشكوى الثالثة **يقوم بتذكيره بالآخرة** وأن اقامة العدل ضرورة حتى يتم محاسبة السارق ورحمة الفقير ٠ ولا يصح أن يكذب رجلا عظيما !! ويقوم بتشبيهه ببلد بلا شيخ بلد بها أى فى حالة فوضى وبعميد القرية الذى يرتشى أى فاسد ومنحرف . وفى الشكوى الرابعة والخامسة يعيد تذكرته بدوره فى حماية الفقير فان « **أملاك الفقير بمثابة النفس له ومن يغتصبها يكتم أنفه** » وعندما فاض به الكيل وطفح وجه اليه اتهامات مباشرة « انك جشع وذلك لا يتفق معك ، انك تسرق وذلك

لا يليق بك » ولأن القصة هكذا ينقصها المغزى الواضح منها وهو دور الملك فى اقامة العدالة فاننى وجدت أن أستكمل ما نقص منها ۰ فرغم أن « برستيد » عرضها فى كتاب فجر الضمير باختصار الا أنه استكمل المعنى المستخلص منها لذلك سأضيف الفقرات التى تنقص هذا النص المذكور فى كتاب مصر القديمة ۰ ففى قصة « برستيد » يتحدث عن المؤامرة التى دبرها « تحوتى نخت » لكى يستولى على ممتلكات الفلاح من النطرون والملح والحمير « فأرسل على الفور أحد الخدم الى منزله فجاء بصندوق مملوء بنسيج الكتان فأخرج النسيج ونشره على الطريق العام أى غطاها كلها ، من حافة حقله المزروع قمحا (٥٠١) ۰ الواقع على الجانب الأعلى من الطريق الى ماء الترعة الذى يقع فى الجانب المنخفض منها ۰ وكان ذلك الفلاح البرىء - كما تقول القصة - يتقدم فى سيره على الطريق العامة ككل الناس ، وهى التى سدها « تحوتى ناخت » المذكور بنسيجه ذلك ، ولما كان الفلاح يخشى السير فى الماء فى الجهة المنخفضة من الطريق فانه آثر السير بحميره المحملة فى الجهة العليا منها محاذيا حافة حقل القمح ۰ وفى أثناء السير التقم أحد الحمير بضع سيقان من جذور ذلك القمح المغرى ، فتهيأت بذلك فى الحال الفرصة المدبرة التى تمناها « تحوتى ناخت » الماكر الذى كان يترقب ذلك عن كثب ۰ وفى هذه اللحظة تقدم الفلاح الى « تحوتى ناخت » مقدما له الاحترام والخضوع لغلامه وهيئته ، ولكن بما لا يحط من كرامته ۰ فما كان من « تحوتى ناخت » المذكور الا أن زمجر وسخط وقبض على الحمير ۰ عند ذلك عاود الفلاح أيضا ظروفه فى أدب واحتشام ، ثم أردفه باحتجاج برىء فانبرى يقول : « ان طريقى مستقيمه ، وقد سد أحد جانبيها وعلى ذلك سرت بحميرى على تلك الحافة ۰ أتغتصب حميرى لأن واحد منها التقم ملء فيه من سيقان قمحك ؟ انى أعرف رب هذه الضيعة ، فهى ملك « مدير البيت العظيم » « رنزى بن مرو » ۰ أعرف أنه هو الذى يقضى على كل سارق فى أنحاء هذه البلاد ، **فهل أسرق فى ضيعته** ؟ فلما أحفظت « تحوتى ناخت » جسارة هذا الفلاح أمسك بغصن من الأثل الأخضر وأخذ يضرب فريســـته بدون رحمة ولا مبالاة بصياح الفلاح واحتجاجاته المتكررة ، واستاق كل الحمير الى منزله ۰ وقضى الفلاح المسكين أربعة أيام يرجوه فيها ارجاع الحمير بدون جدوى وطوال هذه المدة كان يتألم لبعده عن أسرته التى أشرفت على الموت من الجوع » (٥٠٢).۰

وتكملة القصة هى كالتالى : « وبعد الخطبة التاسعة يأمر الملك « مدير البيت العظيم ، أن يفصل فى قضية الفلاح ، واذ ذاك يحضر المختصون بهذا العمل سجل الضرائب الذى يحدد الناحية التابع لها ذلك الفـلاح ۰ ونفهم أن « تحوتى ناخت » قد عوقب ، وأن ممتلكات ذلك

الموظف الجشع المغتصب قد أعطيت للفلاح » (٥٠٣) هكذا نرى الصورة السيئة لموظفين المنحرفين الذين تحولوا الى لصوص واصبحوا ظالمين بدلا من أن يكونوا قائمين على تنفيذ القانون ومراعاة العدالة ـ وهو ما نراه فى زماننا وفى كل الأزمنة حيث يزداد الفساد ويزداد انحراف الموظفين ، ونرى الصورة الحسنة أيضا صورة الحاكم المنصف والقاضى طاهر اليدين والموظف المستقيم (وهو « رنزى » هنا) الذى يعطى كل ذى صاحب حق حقه ويعاقب الظالمين واللصوص • ولاتنس « حورس » ومؤازرة أمه « ايزيس » وهى مثال للزوجة المخلصة والأم الرؤوم • وانتصار الحق على الباطل وانتصار الخير على الشر هى المعانى الكبرى لهذه القصة الأسطورية • بل ان دراسة القصة تعطينا الكثير من مقومات الشخصية المصرية مثل المطالبة بالحق والوقوف الى جانبه ، ومعنى الاخلاص المتمثل فى ايزيس حيث « تقوم المرأة بدور ممتع فيها ، يمثل القدرة والمهارة والمكر والخداع واحكام الأحابيل » (٥٠٤) فعندما طلبت رأى « ست » بخصوص الزوج الذى مات وترك ابنا وحيدا يرعى ماشية أبيه ثم أتى أجنبى فأكرمته الزوجة ولكنه ضرب ابنها وأراد أن يغتصب ما تملك من ماشية فقال « ست » كيف يمكن ذلك وابن الرجل لا يزال على قيد الحيةا ؟ » (٥٠٥) فصاحت « أيزيس » وقالت له بأنه بذلك قد حكم على نفسه فهو المغتصب و « حورس » هو الوارث الشرعى للملك أبيه •

لقد قام الدكتور « سليم حسن » بعرض الآثار الأدبية عبر العصور القديمة وقد قال : « لم تخلف لنا الأسرتان الأوليان (٣٢٠٠ ـ ٣٠٠٠ ق • م) آثار أدبية قيمة غير وثيقة فى اللاهوت المصرى والفلسفة الدينية عثر عليها فى عهد الملك « شباكا » من الأسرة الخامسة والعشرين أى فى القرن الثامن ق•م » (٥٠٦) • أما عهد الأسرة الخامسة فكان « عهدا ذهبيا للفن والأدب والفلسفة الدينية فلقد أرتنا أهم وثيقة دينية ظهرت فى التاريخ • بدت تلك الوثيقة منقوشة على جدران هرم الملك « أوناس » فاتخذها رجال الدين منارة يهتدون بها طوال مراحل التاريخ المصرى ، وأخذ عظماء القوم كذلك يكتبون صحائف حياتهم ، وصلواتهم الدينية على جدران مقابرهم مما سهل علينا حل ما اعتاص من نقوشهم وخفى من رموزهم • وقد برزت الناحية الأدبية لأول مرة فى صورة كتابات عن الأخلاق والسير القويمة والمواعظ الحسنة » (٥٠٧) •

وخلال الأسرتين السابعة والثامنة ـ أى أثناء وما بعد الثورة الاجتماعية الكبرى ـ تمزقت أوصال الدولة وفقدت وحدتها السياسية وسارت فى مزالق الفوضى والاضطراب حتى اعتبر هذا العصر أكثر عهود التاريخ المصرى ظلمه وخفاء وفسادا • وقامت حروب داخلية الى أن نجح

ملوك الأسرة الحادية عشرة من توحيد البلاد ثانية . ولكن ظهر فى العصر الأهناسى (الأسرتان التاسعة والعاشرة) نوع من الأدب الراقى . » وقد يبدو غريباً أن يظهر نوع من الأدب الراقى فى هذا العصر مع ما فيه من تقاطع وتدابر وانحلال وحروب قاسية ، ولكن اذا علمنا أن الأدب الصافى ما كان وليد العاطفة ... وأن الانفعالات النفسية التى يبعثها البؤس والشقاء أعمق أثرا من تلك التى يبعثها الصفاء والرخاء .. لذلك رأينا أوصافا مؤثرة ... يريدون بها اصلاح البلاد الاجتماعى فى ظل حكومة عادلة » (٥٠٨) .

عرض وتلخيص سريع واستخلاص المعانى لبعض القصص الأخرى

« المصرى لم يهمل **التحليل النفسى** جملة بل أخذ منه بطرف كما فى قصة « سنوهيت » التى حللت لنا ناحية نفسيته حين نفى عن بلاده واشتاق الى وطنه .. ولا يضير الأديب المصرى أن تحليله خلا من العمق والروعة ، فيكفيه فخرا أنه وضع الأساس وجاء غيره فشيد على قواعده ثم جاء التطور الحديث فأعلى البناء وزخرفه ... **وأول مأساة (دراما) وضعت على صورة تمثيلية** ، كانت من فعل الأدباء المصريين وترجع بتاريخها الى عهد الأسرة الأولى . وهذه المأساة تشبه رواية تمثيل آلام المسيح وموته » (٥٠٩) .

لقد كانت قصة الصراع بين الأخوين « أوزيريس وست » هى محور قصص عديدة اختلفت بعض تفاصيلها على مر العصور حتى أن النسخة التى كتبها بلوتارخ تختلف فى تفاصيلها عن القصص السابقة والتى تغيرت فى تفاصيلها طبقا لاضافات الكتاب فى كل عصر . وقد أصبحت هذه القصة ممثلة لمعنى **النظام والملكية** وحق وراثه الابن لأبيه الشرعى بالنسبة للناحية السياسية ، أما الناحية الدينية فكانت قصة معاناة « أوزيريس » الذى اغتاله أخوه غدرا ووقفت زوجته المخلصة « ايزيس » بجانب زوجها ضد قوى الشر وأعدت ابنها حورس لأخذ الثأر من أعداء أبيه وعن طريق معرفتها بالسحر تم بعث زوجها أوزيريس - الأخ الطيب - وأصبح هو القاضى يوم الحساب . وها هو ملخص قصة الصراع التى قام بترجمة نصها الأستاذ « جاردنر » والتى كانت مودعة ضمن أوراق المتحف البريطانى .

ملخص القصة (٥١٠)

« اشتد النزاع بين الأخوين « أوزيرس » و « ست » على عرش مصر ، فاغتال « ست » « أوزيرس » ، ولكن الحياة دبت ثانية فى جسمه ، بفضل

أخته « ايزيس » فترك **دنيا الغدر** وما فيها ، وهبط يحكم فى العالم السفلى بعد أن نزل عن عرش مصر لابنه « حور » ولقد كان من الطبيعى أن يبدأ النزاع من جديد بين « ست » و « حور » على العرش مرة ثانية فتشاحنا وتخاصما الى مملكة الآلهة التى كان يرأسها الاله « رع » ، وكان « حور » يعتز فى عراكه بعدالة قضيته ، وبارثه الشرعى ، وبمساعدة « ايزيس » . وكان « ست » يعتد بقوته وجبروته ، ومعاضدة الاله « رع » له . ومن ثم كانت الأحكام الأولية فى هذه القضية فى جانبه خشية بأسه ، وفرارا من أذاه ، حتى اذا ضاقت الحلقة ، وتضافرت الأدلة كلها ضده ، بعد تهديد « أوزيرس » « لرع » ومجلسه ، ولم يجد القضاة من الآلهة فرجة ينفذون منها الى مناصرته ، **أصدروا حكمهم فى جانب الحق** ، فآل ملك مصر الى وارثه الشرعى « حور » (٥١٠) .

وقصة « أوزيريس » و « وست » مليئة بالمعانى الكثيرة مثل الغدر من جانب ست والطمع فى العرش من جانب « ست » أيضا والمطالبة بالحق الشرعى من جانب الوريث الشرعى .

وتعتبر الدولة الوسطى « العهد الذهبى للأدب (العهد الكلاسيكى) اذ ظهرت كتابة فنية خالصة عنى فيها بالناحية الفنية لذاتها ، تنتظم موضوعات منوعة قيمة من القصص والتأملات والأناشيد الدينية والدنيوية » (٥١١) وتطالعنا الدولة الحديثة « بصفحات جديدة من الأدب المصرى فيها الغناء الرائع والغزل الطريف فى تضاعيف قصائد بديعة الخيال » (٥١١) ولقد لعب الحكماء دورا بارز فى أدب الحكمة ، وكان الموظف المحترم يعتد بنفسه ويرتفع بكرامته وقد أظهر الحكمان أنه من واجب الموظف أن يكون عادلا ينتصر للمظلوم ويأخذ من الظالم ، حاذقا يعرف كيف يتغلب على الصعاب . والفلاح والصانع فى مصر القديمة (مثلما يفعلون الآن) كانا يستعينان على عملهما الشاق بغنائهما المتواضع حتى لقد كان الغناء جزءا من العمل الذى يقوم به العامل . وعن القصص المصرى يقول الدكتور « سليم حسن » (٥١٢) :

« لم تصل الينا الحياة العقلية فى مصر سلسلة متصلة الحلقات حتى نتتبعها من أولها الى آخرها ، ونسلط عليها أشعة البحث والدرس، ونخرج منها بنتيجة نقطع بها ونؤمن بصحتها . ولكنها وصلت الينا وبها حلقات مفقودة ، فلا نستطيع الا درس ما وصلنا وبناء أحكامنا عليه » (٥١٢) واننى أتناول بعض القصص الهامة بصورة مفصلة وأعرض بعض القصص بصورة موجزة حتى أقدم صورة واضحة عن الأدب المصرى القديم . فمن قصص الدولة الحديثة (٥١٣) « **قصة الأخوين** » وهى

أول قصة من نوعها فى الأدب المصرى القديم ، ولقد جذبت أنظار العالم لغرابة وقائعها ومشابهتها قصصا أخرى حكيت فى الزمن الحديث ، وهى بلاشك أكثر دلالة على أصلها المصرى من زميلاتها التى رويت لنا من عهد الفراعنة · وهى قطعة من الشعر القصصى العام ترجع الى عهد الأسرة التاسعة عشرة وتحلق بوقائعها الخيالية فى عالم الخرافات · وقد نقلها الكاتب « أنانا » تلميذ كاتب الخزانة الملكية « كاجبو » » ·

ملخص القصة (٥١٣)

« يضم بيت واحد أخوين مخلصين ، كبيرهما متزوج ويسمى « أنوبيس » وصغيرهما غير متزوج ويسمى « باتا » وكان ساعد أخيه الأكبر فى فلح الأرض وزراعتها وتربية أنعامها ، وفى يوم كانا يزرعان فى الحقل فاحتاجا الى بعض البذر ، وذهب الأخ الصغير الى البيت ليحضره ، وكانت زوجة أخيه الكبير تمشط شعرها ، فما رأته يحمل قدرا كبيرا من البذور على سواعده حتى راقها جماله ، وأعجبت بقوته ، فراودته عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت : هيت لك · قال : معاذ الله ، ان أخى الكبير رب نعمتى ، وقد أحسن مثواى فلا أخونه فى زوجته · فأضمرت المرأة فى نفسها الكيد لهذا الفتى الذى فوت عليها ما كانت تريد من اللذة والمتاع ، وقابلت زوجها فى المساء متمارضة متباكية متظاهرة بالألم ، وادعت أن أخاه الصغير راودها عن نفسها ، وماجزاء من يفعل ذلك الا أن يقتل أو عذاب أليم ، فصمم الأخ الكبير على قتله عندما يعود بالماشية ، واختبأ وراء الباب لهذه الغاية ، وما ان قرب الصغير من البيت حتى أخبرته بقرة من التى كان يسوقها بما دبر له ، ففر « باتا » وتبعه « أنوبيس » بسلاحه · ولكن اله الشمس حجز بينهما بخلق بحيرة مملوءة بالتماسيح ، فعجز « أنوبيس » عن اللحاق به ، وجرت بينهما محادثة برأ فيها « باتا » نفسه وجب عضو التناسل منه ، وابان عزمه على الرحيل الى وادى الأرز ، وأنه سيضع قلبه على زهرة فى أعلى احدى أشجاره ، وعين له علامة اذا حدثت كانت دليلا على وفاته ، وعلى الأخ الكبير حينئذ أن يذهب الى وادى الأرز ويبحث عن قلبه ويضعه فى الماء فتعود الحياة الى « باتا » ثانية وينتقم لنفسه من القاتل » (٥١٤) ·

« وبعد هذه المحاورة رجع « أنوبيس » الى قريته فقتل زوجته · أما « باتا » فقد سعى الى وادى الأرز ، ولما رأته الآلهة وحيدا فى هذا الوادى أشفقت عليه وجعلت الاله « خنوم » يسوى له زوجة ، وقد خالفته هذه الزوجة فخرجت الى البحر رغم تحذيره لها من هذا العمل ، فأراد

البحر أن يختطفها ولكن « باتا » أنقذها منه ، وكل ما استطاع البحر أن يأخذه خصلة من شعرها طفت على وجهه حتى وصلت الى مصر ، وهناك فاح شذاها وانتشرت رياها ، فشغف الفرعون بصاحبتها ، وأرسل الى وادى الأرز فى طلبها ، فحضرت زوجة باتا مع الرسل ، وصارت حظية عند الفرعون • ولما كانت تخاف بأس زوجها أغرت الفرعون بقطع شجرة الأرز التى تحمل قلبه ، فسقط قلبه بسقوطها ومات ، وعندئذ حدثت العلامة التى كان قد ذكرها لأخيه ليعلم بها أمر موته ــ وهى فوارن ابريق من الجعة ــ فسعى فى الحال « أنوبيس » الى وادى الأرز لينقذ قلب أخيه ، وبعد سنين وجده فى صورة فاكهة فأعاده الى الحياة بوضعه فى الماء • ثم صير « باتا » نفسه ثورا وحمل أخاه الى مصر ، وأفصح لزوجه عن شخصيته ، فأغرت الفرعون بذبحه ، فتطايرت منه نقطتان من الدم نبتتا بعد شجرتين من الأثل سكن فيهما « باتا » ، وأسر الى زوجته بأمره ، فأغرت الفرعون بقطع الشجرتين وصنع لها منهما ففعل • وأثناء صنع الأثاث تطايرت شظيتان من الخشب دخلتا فم الزوجة فحملت وأنجبت صبيا صار وليا للعرش ، وعند وفاة الملك نصب هذا الصبى خلفا له ملكا على البلاد ، ولم يكن هذا الصبى الا « باتا » نفسه فانتقم من زوجته الخائنة بقتلها » (٥١٤) •

التعليق :

اظهار صورة متكررة للزوجة الخائنة والعقوبة لها هى الموت • كما نجد اخلاص « باتا » لأخيه وعدم الوقوع فى اغراء زوجة أخيه • ثم ادعاء المرأة الخائنة بعكس الحقيقة مثلما حدث لسيدنا يوسف من زوجة « فوثيفار » والذى أودع السجن ظلما بسببها •

الفصل الختامى

بعد أن عرضت الحياة المدنية للمصرى القديم لكى نستخلص منها مقومات الشخصيه القوميه من كافة الجوانب والتى ظهرت فى سلوكه وفيما خلفه من آثار وفكر وفلسفة ودين • ومما ظهر من سمات مشتركة مثل التدوين والارتباط الأسرى والارتباط بالأرض والوطن وارتباطه بالأخلاق وارتباطه بالخالق الأعظم وبيوم الحساب الذى يجب أن يقدم ما قام به من أفعال تؤهله أو تحرمه من الحياة الخالدة فى الجنة فاننى أود أن أبين للقارىء الكريم نظرة الآخرون الى أجدادنا الأفاضل • لذلك سأتولى عرض ما قاله الدارسون من مصريين وغير مصريين وذلك كله يخدم البحث •• لأن فى أقوالهم ما يدعم وجهة نظرى فى أن أجدادنا لم يختلفوا عنا وعن ما ذكرته الأديان السماوية الا فى بعض التفاصيل الشكلية • أما الحقائق الثابتة فهى الايمان بالآتى :

١ ـ الخالق الأعظم •

٢ ـ البعث والحساب يوم المحاكمة (أمام الديان) •

٣ ـ خلود الروح •

٤ ـ الأخلاق السامية هى رصيدنا يوم القيامة •

٥ ـ الحب والدفء العاطفى هم عماد الأسرة السعيدة •

٦ ـ كراهية الشر •

٧ ـ التفاؤل لأن الرحمن الرحيم يرعانا •

٨ ـ الموت حقيقة لأبد أن يذوقها أبناء آدم الذين خلقوا من تراب (ولا دائم غير وجه الله) ولكن هذا الموت هو الكوبرى للحياة الآخرة وعندها يتحدد مصير الموتى) •

٩ ـ الله نور العالم ولكن هناك قوى الظلام التى لا تستطيع أن تحيا فى وجود النور • ولكنها لا تترك الانسان دون تنغيص لحياته ومن هنا كانت قصة الصراع الأزلى بين الخير والشر •

١٠ ـ الصلاة هى وسيلتنا لطلب العون ضد عدو الخير .

يقول الدكتور « ناصر الأنصارى » عن المصرى القديم •

« يتميز المصرى بالاحترام العظيم للحياة الانسانيـة ، وبالتقدير الكبير للشيخوخة . وهو يحب العمل ، ويميل للأعمال الطيبة الخيرة . ولطاعـة الوالدة ولاحترام المرأة عموما . وعـلى الرغم من الكثير من العـادات والمراسم الجنائزية ، والاهتمام بالموتى ، وتحنيط جثثهم فى الحضارة المصرية القديمة ، الا أن الشعب المصرى القديم كان شعبا يميل الى البهجة ، ويتميز بالضحـكة السـهلة ، والابتسامة ، وخفـة الروح ، وسرعة نسـيان الأحزان والمضايقات اليوميـة » (٥١٥)

« ولكنه فى ذات الوقت يؤمن ببعض الخرافات ، وبالتالى بالسحر والشعوذة والتنجيم فى حياته العادية ، فنجـده يؤمن بطـرد الأذى ، وصرف عين الحسود عن طريق تعليق عصا سحرية أو عين رمزية مرسومة على القماش أو على الخشب ، كمـا كانوا يحمـلون بعض الأحراز الصغيرة للوقاية من الشر مثل الجعارين » (٥١٦) .

وعن الأسرة المصرية يقول الدكتور « ناصر الأنصارى » :

« الأسرة المصرية القديمة متماسـكة يسـودها الاحترام ، والمرأة لها مكانة كبيرة داخل منزلها وهى تعمل وتقتصد وتتصرف فى دخل زوجها الهزيل المستقر ، الذى غالبـا ما يكون فى صورة عينيـة « غلة ـ زيت ـ نبيذ ـ جعة ـ ملوحة » . أما الأبنـاء ، فعـادة ما ترسـلهم الأسرة فى سن مبكرة الى مدرسـة الحى ليتعلموا القراءة ومبـادىء الحساب ، واذا أظهر بعض النبوغ قد يودع لدى أحد الكتـاب الكبـار حتى يضمن تعليمـا أفضـل وبالتـالى الانضـمام الى الطبقـة المثقفـة » (٥١٧) .

وعن حب الاستكشاف والمغامرة نجد المصرى يقوم بانجاز هـام فى نهاية القرن السـابع قبل الميلاد وأيام « نخاو الثانى » وهو « أن البحرية المصرية تمكنت من الدوران حول افريقيـا عن طـريق البحـر الأحمر ، ثم العودة عن طريق البحر المتوسط » (٥١٨) .

وعن النظام القانونى يقول الدكتور ناصر أيضـا :

« كان لمصر نظام قانونى أصيل ويعد أقدم نظام عرفتـه الانسانية وقد استمر هذا النظام يتـطور طيـلة التـاريخ المصرى القـديم دون انقطاع وهو مالا وجود له فى أية شريعـة من الشرائع الأخرى » ، أما عن ايمان المصرى فيقول الدكتور ناصر :

« كان الايمان بالله الواحد ـ ولا يزال وسوف يظل باذن الله ـ متغلغلا فى نفس المصرى منذ قـديم الأزل . وليسـت الحضـارة

المصرية القديمة الا شاهدا على ذلك فلولا الايمـان بالله لما قامت هذه الحضارة ولما استمرت ما يقرب من الثلاثين قرنا من الزمان » (٥١٩) ٠
فى بيـان الدكتور « طه حسين » (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣م) تشـغل الوطنية المصرية قطعـة كبرى ٠٠٠ « و (الحقيقة) المصرية ـ لديه ـ انما هو ثمرة لقومية متفردة وشخصية متميزة ٠ ويفسر طه حسين هذا التفرد والتميز بعاملين ثابتين : عامل بشرى انسانى (العقل المصرى ـ عنده ـ متفوق تفوق العقل الأوربى فى أوقـات النهوض المصرى والاسـتقلال) وعامل جغـرافى طبيعى (مصر ـ عنده ـ قلب العـالم) والثقـافة المصرية التى : « هى موجودة ومتميزة بخصائصها التى تنفرد بها عن غيرها من الثقافات ٠٠ « تعكس الشخصية القومية لمصر ، كما تعكس جوانب انسانية عامة ، اذ أن « ٠٠٠ فيها شخصية مصر القديمة الهادئة ، وفيها شخصية مصر الباقية الخالدة ، وهى فى الوقت نفسـه انسانيـة قادرة على أن تغزو قلوب النـاس وعقولهم ٠٠٠ » ٠ وتنهض الشخصية المصرية الحديثة على بنية للتربية المقصودة (سـلم تعـليمى) تحقق الوحدة الوطنيـة والتماسك الاجتماعى على سبيل التنشـئة والتسطبيع الاجتماعيين العصريين ٠ من أسس هذه البنيـة (العقلانيـة) ، تعميم التعليم المدنى الحـديث وتطوير التعليم الدينى التقليدى ، ومن أسسها (الوطنية) بالكشف عن العناصر الثقافية الموروثة للمصريين ، وبخاصة فى موروثات المسلمين والأقباط وصولا الى ثقافة وطنيـة أساسـية للمصرى الحديث ٠ ومن أسسها (الديمقراطية) بالمساواة فى فرص التعليم والتمتع بالمنتج الثقافى » (٥٢٠) ٠

وقد أشرت هنا الى ما قاله الدكتور « طه حسين » الذى حمـل لواء التنوير فى العصر الحديث لأنه يؤمن ايمانا راسـخا بالشخصية القومية المصرية التى تبلورت منذ العهود الفرعونيـة وقد وصـفها بأنها هادئة لأنهـا لم تقـم على العنف بل على التسـامح والفـكر المتفتـح « ورد شخصية مصر الى (روح خالدة) غامض » (٥٢٠) وأعتقد أن هذه الروح الخالدة الغامضة هى سمة « التدين » وهـو الذى يمـيز الحضارة المصرية القديمة الأخلاقيـة ، أما « شخصية مصر الباقية الخالدة » (٥٢٠) فهى تتمثل فى الانسان المصرى نفسـه والذى استطاع أن يربط وجدانه بالحب : (١) الحب للخـالق وتتمثل فى طاعته وطلب عونه والصلاة اليه والتوسل له لمساعدته فى مواجهة المحن والشدائد ، والشـكر لله دائما أبدا ٠٠ الشكر على ما منحـه من خيرات وصحة وعافيـة ٠ (٢) الحب لأسرته والتمسك بالرباط المقدس وهى الدعامة الرئيسـية للمجتمع المتماسك وهو البيئة الصحية للطفل الذى ينمو فى

دفء الحب والرعاية وبهذا يكتسب الصحة النفسية والبهجة والتفاؤل · (٣) الحب للآخرين وهى التى تجعل الانسان يشبع احتياجاته النفسية والاجتماعية بأن يصبح مقبولا من الناس ومحبوبا ومحترما ويحقق ذاته بين أقرانه وجيرانه ومن يتعامل معهم فى الحياة والمجتمع . (٤) حب الخير وحب مساعدة الآخرين والعطف على المحتاجين وحب التعاون · (٥) حب الوطن والذى يردده فى كل أناشيده فهو لا ينسى الأرض السوداء التى قدمت له الغذاء والعيش خصوصا بعد أن يرويها ويرويه النيل العظيم ·

وقال مستر « موريس بير برابر » مؤلف « صناع الخلود » :

« كان المصريون شعبا محبا للأنس والبهجة بطبيعته وقد استمتعوا بملذات الحياة لدرجة أنهم عملوا على استمرار هذه المباهج فى الحياة الآخرة · وكانت الاحتفالات الدينية بطبيعة الحال فرصة المجتمع لاظهار مشاعر الفرح والسرور ، كما كانت هناك مناسبات أكثر ألفة ومودة مثل الزفاف وأعياد الذكرى السنوية وأعياد الميلاد وكان الجميع يشاركون فى هذه الحفلات حيث كان الشراب يقدم دون حساب على أنغام الموسيقى والغناء لتسلية الضيوف » (٥٢١) ·

وقال أيضا « ولما كان المصريون شعبا عمليا غير ميال للاهوت الفلسفى فانهم لم يحاولوا قط استنباط علاقة منتظمة لآلهتهم المختلفة فى كل أنحاء البلاد وفى عصور ما قبل التاريخ كان لكل قرية الهها المحلى » (٥٢٢) ·

وعن الصلة بين المصرى القديم والآلهة قال :

« لم تكن الآلهة المصرية تسكن أبراجا عاجية منفصلة عن الناس وانما لعبت دوراً مباشرا فى حياة الناس » (٥٢٣) وقالوا أيضا :

« لم يعتبر المصريون الهتهم مصدرا للخوف على الدوام أو أنها الهة معزولة عن البشر وانما اعتقدوا مثل اليونانيين أن الآلهة لديها رغبات البشر وهناتهم ، ويتمثل هذا الجانب من الديانة المصرية فى الحكايات الشعبية المنتشرة عن الآلهة وأنشطتها » (٥٢٤) ·

ويتحدث المؤلف عن ذكاء المصرى وابتكاراته فيقول عن ابتكاره طريقة منع انبعاث الدخان فى المقابر أثناء العمل بها فيقول :

« ومع تقدم العمل فى المقبرة وازدياد عمقها ، تصبح الاضاءة الطبيعية غير كافية مما حتم توفير ضوء صناعى ، لذا كان يتم تزويد

للعمال بفتائل من ضفائر كتانية مدهونة بالزيت أو الدهن كما كان استخدام زيت السمسم للاضاءة معروفا ، وقد اضيف الملح للحيلولة دون انبعاث الدخان من الفتائل وتشويه المقبرة » (٥٢٥) ٠

وفى مقدمة الكتاب يضيف المؤلف :

« وهذا الكتاب ليس كأغلب الأعمال المألوفة التى تتحدث عن مصر القديمة والتى تهتم فحسب باستعداد المصريين للقاء الموت وما يعقبه من حياة أخروية ، فانا أشعر انه من الأهمية بمكان ان يتبين عامة الناس أن المصريين القدماء لم يقضوا جل وقتهم فى قلق وخوف من الحياة الآخرة ، بل انهم عاشوا حياة مثمرة متمتعين بطيبات أرضهم ، وهذا هو سر رغبتهم فى استمرار حياتهم وما ألفوه من طيبات بعد الموت » (٥٢٦) ٠

ويقول الدكتور « حسين مؤنس » فى كتابه « مصر ورسالتها » عن « مصر » وعن « المصريين » :

« فى البدء كانت مصر ٠٠ قبل الزمان ولدت ، وقبل التاريخ هنا بدأ كل شيء : الزراعة ، والعمارة ، والكتابة ، والورق ، والهندسة ، والقانون والنظام ، والحكومة ٠٠٠ وهنا ، وقبل كل شيء ولد الضمير ٠ هكذا « قال جيمس هنرى بريستد » فى كتاب جليل عن مصر عنوانه : فجر الضمير The Dawn of Conscience والضمير هو ذلك الوازع الداخلى فى كيان الانسان الذى ينبهه الى الخير ويحذره من الخطأ ويحاسبه على ما يتعارف من أخطاء حسابا داخليا صامتا ولكنه ألم للانسان من كل عقاب ٠ وعلى أساس الضمير ظهرت الديانة المصرية القديمة ٠٠٠ وكان المصرى القديم أول من تنبه بالفطرة الى حقيقة البعث والحساب ٠

« من حيوان يجرى فى الأحراش لينجو من خطر ، أو ليفترس ، أو ليأكل ، أو ليبحث عن أنثى ٠٠ تحول الى انسان يفكر ، ويتأمل ، ويرسم ، ويكتب ، ويحاسب نفسه ٠ « مع حساب النفس نشأت الآلهة لتقوم بالحساب وتنصب الميزان ٠٠٠ خارج دنيا الأرض نشأت دنيا السماء ، وقام الدين والأخلاق ، والخير والشر ٠

« والملائكة والشياطين ولدوا جميعا هنا ٠ ومن عندنا خرجوا الى الدنيا ٠

« وفى قلب المصرى القديم ، وفى بيته وفى مدينته وحقله ، فى ارضه وسمائه وجدت « معات » رمز الضمير والاحساس الانسانى والقانون الأخلاقى ٠ « معات » هى ما نسميه اليوم بالمروءة ، المروءة

بمعنى الانسانية والحب والخير والعدالة والفضيلة · هذه كلها اكتشفها المصرى القديم ، وهو يعمل فى حقله وينظر الى السماء الزرقاء ، ويستعطف الشمس الحامية ، ويعانق النبات الأخضر الدالع ·

« عندما اكتشفها المصرى القديم وصل الى أعظم كشف فى تاريخ الفكر البشرى ، اكتشف أنه انسان ، وأن هناك فرقا بينه وبين الحيوان : لا تنازع على البقاء وانما تعاون للبقاء ، لا قتل ولا ظلم ولا عدوان ، بل حب وتعاون واخاء ··· هذا سر من الأسرار الكبرى لحضارة مصر القديمة التى حيرت البشر ·

« قرون تجرى فى أثر قرون ، عوالم تولد ثم تموت ، ومصر هنا فى مكانها ، تبنى وتنشىء وتعمر وتكتب وترسم وتنشد وتصلى ، وتتألق وتتوهج ، وتخبو ، ثم تتألق وتتوهج » (٥٢٧) ·

وقال الدكتور مؤنس عن الديانات القديمة فقال : « أن ديانات مصر القديمة ديانات محبة وسلام ، وليس فى آلهة مصر القديمة آلهة تكره البشر وتغار منهم » (٥٢٨) ·

اشراقة الحضارة المصرية القيمة

فى مقدمة كتاب « عندما حكمت مصر الشرق » يقول الأستاذ « محمد العزب موسى » والدكتور « محمود ماهر طه » · « ولم تكن الامبراطورية المصرية قائمة على القسر والظلم والعدوان شأن معظم أو كل الامبراطوريات القديمة بل والحديثة ، وانما كانت قائمة على العدل والمشاركة والاحسان ، فالهدف منها نشر نور الحضارة المصرية فيما حولها لا استلاب خيرات المنطقة واستعباد شعوبها ، واذا كانت تلك الامبراطورية قد فتحت بسيف المحارب فانها عاشت بعدل الحاكم ، وحكمة الادارى ، وعلم المثقف ، وقامت على تبادل المنافع والتجارة والهدايا والمهارات » (٥٢٩) ·

فجر الضمير بدأ فى مصر

ويقول عالم المصريات القدير « جيمس هنرى برستيد » فى كتابه « فجر الضمير » :

« ذلك الانتقال المبكر ــ وهو الذى سميناه « الانتقال العظيم » ــ والذى رفع الانسان من النضال الذى كان مقتصرا على الطبيعة ونقله الى ميدان آخر جديد هو ذلك النزاع القائم بينه وبين نفسه للتغلب

على روحه نفسها ، واحتضان تلك القيم الجديدة التى تسمو به فوق عالم المادة تتكون مادة لحقيقة جديدة وهى التى نسـميها الأخـلاق أو الخلق وقد رأينـا أن العوامل التى كونت ذلك الانتقال المبكر نشـأت فى مصر ، ثم انتقلت منها الى فلسطين ، ثم الى سـائر أمم العـالم التى ظهرت بعـد ذلك » (٥٣٠) ٠

لقد وصل برستيد الى هذا الاستنتاج وهو أن فجر الضمير بدأ فى مصر بألفى عام قبل ظهور أول ديانة سماوية ــ اليهودية ــ بعـد أن تابع دراسة التـاريخ المصرى القديم وتاريخ الديانة المصرية القـديمة وفى موضع آخر يقول : أن « التفسـير الاجتماعى للمصـادر المصرية وتصوير الديانة المصرية تصويرا اجتماعيا يجعلها أقـدم مصـدر عرف حتى الآن عن تطور الأخلاق والمثل الاجتماعى » (٥٣١) ومنها تدرج بحثه الى أن فجر الضمير بدأ فى مصر وقد « انبثق عصر فجر الضمير والأخلاق على العـالم دون أن يزج به من العـالم الخـارجى عن طريق منهاج خفى يسمى الالهـام أو الوحى ، بل كان منشؤه حيـاة الانسان نفسـه ، ويرجع ذلك الانبثاق الى مدة ألفى سنة قبل بداية عصر وحى رجال اللاهوت ، فأضاء ظلمة الحيرة الاجتماعية ، والكفاح الباطنى فى نفس الانسـان ، فكان بذلك دليلا قاطعـا على قيمة الانسـان » (٥٣٢) وهذا يوضح أن ظهور هذه القوة الباطنية للانسـان (الضـمير) كان بمصر ومنها الى كل أنحـاء العـالم ٠

تقوى المصريين

« يقول المؤرخ الاغريقى (هيرودوت) فى كتابـه الثـانى : « أن المصريين أكثر تقوى من سـائر البشر ٠٠ ويـهتمون كل الاهتمـام بالشعائر المقدسة ٠٠٠ فقد سبقوا شعوب العـالم الى اقامة الأعيـاد العـامة والمواكب العظيمة ، وعنهم تعلم « الاغريق » ، ودليلى على ذلك أنها تقام فى مصر منذ زمن بعيد ، بينما لم يحتفل بها الاغريق الا منذ وقت قريب » (٥٣٣) ٠

« فقدماء المصريين عظماء لا يشك فى ذلك أحد ، آمنوا بربـهم وبلادهم ايمانا لا نعهده فى غيرهم من شـعوب الأرض ، وأحبوا وطنهم أرضا وسماء وماء وهواء وزرعا وحيوانا قدسوا كل ذلك ٠ ولم يكن الهوى هو مصدر ذلك الحب ، ولكنه اليقين الذى أضحى لدى أصحابه من قواعد الايمان » (٥٣٣) ٠

تمسك الشعب بمعتقداته

ويعلق أدولف ارمان مؤلف « ديانة مصر القديمة » عن طبيعة المصرى الذى لا ينسى شيئا : قائلا « ونحن نلاحظ باعجاب كيف استطاع هذا الشعب أن يجمع بمهارة فائقة ويوفق بين الحديث والقديم والغارق فى القدم ، واستطاع ايضا ان يصل الى هدفه هذا بأن اكسب هذه العقائد القديمة قدسيتها دون أن يستعمل المنطق فى مناقشتها · ويجدر بنا هنا ان نذكر أن أولئك الذين أقدموا على هذا التوفيق كانوا علماء الكهنة المتفقهين الذين عرفوا كل شىء وفهموا كل شىء · واستطاعوا ان يحافظوا على معتقدات شعبهم طوال الاف السنين كما حرصوا على الابقاء على ما وصل اليهم من أجدادهم · وكان من الطبيعى على شعب زراعى مثل الشعب المصرى أن يتمسك بكل هذه العقائد ، ولكن الابقاء عليها بكل ما تحويها من دقائق بسيطة مختلفة لم يكن الا كنتيجة لتفقه أولئك الكهنة فى علوم الكهنوت · ولعل من الأسباب الأولى التى دفعت الكهنة الى هذه السياسة أنهم لمسوا طبيعة المصرى التى تدفعه باستمرار ألا ينسى شيئا مطلقا » (٥٣٤) ·

وفعلا قد اكتسب المصرى بعض الصفات من بيئته الزراعية مثل : الصبر ــ النظام ــ التطبيق العملى فى الاستفادة من أرضه ومن مياه النيل ــ حب الأرض وارتباطه بالقرية ــ الشعور بالاستقرار ــ الاعتماد على الاله ــ اقامة صناعات من انتاج الحقل ــ استغلال البيئة من صخور ومعادن ــ تعلم ركوب الماء من نهر وبحر بعد ذلك للاتجار ·

التكوين الاجتماعى هرمى الشكل (٥٣٥)

يقول الأستاذ « محمد العزب موسى » عن المجتمع المصرى فى الدولة القديمة ث٥٣٥) ·

« وكان التكوين الاجتماعى فى هذا العصر هرمى الشكل ، فكان الهرم الأكبر والأهرامات عموما التى كانت نتاجا للدولة القديمة تعكس بدقة النظام الأتوقراطى للبيئة التى أنتجتها ، ففى القمة يوجد الفرعون تحيط به دائرة صغيرة من النبلاء ، وفى القاعدة الشعب ، وفيما بينهما الطبقة الوسطى بفئاتها المختلفة (٥٣٥) ·

« ولكن هذا الهرم الاجتماعى كان عريض القاعدة حاد الزوايا فليس فيه مكان كبير للطبقة المتوسطة بالرغم من انه لا سبيل الى انكار وجودها أو دورها الهام فى المجتمع ، فهذه الطبقة هى التى احتكرت الادارة والصنائع والفنون ، فكان منها النحاتون والمثالون والكهنة والموظفون والكتبة وأطباء الشعب والتجار والعسكريون وهى التى تمد بعناصر منتقاة منها الطبقة العليا المحيطة بالملك من كبار الكهنة والموظفين والقادة والأطباء وحكام الأقاليم ٠٠٠ ورابطة الأسرة قوية فى الطبقة الوسطى فالتعاطف والحب يجمعان بين افرادها ، والزواج من واحدة فى الغالب ، والمرأة مساوية للرجل وتعامل بكل احترام ، والرجال بعد عناء العمل يفضلون السهر فى بيوتهم بين نسائهم وأولادهم يستمتعون بالمباهج البريئة كالرقص والغناء والألعاب المنزلية ، أو يخرجون الى الخلاء للنزهة والصيد ٠ (٥٣٥)

« أما طبقة سواء الشعب فكانت تضم الفلاحين وخدم المنازل وفقراء المدن ، وهى القاعدة العريضة بأسفل الهرم الاجتماعى ، ومن الممكن أن يصل عدد أفراد هذه الطبقة أو غالبية مجموع الشعب المصرى الى خمسة أو سبعة ملايين حسب بعض التقديرات بالمقارنة بالطبقة الوسطى التى لا تتجاوز عشرات الألوف من الأفراد والطبقة العليا التى تقتصر على المئات » (٥٣٥) ٠

حياة فلاحى الدولة القديمة

ولنقرأ « جون ويلسون » فى هذه الفقرات البديعة التى يصور فيها حياة فلاحى الدولة القديمة :

« اذا وقفنا ننظر الى المناظر المرسومة على جدران المقابر القديمة نرى الفلاح المصرى شخصا قانعا قليل التبصر حاد الطبع لا يستطيع التحكم فى غضبه ، خفيف الروح ، محبا للسرور ، يستطيع القيام بأى عمل مهما شق ولكنه لا يستطيع الصبر على المجهود الطويل ، كانت قدماه دائما فى طين النهر سواء كان يزرع أو يحصد محاصيل سيده أو يبنى بالطوب اللبن لهذا السيد أو يسوق ماشيته ٠٠٠ كان يعيش قريبا من الطبيعة ، ويعتمل فى نفسه ما كان يعتمل عادة فى نفس كل فلاح من غموض وحب للخرافات المتعلقة بصلته بالنبات والحيوان ، كان نحيف الجسم ولم ينل قسطا كاملا من المحاصيل ويصبح أيام الشدة

فى السنة قبل أن تنضج محاصيل الخريف على شفا الهلاك من الجوع ، وجعلته المجاعات وانتشار الطاعون اللذين كانا يحدثان من آن لآخر يحس أنه فريسة لخطر فجائى لا يعرفه ، يأتى من قوى عظيمة ظن أنها الآلهة ، وكان كل عمل يعمله فى يومه محاطا بالخوف من قوى صغيرة حاسدة كان يرهبها ويراها فى كل شىء : عند عتبة كوخه ، فى العاصفة التى تثير التراب ، فى النار ، فى الماء الجارى ، فى الماشية التى يرعاها ، وفى أول ثمار حقله » (٥٣٦) ٠

« ولكنه بالرغم من كل ذلك وبينما كان يؤدى أعماله كان يضحك ويغنى ، وعندما كان يسوق قطيع الماشية أمامه فى المستنقع كان يردد أغنية صغيرة للتمساح والسمك ، وكان عند اشتراكه فى جمل محفة سيده يردد مع الآخرين أغنية ملأى بالمداهنة والاطراء وعلى فمه ابتسامة خبيثة متطلعا الى ما عسى أن يناله من مكافأة وعطاء ٠ كما كان يردد الأغانى مع غيره من العمال ليتوحد مجهودهم وهو محنى الظهر شادا للحبال » (٥٣٧) ٠

« وفى حفلات الأعياد كان يرقص ويلعب بكل ما فيه من قوة ، ويملأ بطنه الى حد التخمة فى المآدب التى يقيمها سيده ٠ وكانت ترتبط حياته بحياة حيواناته التى تقيم بجانبه ليلا ونهارا ٠٠ وكانت الفرص المتاحة له أقل بكثير من الفرص المتاحة للصانع الماهر أو خادم المنزل أو العبد الخاص بالنبيل » (٥٣٧) ٠

« هذا هو الفلاح الذى كان عمادا للحياة فى مصر القديمة ولايزال عمادها الى اليوم ، هو الصانع الأول الحضارة المصرية تلك الحضارة الزراعية القائمة على الأرض والنيل والمناخ ٠ ولكن الانسان هو نفسه بعدا رابعا لهذا الثالوث الطبيعى ، والريف هو الذى أمد مصر بمعظم كهنتها ومهندسيها وأطبائها وفنانيها ، فقد كان الريف المصرى قديما مثلما هو اليوم المصدر الذى يمد المدينة بقواها البشرية ٠ واذا كانت العادة قد جرت على نسبة الحضارة المصرية القديمة الى الفراعنة لا الفلاحين فما ذلك الا من باب التبسيط فالفلاح المصرى هو الذى شاد بفكره ويديه كل هذه المنجزات العظيمة التى تثير أطلالها اعجابنا اليوم ٠٠ وأرق الحلى وأروع التماثيل ٠٠ هى من نتاج أيدى صناع مهرة خرجوا مباشرة من صفوف الفلاحين البسطاء » (٥٣٧) ٠

« وفى الدولة الحديثة ، أى فى آخر مراحل التطور ، بدأت مصر تتطلع الى العالم الخارجى والتوسع السياسى والعسكرى وبلغت قمة

« الامبرياليــة » بالتعبير الحديث ، فاذا هى امبراطورية شاسعة تمتد من حدود الفرات شمالا الى أقاصى النوبة جنوبا ، كانت مصر حينئذ فوق جميع الأمم والشعوب ، رائدة فى زعامتها السياســية والفــكرية ، تزهو بقوتها العســكرية ونظامها وقدراتها التى لا تحد وانعكس ذلك عليها فى صورة ثراء وترف لم تعرفها البشرية الا فى أزهى عصورها ، كمــا استشرفت فى هذه المرحلة **فكرة التوحيد** على يد اخناتون » (٥٣٨) ٠

لقد تغلغل الى داخل البلاد الهكسوس قادمين من الشرق وأغلب الكتب تؤكد بانهم تسللوا الى البــلاد وليس كغزاة فى البداية ولمــا استقر بهم الأمر سيطروا على البلاد زهاء مائة وخمسين عاما وذلك أثناء فترة الاضمحلال الثانية التى كانت بين الدولة الوسطى والدولة الحديثة ٠ وقد أحس الناس والمخلصين من حــكام الأقاليم بجرح العزة القديمــة وقام ثلاث ابطال هم سقن رع ـ الذى استشــهد فى ساحــة الوغى ـ وولديه كامس وأحمس بطردهم من البــلاد وكانت « معركة شاروهين » فى فلسطين هى آخر معــارك التحرير من الغزاة الأجانب ٠ وهنــا حدث تحول فى التفكير الســياسى والعســكرى فالغزو أتى من الشرق وتم متابعتهم الى الشرق حيث تم القضاء عليهم ٠٠ واذا كان الخطر قابع من الشرق ، اذن فاحتلال الشرق يمنع الخطر القــادم منه ٠ وهنــا قام التوسع الى الشرق لأول مــرة فى تاريخ البــلاد وتكونت الامبراطوريــة المصرية الأولى ٠ وتمتاز هذه الفــترة بزيــادة التعــامل مع العــالم الخارجى وزيادة ثرواتها ٠ وظهرت الرفاهية فى المجتمع والرخاء بين طبقات الشعب ٠ وتحدثنا المبانى الشاهقة التى تزدحــم بهــا الأقــصر ـ عاصمة الامبراطورية القديمة ـ عن مدى ازدهار الحياة الاجتماعية والسياسية ٠ وظهرت عدة كتب دينية وأهمها كتاب الموتى والذى ظهرت فيه المحاكمة فى العــالم الآخــر أمام أوزيريس والذى يعنى انتصــار الديانة الشعبية فحتى الملوك والأمراء أصبحوا يصورون واقفين أمــام ميزان العدالة وأمام أوزيريس ٠ وفى وادى الملوك نجــد عــدة كتب دينية مرسومة على جدران المقابر وأكثرهم تواجدا هو كتاب « امى دوات » أى « ما هو موجود فى العــالم الآخر » حيث تظهر رحلة الشمس أثناء الاثنى عشر التى تختفى فيها من الأفق ٠ كما أن الأسرة الثامنــة عشرة قدمت لمصر فراعنة عظماء مثل أحمس ـ بطل التحرير ـ وتحتمس الثالث الذى امتدت أثناء حكمه الامبراطورية الى أقصى مداها ٠ كمــا قدمت اخناتون قائد الثورة الدينية ضد كهنة آمون والذى أعلن بوضوح بأن « آتون » هو الاله الواحد الأحد وأغلق كافة المعابد الأخرى الخاصة بالآلهة الأخرى ٠ فبالنسبة له لا يوجد خلاف « آتون » وقد تناولت فى

الفصل الثانى (العقيدة) بأن فكرة التوحيد (الاله الأعظم ــ نتر عا) كانت موجودة باستمرار فى الوجدان المصرى وان اختلفت التسمية بالنسبة للاله الأعظم ففى منف مثلا كان هناك « بتاح » كاله اعظم وفى « اون » اى « هليوبوليس » كان هناك الاله « رع » ، و « اتوم » وفى أسوان والفنتين الاله « خنوم » وفى الأقصر عاصمة الامبراطورية فى الدولة الحديثة أضاف كهنة الآلهة « آمون » والذى تزايدت أهميته مع زيادة نفوذ الملوك الذى حكموا من طيبة وقام الكهنة ــ رجال لاهوت آمون ــ باضافة رع الى اسمه واصبح الها خالقا وتسمى باسم « آمون ــ رع » وكان أوزيريس قد تربع فى كافة البلاد كاله للموتى فى العالم الآخر وقام أيضا رجال اللاهوت بالتوفيق بين ديانة أوزيريس وديانة رع بأن « أوزيريس هو رع » و « رع هو أوزيريس » وبذلك وضحت صورة الاله الأعظم فى الخلق ويوم الحساب ٠

واستكمالا للصورة العامة للتاريخ السياسى ــ حتى يستطيع القارىء الالمام بتاريخ البلاد بصورة عامة مما سيساعد على تتبع تاريخ الشعب الذى يتناوله هذا البحث بصفة خاصة ــ فان هناك تذبذبات سياسية وقطعا اقتصادية واجتماعية منذ نهاية الدولة الحديثة وحتى خضوع مصر للغزاة مرورا بالانقسامات والتمزق الذى أضعف البلاد ٠

الديانة المصرية فى أوربا (٥٣٩)

رغم ان هذا الموضوع قد يبدو خارجا عن موضوع البحث ، ألا اننى أردت ان يعرف القارىء مدى انتشار العقيدة والفكر المصرى خارج حدود مصرنا العزيزة ، وفى هذا اشارة الى ايمان الأجانب بالفكر المصرى ٠ وقراءة بضع صفحات كتلخيص لهذه النقطة لن يضير القارىء فى شيء ولكنه سيمس مدى احترام الآخرين للفكر المصرى القديم ٠ « فقد لقيت عبادة ايزيس وأوزيريس فى أنحاء الامبراطورية الرومانية الواسعة جماعات يتحمسون لها (٥٤٠) ٠ وكان لايزيس فى القرن الرابع قبل الميلاد فى « بيرى » معبدا لايزيس ٠ ونجد الآلهة المصرية كذلك فى رودس ولسيوس وثيرا وأزمير وفى أماكن أخرى ٠ « وفى جزيرة ديلوس المقدسة كان سيرابيس وايزيس يعبدان على رأس غيرهما من الآلهة (٥٤٠) » ٠ وقد ساهم تأييد الملوك البطالمة وتشجيعهم مساهمة كبيرة فى هذا الانتشار للعقائد المصرية ، ولا غرابة فى ذلك فقد كان سيرابيس وايزيس هما الالهان الرسميان فى دولتهم فعلا، (٥٤٠) كذلك وجدت هذه الآلهة فى قبرص وصقلية وانطاكيا وأثينا ٠

« ان العالم الرومانى لم يكن ليعجبه أن يرى من مناظر البلدان غير مصر بمعابدها وأكواخها من القصب وتماسيحها . كذلك كان يظن انه كان للمصريين حكمة عميقة قديمة ، بل لقد كان يعتقد أن زعماء العالم المفكرين ، وهم الفلاسفة الاغريق ، قد تلقوا خير تعاليمهم عن الكهنة المصريين . ثم تأتى بعد ذلك تلك الطقوس الخفية أجمع ، مما كان يؤدى فى أعياد ايزيس وسيرابيس ، والتى كانت تكنى بطريقة مدهشة عن أفكار سامية طاهرة » . (٥٤١) « لقد كانت الديانة المصرية تقدم لأتباعها عزاء أخيرا فى كافة المصائب ، وكانت تمنحهم الايمان بحياة أخرى افضل ، يقضونها فى مملكة أوزيريس . وبذلك لم تكن عبادة الآلهة المصرية عبادة سطحية ميتة ، كما كانت عبادة الآلهة الرومانية » (٥٤٢) .

« قام فى حقول مارس معبد كبير جديد لايزيس ، أقامه هذه المرة أحد الأباطرة وهو كاليجولا ، وزاد فيه امبراطور آخر ، وهو دومتيان . وبهذا التكريم من قبل الأباطرة زال كل رجس عن الآلهة المصرية ، وبعد مائة عام أصبحت ايزيس وسيرابيس يسميان « الالهان المصريان قديما والرومانيان الآن » (٥٤٣) .

وانتشرت عبادة ايزيس فى ايطاليا والهند وفارس ، ومن البحر الأسود الى البحر الأحمر . « كانت السيادة فى كل مكان للألهة « ذات الأسماء العديدة » ، فستون بلدا وقطرا وشعبا كانوا يعبدونها على أنها « الفضلى ، الجميلة ، الطاهرة ، المقدسة ، المتصوفة ، حبيبة الآلهة » (٥٤٤) .

« وقد كان أتباع العقيدة المصرية الأتقياء ينسبون أنفسهم دائما الى ايزيس لا الى أوزيريس أو سيرابيس . بل لم تعد مملكة الموتى له وحده ، وانما غدا لايزيس فيها نصيب . فقد كان لكل من استحق رضاءها « بتحمسه فى طاعتها وتقواه فى عبادتها وشدة زهده » أن يطمع فى أن تطيل عمره الى ما يزيد على ما حدده له القدر ؛ ثم بعد ذلك اذا هبط عند الموت الى العالم السفلى ، فانها هى التى كان ينظر اليها ويتعبدها . « وهى تضىء فى نصف الكرة وسط ظلمات أخيرون »(٥٤٥) . وهكذا سادت عقيدة ايزيس فى كل مكان فى أوربا ، وقد كان سلطانها ينمو على الدوام حتى نهاية القرن الثانى (٥٤٦) .

ورغم أن «تيودسيوس» أعلن أن المسيحية هى الديانة الوحيدة المتعرف بها فى الامبراطورية اليونانية عام ٣٩٥م ، الا انه « بقيت فى العالم الرومانى جماعة هادئة متمسكة بالعقائد المصرية ، وهى جماعة الفلاسفة المتصوفين ، الذين ظلوا حتى القرن السادس يقومون بالتعليم فى المراكز الكبرى للثقافة · ولذا كانوا يجدون لذة وغبطة فى كل ما كان ذا طابع صوفى وفى كل ما يثير الوجدان أو الدهشة ، فقد كان لايمكن ألا تثير مصر حماستهم · أجل لقد كانت مصر بلدا « مقدسا » ، معابده مزودة بكل شىء ، وفيه من الكهنة مالا يحصى عددهم ، ممن يسهرون على أداء الطقوس جميعا · وفيه المذابح لا تخبو نارها أبدا · وقد علم المصريون العالم بأسره تقريبا عبادة الآلهة ، « واننا لنعلم أن الآلهة كانت ولا تزال تقطن هناك » ، وذلك على نحو ما يذكر المؤلف الساذج الذى يرجع اليه هذا الوصف فى القرن الرابع »(٥٤٧) ·

« لم يكن هؤلاء المتصوفون ليتصوروا كذلك أن هناك قوة فى العالم يمكن أن ترد للآلهة القديمة سيادتها · وكانوا يعلمون أنهم آخر الوثنيين ، وأن مصر المقدسة « صورة السماء ، ومعبد الكون بأسره » ، غدت منذ ذلك الوقت الى المسيحية · واننا لنقرأ بشىء من التأثر النبوءة الحزينة التى يتردد صداها من أوساطهم : « سيأتى زمان يبدو فيه أن المصريين عبدوا الاله بتقوى وحماسة دون جدوى ·· ذلك لأن الاله سيعود من الأرض الى السماء ، وسوف تظل مصر مهجورة ، ولن يعود البلد الذى كان مقر الديانة ، مأوى للآلهة ·· أيا مصر ، يا مصر انه لن يبقى من عقائدك غير قصص وروايات ، لن تصدقها الأجيال المقبلة ، ولن تبقى غير كلمات على الحجر تحكى أعمال تقواك » (٥٤٨) ·

التدين المصرى

يقول الدكتور « أحمد أبو زيد » :

« التدين فى مصر لا ينفصل عن الحياة ، وأن مظاهر التدين لا تخلو من البهجة وتمثل الاحتفالات بمواليد الأولياء والقديسين احدى أبرز صور هذا الدمج بين الدين والدنيا ، وبين مراسم العبادة وطقوس التطهر الدنيوى ، وبين الخشوع والمرح » (٥٤٩) ·

« والواقع أن ثمة ارتباطا حميما فى عقول المصريين بين الدين ورفع الظلم والاجحاف واقرار العدالة والرحمة ··· وثمة معنى بارز

للغاية فى طريقة المصريين فى فهم الدين والتدين ، فالمصرى ، لا يفصل مطلقا بين الدين والاخلاق الملموسة التى تمارس فى الواقع • وللأخلاق معنى ايجابى لدى المصريين جوهره العدالة والرحمة ورفض الظلم والقسوة ، أيا كان مصدرها أو تبريرها ، ولذلك يقال عن الظالم ومن فى قلبه قساوة أنه « ما يعرفش ربنا » فلا يقبل المصرى من متدين أن يمارس القسوة أو العنف بشتى مظاهره ، مهما كان التبرير الدينى لهذا الظلم أو هذه القسوة ، فى عقول من يمارسها » (٥٥٠) •

وفعلا نجد أن التدين هو المؤثر الأول على الشخصية المصرية • فقد أثر التدين على الحياة وعلى الفكر وعلى أقوال الحكماء والمفكرين وأقوال كافة أبناء الشعب من الفلاح البسيط الى المثقف بل والى الحكام أنفسهم فالملوك أنفسهم كانوا كبار الكهنة • وقد أثر الدين على العلاقات الاجتماعية والعدالة الاجتماعية لم يغفلها المصرى أبدا فثورته الشعبية كانت بسبب العدالة الاجتماعية والتى فرضها على الاقطاعيين بل وفرض الديمقراطية الدينية على الملك ذاته وحقق عامة الشعب حقهم فى الخلود أسوة بالملوك • كما أن الأخلاق كانت النبراس فى التعامل مع الآخرين حتى أنه يطلق الكثيرون على الحضارة المصرية بأنها حضارة أخلاقية • والرمز الدائم لتأكيد معنى الأخلاق يظهر فى نصوص الاعتراف الانكارى الذى يردده المتوفى أمام أوزيريس وأمام ميزان العدالة فى المحاكمة فى العالم الآخر • وبهذا لم يعد السلوك الأخلاقى كسلوك مستحب ينصح به الحكماء ورجال الدين بل هو ضرورة لكي يضمن الانسان الخلود فالأعمال الطيبة هى رصيد الانسان عندما يقف فى يوم الحساب أمام « القاضى » • وقد أثر الدين أيضا على الحياة الاجتماعية وعلى الترابط الأسرى وعلى الأدب التعليمى وأدب الحكمة •

الحضارة المصرية

ماذا قالوا عن الحضارة المصرية ؟

يقول الدكتور اسحق عبيد :

« اذا جاز لنا أن نلخص جوهر الحضارة المصرية فاننا نقول بكل قوة انها كانت حضارة أخلاقية •• والأمر الجدير بالملاحظة هو أن مكنون تلك الحضارة الأخلاقية قد احتفظ به فى وجدان الشعب قبل أن يكون مرعيا فى قانون الدولة أو فى سجلات الحكام » (٥٥١) •

« والمصريون القدماء هم أول من آمن بالعـالم الآخر ، وبالبعث والحسـاب يوم الدينونة ··· وسبقوا شعوب الأرض جميعـا عندما ربطوا هذه الرموز الدينية بقيمة أخلاقية وهى العـدل المتمثل فى ارتباطه بالدين » (٥٥٢) ·

« ويسجل العـالم « فلندرز بترى » تلك الشهادة « ان الجميع يقرون أن المصريين كانوا يملكون ضميرا حيا لم تعـرفه شعوب الدنيـا فى العـالم القديم » (٥٥٣) ·

« واذا كانت الأخلاق هى التى يتضمنها القانون العـادل ، فالأهم هو أن الأخلاق هى الضمان لتنفيذه فى نهاية المطاف (٥٥٤) ·

ويقول الأسـتاذ « محمد السيـد السـعيد » فى مقـدمة كتـاب « حكمة المصريين » :

« ولا نبالغ اذا قلنا أن الحضارة المصريـة هى حضـارة مدنيـة بأكثر كثيرا منها حضارة سياسية · صحيح أن مصر هى أول دولة مركزية فى التاريخ ، وأنها تجسد نموذج المجتمع المتمركز حول الدولة · ولكن الروابط الأفقية بين المواطنين المنضمين الى أسر وجماعات قروية وأحياء حضارية ومدن وطوائف حرفيـة ثم نقابات عماليـة ومهنيـة وجمعيات أهلية وغيرها من الأوعيـة المدنية تبدو هى المحور الرئيسى للحياة الاجتماعيـة لدى المصريين منذ القـدم · وباختصار ، فان قوة مصر الحقيقية وتماسـكها الأكبر يظهران فى الاطار المدنى بأكثر كثيرا مما يظهران فى الاطار السياسى » (٥٥٥) ·

ويقول الدكتور احمد زايد :

« يمكن القول أن الحضارة المصرية القديمة كانت حضارة حرفيـة حيث اشتهرت الصناعات اليدوية وازدهرت · ولعل ما نجده من نقوش منحوتة على جدران المقابر والمعابد خير دليل على أن المصرى القـديم قد صنع الحضارة بيده وبأدوات غاية فى البساطة · وقد شكل الحرفيون فى المجتمع المصرى القديم جزءاً لا بأس به من سكان المجتمع انتشروا فى القرى والمدن يقدمون للمجتمع ما تحتاجه الحياة الاقتصادية من أدوات للزراعة والعمل ··· وهكذا وجد فى المجتمع المصرى القديم النجارون والحـدادون والبناءون وصـناع الطوب اللبن والنسـاجون

وصناع الفخار والخزافون والزجاجون والنحاتون والصباغون والمخططون » (٥٥٦) ·

الشعب المصرى

يقول الأستاذ « محرم كمال » فى كتابه « آثار حضارة الفراعنة » :

« الواقع أننا لا نعرف شعبا فى العالم أجمع أشد محافظة من الشعب المصرى على تقاليده وعاداته ـ فقد مرت على مصر أدوار مختلفة من التاريخ غيرت لغة البلاد ودينها عدة مرات ، ولكن الغزوات التى توالت على مصر لم تستطع أن تغير شيئا مما ورثه الشعب من التقاليد والمظاهر » (٥٥٧) ·

المرأة المصرية

« يكاد المؤرخون يجمعون على أن ما بلغته المرأة المصرية من مكانة رفيعة لم يكن له مثيل لدى الشعوب الأخرى · وفى ذلك يقول ماسبيرو مثلا :

« المرأة المصرية من الطبقة الدنيا والمتوسطة أكثر احتراما وأكثر استقلالا من أية امرأة أخرى فى العالم » ·

ويقول ماكس ميلر :

« لم يكفل أى شعب ، قديم أو حديث للمرأة مركزا قانونيا مماثلا فى سموه لما كفله لها سكان وادى النيل » ·

كذلك يقول « باتوريه » :

« كل الشعوب القديمة ، فى الغرب كما فى الشرق ، يبدو أنها اجتمعت حول فكرة واحدة : أن تجعل من المرأة كائنا أدنى من الناحية القانونية ··· أما مصر فانها تعرض لنا منظرا جد مختلف ، فنحن نجد فيها المرأة مساوية للرجل من الناحية القانونية ، لها نفس الحقوق وتتعامل بنفس الكيفية » (٥٥٨) ·

وينصح « بتاح حتب » ابنه بخصوص المرأة :

« اذا كنت رجلا عاقلا فاتخذ لك (فأسس لنفسك) بيتا وأحبب زوجتك وخذها بين ذراعيك • أشبع جوفها ، واكس جسدها • ان الدهان هو علاج أعضائها افرح قلبها طول حياتك ، لأن مثلها مثل الحقل الذى يعود بالخير الوفير على صاحبه • لا تكن فظا لأن اللين يفلح معها أكثر من القوة ، انتبه الى ما ترغب فيه والى ما تتجه نحوه رغبتها وتنظر عيناها وأجلبه لها • وبهذا تستبقيها فى منزل » (٥٥٩) •

« الحب والحنان واسعادها يعود بالخير على الحياة الزوجية • والمعاملة الطيبة هى التى تستأثر قلبها وليس العنف) ـ أليست هذه أسس السعادة الزوجية ؟

حضـــارة روحيـــة

تعتبر الحضارة المصرية القديمة أول حضارة روحية ، فقد عاش سكان وادى النيل الأقدمون ـ أجدادنا العظام ـ على هدى « الضمير الحى » • وبمراجعة نصوص البراءة نجد الاشارة بالأمانة وبالرحمة والعدل والتسامح والمسالمة والكرم فى صورة استنكاره للخطايا والجرائم • وها هى بعض الفقرات الهامة فى « الاعتراف الانكارى » الذى يردده المتوفى وهو أمام ميزان العدل :

ـ لم ألحق ضررا ما بأى انسان •

ـ لم أعمل على اشقاء حيوان •

ـ لم أستبدل السيئة بالحسنة •

ـ لم أعرف الشر ولم أعمله •

ـ لم أقدم مصلحتى الخاصة على واجبى •

ـ لم ألعن الآلهة •

ـ لم أسع الى اشقاء انسان ، أو أتسبب فى فقر أحد •

ـ لم أرتكب ما يغضب الاله •

ـ لم أتسبب فى بكاء أحد •

ـ لم أقتـــل •

- لم أحرض على قتل أحد ٠
- لم أتسبب فى حرمان انسان من حق له ٠
- لم أنقص كيلة الحنطة ٠
- لم أنقص المقيــاس ٠
- لم أرتكب الغش فى الميزان ٠
- لم أختطف اللبن من فم الرضيع ٠
- لم أطرد الماشـية من مراعيها ٠
- لم أصد الماء فى موسم جريانه ، ولم أقم سدا فى مجراه ٠
- لم أطفىء شعلة من وقت الحاجة اليها ٠
- لم أخالف الحدود بتناول اللحوم فى غير الأيام المخصصـة لتنــاولها ٠
- لم أعترض على ارادة الله ٠
- لم أدنس نفس فى حرم الاله ٠
- لم أرتكب الفاحشـة فى حرم الاله ٠
- لم أسلب خبز الموتى الأمجاد ٠

المجتمع والانســان

أن المجتمع المدنى يتكون من الروابط الاجتماعية ، وهى روابط لا تستقيم الحياة العادية بدونها ٠ ومن يتتبع التــاريخ المصرى ويتابع الشعب المصرى يلاحظ أن الاستمرارية الحضارية والنظام الاجتماعى المصرى هو الرابطة الوثقى للحياة المدنية على مر العصور منـذ العهود الفرعونية وحتى وقتنا الحالى ٠ « فالحياة المدنية هى نتاج القبول الارادى والتجمع الطوعى ، فالأفراد يعيشون فى أسر ويترابطون فى جمـاعات قرابية وعلاقات جيرة ، وهم يؤسسون لأنفسهم نظما وروابط لتسـوية خلافاتهم وممارسة احتفالاتهم بالمناسبات العـامة والخاصة ، محاولين أن يؤكدون من خلال عاداتهم وتقاليدهم ورموزهم الأخلاقيــة والمعنوية والدينية روح الجماعة بما تعكســه من تضامن وتحقق أمنى مشـترك وتوق للعدالة والفرح بالحياة ، والتامل فى الكون ٠٠٠ والحيــاة المدنية

فى أى مجتمع هى العمود الفقرى الذى يستقيم عليه بناء المجتمع كله » (٥٦٠) ٠

وكما يولد الفرد داخل مجتمع ما له مميزاته وخصائصه ومعتقداته وتقاليده ، فهو أيضا يولد داخل ثقافة خاصة تشكل شخصيته ٠ فالثقافة هى الاطار الأساسى والوسط الذى تنمو فيه الشخصية وتترعرع ، فهى التى تؤثر فى أفكاره ومعتقداته ومهاراته وخبرته ودوافعه ، وطرق تعبيره عن انفعالاته ورغباته ، كما تحدد له القيم والمعايير التى يسترشد بها ، وتفرض عليه التقاليد التى يتمسك بها ٠ والشخصية ، على هذا النحو ، مرآة تعكس صورة الثقافة ، أو كما يقول بعض علماء الاجتماع : ان الشخصية ممثلة للثقافة التى نشأت فيها ٠ فالمصرى القديم نشأ فى مجتمع زراعى مستقر أمده بوفرة فى المحاصيل فأعطاه الاحساس بالأمان ٠ واستقراره فى الأرض بجوار النباتات التى يزرعها ويتعهدها ويرويها أعطاه الاحساس بالانتماء الى الأرض السوداء وبالنيل مانح الخير والماء له ولمحاصيله وبالقوة الخفية التى ترعاه وترعى زرعه واكتسب صفات عامة مشتركة وهى : الصبر والمثابرة والتجدد والتعاون مع من حوله والذين ساعدوه على شق القنوات التى أوصلت الماء لأرضه والذين أعطوه الوجدان الدافىء بالحب أى زوجته وأولاده ٠ وهنا اكتسب هذا الانتماء الهام : الانتماء الأسرى ٠ وقد عبر عن شكره لله بتقديم القرابين وبالصلاة والتوسل والتضرع وتقديم الشكر ٠ « ورغم ما نلاحظه بين أفراد المجتمع من تباين وفروق فردية تجعل لكل فرد شخصيته الخاصة به ، نرى أنهم يتشابهون فى طابع الشخصية العام التى تتميز به ثقافته الخاصة به ، وأسلوب حياته الذى يميزه ٠ فالثقافة هى التى تصوغ الشخصية وتشكلها ٠٠ ولا يمكن للثقافة أن تشكل الشخصية وتصوغها وتتبلور فيها الا عن طريق عملية الصياغة الاجتماعية أو التنشئة الاجتماعية » (٥٦١) ٠

ويقول « اميل لودفيج » ــ مؤلف النيل ــ حياة نهر ــ عن المصريين القدماء :

« بلغ قدماء المصريين الغاية بفضل تذوقهم الحياة ونشاطهم الذى يزيد بتمثلهم المتصل المتجدد للموت ، وبفضل صحتهم وسناء شمسهم وما يسفر عنه فيضان النيل من رخاء ، غير أن هذه الأحوال خطت حدود احساسهم ومعرفتهم ، ويضاف هذا الاحساس الى أشد مرح فى الحياة ، ولا يكون هذا الاحساس حيث تؤدى ظلال الشفق الى حكمة أعمق من تلك ، وتمتد الصحراء بجانب الخضرة ، بجانب قدرة علمهم على الابداع ،

والعـــدم يبدأ عندهم حيث يبدأ عالم ما بعد الطبيعة لدى الشعوب الأكثر حرمانا من الشمس ، ونشأ عن حـــرارة عبادتهم للحياة ما فى عبادتهم للموت من مخالفة للصواب ولا فلسفة لشعب لا ظل عنده (٥٦٢) ٠

« وذلك يوضح لنا ابداع الشعب البالغ من الأســاس ، وكونه اخترع الكتابة التى توجب دوام الدولة بالعلم ، لا بالحرب ٠٠٠ واننا ٠٠ لم نر غير الاعجاب بمصر فى فجر الحضارة » ٠

« ودرس أطباء المصريين منذ أقدم الأزمان جسم الانســان الذى يجب أن يبقى بأى ثمن كان ، ووضع هؤلاء الأطباء أسس عــلم التشريح وعلم الأمراض ، فكان عند المصريين متخصصون فى حال كل عضو أصلى (٥٦٣) ٠٠٠ ويعدد هيرودوتس المتخصصين والمسهلات وكل مرض ينشأ عن الصحة ، ويعزو هيرودوتس هذه الصحة العــامة الى تساوى الاقليم قائلا : « يموج البلد بالأطباء ! » (٥٦٤) ٠

ويقول أيضا لودفيج عن فضل النيل على مصر :

« النيل ، لا الحرب ، هو الذى عين مصير ذلك الشعب ، وما أسفر عنه النيل من اكتساب البلد شكلا ملتويا كالحية فقد حال دون نيل وليه وجهة نظر يرقبه بها ، ويمكن طرفه أن يفصل عنه كالثعبان من غير أن يؤثر ذلك فى أعضائه المركزية » (٥٦٥) ٠

« ويعلمهم النيل الكتابة فيتعلمون التــلوين ، وترى على أقــدم التماثيل روعة الألوان ، وتخرج هذه التماثيل ، بفضل الجــو ، وفى الغالب ، سليمة من الغرف المعتمة ، فتدل على الحياة كما كانت عنــد أولئك الذين عرضوا على ذلك الوجه » (٥٦٦) ٠

ويصــف لودفــيج الرومان الذين احتــلوا مصر بعــد انتصــار « اكتافيوس » على انطونى وكليوباترا عام ٣٠ ق٠م٠ بأنهم تقــرب صفاتهم من صفات الفراعنة فيما يصدر عنهم من الأوامر على الأقل ، يتصفون كالفراعنة بروح النظام والتنظيم والادارة والبقاء »(٥٦٧) ٠

هكذا كانت السمة الطيبة لأبناء مصر الحكام ـ الفراعنــة ـ من أبناء الشعب الذين خرجوا من أرضها وشربوا ماء نيلها ، معروفين بروح النظام والتنظيم والادارة والبناء ٠

المدنية المصريه القديمة والأخلاق

رغم الأساطير المختلفة سواء أكانت عتيقة مهوشة أو تقوم بتفسير الخلق أو تعرض الصراع بين الخير والشر أو حتى هلاك البشرية فقد « كانت عند المصرى فكرة نقية صافية عن الاله مما جعل العلاقة بين الناس يسودها وازع خلقى ، سداه العدل ولحمته النظام المتسيب ، وهذه كانت منحة من الآلهة أيضا ، لأنهم وان لم يكونوا أنفسهم مثلا عليا للأخلاق فانهم رغم ذلك حماة النظام الخلقى ، فيعاقبون من يهتك حرمة هذا النظام ، كما يعاقبون من يتعدى حدود تعاليم الطهارة الجسمانية » · لذلك نجد الكثيرون من الدارسين يصفون المدنية المصرية بأنها مدنية أخلاقية ، بل ان النظام الاجتماعى القائم على حسن العلاقات وعلى الرباط الأسرى لابد وأن يجد فى الأخلاق النبراس الثابت فى ترسيخ العلاقات الودية حتى تكون صورة الانسان فى نظر الآخرين صورة مقبولة محببة · وهذا ما يحققه له بالتالى حاجة من حاجاته النفسية وهو أن « يحب ويكون محبوبا من الآخرين » ولا يتحقق ذلك الا بالظهور بالمظهر الحسن الخلقى والاجتماعى ولكى يحظى باحترام الآخرين أيضا · يضاف الى ذلك حاجة الانسان الروحية لكى يحس برضاء القوى الخالقة عنه وكل النصائح وكل ما يتعلق بالعالم الآخر يحتم عليه أن يسكن السلوك الحسن الذى يحقق له الجنة والخلود ·

« وقد مثل المصرى العدالة التى تقوم على مبادئها كل المدنية المصرية وحسن سير الجماعة ، منذ فجر التاريخ فى هيئة الهة (امرأة) حسناء وتحمل فوق رأسها ريشة أو فى صورة ريشة فحسب ، وأطلق عليها اسم « معات » ونسبتها بنت الاله « رع » اله الكون وزوجها الاله « تحوت » المنشىء لكل مدنية العالم (٥٦٨) ·

« والواقع أن نشأة المدنية المصرية التى قوامها العلم والعدل والادارة الحسنة فى نظام الحكم ، يرجع الى أصل دينى · أو اجتهد المصرى أن يعزوه الى أصل دينى ، وذلك لأن الدين كان متغلغلا فى كل مرافق حياته ولذلك رمز لكل منها بصورة ملموسة أمام المجتمع يهتدى بهديها · فمثل اله العلم « تحوت » مثل الطائر ابيس أو القمر وفى يده قلم وقرطاس ، ومثل الهة العدل بامرأة تحمل ريشة فوق رأسها رمز الدقة والعدالة · أما الادارة ونظام الحكم فكان ممثلا فى الالهة « سشات » (ومعناها التى تكتب) وتمثل على شكل امرأة جالسة على كرسيها وبيدها قلم وقرطاس تكتب فيه ، وكانت تعد سيدة بيت الكتب ، وتعتبر أول الهة نقشت (أى كتبت) · وكانت تدون كل الأعمال الجليلة التى يقوم بها الملوك » (٥٦٩) ·

مناظر من الحياة اليومية قديما وحديثا

قام الأستاذ « محرم كمال » بعمل مقارنة بين مناظر من الحياة اليومية فى مصر القديمة وبين المناظر اليومية التى نراها الآن (٥٧٠) وعلى وجه الخصوص بالريف المصرى الذى يكون صورة للأمس باستثناء الأجهزة الحديثة التى غزت الريف حاليا :

١ ـ ندابات ومعددات فى مصر القديمة يقرعن الدفوف والطبول عند حدوث الوفاة ... وقد ورثت القرويات هذه العادة من جداتهن فى مصر القديمة .

٢ ـ نساء من العصر الفرعونى ، يلطخن وجوههن ورؤوسهن بالطين عند حدوث الوفاة كما تفعل بعض النسوة الآن .

٣ ـ فى مصر القديمة ، كانت النسوة يخرجن من بيوتهن ويقمن بجولات فى الطرقات مولولات صارخات مثلما يحدث الآن من بعض النسوة فى القرى .

٤ ـ كان الفراعنة يحملون سعف النخل عند الذهاب الى المقابر .. وهذا ما نفعله حتى اليوم .

٥ ـ كاهن مصرى قديم يصب ماء مقدسا على حزم البصل وينشر حوله البخور .. فلا عجب اذا علقنا البصل الآن فى ليلة « شم النسيم » فوق الأماكن التى ننام فيها .

٦ ـ مشاهد من سوق مصرية قديمة لا تختلف عما نراه فى سوق القرية مع استخدام النقود اليوم بدلا من نظام المقايضة .

٧ ـ كان المصريون القدماء يجلسون على الأرض أثناء تناول الطعام ويأكلون بالأيدى ويشربون من أوانى فخارية ، كما يفعل الكثيرون من الفلاحين اليوم فى غالبية القرى .

٨ ـ ما أشبه المروحة التى يمسك بها الرجل الذى يشوى الأوزة بمروحة الكبابجى التى نستعملها اليوم .

٩ ـ طاسة الخضة الآن هى صورة شبيهة من الاناء الموجود ضمن أشياء توت عنخ آمون المصنوع من الألباستر .

١٠ ـ التمائم والتعاويذ و « الأحجبة » فى مصر الآن شديدة الشبه بالتمائم المصرية القديمة · وما أشبه « العروسة الورق » التى توخز بالابر بما كان يحدث قديما ·

١١ ـ ما أشبه حلاق القرية الآن بالحلاقين فى مصر القديمة حيث أن الحلاق المصرى القديم يزاول عمله بنشاط فى الهواء الطلق ·

١٢ ـ ألعاب أطفال اليوم تماثل ما كان يمارسه الأطفال فى العصور القديمة ·

١٣ ـ المزمار الحديث يشبه المزمار الفرعونى ·

١٤ ـ فى الغناء المصرى القديم نلاحظ فى الصور المغنى الذى يضع يده على خده والمزمار المصنوع من الغاب ـ والتصفيق بالأيدى لمصاحبة الغناء والرقص و « الطرقعة » بأطراف الأصابع ·

١٥ ـ الطشت والابريق المستعملان الآن لغسل الأيدى قبل تناول الطعام · ما أشبهها بما كان يستعمله المصريون القدماء ·

١٦ ـ مغزلنا الحالى الشائع فى القرى يشبه المغزل المصرى القديم وكذلك « النول » لا يختلف عن الأنوال الفرعونية ·

١٧ ـ الشادوف الذى نستعمله الآن هو نفس الشادوف المصرى القديم ، كما يتبين من مقارنة صور الشادوف القديم فى الرسوم القديمة مع الشادوف الحالى ·

١٨ ـ المنجل المصرى القديم هو نفسه المنجل المستعمل حتى الآن فى قطع سيقان النباتات وحصد حقول الغلال فى القرى ·

١٩ ـ المحراث الذى كان يستخدم فى مصر القديمة هو نفسه المحراث الذى يستخدمه الفلاحون فى القرى المصرية الآن ·

٢٠ ـ المذراة المستعملة الآن شبيهة بالمذراة التى كان يستعملها المصريون القدماء فى التذرية ·

٢١ ـ صناعة الطوب اللبن الآن هى نفس الطريقة التى كان يصنع بها الطوب اللبن قديما وكانت تستخدم فيه نفس القوالب الخشبية ·

٢٢ ـ ملاقف الهواء فوق أسطح المنازل المصرية القديمة تشـــبه ملاقف الهواء فى بعض البيوت حاليـا • ويلاحظ اتجاه ملاقف الهواء نحو الشـــمال حيث هواء البحر الأبيض الملطف للجو •

٢٣ ـ مخازن الغلال فى مصر القديمة تشـبه « الصوامع » المنتشـرة الآن فى القرى المصرية •

٢٤ ـ نموذج المنزل المصرى القديم بالنوافذ العلوية الصغيرة والصوامع يشبه الكثير من منازل القرى الحديثة •

المصرى رحيما ورفيقا ومتسامحا وملتزما بالأخلاق والعفو :

« كان (الجنود) أقرب الى الرحمة والرفق فى القتل ، والتسامح والعفو بعد احراز النصر • وقد ضـــرب تحتمس الثالث أروع الأمثـال فى البر بالأعـداء المستسلمين ، حين ظل يحـاصر مدينـة (مجـدو) سبعة شهور حتى أعلن أهلها الطاعة وأرسلوا أبنائهم اليـه يحمـلون الجزية فعفا عنهم ، بل قيل أنه كافأهم ، وكان هذا ما فعله رمسيس الثانى كذلك غداة انتصاره على الجيش فى معركة قادش ، حين استعطفه الأعداء ليعفو عنهم وقفل راجعا الى بلاده ، فكان المصريون يعتبرون الحرب ضرورة لابد منها لدفع الخطر عن بلادهم ، وليس وسـيلة الى تعذيب الشعوب وتخريب أوطانها وكانوا هم أول أمة من الأمم تلتزم فى حروبها بمبادىء الأخلاق وتعاليم الدين » (٥٧١) •

المصرى متدينـا مبتهجـا عادلا رحيما يكره القسـوة والعنف :

« ان التدين فى مصر لا ينفصل عن الحيـاة ، وان مظاهر التدين لا تخلو من البهجة ، وتمثل الاحتفالات الصاخبـة بموالـد الأوليـاء والقديسين احدى أبرز صور هذا الدمج بين الدين والدنيـا ، وبين مراسم العبادة وطقوس التطهر الدنيوى ، وبين الخشوع والمرح » (٥٧٢)• اننا نلاحظ ارتبـاط الحيـاة بالدين ، فالدين بالنسبة للمصرى القـديم ليس مجرد التعاليم الصارمة التى يصدرها رجال اللاهوت ويقدمون الدين لهم على نحو متعال • لم يكن المصرى متحمسا للفـكر الفلسفى لرجال اللاهوت فثمة « ارتباطا حميما فى عقول المصريين بين الدين ورفع الظلم والاحجاف واقرار العدالة والرحمة ، وهو ارتبـاط قد يغيب عند

المؤسسة الدينية التى تقوم على الرقابة على التعاليم بغض النظر عن نتائجها المادية الملموسة فى الحياة اليوميـة للناس ... وثمة معنى بارز للغاية فى طريقة المصريين فى فهم الدين والتدين ، فالمصرى لا يفصل مطلقـا بين الدين والأخلاق . وللأخلاق معنى ايجابى لدى المصريين جوهره العدالة والرحمة ورفض الظلم والقسـوة ، أيا كان مصدرها أو تبريرها ، ولذلك يقال عن الظـالم ومن فى قلبه قساوة أنه « ما يعرفش ربنا » فلا يقبل المصرى من متدين أن يمارس القسوة أو العنف بشتى مظاهره ، مهما كان التبرير الدينى لهذا الظلم أو هـذه القسوة ، فى عقول من يمارسها »(٥٧٣) .

ويأكد الدكتور « زكى نجيب » معنى الجمع بين الدين والدنيا فيقول « لعله من أميز ما يميز الشخصية القومية ، قدرتها على الجمع بين دينها ودنياها ، فانظر الى المصرى فى معظم مراحل تاريخـه ، تجـده فى الصانع البارع ، والزارع الخبير ، والمعمارى القدير . وهذا كله خبرة وعلم بشئون الدنيا ومادتها ولكنه من الناحية الأخرى يتجـه بخبرته وعلمه نحو تحقيق أهداف كبرى تتصل بما بعد الموت » (٥٧٤) .

ان الدارس للتـاريخ وبصفة خاصة التـاريخ المصرى القديم يجد الكاهن عالما فلكيـا ومهندسا بارعا والعمال البسـطاء أيضا والفنانين والنحاتين والرسامين كلهم عملوا فى منظومة عمل واحدة سواء فى بناء الأهرامات أو تجهيز المقابر من أجل هدف دينى وهو الاعداد للحياة الآخرة – بعد الموت . ويعود الدكتور « زكى نجيب محمود » ويقول : « فماذا كان فى قلب المعمارى الذى اقام المعـابد القديمة أو الحديثـة على السواء الا شعور فيه طبيعة العبادة ، بأن هذه مستخدم فى خدمة الدين ؟ .. صنعه الفنان ، من تصوير ونحت وعمارة لها محور تلك الطاقة الصانعة تدور حوله وتستهدفه ... انه محور متصـل بالحيـاة الآخرة ، أى انه متصل بالروح ، فلم يجد المصرى القديم صعوبة فى أن يدمج الطرفين فى حياة واحدة . وهذا هو نفسه الذى نتبينـه فى حياة المصرى خلال المرحلة المسيحية التى امتدت نحو ستة قرون ،ثم المرحلة الاسلامية بعد ذلك ، اذ أن أهم ما خلفته لنـا المرحلتان من فن وصـناعة ، متصل بالحياة الدينية » (٥٧٥) ثم يعـود الدكتـور زكى يؤكـد المعنى « فلو كانت أخلاق المصرى لتستقطب هذه المزاوجة بين الدين والدنيـا ، استقطابا حيا صادقا ، لرأيناه دائما طائرا بجناحين : جناح العبادة وجناح العلم والعمل والانتـاج .. لوجدنا المواطن المصرى عزيز النفس بايمانه وبانتاجه معـا مستغنيا بذلك الايمان وبهذا الانتاج عن أى موقف يأتيـه بالاذلال » (٥٧٦) .

المصرى اداريا منظما ودقيقا :

« ليس هناك ما يدل على تنظيم المصرى لكافة مناحى الحياة اكثر من اسناد العدالة والادارة والقانون الى الهة تختص وترعى هذه التقسيمات الهامة ـ فنجد « ماعت » الهة العدل والصدق والآلهة « سشات » الهة الادارة وهما الآلهة الرسميين الذين فى يدهم السلطة الحكومية ·· وكان أهمهم « تحوت » اله القانون ، فكان الوزير كاهنه وفى الوقت نفسه رئيس الحكومة ··· والواقع أن الوزير كان الرئيس الأعلى للادارة المصرية ، وكان لابد أن يدرس كل الأعمال الهامة فى البلاد يساعده فى عمله رئيس البعوث ، وهو الذى يحمل أوامره ويضع امامه كل التقارير الخاصة بمصالح المقاطعات ، وكذلك كان يشرف الوزير على السجلات الملكية التى كانت تحفظ فيها الأوراق الهامة كالمراسيم الملكية والعقود والوصايا » (٥٧٧) ·

المصرى عادلا : كقاضى يسير على القوانين والحق والعدالة والحكمة

« لا نزاع فى أن فكرة العدالة والحق كانت موجودة بين سكان القطر المصرى منذ أقدم العصور ، وقد كانت الهة العدل تحمى المحاكم ، ويقدم شعائرها القضاة ، فمن ذلك يتضح ان العدالة كانت تمثل على شكل الهة تعبد · يضاف الى ذلك أن المصرى كان منذ القدم يخاف عقاب الاخرة ، ويجتهد ان يعمل فى دنياه ما يشعر بانه ينتظر يوما يعاقب فيه على كل سيئة اقترفها أو ذنب ارتكبه · وقد عثرنا على وثيقة من عصر الملك « منكاورع » لأحد كبار موظفيه ورجال الدين ، نرى منها أن هذه الشخصية وقفت موقفا تبرىء فيه نفسها مما لابد كان يرتكبه غيرها من الآثام وأنواع الظلم فى هذا العهد · وهذا العظيم هو ، رمنوكا » كبير كهنة الملك « منكاورع » وكبير كهنة هرمه ، فهو من رجال الدين وممن يخافون الله · وقد ترك لنا عقبة باب علوية نقش عليها ما يأتى :
« ان الذى يحب الملك والاله أنوبيس الذى على قمة جبله ، لا يأتى بأذى لمحتويات هذا القبر ، من القوم الذين سيصعدون الى الغرب (مقر الآخرة · اما من جهة هذا القبر الأبدى فانى قد اقمته لأنى كنت مقربا · لدى الناس والملك · ولم يحدث قط أنى اغتصبت أى شىء من أى انسان لهذا القبر ، لأنى أذكر يوم الحساب فى القبر (الآخرة) · وقد أقمت هذا القبر مقابل أجور من الخبز والجعة التى أعطيتها العمال الذين أقاموا تأمل ! لا نزاع من انى أعطيتهم أجور عظيمة من الكتان الذى كانوا يطلبونه ، وقد دعوا لى من أجل ذلك »(٥٧٨) .

وقد علق الدكتور « سليم حسن » على هذه الوثيقة قائلا :

« وليس هنـاك وثيقة تدل على مقدار خوف المصرى من عقـاب الدنيا وعقاب الآخرة مثل هذه ـ فصاحبها يقرر بأنه لم يغتصب شيئا من أى انسان خوفا من حسـاب الآخـرة ، وفى الوقت نفسـه يشـعر الأحياء بألا يتعدوا على قبره لأنه أقامه من ماله ودفع أجور عاليـة للعمال الذين أقاموه » (٥٧٨) وفى فصل الادارة والعدالة رأينا دور المحاكم فى اقرار العدالة رأينـا محكمة الست وهى المحكمة العليا للقطر والتى كان يرأسها الوزير والتى أقيمت فى عهد الأسرة الخامسة ، ورأينـا فى عهد الأسرة (الرابعـة السلطة القضائيـة فى يد حـاكم المقاطعـة و « القاضى الجابى) و « رجوع المحكمة فى حكمها الى الأوراق الخاصة بالعقارات المستخرجة من مصلحة الزمامات » (٥٧٩) وكان القـانون يدون فى كتب وكان هناك « ادارة العرائض أو الشـكاوى وتشـمل الادارة القضائية وادارة قلم كتاب المحكمة · وكانت كل قضـية تقـدم للمحكمة بعريضة » (٥٨٠) ·

المصرى متدينـا :

لقد لاحظنا من دراستنا للعقيدة الدينية أنها لا تختلف كثيرا عن الأديان السماوية فى النقاط التالية : البعث ـ الخالق الواحد ـ الحساب ـ الثواب والعقاب ـ الجنة والنار ـ الحياة الآخرة بعـد الموت ـ نظرة المصرى القديم الى الموت بأنه انتقال الى حياة خالدة · ان الوجدان الدينى هو جزء من الكيان المصرى ، والتدين والايمان احساس أكثر منـه استنتاج منطقى قائم على الفروض والاستنتاج العقلى · لقد لاحظ المصرى بأنه يحلم أثناء نومه ثم يستيقظ بعد النوم (أى يعود للحياة والادراك والوعى) وقد يجد حلولا لمشاكله أثناء النوم أى فى أحلامه ·· أو قد يرى فى أحلامه مؤشرات بأحداث قد يتصادف حدوثها مع توقعـه لها فيحس بأن هذا الايحاء قد أتاه من قوى خارجية كاجابة لتساؤل لديه · لذلك سعى الى تفسـير الأحلام التى تدله على أشـياء كان يجهلها ويود أن يعرفها · من هنا أتت فكرة التنبؤ التى استغلها بعض الكهان ، كما ظهر فى اللجوء للاله آمون فى الدولة الحديثة للحصول على اجابات للمشاكل فى صورة نبوءات وأحـكام ·

كما لاحظ شروق الشمس بعد غروبها ·· والليل يتبعه نهار (عملية الاستمرارية الدائمة) بل ان هذا النور بعـد الظـلام أعطاه هذا الاحساس

بالتفاؤل ويردد الناس حتى اليوم « الليل له آخر ·· وبكره طالع النهار أى تنتهى الضيقات والمظالم » أليست هذه مؤشرات للانسان لكى يدرك بحسه وبحدسه ووجدانه أن الانسان لا يمكن أن ينتهى الى العدم ·· وان هناك عنصر خالد بداخلنا (الروح) · ومع وجود العدالة متمثلة فى الاله « ماعت » الهة الحق والصدق والعدالة ، فلابد من وجود حساب لما فعله الانسان ·· كما أن الخالق الأعظم الرحيم بعباده والذى ينصت ويستجيب لتوسلاتهم فى الصلوات ، لابد وأنه يقيم ميزان العدالة دائما ··· ونرى فى المحاكمة القلب (الذى يعنى الضمير) يوضع فى أحد كفتى الميزان والريشة أو « ماعت » فى الكفة الأخرى ·

المصرى محافظا على شخصيته الحضارية :

« وجدت مصر نفسها منهمكة فى علاقات متشابكة مع الحضارات والجماعات البشرية المجاورة لها ، خاصة فى غرب آسيا عن طريق سيناء أو عن طريق البحر المتوسط ، وفى الشاطىء المقابل للبحر المتوسط حيث الحضارة المانوية فى جزيرة كريت ، ثم الحضارة الاغريقية فى بلاد اليونان فى مرحلة لاحقة ·· وقد تولدت عن هذه العلاقات سلسلة معقدة من التفاعل الحضارى بين شعوب المنطقة غير أن المصريين **لم يتخيلوا فى ظل هذا التفاعل عن ثقافتهم وشخصيتهم الحضارية ، التى حافظوا عليها بمنتهى التشبث والاصرار** مما جعل بعض المؤرخين يرصد روح الغرور القومى عند المصريين ويشير الى تجلياتها فى تقاليدهم وأساطيرهم · والحق أن هؤلاء المؤرخين لم يجافوا الحقيقة ، فقد كان المصريون كما تروى أساطيرهم ، يعتقدون أن بلدهم « مصر » **هو العالم الذى نظمه الاله الخالق الأول** ، ولذا وجب على سائر الممالك الأخرى فى الجهات الأربع احترام ذلك الكيان الالهى المقدس ، وقد كان من الطبيعى أن ينطوى المصريون على أنفسهم فى الفترات التى غلبوا فيها أمام الغزاة ، وحين كانت تفشل ثوراتهم المتتالية فى طرد هؤلاء الغزاة كانوا ينجحون بسبب وعيهم بتميز حضارتهم فى المحافظة على **شخصيتهم الحضارية** » (٥٨١) ·

ولقد سبق أن استخلصت من أقوال المؤرخين بأن « حضارة مصر القديمة كانت حضارة الصانع والزارع قبل أن تكون حضارة الملوك أو العواهل » (٥٨٢) وأنها كانت حضارة مدنية وحضارة أخلاقية قبل أن تكون حضارة سياسية ويرجع السبب فى ذلك أن المجتمع المصرى القديم كان مجتمعا « سليم البنيان متين الروابط صحيح المقاييس ···

(ودليل قوته) أنه مجتمع تعاقب عليه ثلاثون قرنا حافلة بالأحـــداث الحروب والفتن والغزوات ، وظل برغم ذلك كله سـليم البنيـان قادرا على أن يعيد تشييد كيانه اذا تصدع أو انهدم فيه شيء » (٥٨٣) واننا نجد « الغربى يشعر بالجانب الانسانى الشامل لحضارة مصر ويستوقف نظره تقديرها للعمل والعامل والصناعة والصانع والزراعة والزارع ٠٠ وقد قال « جاك بيرين » فى كتابه « التيارات الـكبرى للتـاريخ العالمى أن الشعب المصرى شعب انسانى فى صميمه ، جماعى فى تفكيره ، وهو يلفت النظـر الى أنك لا تجـد أبدا صورة نساج واحد من صانع قوارير واحد على الآثار المصـرية ، بل لابد من عشرات الصناع يعملون معا . وفى بعض الأحيان تمثل اللوحة مصنعا كامـلا بكل أجـزاء العمـل وما يصنعه كل عامل على حدة » (٥٨٣) ٠

ما نستخلصه من الأساطير بخصوص الشخصية القومية :

١ ـ خشوع المصرى للخـالق وحبه له وطلب العون منه وهو المجيب للدعوات والذى ينصره على قوى الشر المعادية ٠

٢ ـ الاخلاص صفة محببة اليه ٠

٣ ـ المصرى يحتقر الشذوذ الجنسى ٠

٤ ـ المرأة زوجة مخلصة وأم رؤوم (ايزيس) ٠

٥ ـ الحكمة تتغلب على الخداع والسفالة والمؤامرات ٠

٦ ـ الوازع الدينى والوازع الأخلاقى هما المحصلة الطبيعية لفكرة الحساب والميزان ، وأن الأخلاق الحميدة والخصال الحسنة هم سبيلهم الى الجنة والخلود ٠

٧ ـ الشر لابد أن يعاقب ٠ والخالق أقوى من قوى الشر ٠ ولم يخلق الشر ولكنه نابع من الانسان ذاته ، ومن المخلوقات مثل أبوفيس وست ٠

٨ ـ أزلية الصراع بين الخير والشر ٠

٩ ـ لا يوجد فى السماء شر ، بل الشر موجود على ظهر الأرض أثناء الحياة الدنيا وفى العـالم السفلى فى الحياة الآخرة ٠

١٠ ــ صورة الوفاء تتمثل فى حورس الابن البار وفى وفاء واخـــلاص ايزيس . أى أن الأســرة المصــرية المرتبطة بالمثل وبالأخلاق هى أهم رباط اجتماعى أخلاقى وتأتى فى أهميتها عقب التقوى والتدين والخشــوع للخالق الأعظم .

١١ ــ حصل الشعب العادى فى حقه فى الخلود عندما تغيرت « متــون الأهرامات وحل محلها « نصــوص التوابيت » وكتاب المــوتى » والكتب الأخرى الخاصــة بالحياة الآخرة . لقد انتصــــر لهم أوزيريس الذى أصــبح القاضى يوم المحاكمة (يوم الحســـاب) بعد أن كان رع هو المسئول عن المحاكمة فى « متون الأهرام » . ام يستسلم عامة الناس لما فعله رجال اللاهوت فى اهتمــــامهم بالملك الذى يصــعد الى الســماء بينما يبقى عامة النــاس على الأرض دون ذكر لخلودهم .

الخاتمـــة

اهتمام الأجانب بآثارنا

اذا كان الأجانب يقدرون تلك الآثار ويأتون من كل بقـاع الأرض لمشاهدة هذه الآثار الخالدة ، فقطعا هم يحترمون ويبجلون من أقاموا تلك العجائب ، فهى خير شاهد على حضارة أجـدادنا · وهى تعنى التقدم فى المعمار والهندسة والادارة والفن والتخـطيط والتنسيق · ولا يمكن لأى حضارة أن تنشأ من فراغ · انها بوتقـة انصهر فيهـا العلم والفلسفة والدين والفـــكر والحـكمة والفن والادارة والـوعى الاجتماعى والسياسى · ولم تنتهى هذه الحضارة رغم فترات الضعف السياسى والتفكك والتشاحن والتصارع والمؤامرات والدسـائس وكل تلك العوامل التى شجعت المحتلين والنهابين أن يدنسوا أرضنا ·

لازلنا نجد الأحفاد يحملون تقـاليد الأجداد وسماتهم والتى تعنى بأنها سمات الشخصية المصرية المترابطة والخـالدة وهى : التدين ـ والتسامح ـ حب الناس ـ الاخلاص فى العمل ـ التمسك بالأخـلاق والخوف من يوم الحساب ـ كراهيتهم للشر والجريمة ـ الولاء للخـالق جل جلاله ـ الولاء للوطن ولأبنـاء وطنهم ولأسرتهم المترابطـة التى صانت هذه الحضارة الخالدة · وحتى اللغـة الدارجة التى ينطقها العامة (ونحن المثقفون أيضا) يتخلل ثلثها على الأقل لغـة أجدادنا · ولن أنسى أحد السائحين التونسيين عنـدما قال له بزهو « أنا باحب أستمع للهجتكم المصرية » ·

وما ينقصنا الآن هو محاربة السلبيات وتخـليص المجتمع من الفساد ومن بذور الشر التى تكمن فى رغبة الأعداء فى طمس شخصيتنا القومية · ويكفى أن أديبنا العظيم نجيب محفوظ عبر عن وجداننـا القومى ، ونال بذلك تقدير العـالم واعجابهم فمنحوه جائزة نوبل · كما عبر العالم عن اعجابه وتقديره لعلماء مصر فمثلا فى عالمنا الفـذ الجـليل الدكتـور (أحمـد زويل) ومنحـه أيضا جـائزة نوبل ·

لماذا لا نمد علمائنا الشبان بالأجهزة الحديثة وبالمعامل المتخصصة حتى يحققون طموحهم ويحققون آمالنا فيهم بحمل مشعل الحضارة الذى ورثوه عن أجدادهم ؟ أليس من الأجدر أن نجد القطاع الخاص والجمعيات الأهلية يقومون بتشجيع العلم والعلماء والأدب والأدباء والفن والفنانين ٠ أين الصالونات الأدبية والمعارض الفنية التى كانت موجودة فى النصف الأول من القرن العشرين رغم أن البلاد كانت محتلة ؟ لماذا يبخل القادرون حاليا على وطنهم وعلى أبناء وطنهم وينفقون الملايين على الدعاية الشخصية وعلى نجوم الكرة ونسوا نجوم المجتمع العلمى والثقافى والفنى ؟

اننا لا يمكن أن ننسى العظماء من المخلصين لتراب الوطن وعلى سبيل المثال لا الحصر حتى لا أغفل أحدهم سهوا فهم كثيرون والحمد لله لدينا الشيخ « محمد عبده » و « رفاعة رافع الطهطاوى » والدكتور « طه حسين » ومعلم الأجيال « أحمد لطفى السيد » ومؤسس الاقتصاد الوطنى « طلعت حرب » وزعماء الثورات الوطنية « أحمد عرابى » و « سعد زغلول » اننى أتمنى أن أستكمل هذا الكتاب بكتاب مكمل له يتناول مصر منذ العهد الفرعونى وحتى الآن مستكملا تاريخنا القومى حتى الآن ويسير على نفس الدرب فتاريخ الشعب هو سلسلة متصلة مر عبر فترات الاحتلال اليونانى فالرومانى فالعربى فالعثمانى فالبريطانى حتى يصل بنا للحقبة الحالية ٠ ولا أعجب أكثر من اغفال وزارة التربية والتعليم لفترات من تاريخنا وكأنه انقطعت صلتنا بأجدادنا وظهرنا فجأة بعد الفتح العربى لمصر!! علينا أن نوضح استمرارية الشخصية القومية المصرية ، وعدم الخلط بينها وبين المؤثرات السياسية التى حاولت أن تتجنى على شخصيتنا القومية ٠ واذا كانت صورة المجتمع شابها بعض التغيير بسبب المؤثرات التجارية فان القرية المصرية لم تتخلى أبدا عن دورها الوطنى فى الحفاظ على شخصيتنا المصرية ٠

ودورنا الآن هو مساعدة أبنائنا فى استعادة مكانتنا بين الأمم لكى يثبتوا للعالم أن أبناء النيل هم أحفاد الفراعنة ٠ ومن يمتزج

بأخلاقنا السامية وبتديننا واخلاصنا وتسامحنا ومحبتنا لكل النـاس ويريد أن يصير واحد منا ويعتز بمصريته فمرحبا به ٠٠ أما نحن الذين ارتوينا من ماء النيل وعشنا على الأرض الخصبة التى أمدتنـا بالغذاء وبحكمة القدماء والحديثين ، فنحن نضع الهرم كرمز للاستقرار والاعتزاز فلن تجدنا تغربنا أو تأمركنا ـ وحتى لو لوك بعض المراهقين باللبان ولبس الجينز ـ واننا لا نرضى لعقولنـا أن تلغى ونسير فى زمرة المهوسين والمتعصبين ٠٠٠ فداخلنا المصرى الفصيح الحـكيم المثابر والواعى لكل ما فى الكون ولم ولن ينسى خالقـه وأننا سنقف بين يديه فى اليوم الذى لا هروب منه ٠

الى اللقـاء فى الكتاب التالى

« الشخصية المصرية ابان فترات الاحتلال »

أسماء المراجع

١ ـ مصر القديمة (ثمانية عشر جزء) : الدكتور سليم حسن ٠

٢ ـ شخصية مصر (الجزء الثانى) : د٠ جمال حمدان ٠

٣ ـ فجر الضمير : جيمس برستيد ٠

٤ ـ الديانة المصرية القديمة : تأليف ياروسلاف تشرنى ، ترجمة د٠ أحمد قدرى ٠

٥ ـ ديانة مصر القديمة : مستر أدولف ارمان ٠

٦ ـ أسرار الهرم الأكبر : تأليف الأستاذ محمد العزب موسى ٠

٧ ـ معجم الحضارة المصرية القديمة : مجموعة من العلماء ٠

٨ ـ أمى دوات : تفسير ما هو كائن فى العالم الآخر : أ٠ محسن لطفى السيد ٠

٩ ـ مصر الفراعنة : تأليف سيد ألن جاردنر ٠ ترجمة د٠ نجيب ميخائيل ابراهيم ، مراجعة د٠ عبد المنعم بكر ٠

١٠ ـ صناع الخلود : تأليف مستر موريس بيربراير ٠ ترجمة الأستاذ : عكاشة الدالى ٠

١١ ـ موسوعة حكام مصر : د٠ ناصر الأنصارى ٠

١٢ ـ الموجز فى علم الآثار : تأليف الدكتور على حسن ٠

١٣ ـ معالم تاريخ حضارة مصر الفرعونية : تأليف دكتور سيد توفيق ٠

١٤ ـ الرمز والأسطورة فى مصر القديمة : تأليف رندل كلارك ، ترجمة أحمد صليحة ٠

١٥ ـ المجمل فى تاريخ القانون المصرى : تأليف الدكتور ناصر الأنصارى ٠

١٦ ـ موجز تاريخ القانون المصرى : دكتور محمود سلام زناتى ٠

١٧ ـ الخلود فى التراث الثقافى : د٠ سيد عويس ٠

١٨ ـ الحياة أيام الفراعنة : تأليف ت ٠ ج ٠ جيمز ترجمة د٠ أحمد زهير أمين مراجعة د٠ محمود ماهر طه ٠

١٩ ـ الطفل المصرى القديم : تأليف روزالندم وجاك يانسن ٠ ترجمة زهير أمين ٠ مراجعة د٠ محمود ماهر طه ٠

٢٠ ـ الطفولة والحضارة المصرية ، هيئة الآثار ٠

٢١ ـ مصر تحت ظلال الفراعنة : محمد صابر ٠

٢٢ ـ ابعاد الشخصية المصرية : ندوة لنخبة من المتحدثين والمؤلفين المصريين ٠

٢٣ ـ علم النفس وقضايا العصر : د٠ فرج عبد القادر طه ٠

٢٤ ـ الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء : تأليف الأستاذ محرم كمال ٠

٢٥ ـ حكمة المصريين (دراسات حقوق الانسان) : صفوة من الأساتذة المتخصصين ٠

٢٦ ـ مصر ورسالتها : تأليف الدكتور حسين مؤنس ٠

٢٧ ـ النيل حياة نهر : تأليف د. لودفيج ترجمة عادل زعيتر .

٢٨ ـ نافذة على الكون : تأليف الدكتور امام ابراهيم أحمد ٠

٢٩ ـ محاضرات الدكتور محى عبد اللطيف ٠ دوره ايجوث لاعداد المرشدين السياسيين عام ١٩٨٩ ٠

٣٠ ـ محاضرات الدكتور حازم عطية الله : دورة وزارة السياحة المرشدين السياحيين عام ٢٠٠٠ ٠

٣١ ـ دليل المتحف المصرى ٠

٣٢ ـ تاريخ النظم : نخبة من العلماء ٠

٣٣ ـ كتاب التربية القومية (وزارة التربية والتعليم عام ١٩٨٩) ٠

٣٤ ـ آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا اليومية : تأليف الأستاذ محرم كمال ٠

٣٥ ـ عندما حكمت مصر الشرق : تأليف ج٠ شتيندوروف ، ك٠ سيل ترجمة محمد العزب موسى ، مراجعة د٠ محمود ماهر طه ٠

٣٦ ـ الحضارة المصرية : سيريل الدريد ، ترجمة مختار السويفى . مراجعة د٠ أحمد قدرى ٠

٣٧ ـ تاريخ الطب والصيدلة المصرية فى العصر الفرعونى د٠ سمير يحيى الجمال ٠

٣٨ ـ لمحات فى تاريخ العمارة المصرية : الدكتور كمال الدين سامح .

٣٩ ـ قصة العلم : مستر ج٠ ج٠ كروائر ، ترجمة د٠ يمنى طريف الخولى ـ د٠ بدوى عبد الفتاح ٠

٤٠ ـ كنوز الفراعنة : تأليف ت٠ جيمز ، ترجمة د٠ أحمد زهير أمين مراجعة د٠ محمود ماهر طه ٠

٤١ ـ المفهوم الحديث للمكان والزمان : تأليف د٠ ديفيز ، ترجمة د٠ السيد عطا ٠

٤٢ ـ الموسوعة الأثرية العالمية : مجموعة من العلماء ٠

٤٣ ـ الفن وعالم الرمز : دكتور محسن محمد عطية ٠

٤٤ ـ المفهوم التراجيدى فى الدراما الحديثة : د٠ فوزى فهمى ٠

٤٥ ـ العمارة فى مصر القديمة : تأليف الدكتور محمد انور شكرى .

٤٦ ـ قيم من التراث : تأليف د٠ زكى نجيب محمود ٠

٤٧ ـ أبو الهول : تأليف الدكتور سليم حسن ٠

٤٨ ـ أهرام مصر (فى العصور القديمة) : تأليف س٠ ادواردز ، ترجمة مصطفى أحمد عثمان ، مراجعة د٠ أحمد فخرى ٠

الهـــــوامش

(١) تاريخ القانون المصرى ، ص ٥ ·
(٢) تاريخ النظم ، ص ١٤٦ ·
(٣) المجمل فى تاريخ القانون المصرى ، ص ١٠١ ·
(٤) المرجع السابق ، ص ١٠٩ ·
(٥) المرجع السابق ، ص ١١١ ·
(٦) الديانة المصرية القديمة ، ص ٥ ·
(٧) المرجع السابق ، ص ٢ ·
(٨) المرجع السابق ، ص ٣ ·
(٩) المرجع السابق ، ص ٤٧ ·
(١٠) المرجع السابق ، ص ٤٨ ·
(١١) المرجع السابق ، ص ٤٨ ·
(١٢) نافذة على الكون ، ص ٤ ·
(١٣) الديانة المصرية القديمة ، ص ٢٧٠ ·
(١٤) نافذة على الكون ، ص ٥ ·
(١٥) الديانة المصرية القديمة ، ص ٢٦٧ ·
(١٦) المرجع السابق ، ص ٥١ ·
(١٧) نافذة على الكون ص ٥ ·
(١٨) المرجع السابق ، ص ٦ ·
(١٩) المرجع السابق ، ص ٨ ·
(٢٠) المرجع السابق ، ص ٩ ·
(٢١) المرجع السابق ، ص ١٢ ·
(٢٢) المرجع السابق ، ص ١٣ ·
(٢٣) معـالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونيـة ، ص ٣٢ ·
(٢٤) المرجع السـابق ، ص ٣٣ ·
(٢٥) المرجع السابق ، ص ٣٥ ·
(٢٦) المرجع السابق ، ص ٣٦ ـ ٣٧ ـ ٣٨ ·
(٢٧) المرجع السابق ، ص ٣٩ ـ ٤٠ ـ ٤١ ·
(٢٨) محاضرات الدكتور محى عبد اللطيف ·
(٢٩) المرجع السابق ·
(٣٠) المرجع السابق ·

(٣١) المرجع السابق .
(٣٢) أسرار الهرم الأكبر ، ص ١٣٣ .
(٣٣) المرجع السابق ، ص ١٣٤ .
(٣٤) مصر القديمة ، الجزء الثامن عشر ، ص ٢٢٥ .
(٣٥) ديانة مصر القديمة ، ص ١٢٢ .
(٣٦) النيل – حياة نهر – ص ٨١٣ .
(٣٧) المرجع السابق ، ص ٥٤٠ .
(٣٨) المرجع السابق ، ص ٥٤١ .
(٣٩) المرجع السابق ، ص ٥٥٦ .
(٤٠) المرجع السابق ، ص ٥٥٧ .
(٤١) المرجع السابق ، ص ٥٥٩ .
(٤٢) المرجع السابق ، ص ٥٥٩ .
(٤٣) المرجع السابق ، ص ٥٦٠ .
(٤٤) المرجع السابق ، ص ٥٦١ .
(٤٥) المرجع السابق ، ص ٥٧٧ .
(٤٦) المرجع السابق ، ص ٤٤٢ .
(٤٧) المرجع السابق ، ص ٤٤١ .
(٤٨) المرجع السابق ، ص ٦٤٩ .
(٤٩) المرجع السابق ص ٥٥٩ .
(٥٠) آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا اليومية ، ص ٧١ .
(٥١) محاضرات الدكتور حازم عطية الله .
(٥٢) مصر ورسالتها ، ص ٤٤ .
(٥٣) المرجع السابق ، ص ٤٤ .
(٥٤) المرجع السابق ، ص ٤٥ .
(٥٥) المرجع السابق ، ص ٤٦ .
(٥٦) ديانة مصر القديمة ، ص ٥٧ .
(٥٧) تاريخ القانون المصرى ، ص ٤١ .
(٥٨) ديانة مصر القديمة ، ص ٧٠ .
(٥٩) المجمل فى تاريخ القانون المصرى ، ص ٩ .
(٦٠) علم النفس وقضايا العصر ، ص ٣٠٣ .
(٦١) موسوعة حكام مصر ، ص ٨ .
(٦٢) أبعاد الشخصية المصرية ، ص ٣٧ .
(٦٣) المرجع السابق ، ص ٩٤ .
(٦٤) الموجز فى علم الآثار ، ص ١١ .
(٦٥) مصر القديمة ، الجزء الرابع ، ص (ق) .
(٦٦) مصر تحت ظلال الفراعنة ، ص ٢٤ وما بعدها .
(٦٧) المرجع السابق ص ٢٤ وما بعدها .
(٦٨) مصر القديمة ، الجزء السابع عشر ، ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٦٩) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٧٠) المرجع السابق ، ص ٢٠٨ وما بعدها .

(٧١) مصر القديمة : الجزء الأول ، ص ٤١١ .

(٧٢) مصر القديمة : الجزء الثانى ، ص ١٤ .

(٧٣) الحكم والأمثال ، ص ٥٢ وحتى ص ٥٥ .

(٧٤) المرجع السابق ، صفحات ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ .

(٧٥) المرجع السابق ، ص ٥٥ حتى ص ٥٧ .

(٧٦) المرجع السابق ، ص ٥٥ ـ ٥٧ .

(٧٧) المرجع السابق ، ص ٥٧ .

(★) كان الناس يوضعون التمائم على الأسرة أو الجدران لحمايتهم من الأرواح الشريرة مثلما نجد الآن بعض العامة من الناس الذين يعلقون « خمسة وخميسة » من الأحجبة .

(٧٨) معـالم تاريخ حضارة مصر الفرعونية ، ص ١٦٠ .

(٧٩) الديانة المصرية القديمة ص ٢٧١ .

(٨٠) حكمة المصريين ، ص ٢٣٩ .

(٨١) تاريخ القانون المصرى ، ص ٤٨ .

(٨٢) المرجع السابق ، ص ٤٩ .

(٨٣) مصر القديمة ـ الجزء الأول ، ص ٣٩٩ .

(٨٤) المرجع السابق ، ص ٤٠٣ .

(٨٥) مصر القديمة ـ الجزء الثالث ، ص ٥٢٠ .

(٨٦) فجر الضمير ، ص ٩٧ .

(★) به تعاويذ سحرية محضة تدل على المساواة الدينية بين أفراد الشعب على اختلاف طبقاتهم دون فرق بين قائد جيش وامرأة متوسطة الحال .

(٨٧) المرجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٨٨) المرجع السابق ، ص ١٢٧ .

(٨٩) مصر القديمة ، العدد ١٧ ، من صفحة ٢٨٢ حتى ٢٨٩ .

(٩٠) المرجع السابق من صفحة ٢٨٢ حتى ٢٨٩ .

(٩١) مصر القديمة ، الجزء ١٨ ، ص ٢٤٤ ، ٢٢٥ .

(★) المعنى : أنك لسن مكان حزن .

(★★) لابد أنه أخذ أفراد أسرة « أنتف » فى أوائل الدولة الوسطى .

(★★★) الموت .

(★) الملوك القدماء .

(★★) من أشهر الحكماء .

(★★★) أوزير .

(٩٢) صناع الحضارة ، ص ٤٧ ٠

(٩٣) المرجع السابق ، ص ٤٨ ٠

(٩٤) المرجع السابق ، ص ٧٤ ٠

(٩٥) المرجع السابق ، ص ٨٠ ، ٨١ ٠

(٩٦) الحياة أيام الفراعنة ، ص ٢٧ ٠

(٩٧) المرجع السابق ، ص ٨٦ ، ٨٧ ٠

(٩٨) المرجع السابق ، ص ٨٧ ٠

(٩٩) المرجع السابق ، ص ٨٨ ٠

(١٠٠) المرجع السابق ، ص ٩٠ ٠

(١٠١) المرجع السابق ، ص ٩١ ، ٩٢ ٠

(١٠٢) المرجع السابق ، ص ١٢٢ ٠

(١٠٣) تاريخ الجنون المصرى ، ص ٨٧ ٠

(١٠٤) الحكم والأمثال ، ص ٢٧ ٠

(١٠٥) مصر القديمة ـ الجزء الثانى ، ص ٥٠٤ ٠

(١٠٦) المرجع السابق ، ص ٥٠٥ ٠

(١٠٧) مصر القديمة ، الجزء الرابع ، ص ١١٣ ٠

(١٠٨) الطفل المصرى ، ص ١٠٦ ٠

(١٠٩) المرجع السابق ، ص ١٠٧ ٠

(١١٠) المرجع السابق ، ص ١٠٨ ٠

(١١١) الطفولة والحضارة المصرية رقم الايداع ٨٤ ـ ٧ ـ ٨٥ (مطبعة هيئة الآثار المصرية) ٠

(١١٢) المرجع السابق (لا يوجد ترقيم للصفحات) ٠

(١١٣) المرجع السابق (لا يوجد ترقيم للصفحات) ٠

(١١٤) المرجع السابق (لا يوجد ترقيم للصفحات) ٠

(١١٥) المرجع السابق (لا يوجد ترقيم للصفحات) ٠

(١١٦) الطفل المصرى ، ص ٥٧ ٠

(١١٧) المرجع السابق ، ص ٥٨ ٠

(١١٨) المرجع السابق ، ص ٥٢ ٠

(١١٩) المرجع السابق ، ص ٥١ ٠

(١٢٠) حكمة المصريين ، ص ٧٤ ٠

(١٢١) المرجع السابق ، ص ٧٥ ٠

(١٢٢) المرجع السابق ، ص ٧٦٠

(١٢٣) المرجع السابق ، ص ٧٦ حتى ص ٨٤ ٠

(١٢٤) ديانة مصر القديمة ، ص ٧٠ ٠

(١٢٥) الديانة المصرية القديمة ، ص ٤٧ ٠

(١٢٦) مصر القديمة ، الجزء الحادى عشر ، ص ٨١ ٠

(١٢٧) أسرار الهرم الأكبر ، ص ١٣٧ ٠

(١٢٨) المرجع السابق ، ص ١١٧ ٠

(١٢٩) الديانة المصرية ، ص ٢٤٠ ٠

(١٣٠) الرمز والأسطورة ، ص ٣٣ ٠

(١٣١) المرجع السابق ، ص ٣٤ ٠

(١٣٢) المرجع السابق ، ص ٣٦ ٠

(١٣٣) المرجع السابق ، ص ٣٨ ٠

(١٣٤) المرجع السابق ، ص ٤٠ ٠

(١٣٥) الديانة المصرية القديمة ، ص ٢٧٠ ٠

(١٣٦) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ٠

(١٣٧) المرجع السابق ، ص ٢٣٨ ٠

(١٣٨) المرجع السابق ، ص ٢٤٣ ٠

(١٣٩) المرجع السابق ، ص ٢٣٣ ٠

(١٤٠) فجر الضمير ، ص ٣١١ ٠

(١٤١) المرجع السابق ، ص ٣٠١ ٠

(١٤٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٣ ـ ٣٠٤ ٠

(١٤٣) المرجع السابق ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ ٠

(١٤٤) المرجع السابق ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ ٠

(١٤٥) الرمز والأسطورة ، ص ٣٤ ٠

(١٤٦) فجر الضمير ، ص ٣١٣ ٠

(١٤٧) المرجع السابق ، ص ٣١٤ ٠

(١٤٨) المرجع السابق ، ص ٣١٥ ٠

(١٤٩) المرجع السابق ، ص ٣١٩ ٠

(١٥٠) المرجع السابق ، ص ٣٢٠ ٠

(١٥١) المرجع السابق ، ص ٣٢٢ ٠

(١٥٢) المرجع السابق ، ص ٣٣٤ ٠

(١٥٣) المرجع السابق ، ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ ٠

(١٥٤) المرجع السابق ، ص ٣٣٥ ٠

(١٥٥) المرجع السابق ، ص ٣٣٨ ٠

(١٥٦) المرجع السابق ، ص ٣٢٩ ٠

(١٥٧) شخصية مصر ـ الجزء الثانى ، ص ٤٢٨ ٠

(١٥٨) معجم الحضارة المصرية القديمة ، ص ٥٢ ٠

(١٥٩) المجمل فى تاريخ القانون المصرى ، ص ١١ ٠

(١٦٠) المرجع السابق ، ص ١٠٩ ٠

(١٦١) تفسير كتاب ما هو كائن فى العالم الآخر ، ص ١٠

(١٦٢) الرمز والأسطورة ص ٩٥ ٠

(١٦٣) المرجع السابق ، ص ٧٦ ٠

(١٦٤) مصر القديمة ، الجزء الأول ، ص ٢٦١ ٠
(١٦٥) المرجع السابق ، ص ٢٦٤ ٠
(١٦٦) حكمة المصريين ، ص ٥١ ، ٥٢ ٠
(١٦٧) مصر الفراعنة ، ص ١٣٧ ٠
(١٦٨) أمى دوات ، ص ١٠ ٠
(١٦٩) مصر القديمة ، الجزء الثالث ، ص ٥٣٠ ٠
(١٧٠) المرجع السابق ، ص ٥٣١ ٠
(١٧١) مصر القديمة ، الجزء الثامن عشر ، ص ٩٥ ٠
(١٧٢) المرجع السابق ، ص ٩٧ ٠
(١٧٣) المرجع السابق ، ص ١٠٥ ٠
(١٧٤) المرجع السابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ ٠
(١٧٥) المرجع السابق ، ص ١٠٨ ٠
(١٧٦) الرمز والأسطورة ، ص ٦٦ ٠
(١٧٧) مصر القديمة ، الجزء ١٧ ، ص ٢٨٤ وما بعدها ٠
(١٧٨) المرجع السابق ، ص ٢٨٥ وما بعدها ٠
(١٧٩) المرجع السابق ، ص ٢٨٧ ٠
(١٨٠) المرجع السابق ، ص ٢٨٨ ٠
(١٨١) المرجع السابق ، ص ٢٨٩ ٠
(١٨٢) مصر القديمة ، العدد ، ١٨ ، ص ٢٢٤ ٠
(١٨٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٥ ٠
(١٨٤) مصر القديمة ، الجزء الأول ، ص ٤٠٣ ٠
(١٨٥) الحكم والأمثال والنصائح ، ص ١٢ ٠
(١٨٦) المرجع السابق ، ص ٦٥ ٠
(١٨٧) المرجع السابق من ص ٨٠ حتى ص ٨٢ ٠
(١٨٨) المرجع السابق ، ص ٩٠ ٠
(١٨٩) الديانة المصرية ، ص ٢٣٢ ٠
(١٩٠) المرجع السابق ، ص ٢٣٣ ٠
(١٩١) المرجع السابق ، ص ٢٣٤ ٠
(١٩٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ ٠
(١٩٣) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ ٠
(١٩٤) المرجع السابق ، ص ٢٣٨ ٠
(١٩٥) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ ٠
(١٩٦) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ ٠
(١٩٧) المرجع السابق ، ص ٢٤٣ ٠
(١٩٨) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ ٠
(١٩٩) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ٠

(٢٠٠) المرجع السابق ، ص ٢٦٠ .
(٢٠١) المرجع السابق ، ص ٢٥٠ .
(٢٠٢) المرجع السابق ، ص ٢٢٩ .
(٢٠٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٤ .
(٢٠٤) المرجع السابق ، ص ٢٢٥ .
(٢٠٥) المرجع السابق ، ص ٢٣٥ .
(٢٠٦) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .
(٢٠٧) المرجع السابق ، ص ٢٣٦ .
(٢٠٨) المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .
(٢٠٩) المرجع السابق ، ص ٢٣٨ .
(٢١٠) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ .
(٢١١) المرجع السابق ، ص ٢٤٠
(٢١٢) المرجع السابق ، ص ٢٤١ .
(٢١٣) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .
(٢١٤) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .
(٢١٥) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .
(٢١٦) المرجع السابق ، ص ٢٤٣ .
(٢١٧) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .
(٢١٨) المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .
(٢١٩) المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .
(٢٢٠) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .
(٢٢١) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .
(٢٢٢) فجر الضمير ص ١٢٠ وما بعدها .
(٢٢٣) المرجع السابق ، ص ١٢١ .
(٢٢٤) مصر القديمة ـ الجزء الثالث ، ص ٥٢٠ .
(٢٢٥) المرجع السابق ، ص ٥٢٢ .
(٢٢٦) الرمز والأسطورة ، ص ٢٦٠ .
(٢٢٧) صناع الخلود ، ص ١٠١ .
(٢٢٨) المجمل فى تاريخ القانون المصرى ، ص ١٠٩ .
(٢٢٩) ديانة مصر القديمة ، ص ٢ .
(٢٣٠) فجر الضمير ، ص ١٠ .
(٢٣١) الخلود فى التراث الثقافى ، ص ٦٠ .
(٢٣٢) المرجع السابق ، ص ٦١ .
(٢٣٣) حكمة المصريين ، ص ١٠٣ .
(٢٣٤) المرجع السابق ، ص ١٠٤ .
(٢٣٥) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٢٣٦) الرمز والأسطورة ، ص ١٥٣ وما بعدها .
(٢٣٧) الرمز والأسطورة ، ص ١٥٤
(٢٣٨) ديانة مصر القديمة ، ص ٣٠٢ .
(٢٣٩) مصر القديمة الجزء السادس ، ص ٢١٣ ، ص ٢١٤ .
(٢٤٠) الديانة المصرية القديمة ، ص ٢٧٧ ، ٢٧٨ .
(٢٤١) ديانة مصر القديمة ، ص ١٤٢ .
(٢٤٢) المرجع السابق ، ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
(٢٤٣) المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .
(٢٤٤) فجر الضمير ص ٦٥ .
(٢٤٥) المرجع السابق ، ص ٦٧ .
(٢٤٦) الخلود فى التراث الثقافى ، ص ٦٥ .
(٢٤٧) المرجع السابق ، ص ٦٢ .
(٢٤٨) المرجع السابق ، ص ٦٦ .
(٢٤٩) مصر القديمة ـ الجزء الثالث ، ص ٥٣٠ .
(٢٥٠) ديانة مصر القديمة ، ص ٢٣٩ .
(٢٥١) المرجع السابق ، ص ٢٦٠ .
(٢٥٢) مصر القديمة ـ الجزء الثالث ، ص ٥٢٧ .
(٢٥٣) المرجع السابق ، ص ٥٣٥ .
(٢٥٤) معجم الحضارة المصرية القديمة ، ص ٣٣٦ .
(٢٥٥) المرجع السابق ، ص ٣٣٧ .
(٢٥٦) ديانة مصر القديمة ، ص ١١ .
(٢٥٧) المفهوم الحديث للمكان والزمان (١٩٩٨) ، ص ٢٤٤ .
(٢٥٨) المرجع السابق ، ص ٢٤٥ .
(٢٥٩) المرجع السابق ، ص ٢٤٢ .
(٢٦٠) الرمز والأسطورة ، ص ٣ .
(٢٦١) المفهوم الحديث ، ص ١٦١ .
(٢٦٢) الرمز والأسطورة ، ص ٣٢ .
(٢٦٣) المرجع السابق ، ص ٣٣ .
(٢٦٤) المرجع السابق ، ص ٣٣ .
(٢٦٥) الموسوعة الأثرية العالمية ، ص ٤٠ .
(٢٦٦) المرجع السابق ، ص ٤٠ ، ٤١ .
(٢٦٧) الفن وعالم الرمز ، ص ٤٩ .
(٢٦٨) المرجع السابق ، ص ٣٧ .
(٢٦٩) الخلود فى التراث الثقافى ، ص ١٢ .
(٢٧٠) المفهوم التراجيدى فى الدراما الحديثة ، ص ٥٠ .

(٢٧١) المرجع السابق ، ص ٥٠ .
(٢٧٢) الفن وعالم الرمز ، ص ٤٤ .
(٢٧٣) المرجع السابق ، ص ٤٥ .
(٢٧٤) المرجع السابق ، ص ٤٩ .
(٢٧٥) المرجع السابق ، ص ٤٥ .
(٢٧٦) المرجع السابق ، ص ٤٥ ـ ٤٦ .
(٢٧٧) المرجع السابق ، ص ١٤٨ .
(٢٧٨) المرجع السابق من ص ٢٥٦ حتى ص ٢٦٠ .
(٢٧٩) مصر القديمة ، الجزء الثامن عشر ، ص ٥٦ .
(٢٨٠) المرجع السابق ، ص ٦١ .
(٢٨١) المرجع السابق ، ص ٦٣ .
(٢٨٢) المرجع السابق ، ص ٦٤ .
(٢٨٣) الديانة المصرية القديمة ، ص ٢٧١ .
(٢٨٤) مصر القديمة ـ الجزء الثامن عشر ، ص ٦٤ .
(٢٨٥) المرجع السابق ، ص ٦٥ .
(٢٨٦) المرجع السابق ، ص ٧٢ .
(٢٨٧) المرجع السابق ص ٧٢ .
(٢٨٨) المرجع السابق ، ص ٨١ .
(٢٨٩) المرجع السابق ، ص ٨٢ ، ٨٣ .
(٢٩٠) المرجع السابق ، ص ٦٨٨ .
(٢٩١) مصر القديمة ، الجزء السادس ، ص ٦٩٦ .
(٢٩٢) مصر القديمة ، الجزء السادس ، ص ٧٠٣ .
(٢٩٣) المرجع السابق ، ص ٧٠٤ .
(٢٩٤) المرجع السابق ، ص ٧٠٥ .
(٢٩٥) المرجع السابق ، ص ٧٠٥ .
(٢٩٦) المرجع السابق ، ص ٧١٣ .
(٢٩٧) مصر تحت ظلال الفراعنة ، ص ٤٨٣ ، ٤٨٤ .
(٢٩٨) المرجع السابق ، ص ٤٨٤ حتى ص ٤٨٩ .
(٢٩٩) المرجع السابق ، من ص ٤٨٤ حتى ص ٤٨٩ .
(٣٠٠) امى دوات : (فقرات من الكتاب) .
(٣٠١) تفسير كتاب ماهو كائن فى العـالم الاخر ، ص ١٣٨ .
(٣٠٢) مصر القديمة ، الجزء السابع عشر ، ص ٧١ وما بعدها .
(٣٠٣) المرجع السابق ، ص ٧٢ .
(٣٠٤) المرجع السابق ، ص ٧٢ .
(٣٠٥) المرجع السابق ، ص ٧٢ .
(٣٠٦) المرجع السابق ، ص ٧٢ .
(٣٠٧) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٣٠٨) المرجع السابق ، ص ٧٣ ٠
(٣٠٩) المرجع السابق ، ص ٧٤ ٠
(٣١٠) المرجع السابق ، ص ٧٤ ٠
(٣١١) الرمز والأسطورة ، ص ٤٩ ٠
(٣١٢) المرجع السابق ، ص ٥٢ ٠
(٣١٣) ديانة مصر القديمة ، ص ٧ ٠
(٣١٤) المرجع السابق ، ص ٨١ ٠
(٣١٥) المرجع السابق ، ص ٤٩ ٠
(٣١٦) المرجع السابق ، ص ٤٩ ، ٥٠ ٠
(٣١٧) المرجع السابق ، ص ٥٠ ٠
(٣١٨) المرجع السابق ، ص ١٤٣ ٠
(٣١٩) المرجع السابق ، ص ١٤٤ ٠
(٣٢٠) المرجع السابق ، ص ٨٤ ٠
(٣٢١) المرجع السابق ، ص ٨٥ ٠
(٣٢٢) المرجع السابق ، ص ٨٩ ٠
(٣٢٣) المرجع السابق ، ص ١٥٤ ٠
(٣٢٤) الموسوعة ، ص ٥٨٢ ٠
(٣٢٥) ديانة مصر القديمة ، ص ٢٣٨ ٠
(٣٢٦) مصر القديمة ، الجزء الأول ، ص ٢١٤ ٠
(٣٢٧) مصر القديمة الجزء ١٨ ، ص ٢٢٥ ٠
(٣٢٨) مصر القديمة ، الجزء الأول ، ص ٢١٦ ٠
(٣٢٩) المرجع السابق ، ص ٢١٧ ٠
(٣٣٠) المرجع السابق ، ص ٢١٩ ٠
(٣٣١) المرجع السابق ، ص ٢٢١ ٠
(٣٣٢) المرجع السابق ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ٠
(٣٣٣) المرجع السابق ، ص ٢٢٥ ٠
(٣٣٤) المرجع السابق ، ص ٢٢٦ ٠
(٣٣٥) المرجع السابق ، ص ٢٤٠ ٠
(٣٣٦) كنوز الفراعنة ، ص ١٠٥
(٣٣٧) المرجع السابق ، ص ١٠٦ ٠
(٣٣٨) الخلود فى التراث الثقافى ، ص ١٤٥ ٠
(٣٣٩) أسرار الهرم الأكبر ، ص ١٣٩ ٠
(٣٤٠) معجم الحضارة المصرية القديمة ، ص ٢٥٥ ٠
(٣٤١) موجز تاريخ القانون المصرى ، ص ٦١ ٠
(٣٤٢) المرجع السابق ، ص ٦٢ ٠
(٣٤٣) المجمل فى تاريخ القانون المصرى ، ص ٣٨ ٠
(٣٤٤) المجمل فى تاريخ القانون المصرى ، ص ٥٢ ٠

(٣٤٥) الرمز والأسطورة ، ص ١٧١ ٠
(٣٤٦) المرجع السابق ، ص ١٧٢ ٠
(٣٤٧) المرجع السابق ، ص ٢٢٩ ٠
(٣٤٨) المرجع السابق ، ص ٢٣٠ ٠
(٣٤٩) المجمل فى تاريخ القانون المصرى ، ص ٤٧ ٠
(٣٥٠) المرجع السابق ، ص ٤٧ ٠
(٣٥١) المرجع السابق ، ص ٤٨ ٠
(٣٥٢) المرجع السابق ، ص ٤٨ ، ٤٩ ٠
(٣٥٣) المرجع السابق ، ص ٥٠ ٠
(٣٥٤) المرجع السابق ، ص ٥١ ٠
(٣٥٥) المرجع السابق ، ص ٥٤ ٠
(٣٥٦) المرجع السابق ، ص ٧١ ٠
(٣٥٧) المرجع السابق ، ص ٨٢ ٠٠
(٣٥٨) المرجع السابق ، ص ٨٣ ٠
(٣٥٩) المرجع السابق ، ص ٢٦ ٠
(٣٦٠) المرجع السابق ، ص ٣٤ ٠
(٣٦١) مصر الفراعنة ، ص ٢٠٤ ٠
(٣٦٢) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ ٠
(٣٦٣) الحياة أيام الفراعنة ، ص ٤٠ ٠
(٣٦٤) المرجع السابق ص ٤١ ٠
(٣٦٥) المرجع السابق ، ص ٤٢ ٠
(٣٦٦) المرجع السابق ، ص ٤٥ ٠
(٣٦٧) مصر القديمة ، الجزء الأول ، ص ٤١١ ٠
(٣٦٨) مصر القديمة ، الجزء الثانى ، ص ١٤ ٠
(٣٦٩) المرجع السابق ، ص ٦٥٠
(٣٧٠) مصر القديمة ، الجزء الثالث ، ص ١٨٦ ٠
(٣٧١) المرجع السابق ، ص ٤٥٩ ٠
(٣٧٢) المرجع السابق ، ص ٤٦٠ ٠
(٣٧٣) مصر القديمة ، الجزء الرابع ، ص ٥٦٧ ٠
(٣٧٤) المرجع السابق ، ص ٦٣٣ ٠
(٣٧٥) مصر القديمة ، الجزء الخامس ، ص ١٤٩ ٠
(٣٧٦) موجز تاريخ القانون المصرى ، ص ٦٤ ٠
(٣٧٧) ضاع الخلود ، ص ١٣٤ ٠
(٣٧٨) المجمل فى تاريخ القانون المصرى ، ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ٠
(٣٧٩) موجز تاريخ القانون المصرى ، ص ٧٥ وما بعدها ٠

(٣٨٠) المرجع السابق ، ص ٧٨ ٠
(٣٨١) المرجع السابق ، ص ٧٨ ٠
(٣٨٢) ضاع الخلود ، ص ١٢٤ ٠
(٣٨٣) تاريخ القانون المصرى ، ص ٧٩ ٠
(٣٨٤) المرجع السابق ، ص ٨٠ ٠
(٣٨٥) المرجع السابق ، ص ٨٠ ، ٨١ ٠
(٣٨٦) المرجع السابق ، ص ٨١ ـ ٨٢ ٠
(٣٨٧) المرجع السابق ، ص ٨٣ ٠
(٣٨٨) تاريخ القانون المصرى ، ص ٥١ ٠
(٣٨٩) المرجع السابق ، ص ٥٢ ٠
(٣٩٠) المرجع السابق ، ص ٥٤ ٠
(٣٩١) المرجع السابق ، ص ٥٤ ـ ٥٥ ٠
(٣٩٢) المرجع السابق ، ص ٨٨ ٠
(٣٩٣) المرجع السابق ، ص ٩٢ ، ص ١٩٩ ٠
(٣٩٤) المرجع السابق ، ص ١٢٢ ٠
(٣٩٥) المرجع السابق ، ص ١٢٣ ٠
(٣٩٦) المرجع السابق ، ص ١٢٤ ٠
(٣٩٧) المرجع السابق ، ص ١٢٥ ٠
(٣٩٨) المرجع السابق ، ص ١٢٨ ٠
(٣٩٩) المرجع السابق ، ص ١٣٠ ٠
(٤٠٠) المرجع السابق ، ص ١٣٢ ٠
(٤٠١) المرجع السابق ، ص ١٣٤ ٠
(٤٠٢) المرجع السابق ، ص ١٣٨ ٠
(٤٠٣) المرجع السابق ص ١٤٠ ٠
(٤٠٤) المرجع ، ص ١٨٩ ٠
(٤٠٥) المرجع السابق ، ص ١٥٨ ٠
(٤٠٦) المرجع السابق ، ص ١٦٦ ٠
(٤٠٧) المرجع السابق ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ ٠
(٤٠٨) المرجع السابق ، ص ١٨٣ ٠
(٤٠٩) المرجع السابق ، ص ١٨٥ ٠
(٤١٠) المرجع السابق ، ص ١٨٦ ٠
(٤١١) المرجع السابق ، ص ١٨٧ ٠
(٤١٢) المرجع السابق ، ص ١٨٨ ٠
(٤١٣) المرجع السابق ، ص ١٨٩ ٠
(٤١٤) المرجع السابق ، ص ١٨٩ ٠
(٤١٥) المرجع السابق ، ص ١٩٠ ٠
(٤١٦) المرجع السابق ، ص ١٩٠ ـ ١٩١ ٠

(٤١٧) المرجع السابق ، ص ١٩١ ٠
(٤١٨) المرجع السابق ، ص ١٩١ ٠
(٤١٩) المرجع السابق ، ص ١٩٢ ٠
(٤٢٠) الحياة أيام الفراعنة ، ص ٧٦ ٠
(٤٢١) المرجع السابق ، ص ٨١ ٠
(٤٢٢) المجمل فى تاريخ القانون المصري ، ص ١٠١ ٠
(٤٢٣) المرجع السابق ، ص ١٠١ ، ١٠٢ ٠
(٤٢٤) معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية ، ص ٢٧ ٠
(٤٢٥) تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر الفرعوني ص ٨٠ ٠
(٤٢٦) أسرار الهرم الاكبر ، ص ٥٠ ـ ٥١ ٠
(٤٢٧) تاريخ الطب والصيدلة المصرية في العصر الفرعوني ، ص ٣٨ ٠
(٤٢٨) المرجع السابق ، ص ٣٦ ٠
(٤٢٩) أسرار الهرم الاكبر ، ص ١٨٧ ٠
(٤٣٠) المرجع السابق ، ص ١٧٨ ٠
(٤٣١) المرجع السابق ، ص ١٧٩ ٠
(٤٣٢) المرجع السابق ، ص ١٨١ ٠
(٤٣٣) المرجع السابق ، ص ١٨١ ٠
(٤٣٤) المرجع السابق ، ص ١٨٣ ٠
(٤٣٥) المرجع السابق ، ص ١٨٥ ٠
(٤٣٦) المرجع السابق ، ص ١٨٥ ٠
(٤٣٧) المرجع السابق ، ص ١٨٥ ٠
(٤٣٨) فجر الضمير ، ص ٢٩٩ ٠
(٤٣٩) صناع الخلود ، ص ١٠١ ٠
(٤٤٠) تاريخ الطب والصيدلة المصرية فى العصر الفرعونى ، ص ٤٢ ٠
(٤٤١) المرجع السابق ، ص ٤٣ ٠
(٤٤٢) ديانة مصر القديمة ، ص ١٢ ٠
(٤٤٣) الأهرامات المصرية ، ص ٣٢ ٠
(٤٤٤) المرجع السابق ، ص ٣٣ ٠
(٤٤٥) مصر القديمة الجزء الثانى ، ص ١٢ ٠
(٤٤٦) مصر القديمة الجزء الخامس ، ص ٦٣٠ ٠
(٤٤٧) المرجع السابق ، ص ٦٣٠ ٠
(٤٤٨) المرجع السابق ، ص ٦٣١ ٠
(٤٤٩) الديانة المصرية ، ص ١٤٩ ٠
(٤٥٠) المرجع السابق ، ص ١٥٨ ٠
(٤٥١) المرجع السابق ، ص ١٦٠ ٠
(٤٥٢) المرجع السابق ، ص ١٦٦ ٠
(٤٥٣) كنوز الفراعنة ، ص ١٤٢ ٠

(٤٥٤) الرمز والأسطورة ، ص ١٤٠ .

(٤٥٥) حكمة المصريين ، ص ٤٤

(٤٥٦) قصة العلم ، ص ١٣ .

(٤٥٧) المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٤٥٨) المرجع السابق ، ص ١٦ .

(٤٥٩) المرجع السابق ، ص ٢٢ .

(٤٦٠) لمحات فى تاريخ العمارة المصرية ، ص ج .

(٤٦١) المرجع السابق ، ص ١٣ .

(٤٦٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٤٦٣) قصة العلم ، ص ٢٣ .

(٤٦٤) العمارة فى مصر القديمة ، ص ١٦ .

(٤٦٥) مصر ورسالتها ، ص ٤٧ .

(٤٦٦) قصة العلم . ص ٢٤ .

(٤٦٧) مصر تحت ظلال الفراعنة ، ص ٣٤٦ .

(٤٦٨) المرجع السابق ، ص ٣٥٢ .

(٤٦٩) تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ص ٩٠ وما بعدها .

(٤٧٠) المرجع السابق ، ص ٩٤ .

(٤٧١) قصة العلم ، ص ٢٥ .

(٤٧٢) تاريخ الطب والصيدلة المصرية ، ص ٩٩ .

(٤٧٣) المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٤٧٤) مصر القديمة ، الجزء الثانى ، ص ١٢٧ .

(٤٧٥) حكمة المصريين ، ص ٧٩ .

(٤٧٦) المرجع السابق ، ص ٧٢ .

(٤٧٧) تأليف وليم بيك وترجمة مختار السويفى ، (١٩٨٧) .

(٤٧٨) المرجع السابق ، ص ٢ .

(٤٧٩) المرجع السابق ، ص ٣ .

(٤٨٠) المرجع السابق ، ص ٤ .

(٤٨١) المرجع السابق ، ص ٦ .

(٤٨٢) المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٤٨٣) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٤٨٤) المرجع السابق ، ص ٤٦ .

(٤٨٥) المرجع السابق ، ص ٨٣ .

(٤٨٦) المرجع السابق ، ص ٨٧ .

(٤٨٧) المرجع السابق ، ص ٤٩

(٤٨٨) مصر تحت ظلال الفراعنة ، ص ٣٨٥ وما بعدها .

(٤٨٩) مصر تحت ظلال الفراعنة ، ص ٣٨٥ حتى ص ٣٩٨ .

(٤٩٠) مصر تحت ظلال الفراعنة ، ص ٣٩٩ حتى ص ٤٠٥ .

(٤٩١) المرجع السابق ، ص ٤٠٦ ·

(٤٩٢) المرجع السابق ص ٤٠٦ حتى ٤٠٩ ·

(٤٩٣) المرجع السابق ، ص ٤١٠ حتى ص ٤١٢ ·

(٤٩٤) المرجع السابق من ص ٤١٢ حتى ص ٤١٧

(٤٩٥) المرجع السابق من ص ٤١٢ حتى ص ٤١٧ ·

(٤٩٦) مصر القديمة ، الجزء الثالث ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ ·

(٤٩٧) مصر القديمة ، الجزء الثاني ، ص ٤٣٦ وحتى ص ٤٤٨ ·

(٤٩٨) المرجع السابق ، ص ٤٤٤ ·

(٤٩٩) المرجع السابق ، ص ٤٤٦ ·

(٥٠٠) المرجع السابق ، ص ٤٤٨ ·

(٥٠١) فجر الضمير ، ص ١٩٧ ·

(٥٠٢) المرجع السابق ، ص ١٩٩ ·

(٥٠٣) المرجع السابق ص ٢٠١ ·

(٥٠٤) المرجع السابق ، ص ١٣٤ ·

(٥٠٥) المرجع السابق ، ص ١٣٥ ·

(٥٠٦) المرجع السابق ، ص ٨ ·

(٥٠٧) المرجع السابق ص ٩ ·

(٥٠٨) المرجع السابق ، ص ١٠ ·

(٥٠٩) مصر القديمة ، الجزء السابع عشر ، ص ٥ ، ٦

(٥١٠) المرجع السابق ، ص ١٢٧ ·

(٥١١) المرجع السابق ، ص ١١ ·

(٥١٢) المرجع السابق ، ص ٣٠ ·

(٥١٣) المرجع السابق ، ص ٨٧ ·

(٥١٤) المرجع السابق ، ص ٨٨ ·

(٥١٥) المجمل فى القانون المصرى ، ص ١١١ ·

(٥١٦) المرجع السابق ، ص ١١٣ ·

(٥١٧) المرجع السابق ، ص ٩٨ ·

(٥١٨) المرجع السابق ، ص ٢٢ ·

(٥١٩) المرجع السابق ، ص ١١ ·

(٥٢٠) حكمة المصريين ، ص ١٩١ ·

(٥٢١) ضاع الخلود ، ص ٩١ ــ ٩٢ ·

(٥٢٢) المرجع السابق ، ص ١٠١ ·

(٥٢٣) المرجع السابق ، ص ١١٨ ·

(٥٢٤) المرجع السابق ، ص ١١٩ ·

(٥٢٥) المرجع السابق ، ص ٦٠ ، ٧٠

(٥٢٦) المرجع السابق ، ص ٥٠ ·

(٥٢٧) مصر ورسالتها ص ٧ ، ٨ .

(٥٢٨) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(٥٢٩) عندما حكمت مصر الشرق .

(٥٣٠) فجر الضمير ، ص ٤٤٧ .

(٥٣١) فجر الضمير ، ص ١٢ .

(٥٣٢) المرجع السابق ، ص ١٤ .

(٥٣٣) مقدمة كتاب الديانة المصرية القديمة، ص (هـ) .

(٥٣٤) ديانة مصر القديمة ، ص ١٢ .

(٥٣٥) أسرار الهرم الأكبر ، ص ١٤٢ ــ ١٤٣

(٥٣٦) المرجع السابق ، ص ١٤٤ .

(٥٣٧) المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

(٥٣٨) أسرار الهرم الأكبر ، ص ١٣٤ .

(٥٣٩) ديانة قدماء المصريين ، ص ٤٦٥ حتى ص ٤٨٩

(٥٤٠) المرجع السابق ، ص ٤٦٥ .

(٥٤١) المرجع السابق ، ص ٤٦٧ .

(٥٤٢) المرجع السابق ، ص ٤٦٧ .

(٥٤٣) المرجع السابق ، ص ٤٦٩ .

(٥٤٤) المرجع السابق ، ص ٤٨٤ .

(٥٤٥) المرجع السابق ، ص ٤٨٥ .

(٥٤٦) المرجع السابق ، ص ٤٨٧ .

(٥٤٧) المرجع السايق ، ص ٤٨٨ .

(٥٤٨) المرجع السابق ، ص ٤٨٩ .

(٥٤٩) حكمة المصريين ، ص ١١٠ .

(٥٥٠) المرجع السابق ، ص ١١١ .

(٥٥١) حكمة المصريين ، ص ٣٦ .

(٥٥٢) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٥٥٣) المرجع السابق ، ص ٣٩ .

(٥٥٤) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٥٥٥) حكمة المصريين ، ص ١٤ .

(٥٥٦) المرجع السابق ، ص ٧٩ .

(٥٥٧) آثار حضارة الفراعنة ، ص ١٠ .

(٥٥٨) تاريخ القانون المصرى ، ص ٨٧

(٥٥٩) الحكم والأمثال والنصائح ، ص ٣٧

(٥٦٠) حكمة المصريين ، ص ٧٢ .

(٥٦١) كتاب التربية القوميــة ، ص ١٢ ٠

(٥٦٢) النيل ـ حياة نهر ، ص ٥٢٢ ٠

(٥٦٣) المرجع السابق ، ص ٥٢٣ ٠

(٥٦٤) المرجع السابق ، ص ٥٢٤ ٠

(٥٦٥) المرجع السابق ، ص ٥٣٨ ٠

(٥٦٦) المرجع السابق ، ص ٥٦٤ ٠

(٥٦٧) المرجع السابق ، ص ٦٤٩ ٠

(٥٦٨) مصر القديمة ، الجزء الأول ، ص ٢٤٥ ٠

(٥٦٩) مصر القديمة ، الجزء الأول ، ص ٢٤٦ ٠

(٥٧٠) آثار حضارة الفراعنــة ٠

(٥٧١) تاريخ الطب والصيدلة المصرية فى العصر الفرعونى ، ص ٣١ ٠

(٥٧٢) حكمة المصريين ، ص ١١٠ ٠

(٥٧٣) المرجع السابق ، ص ١١١ ٠

(٥٧٤) قيم من التراث ، ص ٣٠٢ ٠

(٥٧٥) المرجع السابق ، ص ٣٠٣ ٠

(٥٧٦) المرجع السابق ، ص ٣٠٥ ٠

(٥٧٧) مصر القديمة ، الجزء الثانى ، ص ١٤ ٠

(٥٧٨) مصر القديمة ، الجزء الثانى ، ص ٢٨ ٠

(٥٧٩) المرجع السابق ، ص ٤٠ ٠

(٥٨٠) المرجع السابق ، ص ٥٣ ٠

(٥٨١) حكمة المصريين ، ص ٥٦ ٠

(٥٨٢) مصر ورسالتها ، ص ١١٦ ٠

(٥٨٣) المرجع السابق ، ص ١١٧ ٠

الفهـــرس



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٨٣٩/٢٠٠٢

ISBN — 977 — 01 — 0334 — 2